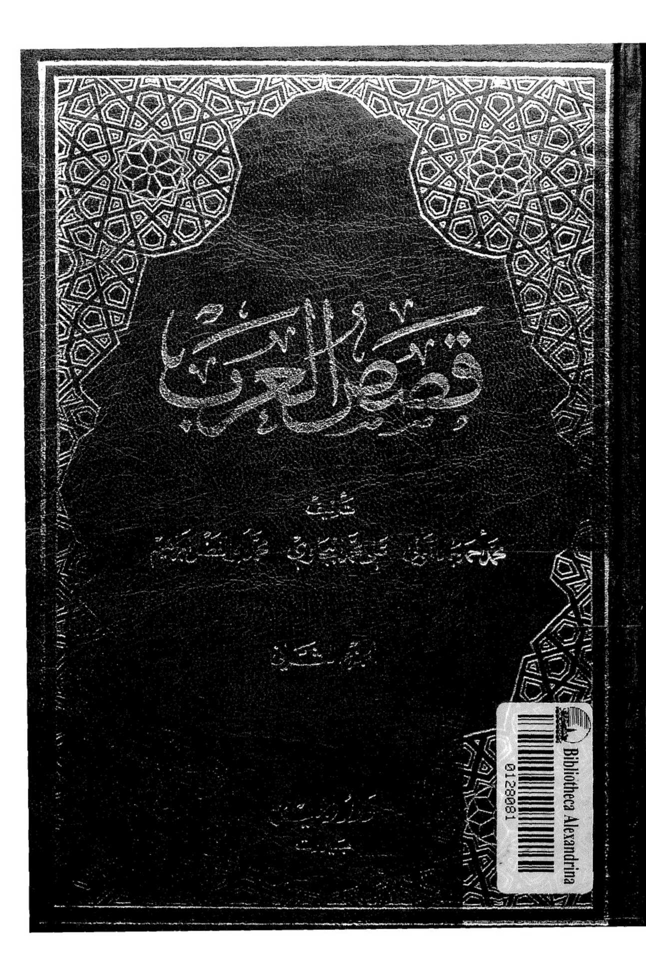

قصص العرب
تأليف
محمد أحمد جاد المولى علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم
الجزء الثاني
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0128081



تأليف

محمد أحمد جاد المولى   علي محمد البجاوي   محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

طبعة جديدة

بها إضافة قصص وفيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق

دار الجيل

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

تُعدُّ القصة أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق ، وتصوير العادات، ورسم خَلَجات النفوس ؛ كما أنها ـ إذا شرف غرضها ، ونبُل مقصدُها ، وكرمت غايتها ـ تُهذّب الطباع، وَتُرَقّق القلوب، وتدفع الناس إلى المُثُل العليا : من الإيمان بالواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار .

وقد كانت القصة ـ ولا تزال ـ ذاتَ الشأن الأسمى فى آداب الأمم قديمها وحديثها ، فقد وردت فى التوراة ، وجاءت فى الإنجيل ، وزخرتْ بها آىُ الذكر الحكيم . ثم هى فى شعر الإغريق ومخلّفاتِ الرومان وآثار المصريين القدماء .

والعرب من الأمم التى أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل ، وأُثِرَ عنها فيضٌ من ذلك الأدب الرفيع ؛ بيد أن بعضاً من الباحثين المحدَثين قد جحدوا نصيبهم من هذا الفن ، وهضموهم حقّهم فى ذلك الباب ، وَوَصَموهم بالخيال العقيم ، وعابوا عليهم الفكر القريب ؛ ولكن المنصفين منهم قد هالهم هذا الجحود ، ولم يرقْهم ذلك النكران، فاعترفوا للعرب بالقصص التى ترجموها عن الفرس والهنود، وتزيّدوا عليها فى القاهرة وبغداد ، وتحدثوا للناس عن قصص عنترة وذات الهمة ، وجلَوْا عجائب ألف ليلة وليلة وأخبار ابن ذِى يَزَن .

وهذه القصص ـ وإن كانت قد نجحت نجاحاً تاما فى تصوير العصور التى وُضِعَتْ فيها، وَرَسَمَتْ لنا البيئة التى نبتت منها ـ كثير منها تافهُ الغرض مُبْهَمُ القصْد، ردىءُ اللغة والأسلوب . وفى قَصْر قصص العرب عليها جَحْدٌ للآداب العربية فضلها ، وإنكار عليها مفاخرها . . . وإلّا فإن هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التى انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ؛ وما مَنَعَ الناس أن يرِدُوا شريعتها، أو يجنوا أطايبها ، إلا ما مُنِيت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، ورديءُ الطبع ، وتحريف الناسخين .

وكتابُنا هذا جمعنا فيه هذه القصص : ما انتبذ منها وما شرَد ، وألّفنا ما تنافر وافترق ، وجعلناه أقساماً ، وقسّمناه أبواباً ، جمعنا كلّ قصة إلى مثلها، وضممنا كل طُرْفة إلى شبْهها ؛ ليجتمع إلى غرض القصة ـ من تهذيب الطباع وترقيق النفوس ـ عَرْضٌ شامل لحياة العرب : مدنيّتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكر لعوائدهم وشمائلهم ، وما طُبِعوا عليه من كريم الغرائز ، وحدة الذكاء ؛ ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أُثِرَ عنهم من أخبارٍ صوّروا بها حبّهم العفيف ، وغزلهم الرقيق ، وعشقهم الشريف ؛ ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات، ومطايبات ومناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك ، وطُرَف القضاة والولاة، وأخبار الأيام والحروب، وغير هذا مما سيعرض مفصّلا فى أبواب الكتاب .

ولم نقف فى اختيار القصة على تعريفٍ خاص ، أو حدّ مرسوم ؛ ففيما اخترناه ما ذكروه من طريف الأخبار وشائق الأحداث ، وما وضعوه مصوِّرين به المجالس والأشخاص، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيّلوه من أخبار الشياطين والجان ؛ إذ كان الغرض تثقيف الأذهان بذكر الطرائف ؛ وانشراح الصدور

بعرض اللطائف مع كشف نواحى التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .

ولعل القارئ يروقه ما تدسَّى فيها من شريف الخصال فيحتذيها ، أو تعجبه كرائم العادات فيطبع نفسه عليها ، إلى ما فى هذا من بعث فصيح الألفاظ ، وإحياء رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة وأسس قويمة لمن يريد أن ينشئ قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من همِّنا أن نحرص على اختيار القصص كما وضعوها ؛ إلا ما كان من زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تغيير لكلمات لا تألفها الآداب ، أو حذف عبارات لا غناء فيها .

ولقد بذلنا من الجهد فى ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعانى ، وتراجم الأشخاص ، وذكر المراجع ما نرجو أن يكون به جَنَى الكتاب قريباً ، ومنهله عذباً ، ووروده سائغاً ، وطريقه سهلًا معبّداً .

ونسأل الله أن ينفع به ؛ على ما صدقنا فى النية ورجونا من الخير ؟

المؤلفون

جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨هـ
يوليه سنة ١٩٣٩م

مقدمة الطبعة الجديدة

هذه هى الطبعة الخامسة من كتابنا « قصص العرب » نقدمه بعد أن نفدت طبعته الرابعة .

وفى هذه الطبعة أضفنا إلى الكتاب بعض القصص الطريفة التى انتخبناها فى أثناء قراءتنا لكتب الأدب والتاريخ . وقد أردنا بذلك أن يكون للكتاب مدد جديد يزيد من رونقه ، ويبقى على جدته .

أما الشرح والضبط فقد زدنا فيه لنقربه إلى القراء جميعا ، ولينهل منه شبابنا وناشئتنا الذين ينشدون المورد الصافى للثقافة العربية ، ويودون لو عرفوا مصادر هذه الثقافة ، وقرءوا من تراثها ما يشبع رغبتهم ، ويقفهم على حياة أسلافهم ، وأمجاد عروبتهم .

والله نسأله التوفيق ، إنه سميع مجيب ؟

شعبان ١٣٩١ هـ
سبتمبر ١٩٧١ م

المؤلفون

الباب الأول

في القصص التي تشرح ما أُثِرَ عنهم من عادات وشمائل في الأسباب الدائرة بينهم ، وتبيّن ما انتهجوه في مواسمهم وأعيادهم وأفراحهم وأعراسهم ، مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل .

١ — شبَّ عَمْرو عن الطَّوْق*

كان جَذِيمة[1] الأبرش ملكُ الحيرة قد جمع غِلْماناً من أبناء الملوك يخدُمُونه ؛ منهم عديٌّ بن نَصْر بن ربيعة اللَّخْمِيّ ، وكان له حظٌّ من الجمال ؛ فقالت له رَقَاشِ أخت جَذِيمة : إذا سَقَيْتَ الملك فَسَكِر فاخْطُبنى إليه ؛ فسقى عديٌّ جَذِيمةَ ليلة ، وألْطفَ له فى الخدمة ، ولما أسرعت الخمرُ فيه ، قال له : سَلْنِي ما أحْبَبْتَ ، فقال : أسألُك أن تزوجنى رَقَاشِ أختَك . قال : ما بها عنك رغبةٌ ، قد فعلت !

فدخل بها، وأصبح فى ثياب جُدُدٍ وطيب . فلما رآه جَذِيمةُ قال:ياعديّ ؛ماهذا الذى أرى ؟ قال : زَوَّجْتَنِي أختك رقاشِ البارحةَ ، قال : ما فعلت ! ثم وضع يده فى التراب ، وجعل يضرب بها وجهه ورأسه ، وأقبل على رَقاش فقال :

حدثيني وأنتِ غيرُ كذوب . أبحُرٍّ زَنَيْتِ أم بهجين
أم بِعَبْدٍ وأنت أهلٌ لعبدٍ أم بدُونٍ وأنت أهلٌ لدون

فأجابته رَقَاش :

أنتَ زَوَّجْتَنِي وما كنتُ أدرى وأتانى النساء للتزيين
ذاك من شُرْبِك المُدَامة صِرْفاً[2] وتماديكَ فى الصِّبا والمجُون[3]

فأطرق جَذِيمة ، فلما رآه عديٌّ قد فعل ذلك خافه على نفسه فهرب منه ، ولحِقَ بقومه وبلاده ، فمات هناك .

---

* الأمثال : ٢ — ٧٥ ، القاموس المحيط — مادة طوق ، بلوغ الأرب : ٢ — ١٧٧ ، المسعودى : ١ — ٧٥

(١) جذيمة الأبرش ثالث ملوك الدولة التنوخية فى العراق ، عاش فى الجاهلية عمراً طويلا، وكان يقال له الوضاح والأبرشَ لبرص فيه، وهو الذى جاء إلى الزباء فقتلته بثأر أبيها (٢) المدامة : الخمر. وصرف : غير ممزوج. (٣) المجون : الهزل .

ثم ولدت رَقاش غلاما ، فسماه جَذيمة عمراً وتبناه ، وأحبّه حبًّا شديداً ـ وكان جذيمة لا يولَد له .

فلما بلغ الغلامُ ثمانى سنين كان يخرج فى عدةٍ من خدم الملك يجتنون له الكَمْأة ، فكانوا إذا وجدوا كمأةً خيارا أكلوها وراحوا بالباقى إلى الملك. وكان عمرو لا يأكلُ مما يجْنى ، ويأتى به جذيمة فيضعه بين يديه ، ويقول :

هذا جَنَاى وخيارُه فيه إذْ كلُّ جانٍ يدُهُ إلى فيه

ثم إنه خرج يوما وعليه ثيابٌ وحَلْىٌ ، فاستُطير وفُقِد زمانًا ، وَضُرِبَ فى الآفاق فلم يوجد ، وأتى على ذلك ما شاء الله .

ثم وجده مالكٌ وعَقيلٌ ابنا فارجٍ ، وهما رجلان كانا متوجهيْن إلى الملك بهدايا وتُحَف ، فبينما هما بوادٍ فى السَّماوَة انتهى إليهما عمرُو بنُ عَدىّ ، وقد عَفَتْ[1] أظفارُه وشَعره ، فقالا له : من أنت ؟ قال : ابنُ التَّنُوخيَّة ؛ فَلَهيَا عنه ، وقالا لجارية معهما : أطعمينا فأطعمتْهما ؛ فأشار عمرو إلى الجارية أن أطعمينى فأطعمته ، ثم سقتْهما ، فقال عمرو : اسقينى . فقالت الجارية : لا تُطعم[2] العبدَ الكُرَاعَ فيَطمع فى الذراع[3] .

ثم إنهما حملاه إلى جَذيمة فعرفه ، ونظر إلى فتى ما شاء من فتى ! فضمَّه وقبَّله وقال لهما : حكِّمَتُكما . فسألاه منادمته ، فلم يزالا نَديمَيْه حتى فرّق الموت بينهم ؛ وبعث عمراً إلى أمه ، فأدخلته الحمّام ، وألبستهُ ثيابه ، وطوّقته طوقًا كان له من ذهب ، فلما رآه جذيمة قال : كَبِرَ عمرو عن الطوق[4] !

---

(١) عفا الشعر وغيره : كثر. (٢) ذهبت مثلا.(٣) الكراع فى البقر والغنم كالوظيف فى الفرس والبعير وهو مستدق الساق . والذراع أفضل من الكراع لأنه فى اليد ، والكراع فى الرجل .
(٤) ذهبت مثلا ، يضرب للابس ما هو دونه .

٢ — الحديث ذو شُجُون*

كان لِضَبَّة بن أُدّ ابنان ؛ يقال لأحدهما سعدٌ وللآخر سُعَيْد ؛ فنفرت إبل لضبَّة تحت الليل ؛ فوجّه ابنيه فى طلبها ؛ فتفرقا . فوجدها سعد ، فردها . ومضى سُعيد فى طلبها ؛ فلقيه الحارث بن كعب — وكان على الغلام بُرْدان — فسأله إياهما ، فأبى عليه ، فقتله ، وأخذ بُرْدَيْهِ .

فكان ضبّة إذا أمسى فرأى تحت الليل سَوَاداً قال : أسعد أم سعيد[1] ؟

فمكث ضبّةُ كذلك ما شاء الله أنْ يمكث . ثم إنه حجّ ؛ فوافى عُكاظ ، فلقى بها الحارثَ بن كعب ؛ ورأى عليه بُرْدَى ابنه سُعيد ، فعرفهما ، فقال : هل أنت مُخْبِرى : ما هذان البردان اللذان عليك ! قال : لقيت غلاماً وهُمَا عليه ؛ فسألته إياهما فأبى علىّ فقتلته ؛ وأخذْتُ بُرْديه هذين.

فقال ضبَّة : بسيفك هذا ؟ قال : نعم ! فقال : فأعطنيه أنظر إليه فإنى أظنُّه صارماً ، فأعطاه الحارثُ سيفَه ، فلما أخذه من يده هزّه ، وقال : الحديث[2] ذو شُجون ؛ ثم ضربه بِهِ حتى قتله ؛ فقيل له : يا ضبَّة ؛ أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيفُ العذَل[3] !

---

* اللسان — مادة شجن ؛ أمثال الميداني : — ١٨٠

(١) ذهبت مثلا، ويضرب فى النجاح والخيبة . (٢) ذهبت مثلا . (٣) العذل : اللوم .

٣ — جَوِّعْ كَلْبَكَ يَتْبَعكَ*

كان أحدُ ملوكِ حِمْير عنيفاً على أهل مملكته، يَغْصِبُهم أموالهم، ويَسلُبهم ما فى أيديهم، وكانت الكهنة تخبره أنهم سيقتلونه، فلا يحفل بذلك .

وسمعت امرأته أصواتَ السُّؤّال؛ فقالت: إنى لأرحمُ هؤلاء؛ لما يلقوْن من الجهدِ، ونحن فى العيش الرغد، وإنى لأخاف عليك أن يصيروا سِباعاً، وقد كانوا لنا أتْبَاعاً؛ فردّ عليها وقال: جَوِّع كلْبك يتبعك[1] !

فلبث بذلك زماناً، ثم أغزاهم، فغنموا، ولم يقسم فيهم شيئاً، فلما خرجوا من عنده قالوا لأخيه — وهو أميرهم: قد ترى ما نحنُ فيه من الجهد، ونحنُ نكره خروجَ المُلْكِ منكم — أهلَ البيت — إلى غيركم؛ فساعدْنا على قتل أخيك، واجلِسْ مكانه .

وكان قد عرف بَغْيه واعتداءه عليهم؛ فأجابهم إلى ذلك؛ فوثبوا عليه فقتلوه! فمرّ به عامر بن جَذِيمة — وهو مقتول — وقد سمع بقوله: جَوِّعْ كلبك يتبعك — فقال: ربما أكل الكلبُ مؤدِّبه إذا لم ينل شبَعه!

---

* الأمثال: ١ — ١٥٠

(١) مثل يضرب فى معاشرة اللئام، وما ينبغى أن يعاملوا به .

٤ — عند جهَيْنَة الخبر اليقين*

أحدث الأخنسُ بن كعب فى قومه حَدَثاً ، فخرج هارباً ، فلقيه الحصين بنُ عمرو الكلابي ، فقال له : من أنت ؟ ثَكلتك أمُّك ! فقال له الأخنس : بل مَنْ أنت ثَكلتك أمك ! فردد هذا القول حتى قال الأخنس : أنا الأخنس بنُ كعب، فأخبرْنى مَنْ أنت ، وإلا أنفذت قلبك بهذا السِّنان . فقال له الحصين : أنا الحصين ابن عمرو الكلابى .

فقال له الأخنس : فما الذى تريد ؟ قال : خرجتُ لِمَا يخرج له الفتيان . قال الأخنس : وأنا خرجتُ لمثل ذلك . فقال له الحصين : هل لك أن نتعاقد ألا نلْقَى أحداً من عشيرتك أو عشيرتى إلا سلبناه[1]؟ قال : نعم . فتعاقدا على ذلك ؛ وكلاهما فاتكٌ يحذَرُ صاحبه !

فلقيا رجلًا فسلباه ، فقال لهما : هل لكما أن تردّا علىّ بعضَ ما أخذتما منى وأدلّكما على مغنم ؟ قالا : نعم . فقال : هذا رجل من لخْم ، قد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير ، وهو خلْفى فى موضع كذا وكذا . فردّا عليه بعضَ ماله ، وطلبا اللّخمى، فوجداه نازلًا فى ظل شجرة وقُدّامه طعام وشراب، فحيياه وحياهما ، وعرض عليهما الطعام ، فكره كلٌّ واحدٍ أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به ، فنزلا جميعاً ، وأكلا وشربا مع اللّخمى .

* مجمع الأمثال : ١ — ٣٠٤

(١) سلبناه : أخذنا ما معه .

ثم إنَّ الأخنس ذهب لبعض شأنه ، فرجع واللخمى يتشحَّط فى دمه[1] . فقال الجهنى ـ وهو الأخنس ـ وسلّ سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولًا : ويحك ! فَتَكْتَ برجل قد تَحرمنا بطعامه وشرابه ، فقال : اقعد يا أخَا جُهينة ؛ فلهذا وشبهه خرجنا . فشربا ساعةً وتحدثا .

ثم إن الحصين قال : يا أخا جهينة ؟ أتدرى ماصَعْلةُ وماصَعْل[2]؟ قال الجهنى: هذا يوم شربٍ وأكل؛ فسكت الحصين حتى إذا ظن أنّ الجهنى قد نسىَ مايُراد به قال : يا أخا جهينة ؛ هل أنت للطير زاجر ! قال:ماذاك ؟ قال : ما تقول هذه العُقاب الكاسر ؟ قال الجهنى : وأين تراها ؟ قال:هى ذهِ ، وتطاول ورفع رأسَه إلى السماء، فوضع الجهنى بادِرَةَ السيف فى نحره ، فقال : أنا الزاجر والناحر ! واحتوى على مَتَاعه ومتاع اللخمى ، وانصرف راجعاً إلى قومه .

فمر ببَطْنَين من قيس يقال لهما : مراح وأنمار ، فإذا هو بامرأة تَنْشُد الحصين ، فقال لها : مَنْ أنتِ ؟ قالت : أنا صَخْرة أخت الحصين ، قال : أنا قتلتُه . قالت : كذبْتَ ! ما مثلك يقتلُ مثلَه،أما والله لو لم يكن الحىُّ خِلْواً ماتكلمتَ بهذا.فانصرف إلى قومه فأصلح أمرهم ، ثم جاءهم ، فوقف حيث يسمعهم وقال :

وكم من ضَيْغَمٍ وَرْدٍ[3] هَمُوس[4] ... أبى شِبْلَيْنِ مسكنُهُ العَرِينُ
علوتُ بياض مَفْرِقِه[5] بعَضْبٍ ... فأضحى فى الفلاة له سكونُ
وأضحتْ عِرْسُه ولها عليه ... بُعَيْد هدوء ليلتها ـ رَنينُ
وكم من فارسٍ لا تَزْدَرِيه ... إذا شخصَتْ لموقعه العيونُ

(١) يتشحط فى دمه : يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ. (٢) الصعلة : النعامة، والصعل : الظليم .
(٣) الورد : الأسد ، ولونه بين الكميت والأشقر. (٤) الهموس : السيار بالليل. (٥) المفرق : وسط الرأس .

كصخرةَ إذ تُسائِلُ فى مراحٍ وأنمارٍ وعلمُهما ظنونُ
تسائلُ عن حصين كلَّ ركبٍ وعنـــد جهينة الخبرُ اليقين
فمن يكُ سائلًا عنه فعندى لصــاحبه البيانُ للستبين
جهينةُ معشرى وهُمو ملوكٌ إذا طلبُوا المعالى لم يهونوا

٥ — يَحْمى الصحاب إذا تكونُ كَريهة*

تزوّج أبو كبير[١] الهذلى أمّ تأبّطَ شرًّا[٢] — وكان غلاماً صغيراً — فتنكرله، وعرف ذلك أبو كبير فى وجهه، إلى أن ترَعْرَعَ الغلامُ، فقال أبو كبير لزوجه: وَيْحَكِ، قد واللهِ رابنى أمرُ هذا الغلام، ولا آمنه. قالت: فاحْتلْ عليــه حتى تقتلَه.

فقال له ذات يوم: هل لك أن تغزو؟ فقال: ذاك من أمرى. قال: فامْضِ بنا، نخرجا غازِيَيْن ولا زَادَ معهما، فسارا ليلتَهما ويومهما من الغد، حتى ظنَّ أبو كبير أن الغلامَ قد جاع. فلما أمسى قصدَ به أبو كبير قوماً كانوا له أعداء، فلما رأيا نارَهم من بُعد قال له أبو كبير: ويحك، قد جُعْنا! فلو ذهبتَ إلى تلك النـار فالتمست لنا منها شيئاً!

---

*خزانة الأدب ٣ — ٤٦٧ (طبعة بولاق)، الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٢: ٦٥٢، شرح ديوان الحماسة: ١ — ١٩

(١) أبو كبير الهذلى: اسمه عامر بن الحليس. (٢) هو ثابت بن جابر، كان أسمع العرب وأبصرهم وأكيدهم، وكان أعدى رجل؛ ينظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها، ثم يعدو خلفه فلا يفوته. وأخباره فى هذا الباب كثيرة. توفى نحو سنة ٨٠ ق. ﻫ

فمضى تأبَّطَ شرا ، فوجد على النار رجلين من ألَصِّ مَنْ يكون من العرب ـ وإنما أرْسله إليهما أبو كبير ليقتلاه ـ فلما رأياه قد غشيَ نارهما وَثبا عليه ، فرمى أحدَهما وكرّ على الآخر فرماه ، فقتلهما ، ثم جاء إلى نارهما فأخذ الخبزَ منها ، فجاء به إلى أبى كبير ، فقال له : كل ، لا أشبَع اللهُ بطنك ! ولم يأكل هو ، فقال : وَيحكَ ! أخبرنى عن قصَّتك ، فأخبره ، فازداد خوفاً منه .

ثم مضيا فى ليلتهما فأصابا إبلًا ، وكان يقولُ له أبو كبير ثلاث ليَالٍ : اخترْ أىَّ نصفى الليل شئتَ تحرسُ فيه وأنام ، وتنام النصفَ الآخر ، فقال : ذلك إليك، اختر أيهما شئتَ ، فكان أبو كبير ينامُ إلى نصفِ الليل ويحرسُه تأبط شرًّا ، فإذا نام تأبط شراً نام أبو كبير أيضا لا يحرسُ شيئاً حتى استوفَى الثلاث.

فلما كان فى الليلة الرابعة ظنَّ أن النعاس قد غلب على الغلام ، فقام أول الليل إلى نصفه ، وحرسَه تأبَّطَ شرًّا ، فلما نامَ الغلام قال أبو كبير : الآن يستثقل نوماً وتمكننى فيه الفُرصَة : فلما ظنَّ أنه استثقل أخذ حَصْبَةً صغيرة ، فحَذَفَ[1] بها ؛ فقام كقيامه الأول ، فقال : ما هذا الذى أسمعُ ؟ قال : والله ما أدرى لعل بعضَ الإبل تتحرك ؛ فقام وطاف فلم ير شيئاً ، فعاد فنام ، فأخذ حصاة أصغر من تلك ، فرمى بها فوثَب ، فطاف ورجع إليه ، فقال : يا هذا ؛ إنى قد أنكرتُ أمرَك ؛ والله لئن عدتُ أسمع شيئاً من هذا لأقتلنّك ! قال أبو كبير : فبتّ والله أحرسه خوفاً أن يتحرّك شيء من الإبل فيقتلَنى !

فلما رجعا إلى حيِّهما قال أبو كبير :

ولقد سريتُ على الظلام بمِنْشَمٍ جَلْدٍ من الفتيانِ غير مثقّل[2]

---

(١) حذف بها : رمى. (٢) المنشم : الذى لايثنيه شيء . والجلد : القوى . وغير مثقل: أى حسن القبول محبب إلى القلوب .

مِمَّنْ حَمَلْنَ به وهُنَّ عواقدٌ ... حُبُكَ النِّطَاقِ فشبَّ غير مُهَبَّل (١)

حملتْ به فى ليلةٍ مزءودةٍ (٢) ... كرْهاً وعقد نطاقها لم يُحْلَلِ

فأَتَتْ به حوشَ الفؤادِ مُبطناً ... سُهُداً إذا ما نامَ ليلُ الهوْجل (٣)

وإذا نبذتَ له الحصاةَ رأيتهُ ... ينزو لوقعتها طمورَ الأخيَل (٤)

وإذا يهُبُّ من المنام رأيتَــه ... كرتُوب كعب الساق ليس بزُمَّل (٥)

ما إنْ يمسُّ الأرضَ إلا منكبٌ ... منه وحرفُ السَّاق طيَّ المحمل (٦)

وإذا رميتَ به الفِجاجَ رأيته ... يَهْوِى مخارمها هويَّ الأجدَل (٧)

وإذا نظرت إلى أسرَّةِ وَجههِ ... برقَتْ كبرقِ العارض المتهلل (٨)

يحمى الصحاب إذا تكون كريهة ... وإذا هُم نزلوا فمأوى العيَّلِ (٩)

---

(١) الضمير للنساء ، وإن لم يجر لهن ذكر ، وضمن حملن معنى علقن فتعدى بالباء ، وعواقد جمع عاقدة ، والحبك جمع حباك : وهو ما يشد به النطاق. والنطاق شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها ثم ترسل الأعلى على الأسفل الى الركبة ، والأسفل ينجر على الأرض . والمهبل الذى يدعى عليه بقولهم : هبلته أمه ، أى ثكلته، أو الكثير اللحم. والمعنى أن هذا الغلام حملت به أمه وهى متعبة من الخدمة فنشأ محموداً مرضياً ، لم يدع عليه بالثكل والهبل ، وهذا فى زعم العرب (٢) مزءودة: مروعة ، والعرب تزعم أن المرأة تنجب إذا حملت مغضبة. (٣) حوش الفؤاد : ذكى كيس ، والمبطن : الخميص البطن . والسهد : قليل النوم، والهوجل: الثقيل الكسلان، والأهوج. (٤) ينزو: يقفز ، والطمور : الوثب ، والأخيل : الشاهين ، وهو من الطيور الجارحة. (٥) رأيته : أى رأيت رتوبه ، ورتوب الكعب انتصابه ، والزمل : الضعيف. والمعنى : أنه إذا استيقظ من منامه انتصب انتصاب كعب الساق. (٦) يقول : إنه مدمج الخلق إذا اضطجع لا ينبسط على الأرض ولا يتمكن منها بأعضائه كلها وإنما يمس الأرض بمنكبه ، فهو فى ذلك مثل حمالة السيف حين تطوى .

(٧) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع فى الجبل أو غيره. الهوى: القصد إلى أسفل، والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . والأجدل : الصقر . وهذا الكلام كناية عن كونه صاحب همة إذا نيطت به الصعاب ذللها. (٨) الأسرة : الخطوط التى فى الجبهة ، يقول : إذا نظرت فى وجهه رأيت أسارير وجهه تشرق إشراق السحاب المتشقق بالبرق . يصفه بحسن البشر وطلاقة الوجه .

(٩) العيل : جمع عائل وهو الفقير ، يصفه بأنه شجاع كريم .

٦ — تأبَّط شرًّا وابن برَّاق*

أغار تأبط شرًّا ومعه ابن[١] برّاق على بجيلَة ، فأطردا لهما نعماً ، ونذِرت[٢] بهما بَجِيلة فخرجتْ فى آثارهما ، ومضيا هاربيْن فى جبال السّرَاة ، وركبَا الحَزْن ، وعارضتهما بجيلةُ فى السهل ، فسبقوهما إلى الوَهْط[٣] ، فدخلوا لهما فى قصبة العين ، وجاءا — وقد بلغ العطش منهما — إلى العين .

فلما وقفا عليها ، قال تأبّط شَرًّا لابْنِ بَرّاق : أَقِلّ من الشرب فإنها ليلة طرْد ، قال : وما يدريك ؟ قال : والذى أعْدُو بطَيْره[٤] ، إنى لأسمع وجيبَ[٥] قلوب الرجال تحت قدمىّ — وكان من أسمع العرب وأكيدهم — فقال له ابن براق : ذاك وجيبُ قلبك . فقال له تأبط شرا : والله ما وجبَ قط ولا كان وجّابا ، وضرب بيده عليه ، وأصاخ نحو الأرض يستمع ، فقال : والذى أعدو بطيره ؛ إنى لأسمع وجيب قلوب الرجال . فقال له ابن براق : فإنى أنزل قبلك .

فنزل فبرك وشرب ، وكان أكلّ القوم عند بجيلة شوْكةً ، فتركوه وهم فى الظلمة . ونزل ثابت[٦] ، فلما توسط الماء وثبُوا عليه ، فأخذوه وأخرجوه من العين مكتُوفًا ، وابن برّاق قريبٌ منهم لا يطمعون فيه لما يعلمون من عَدْوه . فقال لهم ثابت : إنه من أصلف الناس وأشدهم عُجْباً بعدْوه ، وسأقولُ له : استأسر[٧] معى ،

---

* الأغانى : ١٨ — ٢١١ (طبعة الساسى) ، بلوغ الأرب : ٢ — ١٤٣

(١) اسمه عمرو بن براق (٢) نذر به : علم (٣) الوهط : ماء بالطائف (٤) يقال : طير الله لا طيرك ، أى فعله وحكمه (٥) وجب القلب : اضطرب (٦) ثابت : اسم تأبط شرا (٧) استأسر : كن أسيراً .

فسيدعوه عُجْبه بعدوه إلى أن يعدوَ بين أيديكم ، وله ثلاثة أطلاق[1]؛ أولها كالريح الهابّة ، والثانى كالفرس الجواد، والثالث يكبو فيه ويعثر. فإذا رأيتم منه ذلك فخذوه؛ فإنى أحبُّ أن يصير فى أيديكم كما صرتُ إذ خالفنى ، قالوا : فافعل .

فصاح به تأبط شراً : أنت أخى فى الشدّة والرخاء ، وقد وعدنى القوم أن يمنّوا عليك وعلىّ ، فاستأسرْ وَواسنى بنفسك فى الشدة كما كنت أخى فى الرخاء ؛ فضحك ابنُ براق ، وعلم أنه قد كادهم ، وقال : مهلًا يا ثابت ، أيستأسرُ مَنْ عنده هذا العدو ؟ ثم عدا ، فعدا أول طلق مثلَ الريح كما وصف لهم ، والثانى كالفرس الجواد ، والثالث جعل يكبو ويعثر ويقعُ على وجهه ؛ فقال ثابت : خذوه ؛ فعدوْا بأجمعهم ، فلما أن نفسوا عنه شيئاً عدا تأبط شرّا فى كتافه ، وعارضه ابنُ براق فقطع كتافه وأفلتا جميعاً ، فقال تأبط شرا قصيدته القافية فى ذلك :

يا عيدُ مالك من شوقٍ وإيراق ومرِّ طَيْفٍ على الأهوالِ طَرّاق[2]

يَسْرِى على الأَيْنِ[3] والحيات محتفياً نفسى فداؤك من سارٍ على ساقِ

---

(١) الطلق : الشوط (٢) العيد : مااعتاده الإنسان من هم أو شوق أو مرض ، ومالك من شوق : يعنى ماأعظمك ، والإيراق : مصدر آرقه ، وطراق : أى يأتى ويطرق فى الليل .

(٣) الأين : الذكر من الحيات ، ومحتف : حاف غير منتعل .

٧ — أتتك بحائنٍ رِجْلاه*

كان المنذر بن ماء السماء(١) ينادمُه رجلان من العرب : خالد بن المضَلَّل ، وعمرو بن مسعود الأسديان ، فشرب ليلةً معهما ، فراجعاه الكلام ، فأغْضباه ، فأمر بهما فقُتِلا وجُعِلا فى تابوتَيْن ، ودُفِنَا بظاهر الكوفة .

فلما أصبح وصَحَا سأل عنهما فأُخْبِر بذلك ، فندِم وركبَ حتى وقف عليهما ؛ فأمر ببُنيان الغَرِيَّين(٢) ، وجعل لنفسه فى كل سنة يومين : يوم بؤس ، ويوم نعيم .

فكان يضع سريره بينهما ؛ فإذا كان يومُ نعيمه فأولُ مَنْ يطلعُ عليه — وهو عَلَى سريره — يعطيه مائةً من إبل الملوك ، وأولُ مَنْ يطلع عليه فى يوم بؤسه يعطيه رأسَ ظَرِبان(٣) ويأمر به فيذبح ، ويُغَرَّى بدمه الغريَّان .

فلم يزل كذلك ماشاء الله .

فبينما هو ذات يوم من أيام بؤسه ، إذ طلع عليه عَبيد بن الأبرص(٤) ، فقال له الملك : ألا كان الذِّبحُ(٥) غيرك يا عبيد ! فقال : أتتك بحائنٍ رجلاه .

فقال له الملك : أو أجلٌ قد بلغ إنَاه ! ثم قال يا عبيد : أنشِدنى فقد كان يعجبنى

---

* مهذب الأغانى : ٢ — ٢٠٧ ، بلوغ الأرب : ١ — ٢٢٨ ، ذيل الأمالى ١٩٩ (الطبعة الأميرية) ، الشعر والشعراء : ١٤٤ (طبعة أوربا) .

(١) فى كتاب المعارف أن الذى قتل عبيداً هو النعمان بن المنذر ، وهو صاحب الغريين (راجع صفحة ٢٨٣ ، وانظر القصة رقم ٦٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب) (٢) الغريان : سميا بذلك لأنه كان يغريهما بدم من يقتله يوم بؤسه (٣) دويبة شبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم منتن الرائحة (٤) عبيد بن الأبرص : شاعر جاهلى قديم من المعمرين ، كان شاعر بنى أسد غير مدافع (٥) الذبح : مايذبح .

شِعْرُكَ ، فقال : حالَ الجَرِيضُ دون القَرِيض [١] ، وبلغ الحزامُ الطُّبْيَين [٢] ، فقال : أنشدنى :

أقْفَر من أهْلِه مَلْحُوب [٣] ... فالقَطَبِيَّات [٤] فالذَّنُوب [٥]

فقال :

أقفر منْ أهـــــله عبيدْ ... فاليومَ لا يُبدى ولا يُعيد

عَنَّت له مِعَنَّـــة [٦] نَكُود ... وحَان له مهـــا وُرُود

فقال : أنشـــدنى هبلتكَ أمُّك ! فقال : المنــايا عَلَى الحوايا [٧] . فقال بعضُ القوم : أنشـــد الملك ؛ هبلتك أمك ! فقال : لا يرْحلُ رَحْلَكَ مَنْ ليس معك .

فقال له آخر : ما أشدَّ جزعك من الموت ! فقال :

لا غرْوَ من عيشة نافده ... وهل غيرُ ماميِّتَةٍ واحـــده

فأبلغْ بَنِىَّ وأعمـــامَهُمْ ... بأنَّ المنايا هى الرَّاصـــدَه

لهـا مُدَّةٌ فنفوس العباد ... إليها ، وإن كَرِهَتْ ، قاصده

فلا تجزعـــوا لِحَمَامٍ دنا ... فَلِلْموتِ ما تـــلِدُ الوالده

فقال له المنذر : لا بدَّ من الموت ! ولو عرض لى أبى فى هذا اليوم لم أجد بُدًّا من ذبْحه . فأما إذ كنتَ لهـا وكانت لك ، فاختَرْ خصلة من ثلاث خصال : إن شئتَ من الأكحل [٨] ، وإن شئت من الأبجل [٩] ، وإن شئتَ من الوريد [١٠] .

---

(١) مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق . والجريض : الغصص . والقريض : الشعر (٢) مثل يضرب إذا اشتد الأمر وتفاقم . والطبي : حلمات الضرع (٣) ملحوب : موضع

(٤) القطبيات : جمع قطبية ، وهى ماء (٥) الذنوب : موضع . (٦) أصل المعنة : المرأة تعترض فى كل شىء (٧) الحوية : كساء يحوى حول سنام البعير ثم يركب ، ومعناه : قد تأتي المنية الشجاع وهو على سرجه . (٨) الأكحل : عرق فى اليد (٩) الأبجل : عرق غليظ فى الرجل أو فى اليد بإزاء الأكحل (١٠) الوريد : عرق فى العنق .

فقال : ثلاث خصال ؛ مَقادُها شرُّ مقاد ، وحاديها شرُّ حاد ، ولا خيرَ فيها لمُرْتاد ؛ فإن كنت لابدّ قاتلى فاسقنى الخمرَ حتى إذا ذَهلَتْ لها ذَوَاهلى ، وماتت لها مفاصلى ؛ فشأنك وما تريد !

فأمر المنذر له بحاجته من الخمر ، فلما أخذتْ منه وقُرِّب ليُذْبح قال :

وخيّرنى ذو البؤس فى يوم بُؤسه	خِلالًا أرى فى كلها الموت قد بَرَقْ
كما خُيِّرت عادٌ من الدهر مرّة	سحائبَ مافيها لذى خيرة أَنَقْ[1]
سحائب ريحٍ لم توَكَّلْ ببلدة	فتَتْرُكَها إلا كما ليلةِ الطَّلَقْ[2]

وأمر به ففُصد ، فلما مات طُلى بدمه الغريان .

---

(١) الأنق : الإعجاب بالشىء (٢) الطلق : سير الليل لورد الغب ، وهو أن يكون بين الإبل وبين الماء ليلتان ؛ فالليلة الأولى يخلى الراعى إبله إلى الماء ويتركها مع ذلك ترعى وهى تسير ليلتئذ ، فهى ليلة الطلق ، والليلة الثانية ليلة القرب ، وهو السوق الشديد .

٨ — السُّلَيْك بن السُّلَكة ورفيقاه*

كان السُّلَيْك[1] من أشدّ رجال العرب وأنكرهم[2] وأشعرهم ، وكان أدلّ الناس بالأرض ، وأعلمهم بمسالكها ، وأشدّهم عَدْواً على رجليه، لا تعلق به الخيل ، وكان يقول : اللهم إنك تهيئ ما شئتَ لما شئتَ إذا شئتَ ، اللهم إنى لو كنتُ ضعيفاً كنتُ عبداً ، ولو كنتُ امرأة كنت أَمَةً ، اللهم إنى أعوذُ بك من الخَيبة ، أما الهيبة فلا هيبة[3] .

ذكروا أنه أَمْلق[4] مرّة حتى لم يبق له شىء فخرج على رجليه رجاء أن يصيب غِرّة من بعض من يمرّ به ، فيذهب بإبله ، حتى أمسى فى ليلة من ليالى الشتاء باردة مقمرة ، فاشتمل الصمّاء[5] ، ثم نام .

فبينما هو نائم إذ جثم عليه رجل فقعد على جنبه ، وقال : استأسر[6]! فرفع السُّليك إليه رأسَه ، وقال : الليلُ طويلٌ وأنت مقمِر[7] ؛ فجعل الرجل يَلْهَزُه[8] ويقول : يا خبيث ، استأسر ، فلما آذاه بذلك أخرج السليك يده ، وضم الرجلَ إليه ضمّة صرخ منها ، وهو فوقه ، ثم قال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل افتقرتُ ،

---

* الأغانى : ١٨ — ١٣٤ (طبعة الساسى) ؛ الأمثال : ١ — ٤١٨

(١) كان السليك من تميم ، وأمه أمة سوداء اسمها السلكة، وهو من أشد رجال العرب وأنكرهم، وأكثرهم علما بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وله فى ذلك أخبار كثيرة . قتله أسد بن مدرك سنة ١٧ ق هـ تقريباً (٢) النكارة: الدهاء . (٣) أى لا أهاب أحدا (٤) أملق : افتقر (٥) اشتمل الصماء: اشتمال الصماء أن يرد فضلة ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها (٦) استأسر : كن لى أسيراً (٧) ذهبت مثلا ، وأقمر الرجل : ارتقب طلوع القمر (٨) يلهزه : يلكمه .

فقلت : لأخرجنّ فلا أرجعُ إلى أهلى حتى أستغنى فآتيهم وأنا غَنىّ . قال الرجل : انطلقْ معى .

فانطلق فوجدا رجلًا قِصَّتُه مثل قصتهما، فاصطحبوا جميعاً حتى أتوا الجوفَ[١]؛ جَوْف مراد ، فلما أشرفُوا عليه إذا فيه نَعَمٌ[٢] قد ملأ كلّ شيء من كثْرَته ، فهابوا أن يغيروا فيطْردوا[٣] بعضها ، فيلحقهم الطلب ، فقال لهما سُليك : كُونَا قريباً منى حتى آتى الرِّعاء[٤] ، فأعلم لكما علم الحىِّ : أقريب أم بعيد ، فإن كانوا قريباً رجعتُ إليكما ، وإن كانوا بعيداً قلت لكما قولا أُوحى إليكما به فأغيرا .

فانطلق حتى أتى الرِّعاء فلم يزل يتسقَّطُهم[٥] حتى أخبروه بمكان الحى ، فإذا هم بعيد ، إن طُلِبُوا لم يُدْرَكُوا ؛ فقال السليك للرِّعاء : ألا أغنّيكم ؟ فقالوا : بلى ! غنّنا ، فرفع صوته وغنى :

يا صاحبىّ ألَا لا حَىّ بالوادى سِوَى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[٦]
أتنظران قريباً رَيْثَ غَفْلَتِهِم أمْ تغدوان فإن الرِّيحَ للغادى

فلما سمعا ذلك أتيا السُّليك ، فأطردوا الإبل، فذهبوا بها، ولم يبلغ الصَّرِيخ[٧] الحى ؛ فيأتوهم بالإبل .

---

(١) موضع بأرض مراد (٢) النعم : واحد الأنعام ، وهى الإبل والشاء .
(٣) قال فى اللسان : طردت الإبل : أى ضممتها من نواحيها (٤) الرعاء : الرعاة (٥) تسقطه : عالجه ليبوح بما عنده (٦) أذواد : جمع ذود ، ثلاثة أبعرة إلى عشرة (٧) الصريخ : المستغيث كالصارخ .

٩ — السُّلَيْك يقتل وينهب *

زعموا أن السُّلَيْك بن السُّلَكَةِ خرج يريد أن يغير في ناسٍ من أصحابه؛ فمرّ على بني شيبان، في ربيع، والناس مخصبون في عَشِيَة فيها ضباب ومطر؛ فإذا هو ببيت قد انفرد عن البيوت عظيم، وقد أمسى.

فقال لأصحابه: كونوا بمكان كذا وكذا حتى آتي هذا البيت، فلعلى أصيبُ خيراً، أو آتيكم بطعام. فقالوا له: افعل.

فانطلق إليه وجَنَّ عليه الليل فإذا البيت بيت يَزيدَ الشيباني، وإذا الشيخ وامرأتُه بفناء البيت؛ فاحتال السليك حتى دخل البيت من مؤخره؛ فلم يلبث أن أراح[1] ابنُ الشيخ بإبله في الليل، فلما رآه الشيخ غضب، وقال: هلا كنت عشيتَها ساعةً من الليل! فقال ابنه: إنها أبتِ العشاء! فقال يزيد: إن العاشية تَهيجُ الآبية[2]!

ثم نفض الشيخ ثوبَه في وجهها، فرجعت إلى مراتعها، وتبعها الشيخ حتى مالت لأدنى روضة؛ فرتعت فيها، وقعد الشيخ عندها يتعشى، وقد خَنَس[3] وجهَهُ في ثوبه من البَرد.

---

* الأمثال: ١ — ٤١٧

(١) الإراحة: رد الإبل والغنم من العشى إلى مراحها، حيث تأوى إليه ليلا، وقد أراحها راعيها

(٢) أى إذا رأت التي تأبى الرعى التي تتعشى هاجتها للرعى، فرعت معها.

(٣) خنس: قبض.

وتبعه السليك حين رآه انطلق ؛ فلما رآه مُعْتَنِزاً[1] ضربه من ورائه بالسيف ، فأطار رأسَه ، وأطْرَد إبله .

وبقى أصحاب السليك ـ وقد ساء ظنُّهم ، وخافوا عليه ، فإذا به يُطْرِد الإبل ، فأطردوها معه !

١٠ ـ السخِيُّ العَدَّاء*

قال رجلٌ من بنى تميم :

كنت عنـد المهاجر بن عبد الله وَالِي اليمامة ؛ فأُتِىَ بأعْرابى قد كان معروفاً بالسَّرَق[2] ؛ فقال له : أخبرنى عن بعض عجائبك . قال : إنها لكثيرةٌ ، ومن أعْجَبِها :

أنه كان لى بعير لا يُسْبَق ؛ وكانت لى خيلٌ لا تُلْحَقُ ، فكنتُ لا أخرج فأرجع خائباً ، فخرجت يوماً ، فاحترَشْتُ[3] ضَبًّا ، فعلّقته على قَتَبى[4] ، ثم مررتُ بخِباء سَرِيٍّ[5] ليس فيه إلا عجوز ، فقلت : أَخْلِق بهذا الخباء أن يكون له رائحةٌ من غَنَمٍ وإبِلٍ ، فلما أمسَيْت إذ بإبلٍ مائة ، فيها شيخ عظيم البَطْن ، مُثْدَنٌ[6] اللحم ، ومعه عبد أسود وَغْد[7] .

---

(١) اعتنز : تنحى .

* عيون الأخبار : ١ ـ ١٨٧

(٢) السرق : السرقة (٣) احترش الضب : اصطاده (٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير (٥) السرى : من له مروءة فى شرف (٦) مثدن اللحم : كثيره (٧) الوغد : الدنىء الذى يخدم ببطنه .

فلما رآنى رحب بى ، ثم قام إلى ناقة فاحْتَلَبها ، وناولنى العُلْبة فشربت ما يَشربُ الرجل، فتناولَ الباقى، فضرب به جَبهتَه، ثم احْتَلَبَ تسع أَينُق، فشرب ألبانهنّ ثم نحر حُواراً[1] فطبخَه ، ثم ألقى عظامه بيضا ، وحَثَا كُومَةً من بَطحاء[2] وتوسّدها ، وغطّ غطيطَ البَكْر .

فقلت : هذا واللهِ الغنيمة ! ثم قمت إلى فَحْل إبله فخطمتهُ[3] ، ثم قرنتُه إلى بعيرى ، وصِحْتُ به ، فاتّبعنى الفحل ، واتّبعته الإبل ، فسارت خَلْفى كأنها حبل ممدود ، فمضيتُ أبادر ثنيّةً بينى و بينها مسيرةُ ليلة للمُسْرِع ، فلم أزل أضربُ بعيرى بيدى مرة ، وأقرَعُه برجلى أخرى ، حتى طلَع الفجر .

فأبصرت الثنيّة ، فإذا عليها سَوَاد ، فلما دنَوْتُ إذا أنا بالشيخ قاعداً وقوسُهُ فى حِجْرِه ، فقال : أضيفُنَا ؟ قلت : نعم ! قال : أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟ قلت : لا .

فأخرج سهماً كأنّ نصلَه لسانُ كلب ، ثم قال : أبْصِرْ بين أذنى الضبّ ، ثم رماه فصدَع عَظْمَه عن دماغه ، وقال : ما تقول ؟ قلت : أنا على رأيى الأول !

قال : انظُر هذا السهم الثانى فى فقْرَةِ ظهره الوسطى ! ثم رمى به ؛ فكأنما قدّره بيده ، ثم وضعه بإصبعه ، ثم قال : أرأيت ؟ قلت : إنى أحِب أن أستَثبتَ .

قال : انظر هذا السهم الثالث فى عُكْوة[4] ذَنَبه ، والرابع والله فى بَطْنِكَ . ثم رماه فلم يخطىء العُكْوَة ، فقلت : أنزلُ آمنا ؟ قال : نعم ، فنزلتُ ؛ فدفعت إليه خِطَام فَحله، وقلت : هذه إبلك لم يذهب منها وبَرَة ـ وأنا أنتظر متى

---

(١) الحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه (٢) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى
(٣) خطمه : وضع فيه الخطام : وهو ماوضع فى أنف البعير ليقاد به .
(٤) العكوة : أصل الذنب .

يرميني بسهم ينتظمُ قلبي. فلما تنحّيت قال لي : أقْبل، فأقبلتُ والله خوفاً من شره، لا طمعاً في خيره .

فقال : أيْ هذا ؛ ما أحسبك جَشِمْتَ الليلة ما جشِمتَ إلا من حاجة . قلت : أجل! قال : فاقْرُن[1] من هذه الإبل بعيرين وامضِ لطِيَّتك[2] ، قلت : أما والله حتى أخبرك عن نفسك قبلا !

ثم قلت : والله ما رأيت أعرابيا قط أشدَّ ضِرْساً، ولا أعدى رِجْلًا، ولا أرْمَى يداً ، ولا أكرم عفواً ، ولا أسخَى نفساً منك !

---

(١) اقرن : اربطهما ، واجعلهما معا .

(٢) لطيتك : لقصدك .

١١ — زَيْد الخَيْل [1]*

أخبر شيخ من بنى نَبْهان قال :

أصابت بنى شيبان سَنَةٌ ذهبت بالأموال ؛ فخرج رجلٌ منهم بعياله حتى أنزلهم الحِيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك يُصِبْكم خيرُه حتى أرجعَ إليكم ، وآلَى أليَّة[2] ؛ لا يرجع حتى يكسبهم خيراً أو يموت .

فتزوَّد زاداً ثم مشى يوماً إلى الليل ، فإذا هو بمُهْرٍ مقيَّد ، حول خِباء ، فقال : هذا أولُ الغنيمة ، وذهب يحُلُّه ويركبه ، فنودى : خلِّ عنه واغنم نفسك . فتركه.

ومضى سبعة أيام حتى انتهى إلى عَطَن[3] إبل مع تطفيل[4] الشمس ، فإذا خِباء عظيم وقُبَّة من أَدَم، فقال فى نفسه : ما لهذا الخِباء بُدٌّ من أهل، وما لهذه القبة بُدٌّ من رَبّ[5] وما لهذا العَطَن بُدٌّ من إبل . فنظر فى الخِباء فإذا شيخٌ كبير قد اختلفت تَرْقُوَتاه كأنه نَسْر .

قال : فجلست خَلْفه . فلما وجبتِ[6] الشمس إذا فارس قد أقبل لم أرَ فارساً قطّ أعظمَ منه ، ولا أجسم ، ومعه أسودان يمشيان جنبيه ، وإذا مائة من الإبل مع

---

* الأغانى : ١٦ ـ ٤٧ (طبعة الساسى) .

(١) هو زيد بن مهلهل ، كان فارساً مغواراً مظفراً شجاعاً بعيد الصيت فى الجاهلية، وكان شاعراً محسناً خطيباً لسناً، كريماً ، وأدرك الإسلام، ووفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع ، وسرّ به وقرظه وسماه : زيد الخير . وسمى فى الجاهلية بزيد الخيل لكثرة خيله . توفى سنة ٩ هـ

(٢) آلى ألية : حلف يميناً (٣) العطن : مبرك الإبل (٤) تطفيل الشمس : ميلها للغروب

(٥) رب : صاحب (٦) وجبت الشمس : مالت للغروب .

فَحلبها ، فبرَك الفحل ، وبرَكت حوله ، ونزل الفارس، فقال لأحد عَبْدَيه : احلُب الفُلانة[١] ، ثم إسق الشيخ ، فحلب فى عُسٍّ حتى ملأه ووضعه بين يدى الشيخ ، وتنحّى ، فكرع منه الشيخ مرة أو مرتين ثم نزَع[٢] ، فثُرت إليه فشربته، فرجع إليه العبد فقال : يامولاى ؛ قد أتى على آخره . ففرح بذلك وقال : احلُب الفُلانة ، فحلبها ، ثم وضع العُسَّ بين يدى الشيخ ، فكرع منه واحدة ، ثم نزع ، فثُرت إليه فشربت نصفه ، وكرهت أن آتى على آخره فأتّهم، فجاء العبد فأخذه، وقال لمولاه : قد شرب ، فقال : دَعْه .

ثم أمر بشاة فذبحت ، وشوى للشيخ منها : ثم أكل هو وعبداه . فأمهلت حتى إذا ناموا وسمعت الغَطيط[٣] ثُرْتُ إلى الفحل، فحللت عِقاله وركِبتُه، فاندفع بى وتبعتْه الإبل . فمشيتُ ليلتى حتى الصباح .

فلما أصبحتُ نظرتُ فلم أر أحداً ، فسلّتها سلًّا عنيفاً ، حتى تعالى النهار ، ثم التفتُّ التفاتة ، فإذا أنا بشىء كأنه طائر ، فما زال يدنو حتى تبيَّنْتُه ، فإذا هو فارس على فرس ، وإذا هو صاحبى بالأمس، فعقلتُ الفحل، ونثلتُ كنانتى ، ووقفت بينه وبين الإبل ، فقال : احْلُلْ عِقال الفَحْل . فقلتُ : كلا والله ، لقد خلّفت نُسَيَّاتٍ بالحيرة ، وآليت أليَّة لاأرجع حتى أفيدهن خيرا أو أموت . قال : فإنّك لَمَيِّت ؛ حلَّ عقاله لا أمَّ لك ! فقلت : ماهو إلا ما قلت لك. فقال : إنك لمغرور، انصب لى خِطامه ، واجعل فيه خمس عُجَر[٤] ؛ ففعلت ، فقال : أين تريد أن أضع سهمى ؟ فقلت : فى هذا الموضع . فكأنما وضعه بيده .

---

(١) الفلانة : كناية عن غير الإنسان (٢) نزع : انتهى (٣) غطيط النائم : نخيره .
(٤) العجرة : العقدة .

ثم أقبل يرمى حتى أصاب الخمس بخمسة أسهم ، فرددت نَبلى[١] ، وحططت قوسى ، ووقفتُ مستسلما ؛ فدنا منى وأخذ السيف والقوس ثم قال : ارتَدِفْ[٢] خلْفى ، وعرف أنى الرجل الذى شربتُ اللبنَ عنده ؛ فقال : كيف ظنُّك بى ؟ قلت : أحسن ظن . قال : وكيفَ ؟ قلت : لما لقيت من تعب ليلتك وقد أظفرك الله بى . فقال : أترانا كنا نهيجك وقد بتَّ تنادم مهلهلا[٣] ! قلت : أزيد الخيل أنت ؟ قال : نعم ، أنا زيد الخيل ، فقلت : كُنْ خيرَ آخذ . فقال : ليس عليك بأس . ومضى إلى موضعه الذى كان فيه . ثم قال : أما لو كانت هـذه الإبل لى لسلَّمْتُها إليك ، ولكنها لبنت مهلْهل ، فأقم علىَّ فإنى على غارة .

فأقمتُ أياماً ، ثم أغار على بنى نمير فأصاب مائة بعير ، فقال : هذه أحبُّ إليك أم تلك ؟ قلت : هـذه. قال : دُونَكها[٤] ، وبعث معى خفراء من ماء إلى ماء حتى وردوا بى الحيرة ، فلقينى نَبَطِىّ فقال : يا أعرابى ، أيسرُّك أن لك بإبلك بُسْتانا من هذه البساتين ؟ قلت : وكيف ذاك ؟ قال : هذا قُرْبُ مخرج نبىٍّ يخرج ، فيملك هذه الأرض ، ويحول بين أربابها وبينها ، حتى إن أحدهم ليبتاع البستان من هذه البساتين بثمن بعير .

قال : فاحتملتُ بأهلى حتى انتهيتُ إلى موضع ، فبينما نحن على ماء لنا ، جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسْلَمْنا ، وما مضت أيامٌ حتى اشتريتُ بثمن بعير من إبلى بستاناً بالحيرة .

---

(١) النبل : السهام العربية ، ولا واحد لها (٢) المرتدف : الراكب خلف الراكب
(٣) مهلهل : أبو زيد الخيل . (٤) دونكها : خذها .

١٢ — وَأْد البنات*

روت الرواةُ أن صَعْصعة بن ناجية لما أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلم قال : يارسول الله ؛ إنى كنت أعمَل عملًا فى الجاهلية ، أفينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : ماعملك ؟ قال: أَضْلَلْتُ[١] ناقتين عُشَرَاوين[٢] ، فركبتُ جملًا ومضيت فى بُغَائهما، فرفع لى بيتٌ حريد[٣] ، فقصدتُه؛ فإذا شيخٌ جالس بفناء الدار، فسألتُه عن الناقتين، فقال : ما نارُهما[٤] ؟ قلت : مِيْسَمُ بنى دارم ، فقال : هما عندى ، وقد أحيا الله بهما قوماً من أهلك من مُضَر ؛ فجلستُ معه لتُخرَجا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجتْ من كِسْر البيت ، فقال لها : وضعَتْ ؟ فإن كان سَقْباً[٥] شاركنا فى أموالنا ، وإن كانت حائلًا[٦] وَأَدْناها . فقالت العجوز : وضعتْ أنثى ، فقلت : أتبيعُها ؟ قال : وهل تبيع العربُ أولادها ؟ قلت : إنما أشترى منـك حياتَها ، ولا أشترى رِقَّها. قال : فبكم ؟ قلت : احتَكِم . قال : بالناقتين والجمل . قلت : ذلك لك ، على أن يبلغنى الجملُ وإيَّاها . ففعل .

فآمنت بك يا رسول الله ، وقد صارت لى سُنَّةً فى العرب ، على أن أشترى كل موءودة بناقتين عُشَرَاوين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة ، قد أنقذتُها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينفعُك ذلك ؛ لأنك لم تبتغ به وجهَ الله ، وإنْ تعمل فى إسلامِك عملًا صالحاً تُثَبْ عليه .

* الكامل للمبرد : ١ — ٢٨٩ ، أمثال الميدانى : ١ — ٣٨٩

(١) أضللت : صادفتهما ضالتين (٢) عشراوين : العشراء : الناقة التى قد أتى عليها منذ حملت عشرة أشهر (٣) بيت حريد : متنح عن الناس (٤) ما نارهما : ما وسمهما (٥) السقب : الذكر من ولد الناقة ساعة يولد (٦) الحائل : الأنثى من أولاد الأبل ساعة توضع .

١٣ — أعجب السرقات*

قال أبو الهَيْثَم :

اجتمع مالكُ بن[١] الرَّيب وأبُو حَرْدَبَة وشِظَاظ يوماً، فقالوا : تَعَالَوْا نتحدث بأعجب ما عمِلْنَاه فى سرقتنا ، فقال أبو حَرْدَبَة :

أعجبُ ما صنعتُ وأعجب ما سرقتُ أنى صحِبْتُ رفقةً ، فيها رجلٌ على رَحْلٍ فأعجبنى ، فقلت لصاحبى : والله لأسرقنَّ رَحْلَهُ ، ثم لا رضيتُ أو آخذ عليه جِعَالَةَ[٢] .

فرمقْتُه حتى رأيتـه قد خَفَقَ[٣] برأسه ، فأخذت بخطَام[٤] جمـله فقُدْتُه ، وعدلت به عن الطريق ، حتى إذا صيَّرْته فى مكان لا يغاث فيه إن استغاث أنَخْتُ البعير وصرعتُه ، فأوثقتُ يديه ورجليه وقدتُ الجمل فغيَّبته ، ثم رجعتُ إلى الرُّفقة ، وقد فقدوا صاحبهم فهم يسترجعون[٥] ، فقلت : ما لكم؟ فقالوا : صاحبٌ لنا فقدناه؛ فقلت : أنا أعلمُ الناس بأثره ؛ فجعلوا لى جِعَالة ، فخرجت بهمْ أتبع الأثر حتى وقفوا

---

* الأغانى : ١٩ — ١٦٣ (طبعة الساسى)

(١) هو مالك بن الريب كان من أجمل العرب وأبينهم ،ومر به سعيد بن عثمان بن عفان — لما ولاه معاوية خراسان ، ومالك فى نفر من أصحابه — فقال له : ويحك يامالك ! ما الذى يدعوك إلى ما يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال : أصلح الله الأمير ؛ العجز عن مكافأة الإخوان ، قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل؟ قال : نعم أكف كأحسن ما كف أحد. فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار،وكان معه حتى قتل بخراسان، ثم مكث مالك بخراسان حتى مات هناك

(٢) الجعالة : ما يفرض على العمل (٣) خفق برأسه : نام (٤) الخطام : الزمام

(٥) استرجع عند المصيبة : قال إنا لله وإنا إليه راجعون .

عليه فقالوا : مالك ؟ قال : لا أدرى، نَعَسْتُ ، فانتبهتُ لخمسين فارساً قد أخذونى ؛ فقاتلتُهم فغلبونى !

قال أبو حَرْدَبَة : فجعلت أضحك من كذبه ، وأعطونى جِعَالتى ، وذهبوا بصاحبهم .

وأعجب ما سرقت : أنه مرّ بى رجلٌ معه ناقة وجمل وهو على الناقة ، فقلت : لآخذنّهما جميعاً ، فجعلت أُعارضه وقد رأيته قد خفَق برأسه ، فدُرْت فأخذتُ الجمل فحللتُه وسقته، فغيّبته فى القَصيم[1]، ثم انتبه فالتفتَ فلم يرَ جَمَلَه، فنزل وعقل راحلته، ومضى فى طلب الجمل ، ودُرْتُ ؛ فحللت عقال ناقته ، وسُقتها !

فقالوا لأبى حردبة : ويحك ! فحتّام تكون هكذا ؟ قال : اسكتوا فكأنكم بى قد تُبْتُ ، واشتريت فرساً وخرجتُ ، فبينما أنا واقفٌ إذ جاءنى سهمٌ كأنه قطعة رِشاء[2]، فوقع فى نحرى فمتُّ شهيداً .

قال الراوى : فكان كذلك ؛ تابوقدم البصرة، فاشترى فرساً، وغزا الروم فأصابه سهمٌ فى نحره ؛ فاستشهد !

ثم قالوا لِشظَاظ : أخبرنا أنت بأعجب ما أخذت فى لصوصيتك ورأيت فيها ! فقال : نعم ، كان فلان (رجلٌ من أهل البصرة) له بنت عم ذاتُ مال كثير، وهو وليُّها، وكانت له نسوة، فأبت أن تتزوجه، فحلف ألا يزوّجها من أحدٍ ضِرَاراً لها، وكان يخطبها رجلٌ غنى من أهل البصرة ، فأبى أن يزوجَها منه ، ثم إن ولىّ الأمر حجّ ، حتى إذا كان بالدوّ[3] مات، فدفن برابية وشيد على قبره ، فتزوجت الرجل الذى كان يخطبها.

---

(١) القصيم : الموضع الذى كانوا يسرقون فيه . (٢) الرشاء : رسن الدلو . (٣) الدو : مكان على مرحلة من البصرة .

قال شظاظ : وخرجت رفقةٌ من البصرة معهم بَزٌّ ومتاع، فتبصرتُهم وما معهم واتبعتهم حتى نزلوا ، فلما ناموا بيَّتُّهم[1] وأخذتُ من متاعهم. ثم إن القوم أخذونى وضربونى ضرباً شديداً وجرَّدونى ، وذلك فى ليلة قَرَّة[2] ، وسلبونى كل قليل وكثير ؛ فتركونى عُرياناً وتماوتُّ لهم ، وارتحل القوم ، فقلت : كيف أصنع ؟ ثم ذكرت قَبْر الرجل ، فأتيته فنزعت لوحاً ثم احتفرت فيه سَرَباً[3] ؛ فدخلت فيه ؛ ثم سَدَدْتُ علىَّ باللوح ، وقلت : لعلى الآن أدفأ فأتبعهم .

ومر الرجلُ الذى تزوج بالمرأة فى الرُّفقة. فمر بالقبر الذى أنا فيه فوقف عليه وقال لرفيقه : والله لأنزلن إلى قبر فلان ، حتى أنظر هل يحمى الآن فلانة !

قال شظاظ : فعرفتُ صوته فقلعت اللوح ، ثم خرجتُ عليه بالسيف من القبر ، وقلتُ : بلى ورب الكعبة لأحمينَّها ، فوقع والله مغشيًّا عليه لا يتحرك ولا يعقِل ، فجلستُ على راحلته ، وعليها كل أداة وثياب ونَقْد كان معه ، ثم وجهتها قَصْدَ مطلع الشمس هارباً من الناس فنجوتُ بها ؛ فكنتُ بعد ذلك أسمعه يحدّث الناس بالبصرة ويحلفُ لهم أن الميتَ الذى كان منعه من تزويج المرأة خرج عليه من قبره ، والناسُ يعجبون منه ؛ فعاقلهم يكذّبه ، والأحمق منهم يصدقه ، وأنا أعرف القصةَ فأضحك منهم كالمتعجب !

قالوا : فزدنا . قال : فأنا أزيدكم أعجب من هذا وأحمق من هذا : إنى لأمشى فى الطريق أبتغى شيئاً أسرقُه فلا والله ما وجدتُ شيئاً ، وإذا أنا بشجرة ينام من تحتها الركبان فى مكان ليس فيه ظلٌّ غيرها ، وإذا أنا برجلٍ يسير على حمار له،

---

(١) بيت فلان بنى فلان : إذا أتاهم ليلا ، فكبسهم وهم غارون . (٢) ليلة قرة : باردة .
(٣) السرب : بيت فى الأرض .

فقلت له : أتسمع ! قال : نعم . قلت : إن المَقيلَ الذى تريدُ أن تَقيلَه يُخْسَفُ بالدواب فيه ، فاحذره . فلم يلتفت إلى قولى ، ورمقتُه حتى إذا نام أقبلتُ على حمره فاستقْتُه ، حتى إذا برَّزْتُ به قطعت طَرَف ذنبه وأذنيه ، وأخذت الحمار فخبأته ، وأبصرته حين استيقظ من نومه ، فقام يطلب الحمار ويَقْفُو أثره ؛ فبينما هو كذلك إذ نظر إلى طَرَف ذنبه وأذنيه ، فقال : لَعمرى لقد حَذَّرْتُ لو نفعنى الحذر؛ واستمر هارباً خوف أن يخسف به . فأخذتُ جميعَ ما بقى من رحله فحملتُه على الحمار !

١٤ — أعرابى فى عُرْس*

قال الفضْل بن العباس الهاشمى :

كان ناهض بن ثُو مة الكلابى يفد على جَدِّى قُثَم ، فيمدحه ويَصِلُه جدى وغيرُه ، وكان بدوِيًّا جافيًا كأنه من الوحش ؛ إلا أنه طيِّب الحديث .

حدّثه يومًا : أنهم انتجعوا ناحيةَ الشام فقصد صديقًا له من ولد خالد بن يزيد ابن معاوية ؛ كان ينزل حلب وكان برًّا به .

قال : فمررت بقرية يقال لها قرية بكر بن عاصم الهلالى ، فرأيت دُوراً مُتَبَاينة وخِصاصًا[1] قد ضُمّ بعضها إلى بعض، وإذا بها ناسٌ كثيرون مقبلون ومُدْبِرون، عليهم ثياب تَحْــكى[2] ألوانَ الزَّهر، فقلت فى نفسى : هذا أَحَدُ العيدين : الأضحى أو الفطر، ثم ثاب إلىّ ماعَزَب[3] عن عقلى، فقلت : خرجت من أهلى فى بادية البَصْرة فى صَفَر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك ، فما هذا الذى أرى !

وبينا أنا واقف متعجب أتانى رجل ، فأخذ بيدى فأدخلنى داراً قَوْراء[4] ، وأدخلنى منها بيتاً قد نُجِّدَتْ فيـه فرش ومُهِّدت ، وعليها شاب يَنال فرعُ شعره مَنْــكبَيه ، والناس حوله سِماطان[5] ، فقلت فى نفسى : هذا الأمير الذى حُكِىَ لنا جلوسُه ، وجلوس الناس بين يديه . فقلت ـ وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته . فجذَبَ رجلٌ يدى وقال : اجلس ، فإن هذا ليس

---

* الأغاني : ١٢ ـ ٣٣ (طبعة الساسى)

(١) الخصاص : جمع خص ، وهو البيت من القصب . (٢) تحكى : تشبه . (٣) ماعزب : مابعد ، وذهب . (٤) دار قوراء : واسعة . (٥) السماط : الصف .

بأمير . قلت : فَمَنْ هو ؟ قال : عَروس[١] . فقلت : واثُكل أمّاه ! لَرُبَّ عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من هَنَة[٢] !

فلم أَنْشَبْ[٣] أن دخل رجالٌ يحملون آنات[٤] مُدَوَّرات ، أمّا ما خفّ منها فيُحْمَل حَمْلا ، وأما ما كَبُر وثَقُل فيُدحرَج ، فوُضع ذلك أمامنا ، وتحلّق القوم عليه حَلَقاً ، ثم أُتينا بخِرَق بيض فأُلقِيَتْ بين أيدينا ، فظننتها ثياباً ، وهممت أن أسأل القوم منها خِرقاً أُرَقِّعُ بها قميصى ، وذلك أنى رأيت نَسْجاً متلاحماً ، لا يبين له سَدًى ولا لُحْمَة[٥] ؛ فلما بسطه القوم بين أيديهم إذا هو يتمزّقُ سريعاً ، وإذا هو فيما زعموا صِنفٌ من الخبز لا أعرفه .

ثم أُتينا بطعام كثير بين حُلْو وحامض ، وحار وبارد ، فأكثرتُ منــــه ، وأنا لا أعلم ما فى عَقِبه من التُّخَم والبَشَم ، ثم أُتينا بشراب أحمر فى شَنّ[٦] ، فقلت: لاحاجة لى فيه ، فإنى أخاف أن يقتلنى ، وكان إلى جنبى رجل ناصح ـ أحسن الله جزاءه ، فإنه كان ينصح لى من بين أهل المجلس ـ فقال : يا أعرابى ؛ إنك قد أكثرت من الطعام ، وإن شربت المــــاء هَمَا[٧] بطنُك ، فلما ذكر البطن تذكرت شيئاً أوصانى به أبى ، والأشياخُ من أهلى ؛ إذ قالوا : لا تزال حيًّا مادام بطنك شديداً ، فإذا اختلف فأوص . فشربت من ذلك الشراب لأتداوى به ، وجعلت أُكثر منه فلا أملّ شربه ، فتداخلنى من ذلك صَلَف لا أعرفه من نفسى ، وبكاء لا أعرف سببه ، ولا عهد لى بمثله ، واقتدار على أمر أظن معه أنى

---

(١) العروس : الرجل والمرأة مادامًا فى أعراسهما ، وهم عرس ، وهن عرائس . (٢) الهنة : كناية عن خسيس الشىء . (٣) لم أنشب : لم ألبث ، قال فى اللسان : وحقيقته لم يتعلق بشىء غيره ، ولا اشتغل بسواه . (٤) آنات : جمع غير قياسى لإناء . (٥) السدى من خيوط الثوب : مامد منها طولاً ، واللحمة : مامد منها عرضاً . (٦) الشن : القربة الخلق الصغيرة .
(٧) هما : سال .

لو أردتُ نيلَ السقف لبلغتُه ، ولو شَأَوتُ الأسد لقتلته : وجعت ألتفت إلى الرجل الناصح ، فتحدثنى نفسى بهتْم أسنانه ، وهشم أنفه ، وأهمّ أحياناً أن أشتمه .

فبينا نحن كذلك إذ هجم علينا شياطينُ أربعة : أحدهم قد علّق فى عنقه جَعْبةً فارسية ، مفتّحة الطرفين ، دقيقة الوسط ، قد شُبكت بخيوط ، وأُلبست قطعة فَرْو ، كأنهم يخافون عليها القرّ . ثم بدر الثانى ، فستخرج من كُمّه هَنَةً سوداء فوضعها فى فيه، وأخرج صوتاً لم أسمع ـ وبيتِ الله ـ أعجب منه ، فاستتمّ بها أمرهم ، ثم حرك أصابعه فيها فأخرج منها أصواتاً ليس كما بدأ ، ولكنه أتى منها ـ لما حرك أصابعه ـ بصوت عجيب ، متلائم متشا كل بعضه لبعض، كأنه ـ علم الله ـ ينطق به . ثم بدا ثالث له وَجهٌ كزٌّ مقيت[1] ، عليه قميص وسخ ومعه مرآتان فجعل يصفّق بهما بيديه إحداهما على الأخرى، فخالط بصوته ما يفعله الرجلان . ثم بدا رابع عليه قميص ، وسراويل قصيرة ، وخُفّان أجذمان ، لا ساق لواحد منهما ، فجعل يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ثم تلبّط[2] على الأرض ، فقلت : مَعْتُوه وربِّ الكعبة ! ثم ما برح مكانه حتى كان أغبط القوم عندى،ورأيت القوم يحذِفُونه[3] بالدراهم حَذْفاً منكراً ؛ ثم أرسل النساء إلينا:أن أمتِعونا من لهوكم هذا ؛ فبعثوا بهم، وجعلنا نسمع أصواتهم من بعد .

كان معنا فى البيت شاب لا آبه[4] له ، فَعَلت الأصواتُ بالثناء عليه والدعاء له ، فخرج وجاء بخشبة عيناها فى صدرها ، فيها خيوط أربعة ، فاستخرج من خلالها عوداً ، فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها ، وحركها بخشبة فى يده، فنطقت ورب

---

(١) وجه كز : قبيح. مقيت : ممقوت مكروه . (٢) تلبط : اضطجع وتمرغ .
(٣) يحذفونه : يرمونه . (٤) لا آبه له : لا أهتم به .

الـكعبة ! وإذا هى أحسنُ قَيْنة[١] رأيتها قطّ ! فأطربنى حتى استخفّنى من مجلسى، فوثبت وجلست بين يديه، وقلت : بأبى أنت وأمى ! ما هذه الدابة؟ فلست أعرفها للأعراب ، وما أراها خُلقت إلا قريباً ! فقال : هذا البَرْبط[٢] . فقلت : بأبى أنت وأمى ! فما هذا الخيط الأسفل؟ قال : الزّير[٣]. قلت : فالذى يليه ؟ قال : المثنى[٤]. قلت : فالثالث ؟ قال : المُثَلَّث[٥] . قلت : فالأعلى ؟ قال : البَمّ[٦] . فقلت : آمنت بالله أولًا ، وبك ثانياً ، وبالبربط ثالثاً ، وبالبَم رابعاً .

قال الفضل : فضحك أبى والله حتى سقط؛ وجعل ناهض يَعْجَبُ من ضحكه! ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث ؛ ويُطْرف به إخوانه فيضحكون منه .

---

(١) القينة : الأمة المغنية . (٢) البربط : العود معرب (بربط) ـ بكسر الراء ـ وهو آلة من المعازف . (٣) الزير : من أوتار العود . (٤) المثنى : الذى يلى الزير . (٥) المثلث : الذى يلى المثنى . (٦) البم : الذى يلى المثلث ، وهو أغلظ الأوتار.

١٥ — أطيب الطَّعَام*

صنعَ عبدُ الملك[١] بن مَرْوان طعاماً فأكثَر وأطاب[٢] ، ودعا إليه الناسَ فأكلوا . فقال بعضهم : ما أطيبَ هذا الطعام ! ما نرى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيبَ منه . فقال أعرابى من ناحية القوم : أمّا أكثر فلا، وأما أطيب فقد والله أكلتُ أطيبَ منه . فطفقوا يضحكون من قوله .

فأشار إليه عبدالملك فأُدْنِىَ منــه ؛ فقال : ما أنتَ بمُحِقٍّ فيما تقول إلا أنْ تُخبِرَنى بما يَبِينُ به صدقُك . فقال : نعم ياأميرالمؤمنين ؛ بينا أنا بهَجَر[٣] فى بَرْثٍ[٤] أحمر فى أقصى حَجْرٍ[٥] إذ تُوُفِّىَ أبى ، وترَكَ كَلًّا[٦] وعِيَـالا ، وكان له نخـل ، فـكانت فيه نخلة لم ينظر الناظرون إلى مثلها ، كأن تمرها أخفافُ الرِّباع[٧] ، لم يُرَ تمرٌ قطُّ أغلظ ولا أصلَبُ ولا أصغرُ نَوًى ولا أحلَى حلاوةً منه .

وكانت تَطرُقُها أتان وحشيَّة قد أَلِفَتْها تأوِى الليلَ تحتها ، فـكانت تُثْبِتُ رجليهـــا فى أصلها ، وترفع يديهـــا ، وتَعْطُو[٨] بفيها فلا تترُكُ فيها إلا النبيذ[٩] والمتفرق ؛ فأعْظَمنى ذلك ووقع منى كلَّ موقع .

فانطلقتُ بقَوْسِى وأسهمى ، وأنا أظنُّ أنى أرجع من ساعتى ؛ فمـكثتُ يوماً

* الأغانى : ٨ — ٤٠ (طبعة دار الـكتب) .

(١) من أعاظم الخلفاء ، نشأ فى المدينة ، واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة سنة ٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٨٦ هـ . (٢) أطاب الشىء : طيبه . (٣) هجر : مدينة بالبحرين مشهورة بالتمر .
(٤) البرث : الأرض اللينة السهلة . (٥) فى أقصى حجر : أى فى أبعد ناحية .
(٦) الـكل : العيال والثقل . (٧) الرباع : جمع ربع وهو الفصيل ينتج فى الربيع .
(٨) تعطو : تتناول . (٩) النبيذ : المنبوذ .

وليلة لا أراها ، حتى إذا كان السَّحَر أقبَلَتْ ، فتهيّأتُ لها فرشقتُها فأصبْتُها ، وأجْهَزْت عليها ، ثم عَمَدتُ إلى سُرَّتِها فاقتَدَدْتُها ، ثم عَمَدتُ إلى حَطَب جَزْل فجمعته إلى رَضْف[1] ، وعَمَدتُ إلى زَنْدِي فقدحتُ ، وأضرمْتُ النـــار في ذلك الحطب ، وألقيتُ سُرَّتها فيه ، وأدركني نومُ الشباب فلم يُوقظني إلّا حرُّ الشمس في ظهري ، فانطلقتُ إليها فـكشفتُها وألقيتُ ما عليها من قذًى وسواد ورماد ، ثم قلبت منها مثل المُلَاءة البيضاء ، فألقيتُ عليهـا من رُطَب تلك النخلة المجزّعة[2] والمنصفة ، فسمعتُ لها أطيطاً[3] كتداعي عامر وغَطَفان ، ثم أقبلتُ أتنـــاول الشَّحْمَة واللحمة فأضعها بين التمرتين وأهوى بها إلى فمي ، فما أحلف إني ما أكلتُ طعاماً مثله قط !

فقال له عبد الملك : لقـــد أكلتَ طعاماً طيباً ، فمن أنت ؟ قال : أنا رجلٌ جانَبتني عَنْعَنَةُ[4] تميم وأسد وكشكشةُ[5] ربيعة ، وحُوشيُّ[6] أهل اليمن - وإن كنتُ منهم . فقال : من أيهم أنت؟ قال : من أخوالك من عُذْرَة . قال : أولئك فصحاء الناس؛ فهل لك علمٌ بالشعر؟ قال: سَلْني عمّا بدا لك ياأمير المؤمنين . قال : أيّ بيت قالته العرب أمدح ؟ قال : قول جرير :

ألستم خيرَ من رَكِبَ المطايا وأندى العالمين بطون راحِ[7]

وكان جرير في القوم ؛ فرفع رأسه وتطاول لها . ثم قال: فأي بيت قالته العرب أفخر ؟ قال : قول جرير :

---

(١) الرضف: الحجارة المحماة بالشمس أو النار . (٢) جزع البسر: إذا بلغ الإرطاب بعضه . ونصف البسر: إذا بلغ الإرطاب نصفه . (٣) الأطيط :الصوت . (٤) العنعنة : إبدال العين من الهمزة . (٥) الكشكشة : جعل الشين مكان الكاف . (٦) الحوشي : الغامض . (٧) راح : جمع راحة ، وهي الكف .

إذا غضبَتْ عليكَ بنو تميم حَسِبْتَ الناسَ كلهمُ غِضَابَا

فتحرَّكَ لها جرير . ثم قال له : فأيّ بيت أهجى ؟ قال : قول جرير :

فغُضَّ الطرف إنَّكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغْتَ ولا كِلَابَا

فاستشرف لها جرير ، ثم قال : فأى بيت أغْزَل ؟ قال : قول جرير :

إنَّ العيونَ التى فى طَرْفها مَرَضٌ قتَلْننَا ثم لم يُحْيِين قتْلَانَا

فاهتَزَّ جرير وطرب . ثم قال له : فأى بيت قالته العرب أحسن تشبيهاً ! قال : قول جرير :

سَرَى نحوَهم ليلٌ كأن نجومَه قَنَاديلُ فيهن الذُّبَال[1] المفَتَّلُ

فقال جرير : جائزتى للعُذْرىّ ياأمير المؤمنين . فقال له عبد الملك: لهمثلُها من بيت المال، ولك جائزتُك ياجرير لاتُنْتَقَصُ منها شيئاً . وكانت جائزةُ جرير أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكُسْوة . فخرج العُذرِىّ وفى يده اليُمنى ثمانية آلاف درهم ، وفى اليد اليسرى رِزْمَةُ ثيابٍ !

---

(١) الذبالة : الفتيلة التى توضع فى القنديل ، يوضع فيه الزيت ليستضاء به .

١٦ — جَحْدَر *

كان جَحْدَر بن ربيعة من لصوص العرب وشياطينهم ، يغير على أحيائهم فينهَبُها ، وربما فتك بمن تعرّض له ؛ واشتدَّ شَرُّهُ فى أيام الوليد بن عبد الملك ، حتى أباد خَلْقاً كثيراً .

فبلغ أمرُه الحجّاجَ(١) ؛ فكتب إلى عامله باليمامة يؤنّبه لعجزه عن الضرب على يدىْ ذلك الفاتك ، وأمَره أن يُوقِعَ به ، أو يحملَه إليه أسيراً .

فأوطأ(٢) العاملُ جماعة من فِتْيَة بنى حَنْظَلة ، وجعل لهم الجعائل(٣) العظيمة إن هم أتَوْه به مَغْلولاً(٤) أو مقتولا !

فأرسلوا إليه يقولون : إنهم يريدون الانقطاعَ إليه ، والخضوعَ لأمره ؛ فأَخْلَد جَحْدَر إلى قولهم ، وأدخلهم فى صُحبته. فأخذوا ينهبون تحت لوائه، إلى أن صادفوا منه غِرّة(٥) فشدُّوا وِثاقه ، وقدموا به إلى العامل الذى وجّههم به إلى الحجاج .

فلما مَثَلُوا(٦) بين يديه قال الحجاج : أنت جَحْدر ؟ قال : نعم، فقال : وما جرّأك على ما بلغنى عنك ؟ قال : جَوْر الزمان، وجراءة الجنَان ! قال : وما بلغ من أمرك؟ قال : لو ابتلانى الأمير ، وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه .

فقال : يا جحدر ؛ إنى قاذفٌ بك إلى حَفِيرة بها سبعٌ شرِس ، فإن قتلك

---

* المستطرف : ١ — ٢٢٤ ، المحاسن والمساوى : ٧٧ (طبع ليبزج) .

(١) نشأ بالطائف، وولى العراق والمشرق ، وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ . (٢) أوطأ جماعة : اتفق معهم . (٣) الجعالة: ما جعل للإنسان من شىء على فعل . (٤) الغل : طوق من الحديد يجعل فى العنق . (٥) الغرة : الغفلة . (٦) مثلوا : قاموا .

كفانا مئونتك ، وإن قتلته عفونا عنك لشجاعتك ! فقال : أصلح الله الأمير! لقد قَرُب الفرج !

فأمر الحجاج بحبسه ، وكتب إلى العامل أن يرتاد[١] له سَبُعاً عَتيًّا[٢] ، ويحمله إليه . فارتاد له أسداً خبيثاً كريه المنظر ، قد أفنى جميع ما باليمامة من حيوان ، ووضعه فى قفص من حديد ، وأنفذه إلى الحجاج .

فأمر أن يُلْقى فى الحفيرة ، ولا يُطعم شيئاً ثلاثة أيام ، حتى إذا ما اشتد به الجوع ، أُخرج إليه جحدر ، وما أُعطى إلا سيفاً ، والحجاجُ مشرف على الحفيرة ؛ والناسُ حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بفريسته !

فلما رُفع[٣] له نهض وزأر زئيراً رجّ الجبال، وراع الحاضرين ، فأنشد جحدر :

ليثٌ وليثٌ فى مجالٍ ضَنْكِ ... كلاهما ذو قوّة وسَفْك
وصَوْلةٍ وبطْشَــةٍ وفَتْكِ ... إن يكشفِ الله قِناعَ الشكّ
فأنتَ لى فى قبضتى ومِلْكى

ثم أدْلِىَ به ، فوقع عليه وقوعَ الصاعقة ، فصرخ الأسدُ عند رُؤيته صرخة عظيمة ، فأجابه هو بأعظم منها ، وضربه بسيفه ضربة فلقَتْ هامته ؛ فكبّر الناس ، وأعجب به الحجاج ، وقال : لله دَرُّك[٤] ! ما أنجدك[٥] !

ثم خيّره بين أن يُقيم عنده مكرماً ، أو يلحق ببلاده على ألّا يؤذىَ أحداً ، ولا يحدث حدثاً؛ فاختارَ جحدر الإقامة معه، وأحسن أدبه، حتى حَظِى عنده وجعله من سُمّاره وخواصه ؛ وبعد ذلك بزمن غير طويل ولّاه اليمامة ، ومكث فيها مدة ، قام فيها بأعباء الولاية خيرَ قيام .

---

(١) يرتاد: يطلب (٢) العتى: ماجاوز الحد، ويقصد : الشديد الهائل . (٣) رفع : ظهر من بعيد.
(٤) الدر : العمل من خير أو شر ؛ ولله درك أى لله عملك ؛ يقال لمن يمدح ويتعجب من عمله .
(٥) ماأنجدك : ماأشجعك فيما يعجز عنه غيرك .

١٧ ـ صديقا ابن سُريج على قبره*

حدّث إسحاق بن يعقوب عن أبيه، قال:

إنّا لبِفِناء دار عمرو بن عثمان بالأبطح فى صُبْح خامسة من الثمان[1] ، فما إنْ دَرَيْتُ إلا برجل على راحلة ، على رَحْلٍ جميل وأَدَاةٍ حسنة ، معه صاحبٌ له على راحِلَةٍ قد جَنَبَ[2] إليها فرساً وبغلًا ، فوقفا علىّ وسألانى ، فانتسبتُ لهما عُثمانيا ، فنزلا وقالا : رجلان من أهلك أقدَمَتْنا حاجةٌ نحبُّ أن نقضيها قبل أن نُشْدَه[3] بأمر الحج ؛ فقلت : ماحاجتُكما ؟ قالا : نريد إنسانا يَقِفُنا على قبر عُبيد بن سُريج !

قال : فنهضت معهما حتى بلغتُ بهما مَحَـلَّةَ بنى قَارَة من خُزَاعة بمكة ، وهم موالى عُبَيْـد بن سُرَيج[4] ، ثم التمستُ لهما إنسانا يصحَبُهُما حتى يقفهما على قبره بدَسْمٍ[5] ، فوجدتُ ابنَ أبى دُبَاكِل فأنْهَضْتُهُ معهما . ثم أخبرنى بعدُ : أنه لما أوقفهما على قبره نزل أحدُهما فحسرَ عمامته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله ابنُ سعيد بن عبد الملك بن مَرْوان ، فعقَرَ ناقته ، واندفع يندبُه بصوتٍ شجىٍّ كليلٍ حَسَن :

وقَفْنَا على قـبرٍ بدسْمٍ فهاجَنَا ... وذكَّرَنا بالعيش إذ هو مُصْحِبُ[6]

---

* الأغانى : ١ ـ ٣٢٠ (طبعة دار الكتب).

(١) أى من أيام الحج . (٢) جنب فرساً : أى قاده إلى جنبه . (٣) نشده : نشغل .

(٤) كان عبيد بن سريج مغنياً من أهل مكة ، كان يغنى مرتجلا ويوقع بقضيب ، ويضرب بالعود ؛ غنى فى خلافة عثمان بن عفان ، وتوفى فى خلافة هشام بن عبد الملك ، مات نحو سنة ٩٨ هـ .

(٥) دسم : موضع قرب مكة . (٦) المصحب : الذليل المنقاد بعد صعوبة .

فجالت بأرجاء الجفون سَوَافحٌ　　من الدَّمعِ تستتلي الذى يتعقَّبُ
إذا أبطأتْ عن ساحة الخدِّ ساقها　　دمٌ بعــــد دمعٍ إثرَهُ يتَصَبَّبُ
فإن تُسْعِداً نندُب عُبيداً بِعَوْلَةٍ[1]　　وقَلَّ له مِنَّا البُكا والتَّحَوُّبُ[2]

ثم نزل صاحبُــه فعقر ناقَتَه . وقال له القُرَشِيُّ : خُذْ فى صوت أبى يحيى ؛ فاندفع يُغَنِّى :

أَسْعِدَانِى بعَـــبْرَةٍ أسْرَابِ[3]　　من دموعٍ كثيرةِ التسكابِ
إنَّ أهلَ الحِصَابِ[4] قد تركونى　　مُولَهًا مولَعًا بأهلِ الحِصابِ
أهلِ بيتٍ تتايعوا[5] للمنـــايا　　ما على الموت بعدَهمْ من عِتَابِ
فارقونى وقد علمتُ يقينـــاً　　ما لمنْ ذاقَ ميتةً من إيابِ
كم بذاك الحَجُونِ[6] من حَيّ صدقٍ　　من كهولٍ أعِفَّـــةٍ وشبابِ
سكنوا الجزْعَ جَزْعَ بيت أبى مو　　سى إلى النخل من صُفِيِّ السِّبَابِ[7]
فَلِيَ الوَيلُ بعـــدهم وعليهمْ　　صِرْتُ فرداً وَمَلَّنِى أصحـــابى

قال ابنُ أبى دُبَاكِل : فو الله ماتَمَّمَ صاحبُه منها ثلاثاً حتى غُشِيَ على صاحبه، وأقبــل يصلِــحُ السرج على بغلته وهو غير مُعَرِّج عليه . فسألته من هو ؟ فقال : رجلٌ من جُذَام . قلتُ : بمن تعرَفُ . قال : بعبد الله بن المُنْتَشِر . قال : ولم يَزَل القرشيُّ على حاله ساعة ، ثم أفاق .

ثم جعل الجُذَامى ينْضَحُ المــاء على وجهه ، ويقول كالمعاتب له : أنت أبداً

---

(١) أعول : ارتفع بكاؤه ، والاسم العولة . (٢) التحوب : التوجع . (٣) أسراب : جمع سرب وهو الماء السائل . (٤) الحصاب : موضع الجمار . (٥) التتايع : الوقوع فى الشر من غير فكر ولا روية. (٦) الحجون : جبل بأعلى مكة عند مدافن أهلها . (٧) صفى السباب : موضع بمكة ، والمراد بأبى موسى أبو موسى الأشعرى .

مَعْصُوبٌ[1] على نفسك ، ومَنْ كلَّفك ما ترى ! ثم قرب إليه الفرس ؛ فلما علاه استخرج الُجذامىّ من خُرْج على بَغْلٍ قدحاً وإدَاوَةَ ماء ، فجعل فى القدح تراباً من تراب قبر ابن سريج وصبَّ عليه ماء من الإدَاوة . ثم قال : هاك فاشرب هذه السَّلْوَة[2] ، فشرب . ثم فعل هو مثل ذلك وركب البغل وأرْدَفنى .

فخرجا والله ما يعرّضان بذكر شىء مما كانا فيه ، ولا أرى فى وجوههما شيئاً مما كنتُ أرى قبل ذلك .

فلما اشتمل علينا أبْطَح مكة قالا : انزلْ يا خزاعىّ ! فنزلت ، وأومأ الفتى إلى الُجذامى بكلامٍ ، فمدَّ يده إلىَّ وفيها شىء فأخذتُه فإذا هو عشرون ديناراً ، ومضيا .

فانصرفت إلى قبره ببعيرين فاحتملتُ عليهما أداةَ الراحلتين اللتين عقراها فبعتُهما بثلاثين ديناراً !

---

(١) معصوب على نفسك : أى تحنوت على اتباعها تستغويك فتسلس لها القياد . (٢) السلوة : أن يؤخذ من تراب قبر ميت فيذر على الماء ويسقاه العاشق ليسلو .

١٨ ـ قوة وبطش*

كان هلال[1] فارساً شجاعاً شديد البأس والبَطْش ، أكثرَ الناس أكْلا ، وأعظَمهم فى حَرْبٍ غَناء . وكان يَرِدُ مع الإبل فيأكلُ ما وجد عند أهله ، ثم يَرْجع إليها ولا يتزود طعاماً ولا شراباً حتى يوم وردها ، لا يذوقُ فيما بين ذلك طعاماً ولا شراباً ، وكان عاديَّ الخَلْق[2] ، ولا تُوصفُ صِفَتُه .

وكان يوماً فى إبل له ، وذلك عند الظَّهيرة فى يوم شديدِ وَقْعِ الشمس، مُحْتدِمِ الهاجِرة[3] ، وقد عمد إلى عصاه فطرح عليها كساءه ، ثم أدخل رأسه تحت كسائه من الشمس ؛ فبينما هو كذلك إذ مرَّ به رجلان : أحدهما من بنى نَهْشل ، والآخرُ من بنى فُقَيْم ، كانا أشدَّ تميميَّيْنِ فى ذلك الزمان بَطْشاً ، وقد أقبلا من البحرين ، ومعهما أنْوَاط[4] من تمر هَجَر[5] ، وكان هِلَالٌ بناحية الصَّمّاب[6] .

فلما انتهيا إلى الإبل ـ ولا يعرفان هِلَالًا بوجهه ، ولا يعرفان أن الإبل له ـ نَادياً : ياراعى ، أعندكَ شرابٌ تسقِينا ؟ وهما يظنانه عبداً ـ فناداهما هلال ورأسُه تحت كسائه : عليكما بالناقة التى صفتُها كذا فى موضع كذا ، فأنيخاهَا ؛ فإن عليها وَطْبَيْنِ[7] من لبن ، فاشربا منهما ما بَدَا لكما . فقال له أحدهما : وَيْحَكَ ؟ انهضْ

---

* الأغانى : ٣ ـ ٥٣٠ (طبعة دار الكتب).

(١) هلال بن الأسعر : شاعر اشتهر فى العصر الأموى ، وكان فارساً شجاعاً ، مات نحو ١٢٠ هـ

(٢) عادى الخلق : عملاق ضخم الجسم ، نسبة إلى عاد . (٣) الهاجرة : نصف النهار .

(٤) أنواط : جمع نوط ، والنوط : الجلة الصغيرة فيها التمر ونحوه . (٥) هجر : قاعدة البحرين ، مشهورة بالتمر ، وقيل : ناحية البحرين كلها هجر . (٦) الصماب : جبل بين اليمامة والبحرين .

(٧) الوطب : سقاء اللبن خاصة .

يا غلام فأتِ بذلك اللبن ! فقال لهما : إن تكُ لكما حاجة فستأتيانها ، فتحدران[1] الوطْبين فتشربان .

فقال أحدُهما : إنك لَغليظ الكلام ، قم فاسْقِنا ؛ ثم دنا من هلال وهو على تلك الحال ، فقال لهما — حيث قال له أحدهما : إنك لغليظ الكلام — أراكما والله ستَلْقيان هَواناً وَصغاراً ؛ وسَمِعا ذلك منه ؛ فدنا أحدُهما فأهْوى له ضرباً بالسَّوْط على عَجُزِه وهو مضطجع ، فتناول هِلَالٌ يدَه فاجتذبه إليه ، ورماه تحت فَخِذه ، ثم ضغطه ضَغْطةً ، فنادى صاحبَه : ويحك ! أَغِثْني قد قتلني ! فدنا صاحبهُ منه، فتناوله هلال أيضاً فاجتذَبه فرمى به تحت فخذه الأخرى ، ثم أخذ برِقابهما فجعل يَصُكُّ برءوسهما بعضاً ببعض ؛ لا يستطيعان أن يمتنعا منه .

فقال أحدهما : كُنْ هلالاً ولا نبالي ما صنعتَ ! فقال لهما : أنا والله هلال ، ولا والله لا تُفْلتان مني حتى تُعْطياني عهداً وميثاقاً لا تخيسان به[2] لتأتيانِّ المِرْبد؛[3] إذا قدمتما البصرة ، ثم لتناديانِّ بأعلى أصواتكما بما كان منّي ومنكما .

فماهَدَاه وأعطياه نَوْطاً[4] من التمر الذى معهما ، وقدما البصرة ، فأتيا المِرْبد ، فناديا بما كان منه ومنهما .

---

(١) حدر الشيء : أنزله من علو. (٢) لاتخيسان به : لاتغدران به ولاتنكثان .

(٣) المربد : موضع بالبصرة ؛ كان سوقا للإبل ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء .

(٤) نوط : جلة صغيرة فيها التمر .

١٩ ـ لا تعرضوا لهذا الشيطان*

حدَّث خالد عن كُنَيف بن عبد الله المازنىّ ؛ قال : كنتُ يوماً مع هِلَال ، ونحن نبغِى إبِلًالنا . فدَفَعْنَا إلى قوم ٍ من بَكْر بن وائل ، وقد لغِبْنا[1] وعَطِشْنا ، وإذا نحن بفِتْيةٍ شباب عند رَكِيَّةٍ[2] لهم ، وقد وَرَدَتْ إبلُهم ، فلمّا رأَوْا هِلَالًا استَهْوَلُوا خَلْقه وقامته .

فقام رجلان منهم إليه ، فقال له أحدهما : ياعبدَ الله ، هل لكَ فى الصِّراع ؟ فقال له هلال : أنا إلى غير ذلك أحوج . قال : وما هو؟ قال: إلى لبن وماء ؛ فإننى لَغِبٌ ظَمْآن ، قال : ما أنت بذائق من ذلك شيئاً حتى تعطِيَنا عهداً ؛ لتُجيبنَّنا إلى الصراع إذا أَرَحْتَ[3] ورَوِيتَ .

فقال لهما هلال : إننى لكم ضَيْف ، والضيفُ لا يُصارع ربَّ منزله ، وأنتم مكتَفون من ذلك بما أقولُ لكم : اعمِدوا إلى أشَدِّ فحل فى إبلكم وأهْيَبه صولة ، وإلى أشدِّ رجلٍ منكم ذِراعاً ؛ فإن لم أقبض على هامَةِ البعير وعلى يد صاحبكم فلا يمتنعُ الرجلُ ولا البعير حتى أُدْخِلَ يد الرجل فى فم البعير ، فإن لم أفعل ذلك فقد صرعتمونى ، وإن فعلتُه علمتم أن صراع أحدكم أيسرُ من ذلك .

فعجبوا من مَقَالته تلك ، وَأَوْمئوا إلى فَحْلٍ فى إبلهم هائج صائل قَطِم[4] ، فأتاه

* الأغانى : ٣ ـ ٥٥ (طبعة دار الكتب)

(١) لغب : تعب وأصابه الإعياء . (٢) الركية : البئر . (٣) أراح الرجل : رجعت إليه نفسه بعد الإعياء . (٤) القطم : المائج الذى صعب ركوبه .

هلال ومعه نفرٌ من أولئك القوم وشيخٌ لهم ، فأخذ بهامَة الفحل مما فوق مِشْفَرِه، فضغطها ضَغْطَةً جَرْجَرَ[١] الفَحْلُ منها واستَخْذَى[٢] وَرَغَا . وقال : ليُعْطِني من أحْبَبتُم يده أولجها في فم هذا الفحل .

فقال الشيخ : ياقوم، تنكَّبوا هذا الشيطان ، فوالله ماسمعتُ الفلان[٣] -يعني هذا الفحل- جَرْجَرَ منذ بَزَلَ[٤] قبل اليوم ، فلا تعرضوا لهذا الشيطان . وجعلوا يَتْبَعُونه وينظرون إلى خَطْوه ويَعْجَبون منه حتى جاوزَهم .

---

(١) جرجر : ردد صوته في حنجرته . (٢) استخذى : خضع . (٣) الفلان والفلانة : كناية عن غير الآدميين ، تقول : ركبت الفلان وركبت الفلانة ، أما فلان وفلانة فهما كناية عن أسماء الآدميين .

(٤) بزل البعير فهو بازل ، أي : دخل في سنته التاسعة .

٢٠ — هلال يصارع عبداً جبّاراً*

حدّث مَن سمع هلالًا يقول : قَدِمْتُ المدينةَ ، وعليها رجلٌ من آل مرْوان، فلم أزلْ أضَعُ عن إبلى، وعليها أحمالٌ للتّجار، حتى أُخِذَ بيدى، وقيل لى:أجِبِ الأمير.

قلت لهم : ويلكم ! إبلى وأحمالى ! فقيل : لا بأس على إبلك وأحمالك .

فانُطلِقَ بى حتى أُدخِلْتُ على الأمير ، فسلّمتُ عليه ، ثم قلت : جُعِلْتُ فداك ! إبلى وأمانتى ، فقال : نحن ضامِنُون لإبلك وأمانتك حتى نؤدِّيَهَا إليك ؛ فقلت عند ذلك : فما حاجة الأمير إلىَّ ؟ جعلنى الله فداه ! فقال لى — وإلى جنبه رجلٌ أصفر ، ما رأيت رجلًا قط أشد خَلْقاً منه ، ولا أغلظَ عُنقاً ، ما أدرى أطوله أكثر أم عَرْضه : إنّ هذا العبد الذى ترى ، ما ترك بالمدينة عربيًّا يُصارِع إلا صَرَعهُ ، وبلغنى عنك قوّةٌ فأردتُ أن يُجرِى الله صَرْعَ[1] هذا العبد على يدك ؛ فتُدْرِكَ ما عنده من أوتار العرب .

فقلت : جعلنى الله فداء الأمير ، إنى لَغِبٌ نَصِبٌ[2] جائعٌ ، فإن رأى الأمير أن يَدَعنى، حتى أضَع عن إبلى، وأؤدى أمانتى، وأُريحَ يومى هذا وأجيئه غدا — فليفعل.

فقال لأعوانه : انطلقوا معه فأعينوه على الوَضْعِ عن إبله وأداء أمانته ، ثُمّ انطلِقوا به إلى المطبخ فأشْبِعُوه . ففعلوا جميعَ ما أمرهم به . فظللْت بقيّة يومى ذلك، وبتُّ ليلتى تلك بأحسن حال شِبَعاً وراحةً وصلاح أمر ؛ فلما كان من الغد

---

* الأغانى : ٣ — ٥٦ (طبعة دار الكتب) .

(١) صرعه ، أى قتله . (٢) لغب : تعب وأصابه الإعياء . والنصب : أشد التعب .

غدوتُ عليه وعليَّ جُبَّةٌ لى صوف وَبَتٌّ[1] ، وليس عليَّ إزارٌ ، إلا أنى قد شددتُ بعمامتى وسطى . فسلَّمتُ فردَّ عليَّ السلام . وقال للأصفر : قم إليه ، فقد أرى اللهَ أتاك بما يُخزِيك . فقال العبد : ائتزرْ ياأعرابىّ، فأخذتُ بَتِّى فأتزَرْتُ به على جُبَّتى ؛ فقال : هيهات ! هذا لا يثبُت ، إذا قبضْتُ عليه جاء فى يدى؛فقلت: واللهِ مَالِى من إزَار .

فدعا الأمير بِمِلْحَفَةٍ مارأيت قبلها ، ولا عَلَا جلدى مثلُها ، فشددتُ بها على حَقْوِى[2] وخلعت الجُبَّة .

وجعل العبدُ يدور حولى ويريد خَتْلى وأنا منه وَجِل ، ولا أدرى كيف أصنع به ! ثم دنا منى دَنْوَةً ، فنَقَدَ[3] جَبْهتى بظُفْره نَقْدَةً ظننت أنه قد شجَّنى وأوْجَعنى . فغاظنى ذلك ، فجعلت أنظر فى خَلْقِهِ ؛ بِمَ أقبِضُ منه فما وجدت فى خلْقِه شيئاً أصغر من رأسِه ، فوضعتُ إبهامى فى صُدْغيه وأصابعى الأُخَر فى أصل أذنيه . ثم غمَزْتُه غمزة صاح منها : قتلتَنى قتلتَنى ! فقال الأمير : اغمسْ رأس العبد فى التراب . فقلت له : ذلك علىَّ .

فغمستُ واللهِ رأسَه فى التراب ، ووقع شبيهاً بالمغشِىِّ عليه . فضحك الأمير حتى استَلْقى ، وأمر لى بجائزة وصِلَةٍ وكُسوة ، وانصرفت .

---

(١) البت : كساء غليظ مهلهل مربع أخضر . (٢) الحقو : الخصر .

(٣) نقد الشىء : نقره بإصبعه .

٢١ — حديث عن الغَرِيّيْن *

قال المهدى ذات ليلة ـ وكان أميراً على الرَّى من قِبَل أبيه المنصور: ياشرقى[١]، أرِحْ قلبى بشىء يُلهيه ! قال : نعم أصلح الله الأمير !

ذكروا أنه كان فى ملوك[٢] الحيرة ملك له نديمان : قد نزلا من قلبه منزلة مكينة ، وكانا لا يفارقانه فى لَهْوِه ومنامه ويقظته ، وكان لا يقطعُ أمراً دونهما ، ولا يصدرُ إلَّا عن رأيهما ، فغبر بذلك دهراً طويلا .

فبينما هو ذات ليلة فى شُرْبه ولَهْوِه إذْ غلب عليه الشراب ؛ فأزال عَقْلَه ، فدعا بسَيْفه وانْتَضاه ، وشد عليهما فقتلهما ، وغلبَتْه عيناه فنام .

فلما أصبح سأل عنهما فأُخبر بما كان منه ؛ فأكبَّ على الأرضِ ؛ عاضًّا لها ؛ تأسُّفًا عليهما ، وجزَعًا لفراقهما ، وامتنع من الطعام والشراب ، ثم حلف لا يشرب شرابًا يُزْعج قلبه ما عاش! وواراهما وبنى على قبريهما بناءين ؛ وسماهما الغَرِيَّيْن[٣]، وسنَّ ألا يمرَّ بهما أحدٌ من الملِك فَمَنْ دونه إلا سَجد لهما ، وكان إذا سنَّ الملكُ سنة توارثوها ، وأحيَوْا ذكراها ولم يُميتوها ، وجعلوها عليهم حكما واجبًا وفرضًا لازمًا ، وأوصَى بها الآباء أعقابَهم .

فغَبر الناس بذلك دهراً طويلا ، لا يمرُّ أحد من صغير ولا كبير إلا سجد لهما؛

---

* مروج الذهب : ٢ ــ ٢٥٢ ، معجم البلدان : ٦ ــ ٢٨٣ .

(١) هو الشرقى بن القطامى : شاعر كلبي ، كان وافر الأدب ، عالما بالنسب ، وكان المنصور قد ضمه إلى المهدى حين خلفه بالرى ، وأمره أن يأخذه بحفظ أيام العرب ، ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار ، وقراءة الأشعار . (٢) ذكروا أنه النعمان بن المنذر . (٣) الغريان : بناءان بالكوفة ؛ قيل سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بدم من يقتله .

فصار ذلك سنّة لازمة كالشريعة والفريضة ، وحُكِمَ فيمن أبى أن يسجد لهما بالقتل بعد أن يُحْكم له بخصلتين يُجاب إليهما كائنا ما كان !

فمر يوما قصّار[1] معه كارة[2] ثياب ، وفيها مِدَقّته[3] ، فقال الموكلون بالغَرِيين للقصّار : اسجد ! فأبى أن يفعل . فقالوا له : إنك مقتول إن لم تفعل ؛ فأبى .

فرفعوه إلى الملك ، وأخبروه بقصته ، فقال : ما منعك أن تسجد ؟ قال : سجدت ولكن كذبوا علىّ ! قال : الباطلَ قلتَ ، فاحتكِم فى خصلتين ؛ فأنت مجابٌ إليهما ، وإنى قاتلك ! قال : لابدَّ من قتلى بقول هؤلاء ؟ قال : لابد من ذلك . قال : فإنى أحتكم أن أضرب رقبة الملك بمدقتى هذه! قال له الملك: ياجاهل؛ لو حكمت على أن أجْرِى على من تُخلِّف وراءك ما يعينهم كان أصلح لهم !

قال: ما أحْكم إلا بضَرْبةٍ لرقبة الملك ! فقال الملك لوزرائه: ماترون فيما حكم به هذا الجاهل ؟ قالوا : نرى أن هذه سُنّة ، وأنت أعلم بما فى نَقْض السُّنَن من العار والنار وعظم الإثم ، وأيضاً إنك متى نقضت سنة نقضت أخرى ، ثم يكونَ ذلك لِمن بعدك كما كان لك ، فتبطل السنن ؟

قال : فارغبوا إلى القَصّار أن يحكم بما شاء ويعفينى من هذه ؛ فإنى أجيبه إلى ما شاء ، ولو بلغ حكمه شَطْرَ ملكى ! فرغبوا إليه ، فقال : ما أحكم إلا بضربة فى عنق الملك !

فلما رأى الملك ذلك وما عزم عليه القَصّار ، قعد مقعداً عاما ، وأحضر القصّار ،

---

(١) قصر الثوب : كوره ودقه ، وسمى القصار لأنه يدق الثياب بالقصرة وهى قطعة من الخشب .
(٢) الكارة : مايحمل على الظهر من الثياب . (٣) المدق ما يدق به .

فأبدى مِدَقَّته ، وضرب بها عنق الملك ؛ فأوهنه وخرَّ مغشيا عليه !

فأقام يشكو ما به سنَةً ، فلما أفاق وتكلَّم ، وأكل وشرب سألَ عن القصار ، فقيل : فإنه محبوس ؛ فأمر بإحضاره فحضر ؛ فقال : لقد بقيتْ لك خصلة فاحْكم بها ، فإنى قاتلك لا محالة ؛ إقامةً للسنة ! قال القصّار : فإذا كان لا بد من قتلى فإنى أحكم أن أضرب الجانب الآخر من رقبة الملك مرة أخرى !

فلما سمع الملكُ ذلك خَرَّ على وجهه من الجزع ، وقال : ذهبتْ[1] والله نفسى إذَن . ثم قال للقصار : ويلك! دَعْ عنك ما لا ينفعك ، فإنه لم ينفعك منه ما مضى ، واحكُم بغيره وأُنَفِّذه لك كائنا ما كان ! قال : ما أرى حتى إلا ضربة أخرى !

فقال الملك لوزرائه : ما ترون ؟ قالوا : هذا حقُّه ! قال : ويلكم ! إن ضُرِب الجانب الآخر ما شربت الماء البارد أبدا ! ؛ لأنى أعلم ما قد نالنى .

قالوا : فما عندنا حيلة !

فلما رأى ما قد أشرف عليه قال للقصار : أخبرنى ، ألم أكن قد سمعتُكَ تقول يوم أتَى بك الموكّلون بالغريين : إنك قد سجدت ، وإنهم كذبوا عليك ؟ قال : قد كنتُ قلتُ ذلك فلم أصدَّق ! قال : فكنت سجدت ؟ قال : نعم ! فوثب من مجلسه ، وقَبَّلَ رأسه ، وقال : أشهد أنكَ صادق، وأنهم كذبوا عليك، وقدوليتك موضعهم ، وجعلت إليك أمرهم .

فضحك المهدى حتى فحص برجليه ، وقال : أحسنت ! ووصله .

---

(١) ذهبت نفسى ، أى هلكت .

٢٢ — العصا*

قال الشرقىّ بن القطامىّ :

خرجتُ من الموصل أريد الرّقة[١] ؛ فصحبنى فتى من أهل الجزيرة ، وذكر أنه من ولد عمرو بن كلثوم ، ومعه مِزْوَدٌ[٢] وَرِكْوة[٣] وعصا ، ورأيته لا يفارقها ؛ مُشاةً كنّا أو رُكبانًا ؛ وهو يقول : إن الله جعل جماع أمر موسى ، وأعاجيبه وبراهينه ومآربه فى عصاه ؛ وجعل يكثرُ من هذا وأنا أضحك متهاونًا بما يقول .

فتخلف المكارى[٤] ؛ فكان حمارُ الفتى إذا وقف أكرهه بالعصا ، ويقف حمارى ، ولا شىء فى يدى ؛ فيسبقنى إلى المنزل فيستريح ويريح ، ولا أقدر على البراح حتى يوافينى المكارى . فقلت : هذه واحدة ؟

ثم خرجنا من غدٍ مُشاةً ؛ فكان إذا أعيا توكّأ على العصا ، واعتمد عليها ، ومرّ كأنه سهمٌ زالج[٥] ، حتى انتهينا ، وقد تفسختُ من الكلال ، وإذا فيه فضلٌ كثير ؛ فقلت : وهذه أخرى !

فلما كان فى اليوم الثالث هَجَمْنَا على حية منكرة ؛ فسارت إلينا فأسلمته إليها ، وهربتُ منها ، فضربها بالعصا ، فقلت : هذه ثالثة !

---

* عيون الأخبار : ١ — ١٣٩ .

(١) الرقة : بلد على الفرات . (٢) المزود : وعاء الزاد . (٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء . (٤) المكارى : المستأجر لسوق الدواب ، وهو اسم فاعل من كارى ، والجمع المكارون . (٥) زالج : مارق .

وخرجنا فى اليوم الرابع ، وبنا قَرَمٌ[١] إلى اللحم ، فاعترضتنا أرنب ، فحذفها بالعصا ، وأدركنا ذَكَاتَها[٢] ، فقلت : هذه رابعة !

فأقبلتُ عليه ؛ فقلت : لو أن عندنا ناراً ما أخّرت أكلها إلى المنزل فأخرج عُوَيداً من مِزْوَدِه ثم حكّه بالعصا ؛ فأوْرتْ إيراء المَرْخ والعَفَار[٣] ، ثم جمع ما قدر عليه من الغُثَاء[٤] والحشيش ، وأوقد ناراً ، وألقى الأرنبَ فى جوفها ، فأخرجناها ، وقد لزق بها من الرماد والتراب مابغّضها إلىّ ، فعلّقها بيده اليسرى ، ثم ضرب جُنوبَها بالعصا ضرباً رقيقاً ، حتى انتثر كلُّ شىء عليها ، فأكلْنَاها ، وسكن القَرَم ، وطابت النفس ؛ فقلت : هذه خامسة !

ثم نزلنا بعضَ الخانات ، وإذا البيوتات مملوءة رَوْثاً وتُراباً ؛ فلم نجد موضعاً نَظَلّ فيه ، فنظر إلى حديدة مطروحة فى الدار ، فأخذها ، فجعل العصا نِصَاباً[٥] لها ، ثم قام فجرف ذلك الروث والتراب ، وجرّد الأرض ، حتى أظهر بياضها ، وطابت ريحها ، فقلت : وهذه سادسة !

ثم نزع العصا من الحديدة ، فأوتدها[٦] فى الحائط ، وعلق عليها ثيابه وثيابى ، فقلت : هذه سابعة !

فلما صِرْنا إلى مَفْرق الطريقين وأردتُ مفارقته ، قال لى : لو عدلتَ معى فبتّ عندى ! فعدلت معه ، فأدخلنى منزلا يتصل ببِيعَة[٧] ، فما زال يحدثنى

---

(١) القرم : شدة شهوة اللحم . (٢) ذكاتها : ذبحها (٣) المرخ : شجر شديد الورى ، ومثله العفار . (٤) الغثاء : البالى من ورق الشجر المخالط زبد السيل . (٥) النصاب : مايمسكها به (كاليد للفأس) . (٦) أوتدها : ثبتها . (٧) البيعة : كنيسة النصارى .

ويُطرِفني(1) الليل كله ، فلما كان السحَر أخذ العصا بعينها، وأخذ خشبةً أخرى فقرَع بها العصا ، فإذا ناقوس ليس في الدنيا مثلُه ، وإذا هو أحذقُ الناس به ، فقلت له : ويحك ! أما أنتَ بمسلم ! قال : بلى . قلت : فلِمَ تضربُ بالناقوس ؟ قال : لأن أبي نصراني ، شيخ كبير ضعيف وأنا أبرُّه.

فإذا هو شيطان مارِد(2) ، من أظرف الناس ، وأكثرهم أدباً ؛ فخبّرته بالذي أحصيتُ من خصال العصا ، فقال : والله لو حدثتك عن مناقب العصا ليلةً إلى الصباح ما استنفدتُها .

---

(1) يطرفني ، أي يمتعني بالطرف والأحاديث . (2) مرد — من باب قتل : إذا عتا ، وتجبر .

٢٣ — ضِرَار بن القَعقَاع*

زعم الأصمعي[١] أن حرباً كانَتْ بالبادية، ثم اتصلتْ بالبصرة ، فتفاقَمَ الأمرُ فيها ، ثم مُشِىَ بين الناس بالصُّلح ، فاجتمعوا فى المسجدِ الجامع .

قال: فَبُعِثْتُ وأنا غلام إلى ضِرار بن القَعْقاع من بنى دارِم ، فاستأذَنْتُ عليه ، فأذن لى ، فدخلت فإذا به فى شَمْـلة[٢] يَخْلِطُ بَزْراً لعنزٍ له حَلُوبٍ بمُجْتَمَعِ القوم ، فأَمْهَلَ حتى أكلتِ العنزُ ، ثم غَسَلَ الصَّحْفَةَ[٣] وصاح : ياجاريةُ غدِّينا ؛ فأتته بزيت وتمر . فدعانى فقَذِرْتُه[٤] أنْ آكُلَ معه ، حتى إذا قضى من أكله حاجةً وثَبَ إلى طين مُلْقىً فى الدار ، فغسلَ به يَدَهُ ، ثم صاح : ياجارية ، اسقينى ماء ، فأتته بماء فَشَرِبَهُ ، ومسح فَضْلَهُ على وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ماء الفُرَاتِ بتمر البصرة بزيتِ الشام . متى نُؤَدِّى شُكْرَ هـــذه النِّعَمِ ! ثم قال : ياجارية ، علىَّ بردائى ، فأتته بِرِداء عَدَنِىّ ، فارْتَدَى به على تلك الشَّمْلَة .

قال الأصمعى : فتجافَيْتُ عنه استقباحاً لِزِيِّهِ .

فلما دخل المسجد صلى ركعتين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تَبْقَ حُبْوَةٌ إلا حُلَّتْ إعظاماً له ، ثم جلس فتحمَّل جميعَ ما كان بيْنَ الأحياء[٥] فى مَالِهِ ، وانصرف .

* الكامل للمبرد : ١ — ٨١

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، اشتهر بالرواية والتضلع من اللغة . توفى سنة ٢١٦ هـ
(٢) الشملة : كساء يشتمل به . (٣) الصحفة : إناء كالقصعة . (٤) قذرته : أى استقذرته وكرهته . (٥) الأحياء : جمع حى ، وهو البطن من بطون العرب .

الباب الثاني

فى القصص التى تصف أحوال المرأة العربية ، وما تجرى عليه فى تربية أطفالها ؛ ومعاشرتها زوجها ، ومعاونتها له فى الحياتين : الاجتماعية والمدنية ، بالسعى معه فى سبيل الرزق ، والاشتراك فى خوض معامع الحروب ، والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد .

٥٦ — مصرع الزَّبَّاء*

كان جَذِيمة[1] قد ملكَ ما على شاطئ الفرات ، وكانت الزَّبَّاء ملكةَ الجزيرة ، وكان جَـذِيمة قد وَتَرَها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرُها ، وانتظم شملُ مُلْكها ، أحبَّت أن تغزوَ جَذيمة . ثم رأت أن تكتبَ إليه : أنها لم تجد مُلْكَ النساء إلا قُبْحاً فى السَّماع ؛ وضَعْفاً فى السلطان ، وأنها لم تجد لمُلْكِها موضعاً ؛ ولا لنفسها كفئاً غيرَك ؛ فأقبِلْ إلىَّ لأجمع مُلْكِى إلى مُلْكك ، وأصِل بلادى ببلادِك ، وتتقلَّد أمرى مع أمرك .

فلما أتى كتابُها جَذِيمةَ ، وقدِمَ عليه رسلُها استخفَّه ما دعتْه إليه ، ورغب فيما أطْمَعَتْهُ فيه ؛ فجمع أهلَ الحِجا[2] والرأى من ثِقَاته ـ وهو يومئذ ببَقَّة من شاطئ الفرات ـ وعرض عليهم ما دعَتْهُ إليه وعرضت عليه ؛ فاجتمعَ رأيُهم على أن يسيرَ إليها فيستولىَ على مُلْكها .

وكان فيهم قَصِير ـ وكان أرِيباً[3] حازماً عند جَذِيمة ـ فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأىٌ فاتر ، وغَدْرٌ حاضر[4] . ثم قال لجَذيمة : الرأىُ أن تكتبَ إليها ، فإن كانت صادقة فى قولها فلْتُقْبِلْ إليك ، وإلا لم تمكِّنْها من نفسك ، ولم تقع فى حِبالَتها ، وقد وَتَرْتَها وقتلتَ أباها ؛ فلم يوافق جَذِيمة وقال له : رأيُك فى الكِنِّ لا فى الضَّحِّ[5] .

---

* مجمع الأمثال : ١ ـ ٢١٣ ، جمهرة الأمثال : ٦٢ .

(١) انظر صفحة ٢ من هذا الجزء . (٢) الحجا : العقل . (٣) أريبا : عاقلا .

(٤) ذهبت مثلا . (٥) الضح: الشمس وضوؤها، والكن : وقاء كل شى وستره. ذهبت مثلا .

ودعا جَذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره فشجّعه على المسير ، وقال : إن قومى مع الزّباء ولورأوك صاروا معك ، فأحبّ جَذيمة ماقاله ، وعَصَا قصيراً ، فقال قصير : لا يُطاعُ لقصيرٍ أمر[1] .

واستَخْلف جَذِيمة عَمْرو بن عدىّ على مُلْكه وسلطانه ، وسار فى وُجُوه أصحابه ، فأخذ على شاطئ الفرات من الجانب الغربى ، فلما نزل دعا قصيراً فقال : ما الرأى ياقَصِير ؟ فقال قَصِير : ببَقَّة خلَّفْتَ الرأى[1] . قال : وماظنُّك بالزَّبَّاء؟قال: القولُ رِدَاف ، والحَزْمُ عَثَرَاته تُخَاف[1] .

واستقبلته رُسُل الزباء بالهدايا والألطاف ، فقال : ياقصير ؛ كيف ترى ؟ قال: خَطْبٌ يسير فى خطب كبير[1] . وستَلْقاك الجيوش ؛ فإن سارت أمامك فالمرأةُ صادقة ، وإن أخذَتْ جنبَتَيْك ، وأحاطت بك من خَلْفك فالقوم غادرون بك،وإذن فاركب العَصَا[2] فإنها لا يُشَقّ غُبارها ـ وكانت العصا فرساً لجذيمة لا تُجَارى ـ وإنى راكبها ومُسَايِرُك عليها .

فلقِيَتْه الخيولُ والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ؛ فركبها قَصِير ، ونظر إليه جذيمةُ على مَتْن العصا موليّاً ، فقال : ويل امّه حَزْماً على متن العصا[1] ! وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقَتْ ، وقد قطعَتْ أرضا بعيدةً .

وسار جذيمةُ وقدْ أحاطَتْ به الخيلُ حتى دخل على الزَّباء . فلما رأته قالت : أشَوار[3] عَرُوس ترى؟ فقال: أمر غَدْرٍ أرى ! ثم دعت بالسيف والنِّطْع، وقالت: إن دماء الملوك شِفاء من الكَلَب ، فأمرت بَطسْت من ذهب قد أعدَّته له وسقَتْه

(١) ذهبت أمثالا . (٢) العصا : اسم الفرس . (٣) الشوار : الهيئة والزينة .

الخمر حتى سكر ، وأخذتْ منه الخمرُ مَأْخَذَها ، فأمرت براهشَيه[١] فقُطعا ، وقدّمت إليه الطَّسْت ـ وقد قيل لها : إنْ قَطر من دمه شيء فى غير الطَّسْت طُلِب بدمه ـ فلما ضَعُفَتْ يداه سقطتا فقطر من دمه شىء فى غير الطَّسْت؛ فقالت: لا تُضَيِّعُوا دمَ الملك . فقال جذيمة : دَعُوا دماً ضَيّعه أهلُه[٢] . وهَلَكَ جذيمة .

وخرج قَصِيرٌ من الحىّ الذى هلكت العصا بين أَظْهُرِهم ، حتى قدم على عمرو ابن عدى ـ وهو بالحيرة ـ فقال له قصير : أثَائر أنت ؟ قال : بل ثائرٌ سائرٌ[٢] .

ووافَق قَصِيرٌ الناس وقد اختلفوا ، فأصلح بينهم ، ثم قال لعمرو بن عدى : تهيَّأْ واستَعِدّ ولا تُطِلّنّ[٣] دمَ خالك . قال : وكيف لى بها وهى أمنعُ من عُقَاب الجو[٢] !

وكانت الزّبّاء سألت كاهنةً لها عن هلاكها ؛ فقالت : أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين ، وهو عمرو بن عدى . ولن تموتى بيده ، ولكن حَتْفَكِ بيدكِ ، ومِن قِبَله ما يكون من ذلك .

فحَذِرَتْ عمراً ، واتّخذَتْ لها نَفَقاً من مجلسها الذى كانت تجلسُ فيه إلى حصْن لها فى داخل مدينتها ، وقالت : إن فاجأنى أمرٌ دخلتُ النَّفَق إلى حِصْنى . ودعَتْ رجلًا مصوِّراً من أجود أهل بلاده تصويراً وأحسنهم عملًا ، فجهّزَته وأحسنت إليه ، وقالت : سِرْ حتى تَقْدم على عمرو بن عدى متنكّراً ، فتخلو بحشَمِه فتنضمّ إليهم وتخالطهم وتعلّمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم أثْبِت[٤] لى عَمْرَو بن عدى معرفة ؛ فصوِّره جالساً وقائماً وراكباً ومُتَفَضِّلًا[٥] ومتسلحاً بهيئته ولبْسَته ولونه ، فإذا أحْكَمْتَ ذلك فأقبل إلىّ .

---

(١) الراهشان: عرقان فى باطن الذراعين . (٢) ذهبت أمثالا . (٣) طل دمه: هدر، أو ألا يثأر به .
(٤) أثبته : عرفه حق المعرفة . (٥) المتفضل : من يلبس ملابس النوم وهى لبسة المتفضل .

فانطلق المصوّر حتى قدم على عمرو بن عَدِىّ ، وصَنَع الذى أَمَرَتْهُ به الزّبّاء ، وبلغ من ذلك ما أوصتهُ به ، ثم رجع إلى الزباء بِعِلْمِ ما وجهتهُ لهُ من الصورة على ما وصفتْ وأرادتْ أن تعرف عمرو بن عدى ، فلا تراهُ على حال إلا عرفَتْه وحذرَتْه وعلمت علمَه .

وقال قصير لعمرو بن عدىّ : اجْدَعْ أنفى[1] ، واضرب ظَهْرِى ، ودَعْنى وإيّاها . فقال عمرو : ماأنا بفاعل ، وماأنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خلِّ عنّى إذَنْ وخَلاكَ ذمّ[2] ! فقال له عمرو : فأنت أبْصَر . فجدع أنفه ، وأثّر آثاراً بظهره ؛ فقالت العرب : لأمرٍ ما جَدَع قصير أنفَهُ[2] .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمراً فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مَكَر بخاله جَذِيمة وغرّه ؛ فسار حتى قَدِم على الزبّاء ، فقيل لها : إن قصيراً بالباب. فأمرت به فأُدخل ، فإذا أنفُه قد جُدِع ، وظهره قد ضُرِب ؛ فقالت : ماالذى أرى بك ياقصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررتُ خاله وزيّنْتُ له المصير إليك وغَشَشْتُه ومالأْتُك ؛ ففعل بى ماتَرَيْن ؛ فأقبلتُ إليك. فأكرمَتْه ، وأصابت عنده من الحزم والرأى ماأرادت .

فلما عرف أنها استرسلت إليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالًا كثيرة وطرائف وثياباً وعِطْراً ، فابعثينى إلى العراق ، لأحملَ مالى وأحملَ إليك من بزّها[3] وطرائفها وطيبها ، لتصيبى من ذلك أرباحاً عظيمة ، وبعضَ مالا غنى للملوك عنه . وكان أكثر ما يُطْرِفها[4] من الصَّرَفان[5] ، وكان يُعجبها ؛ فلم يزل يُزين ذلك حتى أذنت له ، ودفعت إليه أموالًا ، وجهزت معه عبيداً .

---

(١) جدع أنفه : قطعها . (٢) ذهبت أمثالا . (٣) البز : الثياب . (٤) يطرفها : يعطيها .
(٥) الصرفان : تمر رزين صلب .

فسار قصير بما دفعتْ إليه حتى قَدِم العراق ، وأتى الحيرة متنكرًا ، فدخل على عمرو بن عديّ فأخبره الخبر ، وقال : جهزنى بصنوف البَزّ والأمتعة؛ لعلّ اللهَ يُمكن من الزبّاء ؛ فتصيب ثأرك ، وتقتلَ عدوّك . فأعطاه حاجته .

فرجع بذلك إلى الزّباء ؛ فأعجبها ما رأت وسرّها ، وازدادت به ثقةً ؛ وجهّزَته ثانيةً ؛ فسار حتى قدم على عمرو فجهّزَه وعاد إليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك ، وهيِّئْ الغرائرَ ، واحمل كل رجلين على بعيرٍ فى غِرارتين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتُك على باب نفَقِها ، وخرجت الرجالُ من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمَن قاتَلهم قتلوه ؛ وإن أقبلتِ الزباء تريد النَّفَق جَلّلْتها بالسيف .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكمن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريباً من مدينتها تقدّم قصير فبشّرها ؛ وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ؛ وقال لها : آخر البَزّ على القَلُوص[1] . وسألها أن تخرج فتنظر إلى ماجاء به . وقال لها : جئت بما صاَء وصَمَت[2] .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكادُ قوائمُها تَسُوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت : ياقصير :

ما للجِمال مَشْيُها وئيدا[3] أجَنْدلًا يحملن أم حديدا

أم صَرَفاناً تارزاً شــديدا[4]

---

(١) ذهبت مثلا ، والبز : الثياب ، والقلوص : الأنثى الشابة من الإبل . (٢) أراد بما صاء : الشاء والإبل ، وبما صمت : الذهب والفضة ، وهو يريد أنه جاء بكل شىء ، وقد ذهبت مثلا .
(٣) وئيدا : بطيئا . (٤) التارز : اليابس .

فقال قصير فى نفسه :

* بل الرجالُ قُبَّضاً قعوداً *

فدخلت الإبل المدينةَ ؛ حتى كان آخرُها بعيراً مرّ على بوّاب المدينة ! وكانت بيده مِنْخَسةٌ ؛ فنخس الغرارة ، فأصابت خاصِرة الرجل الذى فيها ، فسمع له صوتا ، فقال : شرٌّ فى الجُوالق[1] !

فلما توسطت الإبلُ المدينةَ أُنيختْ ، ودلّ قصير عمراً على باب النَّفَق الذى كانت الزبّاء تدخله ، وأرَتْه إياه قبل ذلك ، وخرج الرجال من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النَّفَق ، وأقبلت الزبّاء تريده ، فأبصرت عمراً فعرفَتْه بالصورة التى صُوِّرت لها ؛ فمصّتْ خاتمها ـ وكان فيه السم ـ وقالت : بيدى لا بيد عمرو[1] . وتلقّاها عمرو فجلّلها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلِها ؛ وانكفأ راجعاً إلى العراق .

---

(١) ذهبت مثلا .

٢٥ — قبّح الله جمالا لا نفع فيه*

كانت عَثْمة بنت ابن مطرود البَجَليَّة ذات عقل ورأى مستمَع فى قومها ، وكانت لها أخت يقال لها خَوْد ؛ ذات جمال ومِيسَم وعقل . ثم إن سبعةَ إخوة من الأزْد خطبوا خَوْداً إلى أبيها ، فأتوه وعليهم الحُلل اليمانية ، وتحتهم النَّجائبُ الفُرْه[1] . فقالوا : نحن بنو مالك بن غُفَيْلَةَ . فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين فى الحُلَل والهيئة ، ومعهم ربيبة[2] لهم كاهنة يقال لها : الشعثاء .

فمرّوا بوصيدها[3] ، يتعرّضون لها ، وكلهم وسيمٌ جميل ، وخرج أبوها فجلسوا إليه ، فرحب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شباب ، وكلّنا يمنع الجانب ، ويمنح الراغب . فقال أبوها : كلكم خيار . فأقيموا حتى نرى رأينا .

ثم دخل على ابنته فقال : ماترَيْن ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم . فقالت : زوِّجنى على قَدْرى ، ولا تَشْطط[4] فى مَهْرِى ؛ فإن تخطئنى أحْلامُهم فلا تخطئنى أجسامهم . لعلى أصيب ولداً ، وأكْثِر عدداً .

فخرج أبوها ، فقال : أخبرونى عن أفضلكم ، قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : اسمع أُخْبِرْك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أُسوة . أما الكبيرُ فمالك ، جرىء فاتك ، يتعبُ السنابك[5] ، ويستصغر المهالك . وأما الذى يليه فالغَمْرو ،

---

* مجمع الأمثال : ١ — ٩٠

(١) فره : جمع فاره وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف . (٢) الربيبة : الحاضنة .

(٣) الوصيد : الفناء . (٤) لا تشطط : لاتبالغ ، ولاتجاوز الحد .

(٥) السنابك : أطراف حوافر الخيل .

بحر غَمْر[1] ، يقصر دونه الفخر ، نَهْدٌ[2] صقر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صليبُ[3] المَعجَمة ، مَنيعُ المَشتَمة ، قليل الجَمْجَمَة[4] . وأما الذى يليه فعاصم ، سيِّدٌ ناعم ، جَلْدٌ صارِم ، أبِىٌّ حازم ، جيشه غانم ، وجارُه سالم . وأمّا الذى يليه فثَوَاب ، سريع الجواب، عَتِيد الصواب ، كريمُ النصاب[5] ؛ كلَيثِ الغاب . وأما الذى يليه فمُدْرِك ، بذُولٌ لما يملك ، عَزوبٌ[6] عمّا يترك ، يُفنى ويُهْلِك .

وأما الذى يليه فجندل ، لِقِرْنه مُجَدِّل[7] ، مُقِلٌّ لما يحمل ، يُعطى ويَبْذُل ، وعن عدوِّه لا يَنْكُل[8]

فشاورت أختَها عَثْمَة فيهم ، فقالت : ترى الفتيان كالنَّخْل ، وما يدريك ما الدَّخْل[9] ، اسمعى منى كلمة : إن شَرَّ الغَريبة يُعْلَن ، وخيرَها يُدْفَن ، تزوّجى فى قومك ، ولا تغرُرْكِ الأجسام .

فلم تقبل منها ، وبعثتْ إلى أبيها : زوّجنى مُدْرِكا ، فتمَّ ذلك على مائةِ ناقةٍ ورُعاتها . وحَمَلها مُدْرك ، فلم تلبثْ عنده إلا قليلا حتى صَبّحَهمْ فوارسُ من بنى مالك ابن كِنانة ، فاقتتلوا ساعة . ثم انكشف عنها زوجُها وإخوته وعشيرته . فسُبِيَتْ فيمن سُبِين من النساء !

فبينا هى تسير بَكَتْ ، فقالوا : ما يبكيك ؟ أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قَبح الله جمالا لا نَفْعَ معه ، إنما أبكى على عِصْيانى أختى فى قولها : « ترى الفتيان

---

(1) الغمر : معظم البحر . (2) النهد : الأسد والكريم . (3) الصليب : الشديد .
(4) قليل الجمجمة : كلامه بين . (5) النصاب : الأصل . (6) عزوب : بعيد .
(7) جدله : صرعه على الجدالة (الأرض) . (8) لاينكل : لايجبن . (9) ذهبت مثلا . يضرب لمن يكون منظره خيرا من مخبره .

كالنخل ، وما يدريك ما الدخل ! » وأخبرتهم كيف خطبوها .

فقال لها رجل منهم – يكنى أبا نُوَاس – شابٌّ أسود أَفْوَهُ[١] مضطرب الخَلْق – أتَرْضيْن بي على أن أمنعَك من ذِئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين ليَمْنَع الحَلِيلَةَ[٢] ، وتتَّقِيهِ[٣] القبيلة .

قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ؛ قد رضيتُ به . فزوَّجوها منه .

---

(١) رجل أفوه : عظيم الفم . (٢) الحليلة : الزوجة . (٣) تتقيه : تخافه وتخشاه .

٢٦ — أفضلُ النساء وأفضل الرجال*

خرجت العجْفاء بنتُ عَلْقَمة السّعدىّ وثلاثُ نسوةٍ من قومها ، وتواعَـدْن رَوْضةً يتحدَّثْن فيها ، فوافَيْن بها ليلًا فى قَمَرٍ زَاهِرٍ ، وليلة طَلْقةٍ ساكنة ، وروضة مُعشِبَةٍ خَصبة .

فلما جلسْنَ قُلْنَ : ما رأينا كالليلة ليلةً ، ولا كهذه الروضةِ روضةً أطيَبَ ريحًا ولا أنضَر ! ثم أفَضْنَ فى الحديث ، فقلن : أىُّ النساء أفضل ؟ قالت إحـداهنّ : الخَرُود[١] الوَدُود الوَلُود . قالت الأخرى : خيرهنّ ذات الغَنَاء ، وطِيبِ الثناء ، وشدّة الحياء . قالت الثالثة : خيرُهن السَّمُوع[٢] ، النَّفُوع ، غـير المَنوع . قالت الرابعة : خيرُهنّ الجامعةُ لأهلها ، الوَادِعَة ، الرافعة لا الواضعة .

قلن : فأىّ الرجال أفضل ؟ قالت إحـداهنّ : إن أبى يُـكرمُ الجـار ، ويُعظِمُ النار ، وينحَر العِشَارَ[٣] بَعْدَ الحُوار[٤] ، ويحمل الأمورَ الكِبار ، ويأنَفُ من الصِّغار .

فقالت الثانية : إن أبى عظيمُ الخطَر ، منيع الوَزَر[٥] ، عزيز النَّفَر ، يُحمَد منه الوِرْد والصَّدَر[٦] .

---

* مجمع الأمثال ٢ : ٧٢

(١) الخرود : الحيية الطويلة السكوت . (٢) السموع : التى تسمع القول . (٣) العشار : جمع عشراء ، وهى الناقة التى مضى لحملها عشرة أشهر . (٤) الحوار : ولد الناقة ساعة تضعه ، أو إلى أن ينفصل عن أمه . (٥) الوزر : الملجأ . (٦) الورد : الورود على الماء ، والصدر : العودة من الاستقاء .

فقالت الثالثة : إن أبى صَدُوق اللسان ، حَدِيد الجَنَان[١] ، كثير الأَعْوان ، يُروى السِّنَان عند الطِّعان .

قالت الرابعة : إن أبى كريم النِّزَال ، مُنيف[٢] المقَال ؛ كثيرُ النوَال ، قليلُ السؤال ، كريمُ الفَعال .

ثم تنافَرْنَ[٣] إلى كاهنةٍ معهنَّ فى الحىِّ ، فقلن لها : اسمعى ما قلنا ، واحكمى بيننا وَاعْدِلِى ؛ ثم أَعَدْن عليها قولَهنَّ ، فقالت لهن : كلٌّ واحدةٍ منكن ماردَة[٤] ، بأبيها وَاجدة[٥] ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة ، ولكن اسمعْنَ قوْلِى : خير النساء المُبْقِيةُ على بَعْلها ، الصابرةُ على الضرَّاء مخافة أن ترجِعَ إلى أهلها ؛ فهى تُؤْثِر حَظَّ زوجها على حَظِّ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة . وخير الرجال الجواد البَطَل ، القليل الفَشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العِلَل ، كثيرَ النَّفَل[٦] ، ثم قالت : « كلُّ فَتَاةٍ بِأَبيها مُعْجَبة[٧] » .

---

(١) الجنان : القلب . (٢) منيف المقال : مرتفع . (٣) تنافرن : ذهبن وتحاكمن .
(٤) ماردة : عاتية قد بلغت الغاية . (٥) وجد به : أحبه . (٦) النفل : العطية .
(٧) ذهبت مثلا .

٧ — نَـكْبَة جَلِيلة*

كانت جليلةُ بنت مُرة أختُ جَسّاس زوجا لـكُليب بن ربيعة[1] ؛ فلما قَتل جَسّاس[2] كليباً اجتمع نساء الحى للمأتَم ، فقُلْن لأخت كُلَيب : رَحِّلى جليلةَ عن مأتمك؛ فإنّ قيامَها فيه شماتةٌ وعارٌ علينا عند العرب؛ فقالت لها : ياهذه؛ اخرُجى عن مَأْتمنا ، فأنتِ أُخْتُ واترنا وشقيقةُ قاتلنا ؛ فخرجَتْ وهى تجرُّ أعطافَها ؛ فلقيَهـا أبوها مُرّة ، فقال لها : ما وراءك ياجليلةُ ؟ قالت : ثُـكل العَدد ، وحُزْنُ الأبدِ ، وفَقْد حليل ، وقَتلُ أخٍ عن قليل ، وَبَين ذَيْنِ غَرْس الأحقاد ، وتفتّت الأكباد ؛ فقال لها : أو يكُفُّ ذلكَ كرَمُ الصفح وإغلاء الدِّيات؟ فقالت جليلة: أُمْنيّة مخدوع وربِّ الـكعبة ! أ بِالبُدْن[3] تدَعُ لكَ تَغلبُ دمَ ربِّها !

ثم بلغ جليـلةَ أنّ أخت كليب قالت حين رحلت : رِحْلَةُ المعتـدى وفِراق الشامت ! ويلٌ غداً لآل مُرّة ؛ من الـكَرّة بعد الـكَرّة ! فقالت : وكيف تَشمَت الُحرّة بهتكِ سِترها ، وترقُّب وترِها ! أسعدَ الله[4] جَدَّ أختى، أفلا قالت : نَفْرَة الحياة ، وخَوْف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

---

* الأغانى : ٥ — ٦٣ (طبعة دارالـكتب) ،نهاية الأرب : ٥ — ٢١٤ ، ابن الأثير : ١ — ٢١٦ مهذب الأغانى : ١ — ٨٥

(١) كان كليب بن ربيعة سيد ربيعة ، ينزلهم ويرحلهم ، ولايصدرون فى شىء إلا عن أمره ، ولايجير أحد من بكر وربيعة إلا بإذنه ، وكان يحمى أمـكنة الصيد وحياض الماء . وضرب به المثل فقالوا : أعز من كليب . (٢) كان لجساس خالة من بنى سعد جاورت بنى مرة ، فنزلت على جساس ابن أختها ، ومعها ناقة ، فندت الناقة يوما ، فدخلت فى إبل كليب ترعى فى حماه ، فنظر إليها فأنـكرها ورماها بسهم فى ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبتها ، وضرعها يشخب دما ، فصاحت : واذلاه ! فقتل جساس كليبا لذلك ، وقتل جساس نحو سنة ٨٥ ق . هـ .

(٣) البدن : جمع بدنة تـكون من الإبل والبقر . (٤) الجد هنا : الحظ .

يابْنَةَ الأقوامِ إنْ شِئْتِ فَلَا ... تَعْجلى باللَّوْمِ حتى تسْألى

فإذا أنتِ تبَيَّنْتِ الّذى ... يُوجِبُ اللومَ فَلُومى واعْذُلى

إنْ تكنْ أختُ امرئٍ ليمَتْ عَلَى ... شَفَقٍ منهـــا عليه فافْعَلِى

جَلَّ عندِى فعلُ جَسَّاسٍ فيَا ... حَسْرتى عمّا انْجَلَتْ أوتنْجَلِى !

فعلُ جَسَّاسٍ على وجْدِى به ... قاطعٌ ظهرى ومُـدْنٍ أجَلِى

تحْملُ العَيْنُ قَذى العَينِ كَمَا ... تحمل الأمّ أذى ماتَفْتَلِى (١)

ياقتيلًا قَوَّضَ الدهرُ به ... سقْفَ بيتىَّ جميعاً من عَلِ

هَدَمَ البيتَ الذى اسْتحدثتُه ... وانثَنى فى هَدْمِ بيتى الأوّل

يا نسائى دونكُنَّ اليوم قَدْ ... خَصَّنى الدَّهرُ برُزْءٍ مُعضِلِ

خصَّنى قَتْلُ كُلَيبٍ بلظًى ... من ورائى ولظًى مُسْتَقْبلى

ليس مَنْ يبكى ليومين كمَنْ ... إنما يبكى ليومٍ ينجَلِى

يشتفى المـدرِكُ بالثأرِ ، وفى ... دركى ثأرى ثُكْلُ المُثْكِلِ (٢)

ليتهُ كانَ دَمِى فاحتَلَبُوا ... بدلًا منه دماً من أكْحَلِى (٣)

إنّنى قاتـــلةٌ مقتولَةٌ ... ولعل الله أن يرتاحَ لى !

---

(١) تفتلى : تربى . (٢) المثكل : التى لازمها الحزن . (٣) الأكحل : عرق فى الذراع يفصد .

٢٨ — كأنما تزوجتَ بنت قيس بن خالد !*

كان زُرَارة بن عُدُس رجلًا شريفًا ، فنظر ذاتَ يوم إلى ابنه لَقِيط ، فرأى منه خُيَلَاء ونَشاطًا ، وقد جعل يضربُ غِلْمَانه ـ وهو يومئذ شابٌ ـ فقال له : لقد أصبحْتَ تصنعُ صنيعًا كأنما جئتَنى بمائةٍ من هِجَان[1] ابن المنذر بن ماء السماء ، أو تزوّجت بنت قيس بن خالد ! قال لقيط : لله علىّ ألا يمسّ رأسى غُسل ، ولا آكل لحمًا ولا أشرب خمرًا حتى أجمعهما جميعا أو أموت .

فخرج لَقِيط ومعه ابنُ خال له يقال له القُرَاد بن إهاب ، وكلاهما كان شاعرًا شريفًا ، فسارا حتى أتَيا بنى شَيْبان ، فسلّما على ناديهم ، ثم قال لَقيط : أفيكم قيس بن خالد ؟ ـ وكان سيدَ ربيعة يومئذ ـ قالوا : نعم . قال : فأيّكم هو ؟ قال قيس : أنا قيس ، فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبًا ابنتَك ـ وكانت على قيس يمينٌ ألّا يخطبَ إليه أحد ابنته عَلَانية إلا أصابَه بشرّ ، وسمّع[2] به ـ فقال له قيس : ومن أنت ؟ قال : لَقِيط بن زُرارة بن عُدُس . قال قيس : عجبًا منك ! هلّا كان هذا بينى وبينك؟ قال : لِمَ يا عمّ؟ فوالله إن فيك لرَغْبَة، وما بى من عَيْب، ولئن ناجَيْتُك لا أخدعُك ، ولئن عالَنْتُك لا أفضَحُك . فأعجبَ قيسًا كلامُه وقال : كفءٌ كريم ، إنى قد زوّجتك ومهرتك مائةَ ناقة ؛ ليس فيها نابٌ ولا كَزُوم[3] ، ولا نبيت عندنا عَزَبًا ولا محرُومًا .

---

* الأغانى : ٩ ـ ١٣٠ (طبعة الساسى) ، مجمع الأمثال : ٢ ـ ١٥٣

(١) إبل هجان : بيض كرام (٢) سمّع به: فضحه وشتمه . (٣) الناب : الناقة المسنة ، والكزوم: ناقة ذهبت أسنانها هرمًا .

ثم أرسل إلى أمّ الجارية : إنى قد زوّجت لَقيط بن زُرَارة ابنتى فلانة فاصْنعيها ، واضربى لها ذلك البَلَق[1] ؛ فإنّ لقيط بن زرارة لا يبيت فينا عَزَباً .

وجلس لقيط يتحدّث معهم ؛ فذكروا الغَزْوَ ، فقال لقيط: أمّا الغزو فأرْدَاها لِلّقاح ، وأهزلُها للجمال ، وأما المقام فأسمنُها للجمال ، وأحبُّها للنساء . فأعجب ذلك قيساً ، وأمر لقيطا فذهب إلى البَلَق فجلس فيه ، وبعثتْ إليه أمُّ الجارية بمجْمرة وبخور ، وقالت للجارية : اذهبى إليه فوالله لئن رَدّها ما فيه خير؛ فلمّا جاءته الجارية بالمجمرة بخّر شَعْرَه ولحيته. ثم ردّها عَلَيها، فلما رجعت الجارية إليها خبّرتْها بماصنع، فقالت : إنه لخليق لِلْخير .

فلمّا أمسى لقيط أُهـديت الجاريةُ إليه ، فمازحها بكلام اشمأزّت منه ، فنـام وطرح عليه طرف خِيصة[2] ، وباتت قريباً منه .

فلما استثقل انسلّت فرجعت إلى أمها ، فانتبه لقيطٌ فلم يرَها ، فخرج حتى أتى ابنَ خاله قُرَاداً وهو فى أسفل الوادى، فقال : ارْحَلْ بَعِيرَك[3] ، وإيّاك أن يُسْمَع رُغاؤها .

فتوجّها إلى المنذر بن ماء السماء ، وأصبح قيس ففقـد لَقيطا ، فسكت ولم يدْرِ ما الذى ذَهَب به ، ومضى لقيط حتى أتى المنـذر ، فأخبره ما كان من قول أبيـه وقوله ، فأعطاه مائةً من هَجَائنِه[4] ، فبعث بهـا قُرَاد إلى أبيه زُرَارة ، ثم مضى إلى كِسرَى فكساه وأعطاه جوهراً ، ثم عاد إلى قيس بن خالد فجهّز بنته ؛ ولمـا أرادت الرحيل قال لها: يابنية ، كونى لزَوْجك أَمَةً يكنْ لك عبداً؛ وليكن أكثرُ

---

(١) البلق : الفسطاط . (٢) الخيصة : كساء أسود مربع له علمان . (٣) البعير : الجمل البازل أو الجذع ، وقد يكون للأنثى ، ورحل البعير : حط عليه الرحل . (٤) هجائنه ، أى هجانه .

طِيبك الماء فإنك إنما يذهب بك إلى الأعداء ، واعلمى أن زوجك فارس مُضر ، وأنه يُوشِكُ أن يقتل أو يموت ، فلا تخمشى عليه وجهاً ولا تحلقى شعراً ، قالت له : أما والله لقد ربَّيْتنى صغيرة ، وأقصيتنى كبيرة ، وزوّدتنى عند الفراق شرٌّ زَاد !

وارتحل بها لَقيط ، فجعلت لا تمرّ بحىٍّ من أحياء العرب إلا قالت : يالَقيط ، أهؤلاء قَومُك ؟ فيقول : لا ، حتى طلعت على محلة بنى عبد الله بن دارم ، فرأت القِبابَ والخيل العِرَاب ؛ فقالت : يالقيطُ ، أهؤلاء قومك ؟ قال : نعم . فأقام أياماً يُطعم ويَنْحَر ، ثم أقامت عنده حتى قُتِل يوم جَبَلة[1] .

فبعث إليها أبوها أخاً له لِتُحْمَلَ إليه ، فلما ركبتْ أقبلت حتى وقفت على نادى بنى عبد الله بن دارم ، فقالت : يابنى دارم ؛ أوصيكم بالغرائب خيراً ، فوالله ما رأيتُ مثلَ لقيط لم تخمش عليه امرأةٌ وَجهاً ، ولم تحلق عليه شعراً ، فلولا أنى غريبة لخمشت وحلقت . فأثنوا عليها .

---

(١) جبلة: هضبة حمراء بين الشريف والشرف ، وهما ماء ان لبنى نمير وبنى كلاب، وكان اليوم بين عبس وذبيان ابنى بغيض .

٢٩ ـ ما وَرَاءكِ ياعِصام*

لما بلغ الحارثَ بن عمرو[1] ملكَ كِنْدة جمالُ ابنة عوف بن مُحَلِّم الشَّيْبانيّ ، وكمالها وقوة عقلها ، دعا امرأة من بني كِنْدة يقال لها عصام ، ذات عَقْلٍ ولسان وأَدَب وبَيَان ، وقال لها : اذهبي حتى تَعْلَمِي لي علمَ ابنة عَوْف .

فمضتْ حتى انتهتْ إلى أمها ، فأعلمتْها ما قدمتْ له ، فأرسلتْ إلى ابنتها ، وقالت : أي بُنَيّة ؛ هذه خالتك أتتكِ لتنظرَ إليك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وَجْهٍ وخلْقٍ ، وناطقيها إن استنطَقَتْكِ .

فدخلَتْ عصامُ إليها، فنظرت إلى ما لم ترَ عينُها مثله قطُّ بَهْجَةً وحُسناً وجمالا؛ فإذا هي أكملُ الناس عقلًا وأفصحهم لساناً ؛ فخرجت من عندها وهي تقول : تركَ الخداعَ من كشفَ القناع .

ثم أقبلت إلى الحارث ، فقال لها : ما وراءكِ يا عصام ؟ قالت : صَرَّحَ المحضُ عن الزُّبد[2] . قال : أخبريني . قالت : أُخْبِرُكَ صِدْقًا وحقًّا .

رأيت جبهةً كالمرآة الصقيلة ، يزينُها شعر حالكٌ كأذناب الخيل المَضْفورَة ، إن أرسلتهُ خِلْتَه السلاسل ، وإن مَشَطَتْهُ قلت عناقيدُ كَرْمٍ جَلاها الوَابل[3] . وحاجبين كأنما خُطّا بقلم أو سُوِّدا بِحُمَمٍ[4] ، قد تقوَّسا على عين الظَّبْيةِ

---

* مجمع الأمثال : ٢ ـ ١٩٢ ؛ العقد الفريد : ٣ ـ ٢٢٣ .

(١) كان الحارث بن عمرو من أشراف العرب في الجاهلية، وكان مطاعاً في قومه، قوياً في عصبيته ، وكانت تضرب له قبة في عكاظ ، توفي نحو سنة ٥٠ ق. هـ (٢) محض اللبن: أخذ زبده، والتصريح: التبين . وهو مثل : يضرب للأمر إذا انكشف وتبين . (٣) الوابل : المطر الشديد .

(٤) الحمم : الفحم .

العَبْهرةِ[1]، التى لم يرُعْها قانصٌ ولم يذْعَرْها قَسْورة[2]، بينهما أنفٌ كحدّ السيف المصقول ، لم يخْنِس[3] به قِصَر ، ولم يَمْضِ به طول ، حفَّتْ به وَجْنتَانِ كالأُرْجُوان[4] فى بياض مَحْضٍ كالجُمانِ[5] ، شُقّ فيه فمٌ كالخاتَم ، لذيذ المُبْتَسَم فيه ثنايا غُرّ ، ذوات أُشُر[6] ، وأسنان تبدو كالدُّرر ، يتقلّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحة وبيان ، يحرِّكُه عقلٌ وافر ، وجوابٌ حاضر[7] . . إلى أن قالت : فأمّا ما سوى ذلك فتركْتُ أن أصفه . غير أنه أحْسن ما وصفه واصفٌ بنظم أو نثر . فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوّجه إياها .

فلما حُمِلتْ إلى زوجها ؛ قالت لها أمها ، أمامة بنت الحارث :

أى بُنَيّةَ ؛ إن الوصيَّةَ لو تُركت لفضْلِ أدب، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافل؛ ولو أن امرأةً استغنَت عن الزوج لغِنى أبَوَيهــا، وشدة حاجتهما إليهـا كنتِ أغنى النــاس عنه ، ولكنَّ النِّساء خُلِقْنَ للرجال ، ولهنَّ خُلِقَ الرجال .

أى بُنَيّةَ ؛ إنكِ فارَقْتِ الجوّ الذى منه خرجْتِ ، وخَلَفْتِ العُشّ الذى فيه دَرَجْتِ ، إلى وَكْرٍ لم تَعرِفِيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً ، فكونى له أمَةً يكُنْ لك عَبداً وشيكاً[8] .

يابنيّة، احْمِلِى عنى عَشْرَ خصال تكن لك ذُخْراً وذِكراً : الصُّحبة بالقنــاعة ، والمُعاشرة بحُسْن السمع والطاعة ، والتعهّد لموقع عَيْنِه ، والتفقّد لموضع أنفه؛ فلا تقع

---

(١) العبهرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض . (٢) القسورة : الرماة من الصيادين .
(٣) خنس : تأخر ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة .
(٤) الأرجوان: صبغ أحمر . (٥) الجمان: اللؤلؤ . (٦) أشر الأسنان: التحزيز الذى فيها .
(٧) انظر بقية الوصف فى مراجع القصة . (٨) الوشيك : السريع .

عينُه منك على قبيح ولا يَشَمّ منك إلّا أطيبَ ريح ، والكُحْل أحسن الحُسْن ، والماء أطيبُ الطيبِ المفقود ، والتعهّد لوقت طعامه ، والهُدُوّ عنه عند منامه ؛ فإنّ حرارةَ الجوع مَلْهَبَة ، وتَنْغِيص النومِ مَغْضبة ، والاحتفاظ بِبَيْتِه وماله ، والإرعاء[1] على نفسه وحَشَمِه وعياله ، فإنّ الاحتفاظ بالماء حسنُ التقدير ، والإرعاء على العِيَال والحَشم جميلُ حسن التدبير ؛ ولا تُفْشِي له سرًّا ، ولا تَعْصِي له أمراً ؛ فإنك إن أفشيتِ سرّه لم تأمنى غَدْرَه ، وإن عصَيْتِ أمره أو غرْتِ صدْرَه ؛ ثم اتقى مع ذلك الفرحَ إن كان تَرِحاً ، والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحاً ، فإنّ الخصْلَةَ الأولى من التقصير ، والثانيةَ من التكْدير ، وكونى أشدّ ما تكونين له إعْظاماً يكن أشدّ ما يكون لكِ إكراماً ، وأشدّ ما تكونين له موافقَةً يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة .

واعلمى أنكِ لا تَصلين إلى ما تُحبِّين حتى تُؤثِرى[2] رضَاه على رضاك ، وهَوَاهُ على هواكِ فيما أحببتِ وكرهت . والله يَخيرُ لك !

---

(١) الإرعاء : الإبقاء .　(٢) تؤثرى : تفضلى ، وتقدمى.

٣٠ – لا أتزوَّجُ إلّا من كريم*

كانت امرأةٌ من العرب من بنَات ملوكِ اليمن ذات جمال وكمال ، وحَسَب ومال ، فآلَت ألّا تزوجَ نفسها إلا من كريم ، ولئن خطبها لئيمٌ لَتَجْدَعنَّ أنفه ؛ فتحامَاها النّاسُ حتى انتَدَب[1] إليها زيد الخيل ، وحاتم بن عبد الله ، وأوسُ ابن حارثة الطائيُّون ، فارتحلوا إليها .

فلما دخلوا عليها قالت : مرحباً بكم ، ما كنتُم زُوّاراً ؛ فما الذى جاء بكم ؟ قالوا : جئْناَ زُوّاراً خُطّابا ، قالت : أكْفاءٌ كرام . ثمّ أنزَلتهم وفرقت بينهم ، وأسبغت لهم القِرَى ، وزادَتْ فيه .

فلما كان اليوم الثانى بعثت بعضَ جواريها متنكّرةً فى زِىٍّ سائلة تتعرّضُ لهم ؛ فدفع إليها زَيدوأوس شَطْر ما حمل إلى كل واحدٍ منهما. فلما صارت إلى رَحْل حاتم دفع إليها جميعَ ما كان من نَفَقَتِه ، وحمل إليها جميع ما حمل إليه .

فلما كان اليوم الثالث دخلوا عليها ، فقالت : ليصفْ كلٌّ واحد منكم نفسه فى شِعْره ؛ فابتدر زيد وأنشأ يقول :

هلّا سألتِ بنى ذُبيــــان : ما حَسَبى	عند الطِّعان إذا ما احمرّتِ الحدَق ![2]
وجاءتِ الخيــلُ محمرًّا بوَادِرها[3]	بالمـاء يَسْفَحُ من لَبَّـاتِها العلَقُ[4]
والجــــارُ يعـلم أنّى لست خاذِلَه	إن نابَ دَهرٌ لعظْم الجارِ معترِقُ[5]

* الخزانة : ٤ – ١٦٠ (طبعة السلفية) ، ذيل الأمالى : ١٥٤ (طبعة دار الكتب)، سرح العيون : ٧٥

(١) انتدب إليها : أسرع وخف . (٢) إذا ما اشتدت الحرب . (٣) البادرة : اللحمة التى بين المنكب والعنق ، وهى تحمر من الدم الذى يسيل عليها من فرسانها .

(٤) العلق : الدم . (٥) اعترقه : أكل ماعليه من اللحم .

هـذا الثناء ، فإن ترضَىْ فراضيــةٌ أو تسخَطى فإلى من تُعْطَفُ العُنق !

وقال أوس بن حارثة : إنك لتعلمين أنَّا أكرمُ أحساباً، وأشهرُ أفعالًا من أن نَصِفَ أنفسنا لكِ ؛ أنا الذى يقول فيه الشاعر :

إلى أوس بن حارثة بن لَأْمٍ ليَقْضِىَ حاجَتى ولقَد قضاهَا
فما وطئ الحَصى مثلُ ابنِ سُعْدَى ولا لبِسَ النعالَ ولا احْتَذاها

وأنا الذى عَقَّتْ عقيقته[1] ، وأعتقت عن كلِّ شعرةٍ فيها عنه نَسَمة ، ثم أنشأ يقول :

فإن تَنْكحِى ماويةُ الخيرِ حاتماً فما مثلُه فينا ولا فى الأعاجِمِ
فتًى لا يزالُ الدهرَ أكبرُ همِّه فكاكُ أسيرٍ أو معونةُ غارِمِ
وإن تنكحى زيداً ففارسُ قوْمه إذا الحربُ يوماً أقعدتْ كلَّ قائمِ
وإن تنكحينى تَنْكحِى غيرَ فاجرٍ ولا جارفٍ جَرْفَ العشيرةِ هادم
ولا متّقٍ يوماً ـ إذا الحربُ شمّرتْ بأنفسها نَفْسِى، كفعلِ الأشائم[2]
وإن طارقُ الأضياف لاذَ برَحْله وجدتَ ابنَ سُعْدَى للقِرَى غيرَ عاتِم[3]
فأىَّ فتى أهْدَى لكِ اللهُ فاقبلى فإنّا كرامٌ من رُءوسٍ أكارمِ .

وأنشد حاتم يقول :

أماوِىَّ قد طال التَّجنُّبُ والهجْرُ وقد عَذَرَتْنِى[4] فى طِلابكُمُ عُذْرُ[5]
أماوىَّ إن المالَ غادٍ ورائحٌ ويَبْقَى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

---

(١) العقيقة : شعر كل مولود من الناس . (٢) الأشائم : جمع أشأم وهو ضد الأيامن .
(٣) عتم الرجل عن الشىء : كف عنه بعد المضى فيه . (٤) عذرتنى : أى رفعت عنى اللوم ومحيت الإساءة وطمستها . (٥) العذر : جمع عذير ، والعذير هو الحال .

أَمَاوِيّ إني لا أقول لسائلٍ ... إذا جاء يوماً : حَلّ في مالنا النَّزْرُ[1]

أماويّ إمّا مانِعٌ فمُبَيِّنٌ ... وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ[2] الزّجْرُ

أماويّ ما يُغْني الثَّراء عن الفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ[3] يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

أماويّ إن يُصْبِحْ صَدَاىَ[4] بقَفْرَةٍ ... من الأرض لا ماءٌ لَدَىّ ولا خَمْرُ

ترى أنّ ما أنفقتُ لم يَكُ ضَائِرِى ... وأنّ يَدِى ممّا بَخِلْتُ به صِفْرُ

أماويّ إنى رُبّ وَاحِد أمّه ... أخذتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أسْر

وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أنّ حاتماً ... أرادَ ثراء المال كانَ له وَفْرُ

أماوِيّ إنّ المالَ مالٌ بَذَلْتُه ... فأوّله شكرٌ وآخرُه ذِكْرُ

وإنّى لَا آلو[5] بمالى صنيعةً ... فأوّلُه زادٌ وآخرُه ذُخْرُ

يُفَكّ به العَانِى[6] ويُؤْكَلُ طَيِّباً ... وما إنْ يعرّيه القِداحُ[7] ولا القَمْرُ

ولا أَظْلِمُ ابنَ العمّ إن كان إخوتى ... شهوداً وقد أَودَى بإخوتِهِ الدَّهْرُ

غنينا[8] زماناً بالتّصعلُك والغِنَى ... وكُلًّا سَقَانَاهُ بكأسيهما الدّهر

فما زادَنا بَأْواً[9] على ذى قرابةٍ ... غِنَانا ، ولا أزْرَى بأحسابنا الفقرُ

وما ضَرّ جاراً يابْنَةَ القوم فاعلَمِى ... يُجَاوِرنى ألا يكون له سترُ

بعيني عن جاراتِ قومِىَ غَفْلَةٌ ... وفى السمعِ منّى عن أحاديثها وَقْرُ

فقالت : أمّا أنت يا زيد فقد وَتَرتَ العرب ، وبقاؤك مع الحُرّةِ قليل ، وأمّا أنت يا أَوْس فرجل ذو ضَرَائر ، والدخولُ عليهنّ شَديد ؛ وأما أنت ياحاتم فرضىُّ الأخلاق ، محمود الشِّيم ، كريم النفس ، وقد زوّجتُك نفسى !

---

(١) النزر : القلة . (٢) نهنهه : منعه . (٣) الحشرجة : الغرغرة عند الموت .

(٤) الصدى : مايبقى من الميت فى قبره . (٥) لا آلو : لا أقصر . (٦) العانى : الأسير .

(٧) القداح : قداح الميسر . القمر : المقامرة . (٨) غنينا : غنى بالمكان : أقام به .

(٩) البأو : الكبر والفخر .

٣١– سبيَّة عُرْوة بن الورد*

أصاب عُرْوَةُ(١) بن الوَرْد امرأة من بنى كنانة ، يقال لها سَلْمى ، فأعْتقَها واتخذها لنفسه ، فمكثتْ عنده بِضْعَ عشرة سنة وولدتْ له أولاداً ، وهو لايشكُّ فى أنها أرغبُ الناس فيه وهى تقول له : لو حَجَجتَ بى ، فأمُرَّ على أهلى وأراهم ! فحَجَّ بها ، فأتَى مكة ، ثم أتى المدينة ، وكان يُخالِط من أهل يثربَ بنى النَّضير ، فيُقْرِضُونه إن احتَاج ، ويُبايعهم(٢) إذا غَنِم .

وكان قومُها يُخالطون بنى النَّضير ، فأتَوْهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : إنه خارجٌ بى قبل أن يخرجَ الشهرُ الحرام ، فتعالَوْا إليه ، وأَخْبِرُوه أنكم تستحيون أن تكونَ امرأةٌ منكم معروفةُ النسب صحيحتُه سبيَّةً ، وافتَدُونى منه ، فإنه لا يَرى أنى أُفارِقُه ، ولا أختارُ عليه أحداً ؛ فأتَوْهُ فسَقَوْهُ الشراب ، فلما ثَمِلَ قالوا له : فادِنا(٣) بصاحبتنا ؛ فإنها وَسِيطةُ(٤) النسبِ فينا ، معروفةٌ ، وإن علينا سُبَّةً أن تكونَ سبيَّة ، فإذا صارتْ إلينا ، وأردتَ مُعاودتَها ، فاخطُبْها ؛ فإننا نزوِّجك ؛ فقال لهم : ذاك لكم ، ولكن لى الشرط فيها أن تخيِّروها ، فإن اختارتنى انطلقتْ معى إلى وَلَدِها ، وإن اختارتْكُم انطلقتم بها ، قالوا : ذاك لك . قال : دعُوا ذلك إلى غدٍ .

* الشعر والشعراء : ٢٦ ، الأغانى : ٣ ــ ٧٦ (طبعة دار الكتب).

(١) عروة بن الورد : شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها المعدودين المقدمين الأجواد . وكان يلقب عروة الصعاليك ؛ لأنه كان كالرئيس عليهم يجمعهم ويقوم بأمرهم .توفى نحو سنة ٣٠ ق هـ . (٢) يبايعهم : يعقد معهم البيع . (٣) المفاداة : إنقاذ الأسير بالفدية .

(٤) وسيطة النسب : حسيبة كريمة .

فلما كان الغد جاءوه فامتنعَ من فِدَائها ، فقالوا له : قد فادَيْتَنا به منذ البارحة ؛ وشَهِدَ بذلك جماعةٌ مِمَّنْ حضر ، فلم يَقْدِرِ على الامتناع وفاداها ، فلما فادَوْهُ خَيَّرُوها فاختارتْ أهلَها ؛ ثم أقبلتْ عليه ، فقالت : ياعُرْوَةُ ، أما إنى أقول فيك ـ وإن فارقتُك ـ الحقَّ : والله ما أعلمُ امرأةً من العرب ألقت سِتْرَها على بَعْلٍ خير منك ، وأغضَّ طرفاً ، وأقلَّ فُحشاً ، وأجودَ يداً ، وَأَحْمَى لِحَقِيقةٍ[1] . وما مَرَّ علىَّ يومٌ منذ كنتُ عندك إلا والموتُ فيه أحبُّ إلىَّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأةً من قومك تقول : قالتْ أَمَةُ عُرْوَةَ كذا وكذا؛ووالله لا أنظرُ فى وَجْه غَطَفانيّةٍ أبداً[2] ، فارْجِعِ راشداً إلى وَلَدِكَ وأَحْسِنْ إليهم !

ثم تزوَّجها رجلٌ من بنى عمِّها ، فقال لها يوماً : ياسلمى ؛ أثنى علىَّ كما أثنيتِ على عُرْوَة ـ وقد كان قولُها فيه شُهِر ـ فقالت له: لا تـكلّفْنى ذلك ؛ فإنى إن قلتُ الحقَّ غَضِبْتَ ، ولا واللاتِ والعُزَّى لا أكذب ؛ فقال : عزمْتُ عليكِ لتأتِينِى فى مجلس قومى فَلَتُثْنِينَ علىَّ بما تعلمين .

وخرج فَجلَسَ فى نَدِىِّ[3] القوم، وأقبلتْ فرَمَاها القومُ بأبصارهم، فوقفتْ عليهم وقالت : أنعِمُوا صباحاً ، إن هذا عَزَم علىَّ أن أُثْنِىَ عليه بما أعلمُ . ثم أقبلتْ عليه فقالت : والله إنَّ شُرْبَك لَاشْتِفافٌ[4] ، وإنكَ لتنامُ ليلةَ تَخاف ، وتشبعُ ليلةَ تُضَافُ ، وما تُرْضِى الأهْلَ ولا الجانب[5] . ثم انصرَفَتْ . فَلَامَهُ قومه ، وقالوا : ما كان أغناكَ عن هذا القولِ منهـا .

---

(١) الحقيقة : مايجب على الرجل أن يحميه . (٢) غطفان : هم قوم عروة .
(٣) ندى القوم : مكان اجتماعهم وحديثهم . (٤) الاشتفاف : شرب كل ماقى الإناء .
(٥) الجانب : الغريب ، والمراد به الضيف .

٣٢ ـ لو كان النساء كمثل هٰذِى*

قال الحارث[1] بن عَوْف يوماً لخارجة بن سِنان المُرّىّ : أتُرانى أخطبُ إلى أحَـدٍ فيردّنى ؟ فقال له : نعم ! قال : ومَنْ ذاك ؟ قال : أوْسُ بن حارِثة الطائىّ ؛ فقال الحارث لغلامه : ارْحلْ بنا . ففعل، وركبا حتى أتيَا أوْسَ بن حارثة فى بلاده ، فوجداه فى فِنَاء منزله ، فلما رأى الحارثَ بنَ عَوْف قال : مَرْحباً بك يا حارث ، قال : وَبِكَ ؟ قال : ماجاء بك ؟ قال : جئتُك خاطبا ، قال : لستَ هناك !

فانصرف ولم يكلّمْه ، ودخل أوْس على امرأته مُغْضَبا ـ وكانت من عبس ـ فقالت : مَنْ رجلٌ واقف عليكَ فلم يُطل ، ولم تـكلِّمْه ؟ قال : ذاك سيّدُ العربِ الحارث بن عوف ، قالت : فما لكَ لم تستَنْزِلْه ؟ قال : إنه استَحْمَق[2] . قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً . قالت : أفتريدُ أن تزوِّجَ بناتك ؟ قال : نعم، قالت: فإذا لم تزوِّجْ سيدَ العرب فَمَنْ ! قال : قد كان ذلك . قالت : فتدَارَكْ ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تَلْحقَهُ فتردُّه ، قال : وكيفَ وقد فَرَط منى مافَرط إليه ! قالت : تقولُ له لقيتَنى مُغْضَبا بأمْرٍ لم تُقدِّم فيه قولا ، فلم يكن عنـدى فيـه من الجواب إلا ما سمعت . عُدْ ولكَ عندى كلُّ ما أحببت ، فإنّه سيَفْعلُ . فركب فى أثرهما .

قال خارِجَة بن سنان : فوالله إنى لأسيرُ مع الحارث إذ حانَتْ منّى التفاتةٌ فرأيت أوساً ، فأقبلتُ على الحارث ـ وما يكلّمنى غمًّا ـ فقلت له : هذا أوْسُ بن

* الأغانى : ١٠ ـ ٢٩٤ (طبعة دار الكتب) ، المستطرف : ٢ ـ ٢٢٢

(١) الحارث بن عوف من بنى مرة، أسلم وحسن إسلامه وبعث معه رسول الله رجلا من الأنصار فى جواره يدعو قومه إلى الإسلام ، فقتلوا الأنصارى . (٢) استحمق : فعل فعل الحمق .

حارثة فى أثرِ نا ، قال : وما نصنعُ به ؟ امض . فلمّا رآنا لا نقفُ عليه صاح: ياحارث! اربَع[1] عليّ ساعةً ، فكلّمتُه بذلك الكلام ، فرجع مسروراً .

ودخل أوس منزلَه، وقال لزوجتِه: ادْعِى لى فلانة لأكبرِ بناتِه ـ فأتته، فقال: يا بُنَيّة ، هـذا الحارث بن عوف سيدٌ من سادات العرب ، قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردتُ أن أزوِّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعَل ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنى امرَأة فى وجهى رِدَّةٌ[2] ، وفى خُلُقِى بَعْضُ العُهْدة[3] ، ولست بابنةِ عمّه فيَرْعَى رَحِمى ، وليس بجارك فى البلد فيستَحِيِى منك ، ولا آمنُ أن يَرَى مِنّى ما يَــكْرَه فيطلقنى ، فيكونَ علىّ فى ذلك مَا فِيه .

قال : قومى ، باركَ الله عليك ، ادعِى لى فلانة ـ لابنته الوُسطَى ـ فدَعَتها ، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، وقالت: إنى خَرْقَاء[4]، وليست بيدى صناعة ، ولا آمَنُ أن يرَى منى ما يكره ، فيطلّقَنى ، فيـكون علىّ فى ذلك ما تعلم ، وليس بابنِ عمِّىَ فيرعى حقّى ، ولا جارك فى بلدك فيستَحْيِيك[5] . قال : قومى ، باركَ الله عليك ، ادْعى لى بُهَيْسَة ـ صُغْرَى بناته ـ فأتى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنتَ وذَاكَ . فقال لها : قد عرَضْتُ ذلك على أُختَيْك فأبَتَاه ، فقالت ـ ولم يذكر لها مقالتَيْهما : لـكنى واللهِ الجميـلةُ وجهاً ، الصَّنَاع يَداً، الرفيعَة خلقاً ، الحسيبةُ أباً ، فإن طلّقَنى فلا أخلَفَ اللهُ عليه بخير ! فقال : بارك الله عليك .

ثم خرج إلى الحارث فقال: زوجتُك ياحارث بُهَيسَةَ بنت أوس ؛ قال: قبلت . فأمر أمّها أن تُهيِّئها ؛ وتُصْلح من شأنها ؛ ثم أمر ببيتٍ فضُرب له ؛ وأنزله إياه ؛ فلما هُيئت بُعث بها إليه .

---

(١) ربع عليه : وقف له ، أو مال إليه. (٢) الردة : شىء من قبح. (٣) العهدة: العيب .
(٤) خرقاء : أمرأة غير صَناع . (٥) فيستحييك : يستحى منك .

قال خارجة بن سنان : فلما أدخلتْ إليه لَبِثَ هُنيهة ثم خرج إليّ ، فقلت : أفرَغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لمّا دخلتُ إليها قالت : مَهْ! أعندَ أبي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون. قال خارجة : ثم أمر بالرِّحلة؛ فارتحلنا ورَحلْنا بها معنا؛ فَسِرْنا ماشاء الله، ثم قال لى : تقدّم، فتقدمت، وعَدل بها عن الطريق ؛ فما لبث أنْ لَحق بى ؛ فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله ، قلتُ : ولِمَ؟ قال: قالت لى : أكما يُفعل بالأمة الجَليبَة[1] أو السَّبِية الأخِيذَة[2]! لا والله، حتى تَنْحَر الجزُر[3] وتَذْبح الغنم ، وتدعوَ العرب ، وتَعْمَل ما يُعْمَل لمثلى ! قلت : والله إنى لأرَى هِمّةً وعقلاً ، وأرجو أن تكونَ المرأةُ مُنْجِبةً إن شاء الله .

قال خارجة : فرحلْنا حتى جئْنا بلادنا ، فأحْضَرَ الإبلَ والغنم، ثم دخل عليها، وخرج إلىّ، فقلت : أفرغت ؛ قال: لا، قلت: ولم؟ قال : دخلتُ عليها، وقلتُ لها: قد أحضَرْنا من المال ماقد تَرَيْن، فقالت : والله لقد ذُكرت لى من الشّرف مالا أراه فيك ! قلتُ: وكيف؟ قالت: أتَفْرغُ للنساء ـ والعربُ تَقْتُل بعضها بعضاً[4]! قلت: فيكونُ ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصْلِحْ بينهم، ثمَ ارجع إلى أهلك فلن يفوتكَ ما تريد ، فقلت : والله إنى لأرَى هِمّةً وعقلًا، ولقد قالت قولا . . .

قال خارجة : ثم قال الحارث : اخرج بنا ، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح ، فاصطلَحُوا على أن يحتَسبوا القتلى ، فيُؤخذ الفضلُ ممّن هو عليه ، فحملْنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر ! فمدح بذلك وقال فيه زهير قصيدته[5] :

* أمِنْ أمِّ أوفَى دِمنَة لم تكلّمِ *

---

(١) الجليبة : المجلوبة . (٢) الأخيذة : المأخوذة . (٣) جمع جزور ؛ وهو البعير .

(٤) كان ذلك فى أيام حرب عبس وذبيان ، وهى المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٥) وهى قصيدته التى تعد فى المعلقات .

٣٣ — بنت حاتم الطائى*

قال علىّ بن أبى طالب ـ عليه السلام : ياسبحان الله ! ما أزهَدَ كثيراً من الناس فى الخير ! عجبتُ لرجل يجيئُه أخوه فى حاجةٍ فلا يرى نفسَه للخير أهلًا ! فلو كنّا لا نرجو جَنة ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ، ولا نخشى عقاباً لكان ينبغى لنا أن نطلبَ مكارمَ الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : فِدَاكَ أبى وأمى يا أمير المؤمنين ! أسمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، وما هو خيرٌ منه ؛ لما أُتينا بسبايا طيّئٍ كانت فى النساء جاريةٌ حَمّاء[1] ، حوْراء العينين[2] لَعْساء[3] ، لَمْياء[4] عَيْطاء[5] ، شمّاء الأنف ، مُعتدلةُ القامة .

فلما رأيتها أُعجبت بها ؛ فقلت : لأَطلبنّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليجعلها من فَيْئى[6] ، فلما تكلّمَتْ أُنسيتُ جمالَها لما سمعتُ من فصاحتها ، قالت : يا محمد ، هلك الوَالد ، وغاب الوافد ! فإن رأيتَ أن تخلّىَ عنى ، فلا تُشْمِت بى أحياء العرب ! فإنى بنتُ سيدِ قومى ؛ كان أبى يَفكُّ العانى ، ويحمِى الذِّمار ؛ ويَقْرى الضيف ، ويُشْبع الجائع ، ويفرِّجُ عن المكروب ، ويُطعمُ الطعام ، ويُفشى السلام ، ولم يُردّ طالبَ حاجة قط ؛ أنا بنت حاتم طيئٍ . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا جارية ؛ هذه صفاتُ المؤمن ، ولو كان أبوك إسلامياً لترحّمْنا عليه ، خَلُّوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق !

---

* الأغانى : ١٦ ـ ٣٠٢٩ (طبعة الساسى) ، سرح العيون : ٧٣

(١) حماء : سوداء . (٢) الحور : سواد العين كلها ، مثل الظباء ، ولا يكون فى بنى آدم ، بل يستعار لها . (٣) جارية لعساء : فى شفتها أدنى سواد ، مشربة بحمرة . (٤) اللمى : سمرة فى الأنف . (٥) امرأة عيطاء : طويلة العنق . (٦) الفىء : الغنيمة .

٣٤ — أيتهما أعظم العرب مصيبة ؟*

لما كانت وَقْعَةُ بدر قُتل فيها عُتْبَة بن ربيعة ، وشَيْبَة بن ربيعة ، والوليد ابن عُتْبة ، فأقبلَتْ هندُ بنتُ عتبة ترْثيهم ، وبلغها تَسْويم[1] الخنساء[2] هَوْدَجها في الموسم ، ومعاظَمَتُها العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشَّريد وأخويها صَخْرٍ ومعاوية، وأنها جعلت تَشْهدُ الموسم وتبكيهم، وقد سوَّمت هودَجَها براية، وأنها تقول : أنا أعظمُ العربِ مصيبةً ؛ وإن العرب قد عرفَتْ لها بعض ذلك .

فلما أصيبتْ هند[3] بما أصيبت به وبلَغها ذلك ، قالت: أنا أعظَمُ من الخنساء مصيبةً ، وأمرتْ بهوْدجها فسُوِّمَ براية، وشهدَت الموسمَ بعُكَاظ - وكانت سوقاً يجتمع فيها العرب - فقالت : اقرِنوا جملي بجمل الخنساء ، ففعلوا ؛ فلما أن دَنَتْ منها قالت لها الخنساء : مَنْ أنتِ يا أُخيَّة ؟ قالت : أنا هند بنتُ عُتبة أعظم العرب مصيبة، وقد يلغني أنكِ تُعَاظمين العرب بمصيبتك ، فَبِمَ تعاظمينهم؟ فقالت الخنساء: بعمرو بن الشَّريد ، وصَخْر ، ومعاوية ابني عمرو . وبم تعاظمينهم أنتِ؟ قالت : بأبي عُتبة بن ربيعة ، وعمِّي شيبة بن ربيعة ، وأخي الوليد ؛ قالت الخنساء : أوَ سواء عندك ؟ ثم أنشأت تقول :

---

* الأغاني : ٤ — ٢١٠ (طبعة دار الكتب) ، معاهد التنصيص : ١ — ١١٧

(١) سوم الشيء : جعل له سومة وعلامة ليعرف ويتميز . (٢) اسمها تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي، كانت من شواعر العرب، المعترف لهن بالتقدم وأدركت الإسلام، وأسلمت ومات أولادها الأربعة في حرب القادسية ، وأكثر شعرها في رثاء أخويها معاوية وصخر ، وماتت في زمن معاوية بالبادية . (٣) هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية .

أبكِّى أبِى عَمْراً بعينٍ غزيرة   قليـــلٍ إذا نام الخَلِىُّ هُجُودُها
وصِنْوَىَّ ، لا أنْسَى معاويةَ الذى   له من سَرَاةِ الحرَّتَيْنِ[1] وُفُودُها
وصَخْراً، وَمَنْ ذَامِثلُ صخرٍ إذا غَدَا   بساهمــةِ الآطال قُبّاً[2] يَقُودُها !
فذلكِ يا هنـــد الرزيّةُ فاعلمى   ونيرانُ حَرْبٍ حين شبَّ وقودها

فقالت هند تجيبُها :

أبكِّى عَمِيدَ الأبْطَحَيْنِ[3] كليهما   وحَامِيَهَا من كلِّ باغٍ يُرِيدُها
أبى عتبةَ الخيرات وَيْحَكِ فاعلمِى   وشيبةُ والحامى الذِّمار وليـــدُها
أولئك آل المجـدِ من آل غَالبٍ   وفى العزّ منها حين يُنْمِى عديدُها[4]

ثم قالت :

مَنْ حَسَّ لى الأخَوَيْنِ كالـــغُصْنَين أو من رَاهُمَا[5] !
قَرْمان لا يَتَظَالمـــان ولا يُرَامُ حِمَاهما
وَيْلِى على الأخَوَيْنِ والقـــبْرِ الذى وارَاهمـــا
لا مثل كَهْلِى فى الكهو   ل ولا فتًى كفتاهُمـــا
أسَدان لا يتــذلّلا   ن ولا يرام[6] حِمَاهُمـــا
رُمْحـــان خَطّيان فى   كبد السماء سناهُمـــا
ما خَلّفا إذ وَدّعا .   فى سُودَدٍ شَرْوَاهمـــا[7]
سادَا بغيرِ تكلُّفٍ   عفواً يفيضُ نداهُمـــا

---

(١) الحرة : الأرض ذات الحجارة السود. والمراد حرة بنى سليم، وحرة بنى هلال بالحجاز . أى هو مقصد الأشراف تأتيه وفودها فيما يلم بها . (٢) الساهمة: الدقيقة، والآطال: جمع إطل وهو الخاصرة ، والقب : جمع أقب ، وهى الفرس الدقيقة الخصر ، الضامرة البطن. (٣) الأبطحان: تريد بطحاء مكة وسهل تهامة . (٤) عديدها : جموعها . (٥) راهما : أصله رآهما .
(٦) يرام : يطلب . (٧) شرواهما : مثلهما .

٣٥ — شجاعة صفية بنت عبد المطلب*

قالت صفيّةُ بنت عبد المطلب : كان حسان[١] بن ثابت معنــا فى حصن فَارع[٢] يوم الخَنْدَق ، ومعنا النساء والصِّبْيان ، فمر بنا رجلٌ من يهود ، فجعل يطيف بالحِصْن ؛ فقلت : ياحسان ؛ إن هذا اليهوديّ ـ كما ترى ـ يُطيف بالحصن ، وأنا والله لا آمنُ أن يَدُلّ علينا مَن وَرَاءنا من يهود ، ورسول الله قد شُغل عنا ؛ فانْزِل إليــه واقْتُلْه . فقال : يغفرُ الله لكِ يا بنةَ عبد المطلب ، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب شجاعة !

قالت: فلما قال لى ذلك ولم أرَ عنده شيئاً ، اعتَجَرْتُ[٣]، ثم أخذتُ عموداً ، ونزلتُ إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ؛ فلما فرغتُ منه رجعت إلى الحصن ، وقلت : ياحسان ؛ انزل إليه ، فاسْلُبْه[٤] فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ! فقال : ما لى بسلبه مِنْ حاجة يا بنت عبد المطلب !

---

* الغرر : ٢٢٥ ، معاهد التنصيص ١ ـ ٧٤ ، الأغاني ٤ ـ ١٦٥ (طبعة دار الكتب) .

(١) هو شاعر الرسول، وقد نشأ فى الجاهلية ونبه شأنه فيها،وعاش طويلا فى الإسلام ؛ ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ . (٢) حصن بالمدينة ، ويوم الخندق واقعة مشهورة بين رسول الله والمشركين . (٣) اعتجرت المرأة : لبست المعجر وهو ماتشده على رأسها .

(٤) سلبه: السلب ماياخذ أحدالقرنين فى الحرب من قرنه مما يكون عليه ومعه من ثياب وسلاح ودابة.

٣٦ — الخنساء عند عائشة*

دخلت الخنساء على عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ، وعليها صِدَار[١] من شَعر ، قد استَشْعرته إلى جلدها ؛ فقالت لها : ما هـــذا ياخنساء ؟ فو الله لقد تُوُفِّىَ رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — فما لبستُه .

قالت : إنّ له معنًى دعانى إلى لباسه ؛ وذلك أن أبى زوّجنى سيد قومه ، وكان رجلًا مِتْلَافًا ، فأَسْرَفَ فى ماله ، حتى أنفدَه ، ثم رجع إلى مالى ، فأنفده أيضًا .

ثم التفت إلىّ فقال : إلى أين ياخنساء ؟ قلت : إلى أخى صَخْر ، فأتيناه ، فقسم ماله شَطْرين[٢] ، ثم خيّرنا فى أحسن الشطرين ، فرجَعْنا من عنده على حال حسنة ؛ فلم يزل زوجى حتى أذهب جميعَه .

ثم التفت إلىّ ، فقال : إلى أين يا خنساء؟ قلت : إلى أخى صخر، فرحلنا إليه فقسّم ماله شطرين ، وخيّرنا فى أفضل الشطرين .

فقالت له زوجته : أما ترضى أن تشاطرَهم مالك حتى تخيّرهم بين الشطرين ! فقال :

والله لا أمنحُها شِرارَهـــا ... فلو هلَكْتُ قدّدتْ[٣] خِمارَها

* واتّخذت من شعرٍ صِدَارها *

فآليتُ ألا يفارق الصِّدَارُ جسدى ما بقيت !

---

* العقد الفريد : ١ — ٢٢ ، سرح العيون : ٢٩٩

(١) الصدار : ثوب رأسه كالمقنعة ، وأسفله يغشى الصدر والمنكبين ، وكانت المرأة إذا فقدت حيمها فأحدت عليه لبست صداراً من صوف . (٢) شطر الشيء : نصفه .

(٣) قددت : قدت وقطعت .

٣٧ — إلٰهُ عمر يعلم*

نهى عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته عن مَذْق[1] اللَّبن بالماء ، فخرج ذات ليلة فى حَواشى المدينة ، فإذا بامرأةٍ تقولُ لابنةٍ لها : ألا تَمْذُقين لبنك فقد أصبَحْتِ ؟ فقالت الجارية : كيف أَمْذُق وقد نهى أميرُ المؤمنين عن المَذْق !

فقالت : قد مذَق الناسُ فامذُقى فما يدرِى أميرُ المؤمنين ؟ فقالت : إن كان عمرُ لا يعلم فإلٰه عمرَ يعلم ، ما كنتُ لأفعله وقد نهى عنه .

فوقعت مقالتُها من عمر . فلما أصبح دعا عاصماً ابنه ، فقال : يا بنىّ ؛ اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية — وَوَصَفَها له — فذهب عاصم ، فإذا جاريةٌ من بنى هلال . فقال عمر : اذهب يابنى فتزوجها ، فما أحراها أن تأتىَ بفارس يَسُودُ العرب ، فتزوّجها عاصم بن عمر ، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان ؛ فأتت بعمر بن عبد العزيز !

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٧ ، نهاية الأرب : ٣ — ٢٢٨ ، مجمع الأمثال ٢ — ١٣٨ ابن أبى الحديد : ٣ : ١١٠

(١) المذق : الخلط .

٣٨ — كذلك الدهر !*

لما قدم سعد بن أبي وقّاص (١) القادسيّة ، أتتْه حُرَقَة بنت النعمان بن المنذر في جَوَارٍ كلّهن في مثل زِيِّها ، يطلبْنَ صِلَتَه .

فلما وقَفْنَ بين يديه قال : أيتّكنّ حُرَقة ؟ قلن : هذه . قال لها : أنت حُرَقة؟ قالت : نعم ، فما تكْرَارُكَ في السؤال ؟ إن الدنيا دارُ زوال ، لا تدومُ على حال ؛ إنا كنّا ملوكَ هذا المِصر ، يُجبَى إلينا خَرَاجُه ، ويُطِيعنا أهلُه مَدَى الإمْرَةِ وزمان الدولة ، فلما أدْبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فصدع عَصَانا ، وشتّت مَلأَنا . وكذلك الدهر ياسعد ؛ إنه ليس يأتي قوماً بمسرّةٍ إلّا ويُعْقبهم حسرة . ثم أنشأت تقول :

بَيْنَا نَسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحن فيهم سوقةٌ نَتَنَصَّفُ (٢)

فأفٍّ لدُنيا لا يدومُ نعيمُها ... تَقَلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ !

فقال سعد : قاتل الله عديّ بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إنّ للدهر صولةً فاحْذَرَنْها ... لا تبيتَنَّ قدْ أمنْتَ الدهورا

قد يبيت الفتى مُعافًى فَيَرْدَى (٣) ... ولقد كان آمناً مسروراً

ودخل عمرو بن معد يكرب — وكان من قُصّاد النعمان — وهي بين يدي سعد ، فلما نظر إليها قال : أنتِ حُرَقه ؟ قالت : نعم . قال : فما دَهَمَكِ ؟ أين تتابعُ

---

* خزانة الأدب : ٣ — ١٨١ (المطبعة الأميرية) .

(١) هو فاتح العراق ومدائن كسرى ، وفقد بصره في آخر حياته ، وتوفي سنة ٥٥ هـ .

(٢) نتنصف : نخدم . (٣) يردى : يهلك .

نِعَمِك ، وسَطَوات نِقَمِك ؟ فقالت : ياعَمْرو ، إن للدهر عَثَرَاتٍ تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفِضهُم بعد رِفْعةٍ ، وتُفْرِدُهُمْ بعد مَنَعَةٍ ، وتُذلّهم بعد عِزّ . إن هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حلّ لم نُنْكِره .

فلما انصرفت من لَدُنْ سعد لقيها نساء القادسيّة فقلن لها : مافعل بك الأمير ؟ قالت : أكْرَم وجهى ، وإنما يُكرِم الكريمَ الكريمُ .

٣٩ — لَا تَذْهَبِي بنفسك عن الحق*

قال علىّ بن أبى رافع : كنتُ على بيتِ مالِ علىّ بن أبى طالب وكاتبَه ، فكان فى بيت ماله عِقْدُ لؤلؤ كان أصابه يومَ البصرة ، فأرسلَتْ إلىّ بنتُ علىّ ابن أبى طالب ؛ فقالت لى : إنّه قد بلغنى أن فى بيت مالِ أميرِ المؤمنين عِقْدَ لؤلؤ، وهو فى يدك ، وأنا أحبُّ أن تُعِيرَنيه ، أتجمّلُ به فى يوم الأضحى .

فأرسلتُ إليها : عاريّةٌ مضمونة ، مردودة بعد ثلاثة أيام يابنتَ أمير المؤمنين. فقالت : نعم ! عاريّة مردودة بعد ثلاثة أيام .

فدفعتُه إليها وإذا أميرُ المؤمنين رآه عليها فعرَفه ؛ فقال لها : من أين جاء إليك هذا العِقْد ؟ فقالت : استعَرْتُهُ من ابن أبى رافع خازنِ بيتِ مال أمير المؤمنين ؛ لِأتَزَيّنَ به فى العيد ، ثم أرُدَّه .

---

* مجاني الأدب : ٢ ـ ١٧٣

فبعث إلىّ أميرُ المسلمين فجئتُه ؛ فقال لى : أتخُون المسلمين يابْنَ أبى رافع ؟ فقلت : معاذَ الله أن أخونَ المسلمين ! فقال : كيف أعَرْتَ بنت أمير المؤمنين العقدَ الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ! فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنها بنتك؛ وسألتنى أن أُعِيرَها العِقْدَ تتزين به، فأعَرْتُها إياه عاريةً مضمونةمردودة على أن تردَّه سالماً إلى موضعه ؛ فقال : رُدَّه من يومك ، وإياك أن تعودَ إلى مثله ؛ فتنالك عقوبتى . ثم قال : ويلٌ لابنتى ! لو كانت أخذت العقد على غير عاريةٍ مردودة مضمونة لكانت إذن أولَ هاشمية قُطِعَت يَدُها فى سرقة .

فبلغت مقالتُه ابنتَه ، فقالت له : ياأميرَ المؤمنينَ ؛ أنا ابنتك وبَضْعَةٌ[1] منك ، فمن أحقُّ بلُبْسِه منى ! فقال لها : يابنت أبى طالب ؛ لا تذهبى بنفسكِ عن الحق ! أ كلُّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيَّنَّ فى مثل هذا العيد بمثل هذا !

فقبضته منها ورددتُه إلى موضعه .

---

(١) بضعة ، أى قطعة .

٤٠ — المغيرة يخطب بنت النعمان*

سار المغيرةُ[١] بن شعبة ـ حينما كان والياً على الكوفة ـ إلى دَيْر هند بنت النعمان بن المنذر ، وهي فيه عمياء مُتَرهِّبة ، فاستأذَنَ عليها ، فقيل لها : أميرُ هذه المدَرَةِ[٢] بالباب ! فقالت : قولُوا له : أمِنْ وَلَدِ جَبَلَة بن الأيهم أنت ؟ قال : لا . قالت : أفَمِنْ ولد المُنْذرِ بن السماء ؟ قال : لا . قالت : فمن أنْتَ ؟ قال : المغيرة ابن شعبة الثقفي ! قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتُك خاطباً ! قالت : لو كنتَ جئتني لجمالٍ أو لمالٍ لأطْلَبْتُك[٣] ، ولكنك أردتَ أن تتشرّف بي في محافل العرب ، فتقول : تزوَّجْتُ ابنةَ النُّعمان بن المنذر ، وإلا فأيُّ خير في اجتماع أعور وعمياء ؟

فبعث إليها : كيف كان أمرُكم ؟ فقالت : سأختصِرُ لك الجوابَ : أمسَيْنا مساء وليس في الأرض عَرَبيٌّ إلا وهو يرغب إلينا وَيَرْهَبُنا ، ثم أصبحنا وليس في الأرض عربي إلا ونحن نرغبُ إليه ونرهبُه .

---

* الكامل للمبرد : ١ ـ ١٧٧ ، المسعودي : ٢ ـ ٦٨

(١) المغيرة بن شعبة : من ثقيف، أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد بيعة الرضوان وفتوح الشام واليرموك، والقادسية، وولاه عمر البصرة، ومات بالكوفة وهو أميرها سنة ٥٠ هـ .

(٢) المدرة : المدينة الضخمة. (٣) أطلبه: أعطاه ما طلبه .

٤١ — ولقد أبيت على الطَّوَى*

قال تميم بن عديّ اليَرْبُوعيّ :

كنتُ مع عبد الله بن العبّاس[1] عند مُنصرَفه من دمشق ، فسألته فى بعض الأيام وقلتُ له : بمـاذا يتمّ عقلُ الرجل ؟ فقـال : إذا صنع المعروفَ مبتدِئا به ، وجادَ بما هو محتاجٌ إليه ، وتجاوز عن الزَّلة ، وجازى على المكرُمة ، وتجنَّبَ مواطنَ الاعتذار ؛ فقد تمّ عقله . فحفظتُ ذلك منه ، وألصقْتُه بقلبى .

ثم بعد أيام نزلْنا منزلا ، فطلبْنا طعاما فلم نجده ، ولا قدَرنا عليه ـ فإنّ زيادا كان قد نزل بذلك المنزل قَبْلنا بأيامٍ قليلة فى جَمْعٍ كثير ؛ فأتَوْا على ما كان فيه من الطعام ـ فقال عبدُ الله لوكيله : اخرُج إلى هذه البَرِّيةِ ، فلعلّك تجدُ بها راعياً معه طعام ؛ فمضى الوكيلُ ومعه غِلْمان ؛ فأطالوا التوقّف ، فلما كادوا يرْجِعون لَاحَ لهم خِباء ، فأمُّوه ؛ فوجدوا فيه عجوزاً ، فقالوا لها : هل عندك طعامٌ نبتاعه منك؟ فقالت: أمّا طعامُ بيعٍ فلا ؛ ولـكن عندى أُكْلة لى ، وبأولادى إليها أمسُّ حاجة ، قالوا: وأين أولادُك ؟ قالت : فى رَعْيِهِم ، وهذا وقتُ عَوْدَتِهم . قالوا : فما أعددتِ لهم

---

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٣

(١) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب : ولد قبل الهجرة بسنتين ، وكان رسول الله يحبه ويقربه ودعا له فقال : « اللهم علمه التأويل » ، فكان أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين، على ما أوتيه من لسان ذلق غواص على موضع الحاجة، وعاش عمره محبباً إلى الخلفاء وتوفى سنة ٦٨هـ.

قالت : خُبزة[١] تحت مَلَّتِها[٢] أنتظرُ بها أن يجيئوا . قالوا لها : فجودى لنا بنصفها، قالت:لا ؛ ولكن بها كلّها . قالوا : ولِمَ مَنعتِ النصف وجُدت بها كلّها ، ولا خُبزَ عندكِ غيرها ؟ قالت : إنَّ إعطاء الشَّطر[٣] من خُبزةٍ نقيصة ؛ فأنا أمنع ماينقصنى ، وأجودُ بما يرفعنى ، فأخذوا الخبْزَة لفرْطِ حاجتهم إليها . وانصرفوا ؛ ولم تسأل : مَنْ هم؟ ولا من أين جاءوا !

فلما أتَوْا عبدَ الله وأخبروه خبَرَ العجوز عجِب من ذلك ، وقال : ارجعوا إليها فاحملوها فى دَعَةٍ ، وأحضروها ؛ فرجعوا إليها ، وقالوا لها : إن صاحبنا أحبَّ أن يَرَاكِ . قالت : ومَنْ صاحبُكم ؟ قالوا : عبد الله بن العباس. قالت : ما أعرفُ هذا الاسم. قالوا : العباس بن عبد المطلب، وهو عمُّ النبيّ . قالت: والله هذا الشرف العالى وذِرْوته الرفيعة ، وماذا يريد منى ؟ قالوا : يريدُ أنْ يكافئَكَ على ما كان منك . قالت : لقد أفسَدَ الهاشميّ ما أثَّل له ابنُ عمّه عليه السلام ! والله لو كان ما فعلتُ معروفاً ما أخذتُ عليه ثَوَاباً ؛ وإنّما هو شىء يجبُ على كل إنسان أن يفعله . قالوا : فإنّه يحبُّ أن يراكِ ويسمع كلامَكِ . قالت : أصيرُ إليه ؛ لأنّى أحبُّ أن أرى رجلا من جناح النّبيّ وعضواً من أعضائه .

فلمّا سارت إليه رحّب بها وأدنى مجلسَها ، وقال : مِمّن أنتِ ! قالت : من كلْب. قال : كيف حالُكِ ؟ قالت : لم يبْقَ من الدنيا ما يفرح إلا وقد بلغتهُ، وإنّى الآن أعيشُ بالقناعة، وأصونُ القرابة، وأنا أتوقّع مفارقةَ الدنيا صباحاً ومساء. قال :

---

(١) الخبزة : عجين يوضع فى الملة حتى ينضج (٢) الملة : الرماد الحار والجمر .
(٣) شطر الشىء : نصفه .

أخبريني ، ما الذى أعددتِ لأولادكِ عنـد انصرافهم بعد أخذنا الُخبزة ؟ قالت :
أعددتُ لهم قول العربيّ :

ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فأعجبه قولها ؛ وقال لبعض غلمانه : انطلق إلى خِبَائها ، فإذا أقبل بنوها ، فجئْ بهم . فقالت للغلام : انطلق ، فكن بفناء البيت ، فإنّهم ثلاثة ، فإذا رأيتهم تجد أحدَهم دائمَ النظرَ نحو الأرض ، عليه شِعار الوَقار ، فإذا تكلّم أفصح ، وإذا طلب أنجح . والآخر حديد النَّظر ، كثير الحذَر ، إذا وَعَد فعل ، وإن ظُلِمَ قَتل . والآخر كأنه شُعلة نار وكأنه يطلب بثأر ، فذاكَ الموتُ للمائت والداء الكاتب ، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم فقُلْ لهم عنّى : لا تجلسوا حتى تأتونى .

فانطلق الغلام ، فأخبرهم الخبر ، فما بَعُدَ أمدُه حتى جاءوا ، فأدناهم عبد الله وقال : إنى لم أبعثْ إليكم وإلى والدتكم إلا لأصْلح من أمركم ، وأصنع مايجبُ لكم ؛ فقالوا : إن هذا لا يكونُ إلا عن مسأله أو مكافأة فعلٍ جميل تقدَّم، ولم يصدر منا واحدةٌ منهما ؛ فإن كنت أردت التكرُّم مبتدئاً فمعروفك مشكور ، وبِرُّك مقبول مبرور . فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعَشرٍ من النوق ؛ فقالت لهم العجوز : ليقلْ كل واحد منكم بيتاً من قوله :

فقال الأكبر :

شهدتُ عليكَ بحُسْنِ المقالِ وصِدْقِ الفعَال وطيبِ الخبرْ

وقال الأوسط :

تبرّعتَ بالبَذْل قبل السُّؤالِ فعَالَ كريمٍ عظيمِ الخطَرْ

وقال الأصغر :

وحقّ لمن كان ذا فِعْـــلُه ... بأن يَسْتَرِقّ رقابَ البَشرْ

وقالت العجوز :

فَعَمَرَكَ الله من ماجــــدٍ ... ووُقّيت - ماعشتَ شرَّ القدرْ

ثم ودّعوه وانصرفوا .

قال تميم اليَرْبُوعىّ : فالتفت إلىّ وقال لى : ياتميم ؛ وودت لو وَجَدْتُ مَزيداً فى ابتداء المعروف إلى هــذه المرأة وبنيها ، وجعل يتأوّه من تقصيره عن مزاده فى ذلك . فقلت له : لقــد أحسنتَ وأرْجَحْتَ وقد شهد فعلُك بمـا سبقَ من قولك ، فأنْتَ أتمُّ الناسِ عقلا ، وأكملُهم مُرُوءةً !

٤٢ — أبو الأسودا الدؤلىّ وزوجه*

قال أبو محمد القُشَيْرىّ :

كان أبو الأسود[1] الدُّؤلى من أكبر الناس عنـد معاوية بن أبى سُفيان ، وأقربِهم مجلساً ، وكان لا ينطقُ إلا بعقل ، ولا يتكلمُ إلا بَعْدَ فهم .

فبينما هو ذاتَ يوم جالسٌ ، وعنده وجوهُ قريش وأشرافُ العرب، إذ أقبلتْ امرأة أبى الأسود حتى حاذتْ معاوية وقالت : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته ؛ إنَّ اللهَ جعلك خليفةً فى البلاد ورَقيباً على العباد ؛ يُسْتَسْقَى بك المَطرُ ، ويُسْتَنْبَتُ بك الشَّجَر ، وتؤَلَّفُ بك الأَهْواء ، ويأمَنُ بك الخائف ، ويُرْدَع بك الجَانِفُ[2] ، فأنت الخليفة المُصْطَفَى ، والإمامُ المُرْتَضى ، فأسألُ اللهَ لك النّعمة فى غير تغيير ، والعافيةَ من غير تعْذير[3] . قد ألجأنى إليك يا أميرَ المؤمنين أمرٌ ضاق علىّ فيه المَنْهَجُ ، وتفاقَم علىّ منه المخرَج ، لأمرٍ كرهتُ عارَه ، لمّا خشيتُ إظهارَه ؛ فليُنصِفْنى أميرُ المؤمنين من الخَصْم ، فإنى أعوذُ بعَقْوَته[4] من العارِ الوَبيلِ ، والأمر الجليل ؛ الذى يشتدُّ على الحرائر ذات البعول الأجائر[5] .

فقال لها معاوية : ومَنْ بعلُك هذا الذى تَصِفِين من أمره للمنكر ؛ ومن فِعلِه المشهَّر ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدُّؤلِىّ .

* بلاغات النساء : ٥٣

(١) اسمه ظالم بن عمرو ، وأبو الأسود كنيته ، وهو معدود فى التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين، كان أكثر الناس تعلقا بعلى بن أبى طالب وعنه أخذ النحو ، توفى سنة ٩٩ هـ . (٢) الجانف : المائل . (٣) تعذير : نقص . (٤) العقوة فى الأصل : ماحول الدار . (٥) البعول : جمع بعل ، وهو الزوج ، والأجائر : جمع أجور ؛ تفضيل من جار .

فالتفت إليه وقال: ياأبا الأسود؛ ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأسود: هى تقولُ من الحق بعضاً، ولن يستطيعَ أحدٌ عليها نقضا، أماما ذكرتْ من طلاقها فهو حقٌّ؛ وأنا مُخبرٌ عنه أميرَ المؤمنين بالصدق؛ و لله ياأميرَ المؤمنين ماطلّقتُها عن ريبةٍ ظهرتْ، ولا لأيّ هفوةٍ حضرت؛ ولكن كرهت شمائلَها؛ فقطعتُ عنى حبائلَها.

فقال معاوية: وأيُّ شمائلها ياأبا الأسود كرِهْتَ؟ فقال: ياأميرَ المؤمنين؛ إنك مهيّجُها علىّ بجواب عَتِيدٍ[1] ولسانٍ شديد.

فقال معاوية: لابدّ لك من مُحاورتها، فارْدُدْ عليها قولَها عند مراجعتها. فقال أبو الأسود: يا أميرَ المؤمنين؛ إنها كثيرةُ الصَّخَب، دائمةُ الذَّرَب[2]، مهينةٌ للأهل، مُؤذية للبَعْل، مُسيئةٌ إلى الجار، مُظهِرَة للعار، إنْ رأت خيراً كتمته، وإن رأتْ شراًّ أذاعته.

فقالت: والله لولا مكانُ أميرُ المؤمنين، وحضورُ مَن حضره من المسلمين، لرددْتُ عليك بوادرَ كلامِك، بنوافذَ أَقْرَعُ بها كَلَّ[3] سهامِك؛ وإنْ كان لا يجملُ بالمرأة الحرّة أن تَشْتِمَ بَعْلًا، ولا أن تُظهر لأحد جهلًا.

فقال معاوية: عزمْتُ عليكِ لماأجبْتِه. فقالت: ياأميرَ المؤمنين، ماعلمتُه إلا سَئُولا جَهُولا، مُلحًّا بخيلًا[4]، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذُو دَغَائل[5]، ليثٌ حين يَأْمَن، وثعلب حين يخاف، شَحِيح حين يُضَاف، إذا ذُكِرَ الجود انقمع؛ لما يعرف من قِصَرِ رِشائه[6]، ولؤم آبائه، ضَيْفُه جائع، وجارُه ضائع؛ لا يحفَظُ جاراً؛ ولا يحمى

(١) عتيد: حاضر. (٢) الذرب: حدة اللسان. (٣) يقال: كل السيف؛ إذا لم يقطع، فهو كل وكايل. (٤) اشتهر أبو الأسود بالبخل، وله فى ذلك نوادر. (٥) الدغائل: جمع دغيلة، والدغيلة: دخل فى الأمر مفسد. (٦) الرشاء فى الأصل: الحبل.

ذِماراً ، ولا يُذْرِكَ ثاراً، أكرمُ الناس عليه مَنْ أهانه ، وأهونُهم عليه مَن أكرمه .

فقال معاوية : سبحانَ اللهِ لما تأتى به هذه المرأة من السَّجْع ! فقال أبو الأسود: أصلح الله أميرَ المؤمنين ؛ إنها مطلَّقة ، ومَنْ أكثر كلاماً من مُطلَّقة ! ثم قال لها معاوية : إذا كان رَوَاحاً[1] فتعالى أفصل بينكِ وبينه بالقضاء .

فلما كان الرَّوَاح جاءت ومعها ابنها قد احْتَضَنَتْهُ ؛ فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينْتَزِعَ ابنَه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تُعْجِل المرأة أنْ تنطق بحُجَّتها .

قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أنا أحقُّ بحملِ ابنى منها، فقال له معاوية : ياأبا الأسود، دَعْها تقُلْ . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، حملته قبل أن تحملَه . فقالت : صدق والله يا أميرَ المؤمنين ، حَمَله خِفًّا وحملتُهُ ثِقْلا ، إنَّ بطنى لوعاؤه ، وإن ثَدْيى لَسِقاؤه ، وإن حِجْرى لَفِناؤه . فقالمعاوية : سبحانَ الله لما تأتين به ! ثم قال لأبى الأسود: إنها قد غلَبَتْك فى الكلام ، فتكلّف لها أبياتاً لعلك تغلبُها ؛ فأنشأ يقول :

مَرْحباً بالتى تجورُ علينا ... ثم سَهْلًا بالحاملِ المحمولِ

أغلقتْ بابها علىَّ وقالت : ... إن خيرَ النساء ذاتُ البُعولِ

شغلت نفسها علىَّ فراغاً ... هل سمعتُم بالفارغ المشغولِ !

فأجابته :

ليس مَنْ قال بالصواب وبالحقِّ ... كمن جار على مَنَارِ السبيلِ

كان ثَدْيى سقاءه حين يُضحى ... ثم حِجْرى فناءه بالأصيلِ

لستُ أبغى بواحدى يابْنَ حَرْبٍ ... بدلًا ما علمته والخليلِ[2]

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملتْ ابنها وانصرفت .

---

(١) الرواح : العشى . (٢) تريد بالخليل محمداً رسول الله.

٤٣ ـ إنَّ قُرَيشا تحدثُ أنكَ من أحْلَمِها*

كتب معاويةُ إلى واليهِ بالكوفة أن يحملَ إليه أمَّ الخيرِ بنت الحُرَيْش البارِقيَّةَ برَحْلِها ، وأعلمه أنه مُجازِيهِ بقولها فيه ؛ بالخير خيراً وبالشرِّ شرًّا .

فلما وردَ عليه كتابُه ركب إليها فأقرأها إياه ؛ فقالت : أمَّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعةٍ ، ولا مُعْتَلَّةٍ بكَذِب ! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أميرِ المؤمنين لأمورٍ تختَلِجُ[1] في صَدْرِى .

فلما حملها وأراد مفارقَتَها ، قال لها : يا أمَّ الخير ، إن أميرَ المؤمنين كتب إلىَّ: إنه مجازيني بقولك فيَّ بالخير خيراً وبالشرّ شرًّا ، فما عندك ؟ قالت : يا هـــذا ؛ لا يُطْمِعنَّك برُّك بي أن أسُرَّك بباطل ، ولا تؤيِسَنَّك معرفتى بك أن أقولَ فيك غَيْرَ الحق ؟

فسارت خيرَ مسيرٍ ، حتى قَدِمت على معاوية ، فأنزلها مع حرمه ثلاثاً ، ثم أذِنَ لها في اليومِ الرابع ، وعنده جُلَساؤه ؛ فقالت : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته ؛ قال لها : وعليك السلام يا أمَّ الخير ، وبالرَّغْمِ منكِ دعوتني بهذا الاسم . قالت : مَهْ [2] يا أميرَ المؤمنين ! لكلٍّ أجل كتاب .

قال : صدقتِ ، فكيف حالُكِ يا خالة ؟ وكيفَ كنتِ في مسيرِكِ ؟ قالت : لم أزل في عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ إليكَ ؛ فأنا في عيشٍ أنيق، عند ملكٍ رفيق؛ قال معاوية : بحسنِ نيتي ظفرتُ بكم وأُعِنتُ عليكم ! قالت : يا أمير المؤمنين ؛

* العقد الفريد : ١ ـ ٢١٧ ، بلاغات النساء : ٤١

(١) تختلج في الأمر : تتردد فيه . (٢) مه : كف .

أعيذُكِ باللهِ من دَحْضِ(١) المَقَالِ وما تُرْدِي عاقِبَتُه، قال: ليس لهذا أرَدْناكِ. قالت: إنما أجْرِي في ميدانك؛ فاسأل عمَّا بَدَا لكَ! قال: أخبريني كيف كان كلامُكِ يوم قُتل عمّار بن ياسر؟ قالت: لم أكنْ والله زَوَّرْتُه(٢) قبلُ، ولا رَوَيْتُه بعدُ، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثَهنّ لساني حين الصَّدْمة، فإن شئتَ أن أُحْدِث لك مقالاً غيرَ ذلك فعلْتُ. قال: لا أشاء ذلك.

ثم التفتَ إلى أصحابه فقال: أيكم يَحْفَظُ كلامَ أمِّ الخير؟ فقال رجلٌ من القوم: أنا أحفظُه يا أميرَ المؤمنين كحفظِي سورةَ الحمد. قال: هاتِه؛ قال: نعم! كأني بها يا أميرَ المؤمنين في ذلك اليوم، عليها بُرْدٌ زَبِيديّ كَثيفُ الحاشية، وهي على جمل أرْمَكَ(٣) وقد أُحِيطَ حولَها حِوَاء(٤)؟ وبيدها سَوْطٌ مُنْتَشِر الضَّفْر(٥)، وهي كالفحل يَهْدِر في شِقْشِقَته(٦) تقول:

يا أيُّها النَّاسُ، اتّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعة شيءٌ عظيمٌ! إن الله قد أوْضَحَ الحقّ، وأبَانَ الدليل، ونوَّر السبيل، ورفعَ العَلَم، فلم يَدَعْكم في عمياء مُبْهمة! ولا سوداء مُدْلَهِمّة(٧)، فإلى أين تُريدون رحمكم الله! أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فِرَاراً من الزَّحْف، أم رهبةً عن الإسلام، أم ارْتداداً عن الحق! أمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

---

(١) دحض المقال: باطله. (٢) زور الكلام: أعده؛ تريد أنها قالته ارتجالا. (٣) أرمك: لونه لون الرماد. (٤) الحواء: ما يعمل كالوسادة للراكب على رحل الجمل بدون هودج.
(٥) ضفر الشعر: لوى بعضه على بعض. (٦) الشقشقة: شيء يخرجه البعير من فيه إذا هاج.
(٧) ادلهم الظلام: كثف، وأسود مدلهم، مبالغة.

ثم رَفعتْ رأسها إلى السماء وهى تقول :

قدعِيلَ الصَّبْرُ، وضَعُف اليقين ، وانتشر الرُّعْب ، وبيدك يارب أزِمَّةُ القلوب، فاجمع الكلمةَ على التقوى ، وألِّف القلوبَ على الهُدَى ، وارْدُد الحق إلى أهله .

هَلمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادلِ،والوصيّ الوفيّ ، والصديقِ الأكبر . إنها إحَنٌ بَدْرِية[1] ، وأحقادٌ جاهلية ، وضَغائِنُ أُحُدِيّة[2] ، وثبَ بها معاوية حين الغَفْلة ليدركَ بها ثاراتِ بنى عبد شمس[3] .

ثم قالت : قاتلوا أَئِمَّةَ الكفرِ ، إنَّهم لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ، صبراً معشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتِلُوا على بَصيرةٍ من ربكم ، وثباتٍ من دينكم،وكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشأم كحُمُرٍ مُسْتَنْفِرَة[4] ، فرّتْ من قَسْوَرة[5] ، لا تَدْرى أين يُسْلَك بها من فِجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادمين ، حين تَحُلُّ بهم النَّدَامة ، فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضَلَّ عن الحق،وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار .

أيها الناس، إن الأكياس[6] استقصروا عُمرَ الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا مُدَّة الآخرة فسعَوْا لها ؛ فاللهَ اللهَ أيُّها الناس قبلَ أن تَبْطُلَ الحقوق ، وتُعطّل الحدود ، ويظهرَ الظالمون ، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان . فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابْنِ عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجِ ابنته وأبى ابنيه[7] خُلِقَ من طِينته ،

(١ ، ٢) بدر وأحد : واقعتان بين النبى والمشركين . (٣) قوم معاوية ، لأن عليا قتل كثيرا منهم فى وقعتى بدر وأحد . (٤) مستنفرة : نافرة. (٥) القسور : الأسد ، والجمع قسورة . (٦) الأكياس : جمع كيس ، وهو العاقل . (٧) تريد الحسن والحسين وهما ابنا فاطمة .

وتفرّع عن نبعته ، وخصَّه بسرِّه، وجعلَه بابَ مدينتِه(١)، فلم يَزَلْ كذلك يؤيّدُه الله بمعونته ، ويمضى على سُنَنِ استقامته لا يُعرِّج(٢) لراحة اللذات .

وهو مُفَلِّق الهام ، ومُكَسِّر الأصنام ، إذْ صلّى والناس مُشرِكون ، وأطاع والناسُ مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قَتَل مُبَارِزِى بَدْر ، وأفنى أهلَ أُحُد ، وفرّق جَمْعَ هَوازن ، فيالها وقائع زَرَعَتْ فى قلوب قومٍ نفاقا، ورِدَّةً وشقاقاً !

وقد اجتهدتُ فى القَوْلِ ، وبالغتُ فى النصيحة ، وبالله التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : واللهِ يا أمَّ الخير ما أردتِ بهذا إلا قَتْلى ! والله لو قتلتُكِ ما حَرِجْتُ(٣) فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يا بنَ هند أن يُجْرِىَ اللهُ ذلك على يَدَىْ من يُسعدنى الله بشقائه . قال : هيهاتَ ، يا كثيرةَ الفضول ! ما تقولين فى عثمان بنِ عفان ؟ قالت : وما عَسَيْتُ أن أقولَ فيه ! استخلفَهُ الناسُ وهم كارهون، وقتلوه وهم راضُون. فقال : إيهاً ياأمَّ الخير، هذا ثناؤك الذى تُثْنِين؟ قالت: لكنَّ الله يشهد؟ وكفى بالله شهيدا ، ما أردتُ بعثمان نقصاً ، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة .

قال : فما تقولين فى طَلْحَة بن عبيد الله؟ قالت : وما عسى أن أقولَ فى طلحة؟ اغتيل مِن مَأْمَنه ، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر، وقدوعده رسولُ اللهصلى الله عليهوسلم الجنةَ . قال : فما تقولين فى الزُّبَيْر؟ قالت : يا هذا، لا تَدَعْنى كَرَجِيع الصِّبغ يُعْرَكُ

---

(١) لعلها تشير إلى مايروى عن النبى : أنا مدينة العلم وعلى بابها . (٢) لايعرج : لايميل .
(٣) ماحرجت : ماأثمت .

فى المِرْكَنِ[١]، قال: حقًّا لتقولِنَّ ذلك، وقد عزمتُ[٢] عليك. قالت : ما عَسَيتُ أن أقولَ فى الزبير ابنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوارِيِّه[٣] ؟ وقد شهد له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالجنةِ، ولقد كان سبَّاقا إلى كل مكْرُمة فى الإسلام. وإنى أسألكَ بحقِّ الله يا معاوية، فإن قريشاً تُحدِّثُ أنكَ من أحلمها — أن تَسَعَنى بفَضل حلْمك، وأن تُعْفِينى من هذه المسائل، وامْضِ لما شئتَ من غيرها. قال : نَعَمْ وكرامةً، قد أعفيتُك. وردَّها مكرَّمة إلى بلدها.

---

(١) المركن : الإناء يغسل فيه الثياب . ويعرك: يحك . والرجيم : المردود، أى لاتجعلنى كالثوب المصبوغ، يحك فى الإناء مرة أخرى لإخراج صبغه منه ؛ تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج مافى نفسها بما يغسل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها .

(٢) أقسمت عليك . (٣) الحوارى : ناصر الأنبياء .

٤٤ — سَوْدة بنت عمارة عند معاوية*

وفدت سَوْدةُ بنت عُمارة على معاوية بن أبى سفيان، فاستأذَنَتْ عليه فأذِنَ لها. فلما دخلتْ سلَّمت عليه، فقال لها : كيف أنتِ ياسَوْدَة؟ قالت : بخير ياأميرَ المؤمنين، قال لها : أنتِ القائلةُ يوم صِفِّين[1] :

شَمِّر كفِعْلِ أبيك يابنَ عُمارةٍ ... يوم الطِّعانِ ومُلْتَقى الأقرانِ[2]

وانصُرْ عليًّا والحسينَ ورَهْطَهُ ... واقْصِدْ لهندٍ وابنِها بهوانِ[3]

إنَّ الإمامَ أخا النبيِّ محمـــدٍ ... عَلَمُ الهدى ومنارةُ الإيمـــانِ

فَقِهِ الحُتوفَ وسِرْ أمامَ لوائِهِ[4] ... قُدُماً بأبيضَ صارمٍ وسنانِ[5]

قالت : إى والله ، ما مثلى مَنْ رغب عن الحق، أو اعتذر بالكذب! قال لها: فما حملك على ذلك ؟ قالتْ : حبُّ علىٍّ ، واتباعُ الحقِّ . قال : فوالله ما أرى عليك من أثَرِ علىٍّ شيئاً. قالت : أنشدك الله ياأميرَ المؤمنين؛ مات الرأس، وَبُتِرَ[6] الذَّنَب؛ فدَعْ عنك إعادةَ ما مضى ، وتذكار ما قد نُسى ! قال : هيهات ! ليس مثلُ مقامِ أخيكِ يُنسى ! وما لقيتُ من أحد ما لقيتُ من قومك وأخيك ! قالت : صدق قولُكَ والله يا أمير المؤمنين؛ ما كان أخى ذميمَ المقام ، ولا خفىَّ المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

---

* العقد الفريد : ١ — ٢١١ ، بلاغات النساء : ٣٥

(١) هو يوم من أيام الحرب بين على ومعاوية . (٢) الأقران : الأكفاء .

(٣) هند : أم معاوية . (٤) الحتوف : المنايا . (٥) الصارم: السيف القاطع ، والسنان : سنان الرمح . (٦) بتر : قطع .

وإنَّ صَخْراً لتأتَمُّ الهُدَاةُ به كأنَّهُ عَلَمٌ فى رَأْسه نَارُ

وبالله أسأل ياأميرَ المؤمنين إعفائى مما استعفيتُ منه ! قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك! قالت : يا أميرَ المؤمنين؛ إنكَ أصبحتَ للناس سيداً ، ولأمورهم متقلداً، والله سائلُك عمّا افترض عليك من حقّنا ، ولا تزال تُقَدِّم علينا من ينهض بعزِّك، ويبطش بسُلطانك ، فيحصُدُنا حصَادَ السُّنْبُل ، ويدُوسُنا دياسَ البقر ، ويسومُنا الخسيسَة، ويَسْلُبُنا الجليلة ؛ هذا ابن أرْطَاةَ[1] قدم علينا من قِبلك فقتل رجالى ، وأخذ مالى، يقول لى : فُوهِى بما أَستَعْصِمُ الله منه، وألجأ إليه فيه[2]، ولولا الطاعةُ لكان فينا عزٌّ ومنَعة ! فإما عزلتَه فشكرناك ، وإمَّا لا فعرفناك !

فقال معاوية : إيّاى تهدِّدين بقومك ! والله لقد هممتُ أن أردَّك إليه على قَتَبٍ أشْرَس[3] ، فينفّذ حكمه فيك . فأطرقَتْ تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صلّى الإله على روحٍ تضمَّنه قبرٌ فأصبحَ فيه العدلُ مدفونا
قد حالَفَ الحقَّ لا يبغى به بَدَلا فصار بالحقّ والإيمان مَقْرُونا

قال لها : ومَنْ ذلك ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب رحمه الله تعالى . قال : وماصنع بك حتى صار عندكِ كذلك! قالت : أتيته يوماً فى رجل ولّاه صَدَقاتنا ، فكان بيننا وبينه مابين الغثِّ والسمين، فوجدته قائماً يصلّى، فانفتلَ عن الصلاة[4]، ثم قال برأفة وتعطُّف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل ، فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء، فقال : اللهم إنكَ أنتَ الشاهدُ علىّ وعليهم، إنّى لم آمرْهُم بظلم خَلْقك،

---

(١) ابن أرطاة: بسر بن أرطاة كان معاوية سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له.
(٢) تعنى أنه يطلب منها أن تسب علياً . (٣) القتب: الإكاف على قدر سنام البعير، والمراد نفس البعير بدليل الصفة بعده ، وأشرس : لم يرض . (٤) انفتل عن صلاته : انصرف .

ولا بتركِ حقك ؛ ثم أخرَج من جيبه قطعةً من جراب ، فكتب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا[1] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . إذا أتاكَ كتابي هـذا فاحتفِظْ بما في يديك حتى يأتيَ من يقبِضُه منك ، والسلام » .

فأخذتُهُ منه يا أمير المؤمنين ، ما خزَمَه بخزام ، ولا ختمه بختام .

فقال معاوية : اكتُبُوا بالإنصاف لها والعدل عليها قالت : ألِي خاصة أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيرك ! قالت : هي والله إذَنْ الفحشاء واللؤم ؛ إن كان عدلا شاملا وإلّا يسَعنى ما يسعُ قومي .

قال : هيهات ، لمَظَكم[2] ابن أبي طالب الجرأة ، وغرّكم قوله :

فلو كنتُ بوابًا على باب جنّةٍ ... لقلتُ لهمْدان ادخلوا بسلام

اكتبوا لها ولقومها .

---

(١) القسط : العدل ، والبخس : النقص والظلم . (٢) لمظه : ذوقه .

٤٥ — مثلكَ منْ قدَر فعفا *

لما وَلِيَ معاويةُ الخلافةَ ، وانتظمت إليه الأمور ، وامتلأت منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده اللهُ في مُراده ، استحضر ليلةً خواصَّ أصحابه ، وذاكرهم وقائع صِفِّين ، ومَنْ كان يتولَّى كِبْرَ الكريهة من المعروفين ، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض ، وآلَ حديثهم إلى مَنْ كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض فقالوا : امرأة من أهل الكوفة تسمَّى الزَّرقاء[1] بنت عديّ ، كانت تعتمِدُ الوقوفَ بين الصفوف ، وترفعُ صوتها صارخة : ياأصحابَ عليّ ؛ تسمِعهم كلاماً كالصوارم ، مستحثّةً لهم بقول لو سمعه الجبانُ لقاتل ، والمدْبِرُ لأقبل ، والمسالِمُ لحارَب ، والفارُّ لكرّ ، والمتزلزل لاستقرّ .

فقال لهم معاوية : أيّكم يحفظُ كلامها ؟ قالوا : كلُّنا نحفظه . قال : فما تشيرون عليّ فيها ؟ قالوا : نُشير بقتلها ، فإنها أهل لذلك . فقال معاوية : بئْس ما أشرتم به ، وقُبْحاً لما قلتم ! أيحسن أن يَشْتَهِر عني أنني بعد ما ظفرت وقدرتُ قتلتُ امرأةً وفَتْ لصاحبها ! إني إذنْ للئيم ، لا والله لا فعلتُ ذلك أبداً .

ثم دعا بكاتبه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة : أن أنفِذْ إليّ الزرقاء

---

* العقد الفريد : ١ — ٢١٢ ، بلاغات النساء : ٣٧

(١) هي الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية . من أهل الكوفة ، كانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة ، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدة خطب تحرض الناس فيها على القتال ضد معاوية .

بنت عدىّ ، مع نفرٍ من عشيرتها وفُرسانٍ من قومها ، ومهّدْ لها وطاء ليّناً ومركباً ذَلُولا .

فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأه عليها . فقالت بعد قراءة الكتاب : ما أنا بزَائِغَةٍ عن الطاعة . فحملها فى هَوْدجٍ ، وجعل غِشاءه خَزّاً مبطَّناً ، ثم أحسن صُحْبَتَها .

فلما قدمت على معاوية ، قال لها : مرحباً وأهلًا ! خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافدٌ . كيف حالك ياخالة ؟ وكيف رأيتِ سَيْرك ؟ قالت : رَبيبة(١) بيتٍ أو طفلًا ممهداً . فقال : بذلك أمرناهم . هل تعلمين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : وأنَّى لى بعلم ما لم أعلم ! لا يعلم الغيبَ إلّا الله سبحانه وتعالى . قال : ألستِ الراكبة الجمل الأحمر يوم صِفِّين وأنتِ بين الصفوف توقدين نار الحرب ، وتُحرِّضين على القتال ! قالت : نعم . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أميرَ المؤمنين ، إنه قد مات الرأس وبُتِرَ الذَّنَبُ ، ولن يعودَ ماذهب ، والدّهرُ ذوغِيَرٍ(٢) ، ومن تفكّر أبصر ، والأمر يَحْدُثُ بعده الأمر .

فقال : صدقتِ ، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لاوالله ، ولقد أُنسيته . قال : لله أبوك ! فلقد سمعتك تقولين : أيها الناس ، ارعَوُوا وارجعوا ! إنكم أصبحتم فى فتنة غشّتْكمْ جَلَابِيبَ الظلم ، وجارت بكم عن قَصْدِ المحجّة ؛ فيالها فِتْنة عمياء صمّاء بكماء ، لاتسمع لناعِقِها ، ولا تساس لقائدها !

إن المصباحَ لا يضىء فى الشمس ، وإن الكواكبَ لا تنيرُ مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يُقطع الحديدُ إلا بالحديد ، ألَا مَنِ استرشَدَنا أرشَدْناه ، ومن سألنا أخبرناه !

---

(١) الربيب : الملك والسيد . (٢) ذو غير : تريد إن الدهر متقلب .

أيها الناس ، إن الحقَّ كان يطلب ضالّتَهُ فأصابها . فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص ! فكأنكم وقد الْتأَمَ شملُ الشَّتَات ، وظهرت كلمةُ العدل ، وغَلَبَ الحقُّ باطله . فإنه لا يستوى الحق والبطل . أفَمَنْ كان مؤمناً كَمَنْ كان فاسقاً ! لا يَسْتَوُون . فالنِّزالَ النِّزالَ ، والصبرَ الصبرَ ! ألا إن خِضَابَ النساء الحِنَّاء ، وخِضَابَ الرجال الدماء . والصبرُ خيرُ الأمور عاقبة ، ائتوا الحربَ غير ناكصين[1] ؛ فهذا يومٌ له ما بعده !

ثم قال : يازَرْقاء ، أليس هذا قولك وتحريضك ؟ قالت : لقد كان ذلك! قال: لقد شاركتِ عليًا فى كلِّ دَمٍ سفكه . فقالت : أحسن الله بِشَارتك أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك ، فمثلك مَنْ بَشَّر بخير ، وسَرَّ جليسه .

فقال معاوية : أو يسرُّكِ ذلك ؟ قالت : نعم ، والله لقد سرنى قولك ، وأنَّى لى بتصديق الفعل ! فضحك معاوية وقال : والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى مِنْ حُبِّكم له فى حياته ؛ اذكُرِى حاجتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ إنى آليتُ على نفسى ألّا أسأل أحداً أعنتُ عليه أبداً . فقال : قد أشار علىَّ بعض من عرفك بقَتْلِك . فقالت : لُؤمٌ من المشير ، ولو أطعته لشاركْتَه . قال : كلّا ، بل نعفو عنك ، ونحسن إليك ونَرْعاك . فقالت : ياأميرَ المؤمنين ، كرمٌ منك؛ ومثلُك من قَدَرَ فعفا ، وتجاوز عمن أساء ، وأعطى من غير مسألة .

فأعطاها كُسْوَة ودراهم ، وأقطعها ضيعة تُغِلُّ[2] لها فى كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأعادها إلى وطنها سالمةً ، وكتب إلى والِى الكوفةِ بالوصية بها وبعشيرتها .

---

(١) نكص : جبن . (٢) تغل : تنتج .

٤٦ — نَبّهكم علىٌّ !*

يروى أن عِكْرِشَةَ بنتَ الأطرش دخلت على معاوية مُتَوَكِّئَةً على عُكَّازٍ لها ، فسلّمتْ عليه بالخلافة ، ثم جلستْ ، فقال لها معاوية : الآن صِرْتُ عندكِ أمير المؤمنين ! قالت : نعم ، إذْ لا علىٌّ حىٌّ ! قال : ألَسْتِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بصفّين(١) وأنت واقفةٌ بين الصفّين تقولين :

أيُّها الناس ، عليكم أنفسكم لا يضرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتم ؛ إنَّ الجنةَ لا يَحْزَنُ من قَطَنها، ولا يَهْرَمُ من سَكَنها، ولا يموتُ من دخلها ؛ فابتاعوها بدارٍ لا يدومُ نعيمُها ، ولا تَنْصَرِمُ همومُها ؛ وكونوا قوماً مُسْتَبْصِرِين فى دِينِهم ، مسْتَظهرين على حقِّهم .

إنّ معاويةَ دَلَفَ إليكم بعَجم العرب ، لا يفقَهون الإيمان ، ولا يَدْرُون ما الحِكْمةُ ، دعاهم إلى الباطل فأَجابوه ، واستَدْعاهم إلى الدنيا فلبّوه ، فاللهَ اللهَ عباد الله فى دينِ الله ! وإياكم والتّواكلَ فإنّ ذلك يَنْتَقِضُ عُرَا الإسلام ، ويُطفئُ نورَ الحق . هذه بَدْرٌ الصُّغْرَى ، والعقَبَةُ الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار؛ امضوا على بصيرتكم ، واصبِروا على عزيمتكم ، فكأنّى بكم غداً وقد لقيتم أهلَ الشأم كالحُمر الناهقة ، تَقْصَع قصعَ البعير(٢) .

---

* بلاغات النساء : ٤١ ، العقد الفريد : ١ — ٢١٦

(١) موضع قرب الرقة بشاطئ الفرات كانت به الوقعة العظمى بين على ومعاوية فى غرة صفر سنة ٣٧ هجرية . (٢) يقال : قصع البعير بجرته يقصع قصعا : مضغها .

ثم قال : فكأني أراكِ على عصاكِ هذه قد انكفأ[١] عليكِ العسكران يقولون : هذه عِكْرِشَة بنت الأطرش ، فإن كدتِ لتفلِّين[٢] أهلَ الشأم لولا قَدَرُ الله ، وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً ، فما حملكِ على ذلك ؟

قالت : يا أميرَ المؤمنين ؛ يقول الله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ عفا اللهُ عنها واللهُ غفورٌ حليمٌ ﴾ . وإن اللبيبَ إذا كره أمراً لا يحبُّ إعادتَه .

قال : صَدَقْتِ ، فاذكُري حاجتك . قالت : كانت صدقاتُنا تؤْخَذ من أغنيائنا فتُرَدُّ على فقرائنا ، وقد فقَدْنا ذلك ، فما يُجْبَرُ لنا كسير ، ولا يُنْعَشُ لنا فقيرٌ ، فإن كان عن رأيكِ فمثْلُكَ من انتبه من الغفلةِ وراجع التَّوْبة ، وإن كان من غيرِ رأيِكَ فما مِثْلُكَ من استعانَ بالخَوَنةِ ، ولا استعمَلَ الظَّلَمَة .

قال معاوية : ياهذه ؛ إنه يَنُوء بنا عن أُمورِ رَعيَّتِنا ثُغُورٌ تتفتَّق ، وبحورٌ تتدفَّقُ . قالت : سبحانَ الله ! واللهِ ما فرَض اللهُ لنا حقًّا فجعل فيه ضِراراً لغيرنا وهو علّامُ الغُيُوب : قال معاوية : هيهات يأهلَ العراق ! نبّهكم عليٌّ فلن تُطَاقُوا .

ثم أمر بردِّ صدقاتِهم فيهم وإنصافِهم .

---

(١) انكفأ : رجع . (٢) فل الجيش : هزمه .

٤٧ - وهل أحُلُّ عندك محلّ على *

حجّ معاوية سنةً من سِنيه ، فسأل عن امرأة من بنى كِنانة كانت تَنْزِلُ بالَحجُون[1] ، يقال لها : دارِميَّة الَحجُونيَّة ، وكانت سوداء كثيرةَ اللحم ، فأُخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بهـا . فقال : ما حالك يا ابْنَةَ حام ؟ فقالت : لست لحام إن عِبْتَنِى ؛ إنما أنا امرأة من بنى كنانة ثُمَّتَ من بنى أبيك . قال : صدقتِ ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلمُ الغيبَ إلا اللهُ . قال : بعثتُ إليك لأسألك : عَلَامَ أحببتِ عليًّا وأبغضتِنى ، وواليتِه وعاديتِنى ؟ قالت : أوَ تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذْ أبيت ، فإنى أحببتُ عليًّا على عَدْلِه فى الرعية ؛ وقَسْمه بالسويّة ، وأبغضتك على قتال مَنْ هو أولى منك بالأمر ، وطِلْبَتِك[2] ما ليس لك بحق ، وواليتُ عليًّا على ما عقد له رسول الله من الولاء ، وعلى حبِّه المساكين ، وإعظامِه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقِّك العصا ، وجَوْرك فى القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بطنُك ! قالت : يا هذا ؛ بهند[3] والله كان يُضرب المثل فى ذلك لا بى . قال معاوية : ياهذه ، اربَعى[4] ، فإنا لم نقل إلا خيراً . فرجعت وسكتتْ .

---

* العقد الفريد : ١ — ١٣٢ ، صبح الأعشى : ١ — ٢٥٩ ، بلاغات النساء : ٦٧

(١) الحجون : جبل بمكة . (٢) الطلبة : الطلب . (٣) هند : أم معاوية . (٤) ربع : وقف وانتظر وتحبس .

فقال لها : يا هذه ، هل رأيتِ عليًّا؟ قالت : إى والله لقد رأيته . قال : فكيف رأيته ؟ قالت: رأيتُه والله لم يَفْتِنْه المُلْكُ الذى فَتَنَك ، ولم تَشْغَله النعمة التى شغلتك . قال : هل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم، والله كان يَجْلُو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيتُ الصدأ .

قال : صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت : أوَ تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم. قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فَحْلُها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر . قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أَحُلُّ عندكِ محلّ على ؟ قالت : ماء ولا كَصَدّاء[1] ، ومَرْعًى ولا كالسَّعْدان[2] ، وفتى ولا كَمالِك[3] ، سبحان الله ! أو دُونه ؟ فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحلم منى عليكمُ   فمن ذا الذى بعدى يُؤَمَّل للحِلمِ !
خُذيها هنيئاً ، واذكرى فعلَ ماجدٍ   جزاك على حرب العداوة بالسِّلْمِ

ثم قال : أما والله لو كان علىٌّ حيًّا ما أعطاك منها شيئاً، قلت : لا ، والله ولا وَبَرَةً واحدة من مال المسلمين !

---

(١) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . (٢) السعدان: نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل . (٣) قاله متمم بن نويرة فى أخيه مالك لما قتل فى الردة ، والأمثال الثلاثة تضرب للشىء يفضل على أقرانه .

٤٨ — نَبَحَتنى كلابُكَ*

استأذنت بكّارة الهلاليّة على معاوية بن أبى سفيان فأذن لها — وهو يومئذ بالمدينة — وعنده مَرْوان بن الحكم ، وعمرو بن العاص — فدخلت عليه ، وكانت امرأةً قد أسنَّتْ ، وعَشِىَ[1] بصرها ، وضَعُفَتْ قوّتُها ، ترْعَشُ بين خادمين لها ، فسلّمتْ وجلستْ ، فردّ عليها معاوية السلام . وقال : كيف أنتِ يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ! قال : غيَّرَكِ الدَّهرُ . قالت : كذلك هو ذُو غِيَرٍ[2] ، مَنْ عاش كَبِر ، ومن مات قُبِر ! قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين يوم صِفِّين :

يا زيدُ دونكَ فاحتفر مِنْ دارنا ... سيفاً حُساماً فى التراب دَفِينا[3]

قد كنتُ أذْخَرُهُ[4] ليوم كريهةٍ ... فاليومَ أبْرَزَهُ الزمانُ مَصُونَا

قال مروان : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابْنَ هند[5] للخلافةِ مالكاً ... هيهات ذاكَ — وإن أراد — بعيدُ

منَّتْكَ نفسك فى الخلاء ضلالةً ... أغْرَاكَ عمرو للشقا وسعيـــدُ

قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة :

قد كنتُ أطمعُ أن أموتَ ولا أرى ... فوقَ المنابر من أُميَّـــةَ خاطبا

---

* بلاغات النساء : ٤٠ ، العقد الفريد : ١ — ٢١٢

(١) عشى بصرها : ضعف . (٢) غير الدهر : أحواله المتغيرة ؛ أى هو متقلب .

(٣) احتفر الشئ : نقاه كما تحفر الأرض بالحديدة . (٤) أدخره . (٥) أى معاوية .

فالله أخّر مُـدّتى فتطـــاولتْ حتى رأيتُ من الزمانـ عجائبـا

فى كلّ يوم للزمان خطيبُهم بين الجميع لآلِ أحمدَ عائبـــا

ثم سكتوا ! فقالت بكّارة : نبَحَتْنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتوَرتنى[1] ، فقصُر مِحْجَنى[2] ، وكثر عجَبى ، وعَشىَ بصرى .

وأنا والله قائلةٌ ماقالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، وما خفى عليك منى أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمِيرِ المؤمنين . فضحك معاوية ، وقال : ليس يمنعُنا ذلك من برِّك . اذكرى حاجتكِ . قالت : أما الآن فلا .

---

(١) اعتورتنى : تناوبتنى . (٢) المحجن : العصا المعقوفة الرأس

٤٩ — أَرْوَى بنت الحارث*

دخلت أَرْوَى بنتُ الحارثِ بن عبد المطلب على معاوية ، وهي عجوز ، فلما رآها معاويةُ قال : مرحباً بكِ وأهلًا ياعمّه ! فكيف كنتِ بعدنا ؟ قالت : يابْنَ أخي ؛ لقد كفرتَ بالنعمة ، وأسأتَ لابن عمّك[١] الصُّحبة ، وتسمَّيت بغير اسمك، وأخذتَ[٢] غيرَ حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقةٍ في الإسلام ، بعد أن كفرتُم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتعس[٣] اللهُ منكم الجُدود ، وأَضْرَع منكم الخدود ، وردّ الحقَّ إلى أهله ، ولو كَرِه المشركون !

وكانت كلمتُنا هي العليا ؛ ونبينا ، صلى الله عليه وسلم ، هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون ؛ فكنا ـ أهلَ البيت ـ أعظمَ الناس في الدين حظًّا ونصيباً وقدراً ، حتى قبض الله نَبيه ، فوُليتم علينا من بعده ، وتحتجُّون بقرابتكم من رسول الله ، ونحن أقربُ إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر ، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون ؛ وكان عليٌّ بن أبي طالب ـ رحمه الله ـ بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى ؛ فغايتُنا الجنةُ ، وغايتكم النار .

وقال لها عمرو بن العاص : كُفِّي أيتُها العجوز الضالّة ! وأقصِري عن قولك ، وغُضِّي من طَرْفِك !

---

* العقد الفريد : ١ ـ ٢١٩ ، بلاغات النساء : ٣٢ .

(١) تريد علي بن أبي طالب . (٢) تشير إلى أخذه الخلافة . (٣) أتعس: أهلك ، أو أعثر والجدود : الحظوظ .

فقالت : وأنت ياعمرو تتكلم ! اعْنَ بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش في اللُّباب من حَسَبها ، ولا كريم منصبها . وأمُّك كانت أشهرَ امرأةٍ تُغَنِّي بمكة ، وآخَذهنّ لأجرة !

قال مروان : كُفِّي أيتها العجوز ، واقصري لما جئتِ له . فقالت: وأنتَ أيضاً يابن الزرقاء تتكلم ! ثم التفتتْ إلى معاوية فقالت : والله ماجرَّأ عليّ هؤلاء غيرُك ! وإن أمَّك القائلة في قَتل حمزة :

نحن جَزَيْناكُمْ بيــوم بَدْرِ والحربُ بعدالحرب ذاتُ سُعُرِ (١)
ما كان عن عُتبةَ لي من صَــبْرِ أبي وعمي وأخي وصِهْري (٢)
شفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صــدري شفيتَ نفسي وقضيتَ نَذْري (٣)
فشُكرُ وَحشيٍّ عليَّ دهري حتى تَرِمَّ أعظُمي في قبري

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلكما ! أنتما عرضتماني لها وأسمعتماني ما أكره، ثم قال لها : ياعمة ! اقصدي قَصْدَ حاجتك ، ودَعِي عنكِ أساطير النساء . قالت : تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار ! قال : ما تصنعين يا عمة بألفي دينار؟ قالت : أشترى بها عيناً خَرْخارة(٤) في أرض خوّارة(٥) ، تكون لولد الحارث ابن عبــد المطلب ! قال : نعم الموضعُ وضعتِها ! فمــا تصنعين بألفي دينار ؟ قالت أستعين بها على عُسْر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام ! قال : نعم الموضعُ وضعتِها ! فما تصنعين بألفي دينار؟ قالت : أزَوِّجبها فتيان عبد المطلب من أكفائهم. قال: نعم الموضع وضعْتِها ! هي لكِ !

---

(١) ذات سعر : من سعر الحرب : أوقدها . (٢) تشير إلى من قتل من بني أمية يوم بدر. (٣) وحشي : قاتل حمزة يوم أحد . (٤) خرخارة: عين ماء جارية . (٥) خوارة : منخفضة، والمراد : أرض لزراعة ليست وعرة .

ثم قال لها : والله لو كان علىّ ما أمر لك بها! قالت : صدقتَ! إن عليًا أدّى الأمانة ؛ وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنتَ ضيعت أمانتك ، وخُنتَ الله فى ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقُّه ، وقد فرض الله فى كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها ، فلم تأخذ بها ؛ ودعانا علىّ إلى أخـذ حقنا الذى فرضَ الله لنا فشُغِلَ بحربك عن وضع الأمـور مواضعها ! وما سألتك من مالك شيئاً ! فتَمُنّ به ؛ إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شىء غير حقنا ؛ أتذكرُ عليًا فضّ الله فاك ! ثم علا نحيبُها وقالت :

ألَا يا عينُ وَيحَكِ أسْعِدينـا ... ألَا وابكى أميرَ المؤمنينـا

رُزِينا خَيرَ مَنْ ركب المطايا ... وفارسها ومَنْ ركب السَّفينا[1]

ومَنْ لبس النعال أو احْتذَاها ... ومن قرأ المثانى والمئينـا[2]

فأمر لها بستة آلاف دينار، وقال لها : ياعمّة ؛ أنفقى هـذه فيما تحبّين، فإذا احتجتِ فاكتبى إلى ابنِ أخيك يُحسِن صَفَدَكِ[3] ومعونتك إن شاء الله !

---

(١) رزينا : أصبنا . (٢) المثانى : آيات القرآن . (٣) الصفد : العطاء .

٥٠ — أمّ سِنان تشكو مرْوان*

حَبَس مرْوان[1] بن الحكم، وهو والى المدينة غلاماً من بنى ليث ، فى جِناية جناها بالمدينة ، فأتَتْه جدَّةُ الغلام — وهى أمُّ سنان بنت خَيْثمة المَذْحِجيّة — فكلمته فى الغلام ، فأغْلَظ لها ؛ فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبتْ له فعرفَها ، فقال لها : مرحبا يا بنت خَيْثمة ؛ ما أقدمكِ أرضَنا وقد عهدتك تشنئين[2] قُرْبى ، وتحضّين[3] علىّ عدوى !

قالت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأحلاماً وافرة، لا يَجْهَلون بعد علم ، ولا يسفَهون بعد حِلْم، ولا ينتقمون بعد عَفْو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت . قال : صدقتِ ! نحن كذلك ، فكيف قولك[4] :

عَزَب الرُّقادُ . فمُقلتى لا تَرْقدُ ... والليلُ يُصْدِرُ بالهموم ويُورِدُ[5]
يا آلَ مَذْحِجَ لا مُقام فشَمِّروا ... إن العدو لآل أحمد يَقْصِدُ
هـذا علىٌّ كالهـلال تحفّه ... وَسْطَ السماءِ من الكواكب أسْعُدُ[6]
خـيرُ الخلائق وابن عم محمـدٍ ... إن يَهدِكم بالنور منـه تَهتدوا
ما زال مُذْ شَهِد الحروبَ مظفَّراً ... والنصرُ فوْقَ لِوائه ما يُفْقَد

---

* العقد الفريد : ١ — ٢١٤ ، بلاغات النساء : ٦٨

(١) ولد مروان بن الحكم سنة ٢ هـ وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح، فنشأ مروان مسلماً، وكتب لعثمان فى خلافته ، وولى لمعاوية المدينة مرات ، وبويع بالخلافة ولكن لم تطل مدته فيها ومات سنة ٦٥ هـ . (٢) تشنئين قربى : تبغضين . (٣) تحضين : تحرضين . (٤) يذكرها بقولها فى الحرب التى كانت بينه وبين على بن أبى طالب لأنها كانت من شيعة على . (٥) عزب : بعد . (٦) سعود النجوم عشرة : منها سعد الذابح وسعد السعود ، وهى تشير إلى صحابة على .

قالت : قد كان ذلك يا أميرَ المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خَلفًا! فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ، وهى القائلة أيضا ؟

إمَّا هلكتَ أبا الحسين فلم تزَلْ بالحــقِّ تُعرَف هاديا مَهديًّا

فاذهب، عليك صلاةُ ربك مادعَتْ فوقَ الغصون حمامــةٌ قمريًّا[1]

قد كنتَ بعد محمدٍ خَلَفًا كما أوصى إليكَ بنا ، فكنتَ وفيًّا

فاليوم لا خَلَفٌ يُؤمَّل بعــده هيهات نَأمُل بعــده إنسيّــا

قالت : يا أمير المؤمنين ؛ لسانٌ نَطق، وقول صدَق، ولئن تحقَّق فيك ماظننَّا، فحظك الأوفر ، والله ما ورَّثك الشنآن[2] فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض مقالتهم ؛ وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدَد من الله قربًا ، ومن المؤمنين حبًّا .

قال : وإنك لتقولين ذلك! قالت : يا سبحان الله! والله مامثلك مُدح بباطل، ولا اعتذر إليه بكذب ؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا .

كان والله علىّ أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك . قال : ممن ؟ قالت : من مرْوان بن الحكم ، وسعيدِ بن العاص . قال : وبم استحققتْ ذلك عندك ؟ قالت : بسعة حلمك ، وكريم عفوك . قال : فإنهما يطمعان فى ذلك ؟ قالت : هما والله من الرأى على مثل ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله تعالى[3] .

قال : والله لقد قاربتِ ؛ فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ؛ إن مروان تَبنَّك[4] بالمدينة تَبنُّك مَنْ لا يريد منها البَراح ، لا يحكم بعدل ، ولا يقضى بسنة ،

---

(١) القمرى : نوع من الحمام . (٢) الشنآن : البغض . (٣) تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . (٤) تبنك : أقام .

يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابنى فأتيتهُ ، فقال : كنتِ وكنتِ ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألعقته أمرَّ من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسى باللائمة ، وقلت : لِمَ لا أصرف ذلك إلى مَنْ هو أولى منـــه بالعفو عنه !

فأتيتك يا أمير المؤمنين لتــكون فى أمرى ناظراً ، وعليه معدياً[1] . قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ، ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه .

قالت : ياأمير المؤمنين؛ وأنَّى لى بالرجعة[2] ! وقد نفِد زادى، وكلَّت راحلتى!

فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم .

---

(١) معدياً : معيناً ناصراً . (٢) الرجعة : الرجوع .

٥١ — ليلى الأخيليّة عند معاوية*

بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً ؛ فقال لبعض شُرَطه : ائتنى به ، وإياك أن تَروعه[١] ، فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : إياه أردتُ .

فلما دنا الراكبُ حَدَرَ[٢] لثامَه ، فإذا ليلى الأخيلية[٣] ، فأنشأت تقول :

معاوى لم أكد آتيك تَهوى ... برحْلٍ نحو ساحتك الركابُ

تجوب الأرضَ نحوكَ ماتأنّى[٤] ... إذ ما الأكْمُ[٥] قنَّعها السرابُ

وكنتَ المرتجى ، وبك استعاذت ... لتُنعشها إذا بَخِل السحابُ

فقال : ما حاجتك ؟ قالت : ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة ، فتخيّر أنت . فأعطاها خمسين من الإبل . ثم قال : أخبريني عن مضر . قالت : فاخِرْ بمضر ، وحاربْ بقيس ، وكاثِرْ بتميم ، وناظرْ بأسد. فقال: ويحك يا ليلى! أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت: يا أميرالمؤمنين، ليس كلُّ الناس يقولون حقًّا! الناس شجرةُ بَغْيٍ، يحسدون النعم حيث كانت ، وعلى مَنْ كانت ، ولقد كان ياأمير المؤمنين سَبْطَ[٦] البَنان ، حديدَ اللسان ، شَجًى للأقران ، كريم المَخْبَر ، عفيف المِئْزر ، جميل المنظر ،

---

* الأغانى : ١٠ — ٧٤ ، مهذب الأغانى : ٤ — ٢٣٩ ، زهر الآداب : ٤ — ٧٣

(١) تروعه: تفزعه . (٢) حدر الشيء: أنزله . (٣) هى ليلى الأخيلية بنت عبد الله؛ من بنى الأخيل بن عامر ؛ من النساء المتقدمات فى الشعر ، هويها توبة بن الحمير ، وخطبها إلى أبيها ، فأبى أن يزوجها إياه . توفيت نحو سنة ٨٠ هـ . (٤) تأنى : تتأنى . (٥) الأكم: جمع أكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعاً من غيره . (٦) سبط البنان : سخى .

وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له . قال : وما قلتِ له ؟ قالت : قلت ولم أتعدّ الحق وعلمي فيه :

بعيد المـــدى لا يبلغ القومُ شأوَه ... ألدّ[١] مِلَدٌّ يغلب الحقَّ باطـــله

إذا حل ركب فى ذراه وظِـــلّه ... ليمنعهم ممـــا تُخـــاف نوازله

حماهم بنَصْلِ السيف من كل فادح ... يخافونه حتى تموتَ خصائلُه[٢]

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناسُ أنه كان عاهرا فاجراً ! فقالت من ساعتها مرتجلة :

معاذ النُّهى قد كان ـ والله ـ توبةٌ ... جواداً على العِلّات جمًّا نوافلُه[٣]

أغرّ خفاجيًّا يرى البخل سُبَّةً[٤] ... تُحالف كفاه النـــدى وأنامله

عفيفاً بعيـــد الهم صُلبا قَناتُه ... جميـــلا محيّـــاه قليلا غوائله

وكان إذا ما الضيفُ أرغَى بعـيره ... لديه ، أتاه نَيْـلُه وفواضله

وقد علم الجوع الذى كان سأريا ... على الضيف والجيران أنك قاتله

وأنك رَحْبُ الباع ياتوبَ بالقِرى ... إذا ما لئيمُ القوم ضاقت منازله !

يبيتُ قريرَ العين مَنْ كان جارَه ... ويُضحِى بخـير ضيفه ومُنـازله

فقال لها معاوية: ويحك يا ليلى! لقد جُزتِ بتوبةقدره؛ فقالت : ياأمير المؤمنين، والله لو رأيتَه وخبرته لعلمتَ أنى مقصرة فى نعته؛ لاأبلغ كُنْهَ[٥] ماهو أهله ! فقال لها معاوية : فى أى سنّ كان ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

---

(١) الألد: شديد الخصومة . (٢) الخصيلة: كل لحمة فيها عصب . (٣) جوادا على العلات : أى على كل حال . (٤) خفاجة : حى من بنى عامر . (٥) كنه : حقيقة .

أتته المنايا حين تمّ تمـــامُه ... وأقصر عنه كلّ قِرن يُصاوِله

وصار كليث الغاب يَحْمِي عرينَه ... فترضى به أشباله وحــلائلُه

عطوف حليم حين يطلب حلمُه ... وسمّ زُعاف لا تصابُ مقاتلُه

فأمر لها بجائزة، وقال : أيّ ما قلت فيه أشعر؟ قالت : يا أمير المؤمنين؛ ماقلت شيئاً إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر ، ولقد أجدتُ حيث أقول :

جزى الله خيراً ـ والجزاء بكفه ـ ... فتى من عُقَيل ساد غــير مكلف

فتى كانت الدنيا تَهُونُ بأسرها ... عليــــه فلم ينفكّ جمّ التصرفِ

ينالُ عليـــاتِ الأمور بهَونة ... إذا هى أعيَتْ كلّ خِرْقٍ مُشَرَّفِ(١)

---

(١) الهونة: الرفق والسهولة. الخرق: السخى أو الظريف فى سخاوة. مشرف: جعل له شرف.

٥٢ — أمّ*

دخل ابنُ الزبير[١] على أمه[٢] حين رأى من الناس ما رأى من خِذْلانهم ، فقال : يا أُمَّه ؛ خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبقَ معى إلا اليسير ممّن ليس عنده مع الدفع أكثرُ من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا ، فما رأيكِ ؟

فقالت : أنت والله يا بنى أعلم بنفسك ؛ إن كنتَ تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلعّب بها غلمانُ بنى أمية ، وإن كنتَ إنما أردتَ الدنيا فبئس العبدُ أنتَ ! أهلكتَ نفسك وأهلكتَ من قُتل معك . وإن قلت : كنتُ على حق ، فلما وهَن أصحابى ضعفت ؛ فهذا ليس فعلَ الأحرار ، ولا أهل الدين . . . وكم خلودُك فى الدنيا ! القتلُ أحسن ! والله لضربةٌ بالسيف فى عز أحبُّ إلىّ من ضربة بسوط فى ذل . قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يمثّلوا بى ! قالت : يا بنى ؛ إن الشاة لا يضرها سلخُها بعد ذبحها .

فدنا ابنُ الزبير ، فقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ؛ والذى قمتُ به داعياً إلى يومى هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا

---

* تاريخ الطبرى : ٧ — ٢٠٣ ، بلاغات النساء : ١٣٠ ، العقد الفريد : ٢ — ٢٧١

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام ؛ طلب الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ، وبويع له فى الحجاز والعراق واليمن ، ومكث خليفة تسع سنوات ، ثم حاصره الحجاج بمكة . وقتل سنة ٧٣ هـ .

(٢) هى أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى من قريش ، من فضليات نساء العرب ، وأخت عائشة لأبيها ، توفيت سنة ٧٣ هـ . وهذه المحاورة كانت حين حاصر الحجاج ابن الزبير فى مكة ، وحين خذل عبد الله أعوانه .

الغضبُ أن الله تُسْتَحَلّ حُرَمه ، ولكنّى أحببتُ أن أعلم رأيَكِ ، فزدتِنى بصيرة مع بصيرتى ، فانظرى يا أمّهْ ،فإنّى مقتول من يومى هذا ، فلا يشتدّ حزنك، وسلّمى لأمر الله ؛ فإن ابنَك لم يتعمدْ إتيانَ منكَر ولا عملًا بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حكم الله ، ولم يغدِرْ فى أمان ، ولم يتعمد ظُلْمَ مسلم ولا مُعاهَد ، ولم يبلغنى ظلمٌ عن عمالى فرضيتُ به ، بل أنكرتُه ؛ ولم يكن شىء آثرَ عندى من رِضاَ ربى ؛ اللّهمّ إنى لا أقول هذا تزكيةً منى لنفسى؛ أنتَ أعلمُ بى ولكن أقوله تعزيةً لأمى لتساوَ عنى.

قالت أمّه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدّمْتَنى ، وإن تقدّمتُك ففِى نفسى حَرَجٌ حتى أنظُرَ إلامَ يصير أمرُكَ . قال : جزاكِ الله يا أمّه خيراً ؛ فلا تدَعِى الدُّعاء لى قبلُ وبعدُ . فقالت : لا أدَعه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتِلْتَ على حق ! ثم قالت : اللهم ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكةَ ، وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمتُه لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ فأَثِبْنِى فى عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين .

ثم ودّعها وخرج ، ولم يلبث أن قُتل رحمه الله !

---

٥٣ – التلطّف في السؤال*

دخلت امرأةٌ من هوازن على عبيد الله بن أبي بكرة[1] ، فوقفت بين السِّماطَين[2] ، وجعلت تُظْهِر وجهها مرة ، وتستره أخرى ؛ فلما أبصرها علم أنّ لها حاجةً ؛ فقال لجلسائه : ما عليكم أن تقوموا حتى تقولَ هذه المرأة حاجتَها .

فتقدّمت ، وقالت : أصلح الله الأمير ، إني أتيتُك من أرضٍ شاسعةٍ ، ترفعني رافعةٌ ، وتخفضني واضعة ؛ لملمّاتٍ قد أكلْن لحمي ، وبَرَيْنَ عظمي ، فضاقَ بي البلدُ العريض . وقد جئتُ بلداً لا أعرف فيه أحداً ، لا قرابة تكنفُني ، ولا عشيرة تعرفني ، بعد أن سألتُ أحياءَ العرب : مَنِ المرجوُّ نائلُه ، المُعطى سائلُه ؛ فأُرسِلْتُ إليك ، ودُلِلْتُ عليك ؛ وأنا ـ أصلحك الله ـ امرأةٌ قد هَلَك عنها الوالد ، وذهب عنها الطارف والتّالِد[3] ، ومثلُك يسد الخلّة[4] ، ويزيح العِلّة ؛ فإما أن تُحسن صَفَدي[5] ، وتقيم أَوَدي ، وإما أن تردّني إلى بلدي . فقال : بل أجمع لك كل ما ذكرت .

ثم أمر لها بعشرة آلاف درهم ، وزادٍ وكسوة وراحِلَة .

---

* غرر الخصائص الواضحة : ١٦٥

(١) عبيد الله بن أبي بكرة كان أجمل الناس وأشجعهم ، ولاه الحجاج سجستان سنة ٧٨ هـ ، ومات هناك . (٢) السماطان : الصفان . (٣) الطارف : الجديد . والتالد : القديم .
(٤) الخلة : الحاجة . (٥) الصفد : العطاء .

٥٤ — نساء بنى تميم *

قال الشَّعْبى : قال لى شُرَيح[١] : ياشَعبىّ ؛ عليكم بنساء بنى تميم ، فإنّهن النسـاء ! قلت : وكيف ذاك ؟ قال : انصرفتُ من جنازة ذات يوم مُظْهِراً[٢] ، فمررتُ بدور بنى تميم ، فإذا امرأة جالسة فى سقيفة[٣] على وسادة ، وتُجاهها جارية رُؤْدة[٤] ، ولها ذُؤابة على ظهرها كأحسن مَنْ رأيت من الجوارى ، فاستسْقيتُ ــ وما بى من عطش ــ فقالت : أىُّ الشراب أعجب إليك ؟ آلنبيذ أم اللبن أم الماء ؟ قلت : أىّ ذلك تيسَّر عليكم . قالت : اسقوا الرجل لبناً ؛ فإنى إخاله غريباً . فلمّا شربت نظرتُ إلى الجارية فأعجبتنى ، فقلت : مَنْ هـذه ؟ قالت : ابنتى . فقلت : وممَّن ؟ قالت : زينب بنت حُدير ، إحدى نساء بنى تميم . قلت : أفارغة أم مشغولة ؟ قالت : بلْ فارغة . قلت : أتزوِّجينيها ! قالت : نعم ، إن كنت كفئاً ؛ ولها عمٌّ فاقصِدْه .

وانصرفت إلى منزلى لأَقيل فيه ، فامتنعت منّى القائلة[٥] ، فأرسلتُ إلى إخوانى القُرّاء[٦] ، ووافيتُ معهم صلاة العصر ، فإذا عمُّها جالس ، فقال : أبا أميّـة ؟

---

* مهذب الأغانى : ٣ ــ ٨٠ ، المستطرف : ٢ ــ ١٩ ، العقد الفريد : ٤ ــ ٨٠ ، الأغانى : ١٦ ــ ٣٦ (طبعة الساسى) .

(١) هو شريح بن الحارث . أدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة ، فأقام بها قاضياً مدة طويلة لم يتعطل فيها إلا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير امتنع من القضاء فيها ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة ، وعقل وإصابة ؛ كما كان شاعراً محسناً . توفى سنة ٨٧ هـ

(٢) أظهر : دخل فى الظهيرة ، والظهيرة : حد انتصاف النهار. (٣) السقيفة : الموضع المظلل.

(٤) الرؤدة : الشابة الحسنة . (٥) القائلة : نصف النهار ، وقال قيلا : نام فيه .

(٦) جمع قارئ ، وهم الذين يقرءون القرآن ويتلونه .

حاجتَك . قلتُ : إليك . قال : وما هى ؟ قلت : ذُكِرتْ لى بنتُ أخيك زينب .
فقال : ما بها عنك رغبة ، ثم زوَّجنيها . وما بلغتُ منزلى حتى ندمتُ وقلت :
تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها ! ثم هممتُ بطلاقها ، ولكن قلت :أجمعُها إلىّ،
فإن رأيت ما أحبّ وإلّا طلقتها .

ثم مكثت أياماً حتى أقبل نساؤها يُهادينها[1] ، ولما أُدخلتْ قلت : ياهذه ؛
إن من السنَّة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يُصلِّىَ ركعتين وتصلّى ركعتين،ويسألا
اللهَ خيرَ ليلتهما ويتعوَّذا به من شرِّها . فتوضّأتُ فإذا هى تتوضّأ بوضوئى ،
وصلّيت فإذا هى تصلّى بصلاتى ، ولما قضينا الصلاة قالت لى : إنّى امرأة غريبة ،
وأنتَ رجل غريبٌ لا علمَ لى بأخلاقك ، فبيّن لى ماتحبّ فآتيَه ، وما تكره
فأنزجرَ عنه . فقلت : قدمْت خير مَقدَم ؛ قدمت على أهل دارٍ زوجُك سيدرجالهم،
وأنت سيّدة نسائهم ، أُحبُّ كذا وأكرهُ كذا ، وما رأيتِ من حسنةٍ فابثثيها ،
وما رأيت من سيئة فاستُريها .

قالت : أخبرنى عن أَختَانك[2] أتحبّ أن يزوروك ؟ فقلت : إنى رجلٌ قاض
وما أحبّ أن تملُّونى . قالت : فمَنْ تحبّ من جيرانك يدخلُ دارك آذنُ له ، ومَنْ
تكرهُه أكرههُ ؟ قلتُ : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء .

وأقمت عندها ثلاثاً ؛ ثم خرجتُ إلى مجلس القضاء ؛ فكنتُ لا أرى يوماً
إلا وهو أفضل من الذى قبله ؛ حتى إذا كان رأس الحَوْل دخلتْ منزلى امرأةٌ عجوز
تأمر وتنهى . قلت : يازينب، مَنْ هذه ؟ قالت : أمى فلانة . قلت : حيَّاكِ اللهُ

(١) يقال : تهادت المرأة إذا تمايلت فى مشيتها ، وكل من فعل ذلك بأحد فهو يهاديه .
(٢) الختن : الصهر ، أو كل من كان من قبل المرأة .

بالسلام . قالت : أبا أمية ؟ كيف أنت وحالُك ؟ قلت : بخير ، أحمدُ الله . قالت : أبا أميَّة ، كيف زوجُك ؟ قلت: كخير امرأة . قالت : إن المرأة لا تُرى فى حال أسوأ خُلُقاً منها فى حالين : إذا حظيت عند زوجها ، وإذا ولدت غلاماً ، فإن رابَك منها ريب فالسَّوط ، فإن الرجال ما حازت ـ والله ـ بيوتُهم شرًّا من الورْهاء[1] المتدللة[2] .

قلت : أشهد أنها ابنتُكِ ، فقد كفيتِينى الرياضة ، وأحسنتِ الأدب . قالت : أتحب أن يزورك أخْتانُك ؟ قلت : متى شاءوا .

قال شريح : فكانت كل حولٍ تأتينا وتوصى تلك الوصية ، ثم تنصرف . ومكثتُ مع زينب عشرين عاماً ، فما غضبتُ عليها قط إلا مرّة كنت لها فيها ظالماً[3] .

---

(١) الورهاء : الحمقاء . (٢) يقال : تدللت المرأة على زوجها ؛ إذا أرته جراءة عليه كأنها تخالفه وما بها خلاف .

(٣) قد رووا أن شريحاً رأى رجلا يضرب امرأته فقال :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها فى غير جرم أتت به إلى فما عذرى إذا كنت مذنبا
فتاة تزين الحلى إن هى حليت كأن بفيها المسك خالط محلبا

٥٥ — ليلى الأَخْيَلِيَّة عند الحجّاج*

قال مولًى من الموالى : كنت أدخل مع عَنْبَسَةَ بن سعيد(١) بن العاص إذا دخل على الحجاج ؛ فدخل يوماً ، فدخلتُ إليهما ، وليس عند الحجاج أحدٌ إلا عَنْبَسَة ؛ فأقعدنى ، فجىء إلى الحجاج بِطَبَقٍ فيه رُطَب ، فأخذ الخادمُ منه شيئاً ، فجاءنى به ثم جِىء بطبق آخر ، حتى كَثُرَت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشىء إلّا جاءنى منه بشىء ، حتى ظننتُ أن ما بين يدىَّ أكثرُ مما عندهما .

ثم جاء الحاجبُ ؛ فقال : امرأة بالباب ؟ فقال له الحجاج : أدْخِلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طَأْطَأَ رأسه حتى ظننتُ أن ذقنَه قد أصاب الأرض ؛ فجاءتْ حتى قعدت بين يديه ؛ فنظرتُ فإذا امرأةٌ قد أسنّت ، حَسَنَةُ الخلق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هى ليلى الأخيلية .

فسألها الحجاج عن نسبها فانتَسبَتْ له ؛ فقال لها : ياليلى ؛ ما أتى بك ؟ فقالت إخلافُ(٢) النجوم ، وقلّةُ الغيوم ، وكَلَبُ(٣) البَرْدِ ، وشدّة الجهد ؛ وكنتَ لنا بعد الله الرِّفْدَ(٤) .

---

* الأمالى : ١ — ٨٦ ، زهر الآداب : ٤ — ٧٦ ، مصارع العشاق: ١٨٥ ، الأغانى: ١٠ — ٧٨ (طبعة الساسى) ، فوات الوفيات : ٢ — ١٧٦ ، المحاسن والأضداد : ٢٤٦ ، سمط اللآلى : ١ — ٢٨٠ ، أشعار النساء : ٣ — ٣٧

(١) كان عنبسة آثر الناس عند الحجاج، وكان على جانب عظيم من البخل، وله فيه أخبار طريفة.

(٢) إخلاف النجوم ؛ تريد : أخلفت النجوم التى بها يكون المطر فلم تأت بمطر .

(٣) كلب البرد : شدته . (٤) الرفد : المعونة والعطية .

فقال لها : صِفِى لنا الفِجاَج[١] . فقالت : الفِجاَج مُغْبرَّة ، والأرض مُقشَعِرّة ، والَمبرِكُ[٢] معْتَلّ ، وذو العيال مُخْتل[٣] ، والهالكُ لِلقُلّ[٤] ، والناس مُسْنِتُون[٥] ، رحمةَ الله يَرْجُون ؛ وأصابَتْنا سِنون مُجْحِفة[٦] مُبلِطة[٧] ، لم تَدَعْ لنـا هُبَعاً[٨] ولا رُبَعاً ، ولا عافِطَةً[٩] ولا نافِطة ، أذهبتِ الأموال ؛ ومزّقت الرجال ، وأهلكت العيال .

ثم قالت : إنّى قلت فى الأمير قولًا ، قال : هاتى ، فأنشأت تقول :

أحجّاج لا يُفْلَلْ سلاحُك[١٠] إنّها ... منايا بكفّ الله حيثُ تَرَاها

أحجّاجُ لا تُعْطِ العُصاةَ مُنَاهُمُ ... ولا اللهُ يُعْطِى للعصـاة مُناها

إذا هبط الحجّاجُ أرضاً مريضةً ... تتبّع أقصى دائِهـا فشفاها

شفاها من الداء العُضَال الذى بها ... غلامٌ إذا هَزّ القناةَ سقاها

شفاها فروّاها بشرْب سِجَاله[١١] ... دماء رجالٍ حيث مال حَشَاها

إذا سمع الحجاج رِزّ[١٢] كتيبةٍ ... أعَدّ لها قبـل النزول قِرَاها

أعـدّ لهـا مسمومةً فارسيّة ... بأيدى رجال يَحْلُبون صَرَاها[١٣]

فما وَلَدَ الأبكار والعونُ[١٤] مثلَه ... ببحرٍ ولا أرضٍ يجفّ ثَراها

---

(١) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين . (٢) المبرك : أرادت الإبل ؛ فأقامت المبرك مكانها . (٣) ذو العيال مختل: أى محتاج، والخلة: الحاجة. (٤) الهالك للقل: من أجل القلة . (٥) مسنتون: مقحطون . (٦) السنة المجحفة: التى تجحف بالقوم قتلاوإفساداً للأحوال، أو مضرة بالمال . (٧) مبلطة : منزقة بالبلاط؛ تريد مهلكة . (٨) الهبع: ماتنتج فى الصيف ، والربع : ماتنتج فى الربيع . (٩) العافطة : الضأن ، والنافطة : المعزة . (١٠) السلاح : يذكر ويؤنث . (١١) السجال :جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة . (١٢) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (١٣) الصرى: البقية. قال فى السمط عند تفسير هذا البيت: تعنى نصال الرماح والسهام كأنها مسقية، من أصابته لم ينج منها . (٢٤) العون: جمع عوان،وهى التى كان لها زوج .

فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلَها الله ! والله ما أصاب صفتى شاعرٌ مذ دخلتُ العراق غيرها .

ثم التفتَ إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إنى لأعدُّ للأمر عُدَّته ، عسى ألَّا يكون أبداً . ثم التفت إليها ، فقال : حسبك !

قالت : إنى قد قلت أكثر من هذا ! قال : حسبك ، ويحك ! حسبك .

ثم قال : يا غلام ؛ اذهب إلى فلان ؛ فقل له : اقطعْ لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقولُ لك الأمير : اقطع لسانها !

فأمر بإحضار الحجّام ؛ فالتفتت إليه فقالت : ثكِلَتْكَ أُمُّك ! أما سمعتَ ما قال ! إنما أمرك أن تقطعَ لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستَثْبِته ؛ فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمَّ بقطع لسانه ، وقال : ارْدُدْها . فلما دخلَتْ عليه قالت : كاد والله يقْطع مقْولى ، ثم أنشأت تقول :

حجّاجُ أنتَ الذى مافوقَهُ أحــدُ إلا الخليفةُ والمستغفَرُ الصَّمَدُ
حجّاجُ أنتَ شهابُ الحرب إن لَقِحت[1] وأنت للناس نورٌ فى الدُّجا يَقِدُ

ثم أقبلَ الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون مَنْ هذه ؟ قالوا : لا والله أيُّها الأمير ، إلا أنَّا لم نرَ قطُّ أفصح لساناً ، ولا أحسنَ محاورة ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أرصنَ شعراً منها .

فقال : هذه ليلى الأخيلية ، التى مات تَوْبة الخفاجىُّ من حبها ، ثم التفتَ إليها ؛ فقال : أنشدينا ياليلى بعضَ ما قال فيك توبة .

---

(١) أصله من لقحت الإبل ؛ إذا حملت . والحرب إذا عظمت تتولد عنها الأمور التى لم تكن تحتسب (الخزانة — ١ : ٤٢٦)

قالت : نعم أيها الأمير ، هو الذى يقول : :

وهل تَبْكِيَنْ ليلَى إذا مُتّ قبلَها ... وقام على قبرى النساء النوائحُ ؟

كما لو أصاب الموتُ ليلى بكَيْتُها ... وجادَ لها دمعٌ من العين سافحُ[1]

وأُغبَطُ من لَيْلَى بما لا أنالُه ... بلى، كلّ ما قرّت به العينُ طائح

ولو أنّ لَيْلَى الأخْيلِيَّة سلّمتْ ... علَيّ ؛ ودونى جَنْدَلٌ وصفائحُ

لسلّمتُ تسليمَ البشاشةِ أو زَقا ... إليها صدًى من جانب القبر صائح

فقال : زيدينا من شعره ياليلى ، قالت : هو الذى يقول :

حمامةَ بَطْنِ الوَادِيَيْنِ ترنّمى ... سقاكِ من الغُرّ الغوادى[2] مَطِيرُها

أبِينى لنا ، لا زَالَ ريشُكِ ناعماً ... ولا زلتِ فى خضراءَ غضٍّ نَضِيرُها

وكنتُ إذا مازرتُ ليلى تبرْقَعَتْ ... فقد رابنى منها الغَدَاةَ سُفُورُها

وقد رابنى منها صدودٌ رأيتُهُ ... وإعراضُها عن حاجتى وبُسُورُها[3]

وأُشْرِفُ بالقُورِ[4] اليَفَاعَ لعلّنى ... أرى نارَ ليلى أو يرانى بصيرُها

يقول رجالٌ : لا يضيرُك نأْيُها ... بلى ! كل ما شفّ[5] النفوسَ يَضِيرُها

بلى ! قد يضيرُ العينَ أن تكثِرَ البُكا ... ويُمْنَعَ منها نومُها وسرورُها

وقد زعمتْ ليلى بأنِّىَ فاجرٌ ... لنَفْسى تُقَاها ، أو[6] عليها فُجُورُها

فقال الحجّاج : ياليلى ؛ ما الذى رَابَه من سُفُورِكِ ؟ فقالت : أيّها الأمير ؛ كان يُلِم بى كثيراً ؛ فأرسل إلىّ يوماً : إنى آتيكِ ، وفَطِن الحى ؛ فأرصدوا له ، فلمّا

---

(١) سافح: منصب . (٢) الغوادى: جمع غادية، وهى السحابة تنشأ غدوة . (٣) بسورها : عبوسها. (٤) القور : جمع قارة . وهى الأرض ذات الحجارة السوداء. واليفاع كسحاب: التل.
(٥) شفه الهم : هزله. (٦) أو هنا بمعنى الواو .

أتانى سَفَرْت عن وجهى ، فعلم أن ذلك لشرّ ؛ فلم يزد على التسليم والرجوع .

فقال : لله درّك ! فهل رأيتِ منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والذى أسأله أن يصلحك ، غير أنّه قال مرة قولًا ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأتُ أقول :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونَه وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ما رأيتُ منه شيئاً ، حتى فرّق الموت بينى وبينه . قال : ثم مَه ؟ قالت : ثم لم يلبث أنْ خرّج فى غزاةٍ له ، فأوصى ابنَ عمّ له : إذا أتيت الحاضر من بنى عبادة ، فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أَبيتَنَّ ليلةً من الدهر لا يسرى إلىَّ خيالُها !

وأنا أقول :

وعنه عفا ربى وأحسن حاله فعزّت علينا حاجةٌ لا ينالُهـــا

قال : ثم مه ! قالت : ثم لم يلبث أن مات ؛ فأتانا نَعيُه .

فقال : أنشدينا بعض مَرَاثيك فيه ؛ فأنشدت :

لتَبْكِ العَذَارَى من خفاجةَ نِسْوَةٌ[1] بماء شئون العَبْرَة المتَحَدِّرِ

قال لها : فأنشدينا ؛ فأنشدته :

كأن فتى الفتيان تَوْبة لم يُنِخْ قلائصَ يفحصن الحصى بالكَراكرِ[2]

فلما فرغت من القصيدة ، قال محصن الفَقْعَسى ـ وكان من جلساء الحجاج :

---

(١) نسوة : تبيين ، وارتفاعه بفعل مضمر ، كأنها قالت تبكيه نسوة . وفى هامش الأمالى : « لعله المتحادر بالألف قبل الدال لتستقيم القافية » . (٢) الكركرة : رحى زور البعير ، أو صدر كل ذى خف ، وتفعل الإبل ذلك فى شدة الحر يطلبن برد الماء لينلنه .

من الذى تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله إنى لأظنها كاذبة ! فنظرتْ إليه ، ثم ردّت عليه ردًّا شديداً ، فقال الحجاج : هذا وأبيكَ الجواب ، وقد كنتَ عنه غنيّاً .

ثم قال لها : سَلِي ياليلى تُعْطَىْ ، قالت : أعْطِ ، فمثلُكَ أعطى فأحسن . قال: لك عشرون . قالت : زد فمثلك زاد فأجمل . قال : لك أربعون . قالت : زد فمثلك زاد فأكمل . قال : لك ثمانون . قالت : زد ، فمثلك زاد فتمّم . قال : لك مائة ، واعلمى أنها غَنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ! أنت أجْوَدُ جُوداً ، وأمجد مجداً ، وأوْرَى زَنْداً ، من أن تجعَلها غنما . قال : فما هى ؟ ويحك ياليلى ! قالت : مائة من الإبل برُعاتها . فأمر لها بها .

ثم قال : ألكِ حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلىَّ النابغة الجعدى . قال : قدفعلت ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النابغة ذلك ؛ فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك . فاتبعته إلى الشام ، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخُراسان ، فاتبعته على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة ، فماتت بقُومِس[١] .

---

(١) صقع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

٥٦ — الحجاج يخالف سَجَاياه*

خرج زيد بن شبيب الشيبانيّ فى أيام عبد الملك بن مرْوان، فظفر به الحجاجُ[١] وبأصحابه ، وجَعَل يقتل كل مَقْدُور عليه منهم ، فلمّا كان آخر الأمر قُدّم إليه رجلٌ منهم ، له سَمْت[٢] ورُواء وهيئة .

فلما همّ الحجاج بقتْله سمع ضجةً بالباب ؛ فقال لحاجبه : ما هذه الضجّة ؟ قال : نِسوة فى الباب يسأَلن الدخولَ على الأمير . فقال الحجاج : ائذن لهنّ بالدخول ؛ فدخلْنَ وهنّ ثلاث وعشرون امرأة ، كلُّهن أهل بيت هذا الرجل الذى همّ الحجاج بقتله ، فقال لهن الحجاج : ما حاجتكنّ ؟ فتقدمت امرأةٌ منهنّ فقالت: أصلحَ اللهُ الأمير ! إن رأيت أن تجود باستماع ما أقول ! فقال لها : قولى ما أحببتِ ، فقالت:

أحجّاجُ إمّا أنْ تمنّ بتَرْكه ... علينا وإمّا أن تقتّلَنا مَعَا

أحجّاجُ لو تشهد مقام بناته ... وعمّاته يندبنَه الليل أجمعــا

أحجّاجُ لاتفجع به إن قتلتَهُ ... ثمانا وتسعًا واثنتين وأربعًا

فَمنْ رجلٌ دانٍ يقومُ مَقَامَه ... علينا فمهلًا لا تَزِدْنَا تَضَعْضُعَا

فلانَ الحجاج لقولها ، ووجد رقةً عليهن ، وعفا عنه وأطلقه ، وزَاد فى عطائه مائة دينار، وكتب كتاباً إلىعبدالملك يذكرُ له خبرَه وخبرَ النسوة والمرأة وشِعْرَها، وأنه قد رَقّ لهن ، وأطلقه وزاد فى عطائه مائة دينار .

فكتب إليه عبدالملك يحمده على ذلك، وأمرهأن يزيدَه مائة أخرى فىعطائه.

---

* العقد الفريد المالك السعيد : ١١٨، المحاسن والمساوى : ٦٠٢ (طبع ليبزج). المستطرف : ١ — ١٩٥ .

(١) انظر صفحة ٤٣ ؛ (٢) السمت : هيئة أهل الخير .

٥٧ ـ أسدٌ عليَّ وفى الحروب نعامةٌ *

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ؛ فدخل وعليه دِرْع وعمامة سوداء ، وقَوْس عربيّة وكنانة ، فبعث إليه أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، فقالت : مَنْ هذا الأعرابى المُسْتَلْئِم[1] فى السلاح عندك ، وأنتَ فى غِلالة[2] ! فبعث إليها: إنّه الحجاج .

فأعادت الرسول إليه ، فقال : تقول لك : والله لأَنْ يخلُوَ بك ملكُ الموت أحَبُّ إلىّ من أن يخلوَ بك الحجاج ! فأخبره الوليد وهو يمازحه ؛ فقال : يا أميرَ المؤمنين : دَعْ منك مُفاكَهة النساء بزخْرف القول ؛ فإنما المرأة ريحانة ، وليست قَهرَمانة[3] ؛ فلا تُطْلعها على سرِّك ، ومكايدة عدوِّك .

فلما دخل الوليد أخبرَها بمقالة الحجاج ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ حاجتى إليك أن تأمره غداً بأن يأتينى مُسْتَلْئِما ، ففعل ذلك .

وأتاه الحجاج ؛ فحجبته ثم أدخلته ولم تأذنْ له فى القعود ، فلم يزلْ قائماً ، ثم قالت : إيه حجّاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتال ابنِ الزُّبير وابْنِ الأشعث ! أما والله لولا أن الله عَلِمَ أنك شرُّ خَلْقِه ما ابْتَلَاكَ برمى الكعبة الحرام ،

* ابن أبى الحديد : ٢ ـ ٤٠ ، بلاغات النساء : ١٢٤ ، عيون الأخبار : ١ ـ ١٦٩

(١) استلأم الرجل ؛ إذا لبس ماعنده من عدة : رمح وبيضة ومغفر وسيف ونبل .

(٢) الغلالة : شعار تحت الثوب . (٣) القهرمان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس .

ولا بقتل ابن ذات النّطاقين(١) ؛ أوّل مولود فى الإسلام .

وأما نهيُك أميرَ المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره فإن كُنّ يَلدْنَ مثلَك فما أحقه بالقبول منك ، وإن كن يلدْن مثله فهو غير قابل لقولك . أما،والله لقد نَفَضَ نساء أمير المؤمنين الطيبَ من غدائرهن والحَلْىَ من أيديهن وأرجلهن فبِعْنَه فى أعطية أهل الشام ، حين كنتَ فى أضيقَ من القرَن(٢) ، فقد أظَلّتك رماحهم ، وأثخنك(٣) كفاحُهم ، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم ؛ فأنجاك اللهُ من عدوّ أمير المؤمنين بحبّهم إياه ؛ قاتل الله القائل حين نظر إليك وسِنان غزَالة(٤) بين كتفيك :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نَعَامــةٌ فتخاء تنفِرُ من صفير الصّافرِ(٥)
هلّا كرَرْت على غزَالة فى الوَغَى بل كان قَلْبُكَ فى جَوَانح طائر

ثم قالت لجواريها : أخرِجْنَه ؛ فأُخرج !

فدخل على الوليد ، فقال : ما كنتَ فيه ياحجاج ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما سكتت حتى ظننت نفسى قد ذهبت ، وحتى كان بطن الأرض أحبَّ إلىّ من ظهرها ، وما ظننت أن امرأة تبلغ بلاغتها ، وتحسن فصاحتها ! قال : إنهـا بنت عبد العزيز !

---

(١) ذات النطاقين : أسماء بنت أبي بكر ، سميت بذلك لأنها شقت نطاقها ليلة خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة النبي ، والأخرى عصاماً لقربته . (٢) القرن هنا : الجعبة من جلود تكون مشقوقة ثم تخرز . (٣) أثخن : غلب وقهر . (٤) غزالة : امرأة : امرأة شبيب الخارجى . (٥) يقال ناقة فتخاء : ارتفعت أخلافها قبل بطنها ؛ وهو ذم .

٨٥ — الشعراء عند سكينة بنت الحسين *

اجتمع الفرزدقُ وجميل وجرير ونُصيب وكُثيّر فى موسم من المواسم ، فقال بعضهم لبعض : والله لقد اجتمعنا فى هذا الموسم ، وما ينبغى لنا أن نتفرّق إلّا وقد تتابعَ لنا فى الناس شىء نُذْكَرُ به . فقال جرير : هل لكم فى سُكينة[1] بنت الحسين ، نقصدها فنسلّمَ عليها ؛ فلعل ذلك يكون سبباً لبعض ما نريد ! فقالوا : امضُوا بنا . فمكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا عليها وقعدت لهم حيث تَراهم ولا يَرونَها ، ثم أخرجت لهم وصيفة لها وضيئة ، وقد رَوَت الأشعار والأحاديث ، فأقرأها كلٌّ منهم السلام ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال : هأنذا ، قالت : أنت الذى تقول :

أبيتُ أُمَنّى النفسَ أنْ سوف نلتقى ... وهل هُوَ مَقْدُورٌ لنفسى لقاؤُها

فإن ألْقَهَا أو يجمعِ الدهرُ بيننا ... ففيها شفاء النفس منها وداؤُها

قال : نعم ! قالت : قولُك أحسنُ من منظرك ! وأنت القائل :

ودَّعْنَنِي بإشارةٍ وتحيَّةٍ ... وتركْنَنِي بين الديارِ قتيلَا

لم أستطعْ ردَّ الجوابِ عليهمُ ... عند الوَدَاعِ وما شَفَيْنَ غَليلَا

لو كنتُ أملِكُهُمْ إذنْ لم يبرَحُوا ... حتى أُوَدِّعَ قلبِيَ المخبولَا

---

* المحاسن والمساوئ : ٢٣٤ (طبع ليبزج) ، مصارع العشاق : ٢٧٢ ، الأغاني : ١٤ — ١٩٦ (طبعة الساسى) ، الموشح : ١٥٩

(١) هى سكينة بنت الحسين بن على بن أبي طالب ؛ كانت برزة من النساء ، تجالس الأجلة من قريش ، ويجتمع عندها الشعراء ، وتزوجت عدة أزواج . وتوفيت سنة ١١٧ ه .

قال: نعم. قالت : أحسنتَ ، أحسنَ اللهُ إليك ؟ وأنت القائل :

هُمَا دَلّتَانى من ثمانين قامــــةً كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسِرُهْ[١]

فلما استوتْ رجلاىَ فى الأرضِ نَادَتَا: أحىٌّ فُيرْجَى أم قتيـــلٌ نحاذِرُهْ !

فقلت : ارفعوا الأسباب لايشعرُوا بنا ووليّتُ فى أعقابِ ليـلٍ أبادِرُهْ

قال : نعم ، قالتْ : سَوْءَةً لك ! فما دعاك إلى إفشاء سرّها وسرّك اهلا سترتَ عليها وعلى نفسك ! فضرب بيده على جَبْهَتِهِ ، وقال : نعم، فسوءة لى !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : أيّكم جرير ؟ فقال : هأنذا ؛قالت: أنت القائل :

رُزِقْنَا به الصَّيْدَ الغزيرَ ولم نكُنْ كمَنْ نَبـــلُهُ محرومة وحبائلُهْ

فهيهات هيهات العقيقُ ومَنْ به وهيهات حِىٌّ بالعقيق نواصلُهْ

قال: نعم قالت : أحسنَ اللهُ إليك ، وأنتَ القائل :

كأنّ عيونَ المُجتلين تعرّضَتْ وشمساً تجلّى يوم دَجْنٍ سَحَابُهَا[٢]

إذا ذُكِرتْ للقَلْب كاد لذِكْرِهَا يطيرُ إليهـــــا واعْتَرَاهُ عذابُهَا

قال : نعم ، قالت : أحسنتَ ! وأنت القائل :

سَرَتِ الهمومُ فبتْنَ غَـــيرَ نيامِ وأخُو الهموم يَرُومُ كلَّ مَرامِ

ذُمَّ المنازلَ بعـــد منزلةِ اللّوى والعيشَ بعـد أولئك الأيّامِ

طَرَقتكَ صائدةُ القلوبِ وليسَ ذا وقتَ الزيارةِ فارْجِعِى بسلامِ

---

(١) كسر الطائر جناحيه : إذا ضم منهما شيئا وهو يريد الوقوع أو الانقضاض .

(٢) الدجن : المطر الكثير .

لو كان عَهدُكِ كالذى حدَّثتِنِى لوَصَلْت ذاك فكان غير رِمام
تَجْرِى السِّواكَ على أغرَّ كأنَّهُ بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتُونِ غَمَامِ

قال : نعم ، قالت : سوءة لك ! جعلتها صائدةَ القلوب، حتى إذا أناخت ببابك جعلتَ دونها حجاباً ! ألا قلت :

طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوب فرحباً نفسى فداؤك فادْخُلى بِسَلامِ

قال : نعم ! فسوءةً لى !

ودخلتْ على مولاتها وخرجتْ ، وقالت : أيكم كثيِّر ؟ فقال : هأنذا : قالت : أنت القائل :

وأعجبَنى ياعزُّ منك خلائقٌ حِسانٌ إذا عُدَّ الخلائقُ أَرْبَعُ
دُنُوُّكِ حتى يطمعَ الصبُّ فى الصِّبا وقطعُكِ أسبابَ الصِّبا حين تُقْطَعُ
وأنك لا تدرى غريماً مَطَلْتِهِ أيشتدُّ إن قاضَاكِ أم يتضرَّعُ !
وأنك إن واصلت أعلَمْتِ بالذى لديك فلم يُوجَدْ لكِ الدَّهْرَ مَطْمَعُ

قال : نعم ، قالت : أعطاك الله مُناكَ ! وأنت القائل :

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامر لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ
فما أنا بالدّاعى لعَزَّةَ بالجوى ولا شامتٍ إنْ نَعْلُ عزةَ زلَّتِ
وكنتُ كذى رِجلين: رِجْلٍ صحيحةٍ ورِجْلٍ رَمى فيها الزمانُ فشَلَّتِ

قال : نعم ، قالت : أحسن الله إليك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وقال : أيكم نُصَيب ؟ فقال : هأنذا ، قالت : أنت القائل :

ولو لا أن يقالَ : صَبَا نُصَيْبٌ　　لقلت : بِنفْسِيَ النَّشأُ الصِّغَارُ(١)

قال : نعم ! قالت : أحسنت وكرمت ، إلا أنك صبوت إلى الصغار ، وتركت الناهضات بأحمالها .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، وقالت : أيُّكم جميل؟ قال: أنا ، قالت : أنتَ القائل :

لقد ذَرَفَتْ عيني وطَالَ سُفُوحُها　　وأصبحَ منْ نَفْسِي سقيماً صَحِيحُها

ألا لَيتنا كُنَّا جميعاً وإن نَمُتْ　　يُجاوِرُ فى المَوْتَى ضَرِيحى ضَرِيحُها

أظــلُّ نَهارِى مُسْتَهاماً ويُلْتَقى　　مع الليل رُوحى فى المَنامِ ورُوحُها

فهل لِيَ فى كِتْمانِ حُبِّيَ رَاحَةٌ ؟　　وهل تنفعَــنِّى بَوْحَةٌ لو أبُوحُها ؟

قال : نعم ! قالت : بارك الله عليك ؛ وأنتَ القائل :

خليلىَّ فيما عِشْتُمَا هــل رأيْتُمَا　　قتيلًا بكَى من حُبِّ قاتلِهِ قَبْلِي؟

أبيتُ مع الهُلَّاكِ ضيفاً لأهلها　　وأهْلِي قريبٌ مُوسِعُون ذَوُو فَضْلِ

فيارَبِّ إن تَهلِكْ بُثَيْنَةُ لا أعِشْ　　فُوَاقًا(٢) ، ولا أفرحْ بمالى ولا أهْلى

ويارَبِّ إن وَقَّيْتَ شيئاً فوقِّهــا　　حتُوفَ المَنايا، ربِّ واجْمَعْ بها شَمْلى

قال : نعم ! قالت : أحسنت. أحسن الله إليك ، وأنت القائل :

ألَا ليتَ شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً　　بوادِى القُرَى إنى إذنْ لَسعيدُ

لِكلِّ حديث عنـدهُنَّ بَشَاشَةٌ　　وكلُّ قتيــــــلٍ بينهنَّ شهيدُ

ويالَيتَ أيامَ الصِّبا كنَّ رُجَّعاً　　ودَهْــــراً تولَّى يا بُثَيْنَ يَعُودُ

---

(١) النشأ : جمع ناشئ للمذكر والمؤنث ، وهو الحدث الذى تجاوز حد الصغر .

(٢) فواقا : فترة .

إذا قلتُ : ما بى يا بُثينةُ قاتلى ... من الحبِّ قالت : ثابتٌ ويزيدُ

وإن قلتُ رُدِّى بعض عقلى أعشْ به ... تناءتْ وقالت : ذاك منْكَ بعيدُ

فما ذُكِرَ الخِلّان إلا ذكرتُها ... ولا البخلُ إلا قلتُ سوف تجودُ

فلا أنا مردودٌ بما جئتُ طالباً ... ولا حُبُّها فيما يبيدُ يبيدُ

يموت الهوَى منى إذا ما لقيتُها ... ويحيا إذا فارقتُها ويزيدُ

قال : نعم ، قالت : لله أنت ! جعلت لحديثها مَلَاحة وبشاشة ، وقتيلها شهيداً ، وأنت القائل :

ألا ليتنى أعمى أصمُّ تقودُنى ... بثينةُ لا يخفى علىَّ مكانُها

قال : نعمْ ، قالت : قد رضيتَ من الدنيا أن تقودك بثينة وأنت أعمى أصم !

قال : نعم .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، ومعها مُدْهُنٌ فيه غالية[1] ، ومنديل فيه كسوة ، وصرةٌ فيها خمسمائة دينار ، فصبت الغالية على رأس جميل ، حتى سالت على لحيته ، ودفعت إليه الصرة والكسوة ، وقالت : ابسط لنا العذر ؛ أنت أشعرهم ، وأمرتْ لأصحابه بمائة مائة .

---

(١) الغالية : الطيب .

٥٩ — الفرزدق وسكينة بنت الحسين*

خرج الفرزدق[١] حاجًّا؛ فلما قضى حجّه عدل إلى المدينة، فدخل إلى سُكينة بنت الحسين ، فسلّم ، فقالت له : يا فرزدق ، مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أنا ، قالت : كذبت ، أشعر منك الذى يقول :

بنفسىَ مَنْ تَجَنُّبه عزيزٌ   علىَّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمْسى وأصبح لا أراهُ   ويطرُقُنى إذا هجع النيامُ

فقال : أما والله لو أذنتِ لى لأسمعتُك أحسنَ منه . قالت : أقيموه؛ فأُخرج.
ثم عاد إليها من الغد ، فدخل عليها ؛ فقالت : يا فرزدق ، مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : أنا ، قالت : كذبت ، صاحبك جرير أشعر منك حيث يقول :

لولا الحياء لعادنى استعبارُ   ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هجر الضجيع فراشها[٢]   كُتم الحديثُ وعفّتِ الأسرار
لا يلبث القُرَناء أن يتفرّقوا   ليلٌ يكُر عليهمُ ونهارُ

فقال : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه ، فأمرتْ به فأُخرج .

ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، وحولَها مولَّداتٌ لها كأنهن التماثيل ؛ فنظر الفرزدقُ إلى واحدة منهن فأُعجِب بها ، وبُهت ينظر إليها . فقالت له

---

* الأغاني : ٨ — ٣٨ (طبعة دار الكتب) ، مصارع العشاق : ٧٤ ، المحاسن والمساوىء : ٢٢٣ (طبع ليبزج) .

(١) هو أبو فراس همام بن غالب ، نشأ بالبصرة وأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه ، فرواه ونبغ فيه ، وتعرف بولاة البصرة ومدحهم وهجاهم ، ثم رحل إلى خلفاء بنى أمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم . مات سنة ١١٠ هـ .

(٢) الضجيع هنا : الزوج ، وهجرها أن يغيب عنها ؛ يصفها بالعفاف .

سكينة : يافرزدق، مَن أشعرُ الناس ؟ قال : أنا ؛ قالت : كذبت ؛ صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إنّ العيون التى فى طرفها مَرضٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يصْرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ الله إنسانا

فقال : لئن تركتنى لأسمعنَّك أحسنَ منه ، فأمرت بإخراجه .

فالتفت إليها ، وقال : يابنتَ بنتِ رسول الله ، إن لى عليك حقًّا عظيما. قالت: وما هو ؟ قال : ضربتُ إليك آباط الإبل من مكّة إرادةَ التسليم عليك ، فكان جزائى من ذلك تكذيبى وطَرْدى ، وتفضيلَ جرير علىّ، ومنعك إياى أن أُنشدَك شيئاً من شعرى ، وبى ما قد عيلَ منه صبرى ؛ وهذه المنايا تغدو وتروح ، ولعلّى لا أفارقُ المدينة حتى أموت ، فإذا أنا متّ فرى بى أن أُدرج فى كفنى ، ثم أدفن فى ثياب هذه الجارية[١] .

فضحكت سُكَينة وأمرت له بالجارية ، فخرج بها آخذاً بريطَتها[٢] ؛ ثم قالت له : يافرزدق ، احتفظ بها وأحْسِنْ صحبتها ، فإنى آثرتُك بها على نفسى ، بارك الله لك فيها .

قال الفرزدق : فلم أزل والله أرى البركة بدعائها فى نفسى وأهلى ومالى .

---

(١) يشير إلى الجارية التى أعجبته . (٢) الريطة : الملاءة .

٦٠ ـ يوم عند امرأة من بنى أمية*

خرج النُّصيب هو وكُثَيِّر والأحوص[١] غِبَّ يوم أمطرتْ فيه السماء، فقال: هل لكم فى أن نركبَ جميعاً فنسيرَ حتى نأتى العَقيقَ، فَنُمَتِّعَ فيه أبصارَنا ؟ فقالوا: نعم ؛ فركبوا أفضلَ ما يقدِرُون عليه من الدوابّ، ولبسوا أحسنَ ما يقدِرون عليه من الثياب، وتنكروا ثم ساروُا حتى أَتَوا العقيقَ ، فجعلوا يتصفَّحُون[٢] ويرون بعض ما يشتَهُون ، حتى رُفِعَ لهمْ سوادٌ عظيم فأمُّوه ، فإذا وصائفُ ورجالٌ من الموالى ونساء بارزاتٌ ، فسألْنَهم أن ينزلوا فاستحْيَوْا أن يُجيبوهنَّ من أول وهلةٍ ؛ فقالوا : لا نستطيع أو نمضى فى حاجةٍ لنا ، فحلَّفْنهمْ أن يرْجِعُوا إليهنَّ ، ففعلوا وأتوْهنَّ فسألْنَهم النزول فنزلوا .

ودخلت امرأةٌ من النّساء فاستأذنتْ لهم ، فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت : ادخلوا .

قال النُّصيب : فدخلنا على امرأة جميلة برْزَةٍ على فرشٍ لها ، فرحَّبتْ،وحيَّتْ، وإذا كراسىُّ موضوعة ، فجلَسْنا جميعاً فى صفٍّ واحدٍ كلٌّ إنسانٍ على كرسى، فقالت : إن أحببتم أن ندعوَ بصبى[٣] لنا فَنُصَيِّحَه ونَعْرُكَ أُذنَه فعلنا ، وإن شئتم بدأنا بالغَدَاء ، فقلنا : بل تَدْعِين بالصبىّ ، ولن يفوتَنا الغداء .

فأومأت بيدها إلى بعض الخدم ، فلم يكن إلا كلاَ ولاَ[٤] حتى جاءت جارية

* الأغانى ـ ١ ـ ٣٥٦ (طبعة دار الكتب) .

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله ، شاعر هجاء ، كان معاصراً لجرير والفرزدق ، وهو من سكان المدينة، ولقب بالأحوص لضيق فى مؤخر عينيه. توفى سنة ١٠٥ هـ (٢) تصفحت الشىء: نظرت إليه لأتعرفه . (٣) تريد العود ؛ على التشبيه . (٤) العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل أو ظهور شىء خفى قالوا : كان فعله كلا ، وربما كرروا فقالوا : كلا ولا. اللسان ـ مادة « لا » .

جميلةٌ قد سُتِرتْ بمُطْرَفٍ ، فأمسكوه عليها حتى ذهب بُهْرُها[١] ، ثم كُشِفَ عنها ، وإذا جارية ذات جمالٍ ، قريبةٌ من جمال مَوْلاَتِها ، فرحَّبَتْ بهم وحَيَّتْهم ، فقالت لها مولاتُها : خُذِي العود ويحك ؟ وغنى من قول النصيب، عافَى الله أبا مِحْجَن!

أَلَا هل من البَيْنِ المُفَرِّقِ من بُدِّ ... وهل مثلُ أيامٍ بمُنْقَطعِ[٢] السَّعْدِ !

تَمَنَّيْتُ أيّامى أولئــــكَ والمُنَى ... على عهد عادٍ ما تُعِيدُ[٣] ولاتُبْدِى

فغنَّتْهُ ، فجاءت به كأحسن ماسمعتُه قط ؛ بأحلى لفظ وأشجى صوت ،ثم قالت لها : خُذِى أيضا من قول أبى مِحْجَن ، عافى الله أبا محجن !

أرِقَ المحبُّ وعاده سَهَدُهْ ... لِطَوَارِقِ الهمِّ التى ترِدُهْ

وذَكرتُ من رقَّتْ له كَبِدى ... وأَبَى فليس ترقُّ لى كبدُه

لا قَوْمُه قومى ، ولا بلَدِى ... ـ فنكُونَ حيناً جيرةً ـ بلَدُهْ

ووجَدْتُ وجْداً لم يكن أحدٌ ... قبلِى من اَجْلِ صبابةٍ يجِدُهْ

إلّا ابنَ عَجْلاَنَ[٤] الذى تبَلَتْ ... هندٌ ففاتَ[٥] بنفسه كَدَدُهْ

قال : فجاءت به أحسن من الأول ، فكدت أطيرُ سروراً ، ثم قالت لها : ويحك ! خذى من قول أبى محجن ، عافى الله أبا محجن !

فيالكَ من ليلٍ تمتَّعتُ طُولَه ... وهل طائفٌ من نائمٍ مُتَمَتَّعُ !

---

(١) البهر فى الأصل: انقطاع النفس من الإعياء ، ويراد هنا: الخجل والروع . (٢) منقطع المكان: حيث ينتهى ، والسعد : موضع قرب المدينة . (٣) أى لا فائدة منها . (٤) هو عبد الله بن عجلان ، شاعر جاهلى عاشق ، عشق هند بنت كعب بن عمر ومات فى سبيلها، فضرب المثل بعشقه (تزيين الأسواق : ٢ ـ ٧٦) .

(٥) أى أن الكمد أهلكه وذهب بنفسه .

نعم إنّ ذا شَجْوٍ - متى يلقَ شجْوَه ولو نائماً مُستعتب[١] أو مودّعُ

له حاجةٌ قد طالمَا قـد أسرَّها من الناسِ فى صدْرٍ بها يتصدّعُ

تحمّلها طُولَ الزمانِ لعلّها يكونُ لها يوماً من الدهرِ مَنْزعُ

وقد قُرِعَتْ فى أمّ عمرو لِىَ العصا قديماً ، كما كانت لذى الحِلْم تُقرَعُ[٢]

قال : فجاءت والله بشىء حيّرنى وأذهلنى طربا لحسن الغناء، وسروراً باختيارِها الغناء فى شعرى ، وما سمعتُ فيه من حُسن الصَّنْعة وجَوْدتِها وإحكامها . ثم قالت لها : خُذِى أيضاً من قول أبى محجن ، عافى الله أبا محجن :

ياأيُّها الرَّكبُ إنى غيرُ تابعكمْ حتى تُلِمُّوا وأنتم بى مُلِمُّونا

فما أرى مثلكمْ ركباً كَشَكلكمُ يدعوهمُ ذُو هوًى إلا يَعوجُونا

أم خبّرُونى عن دائى بعلمكُم وأعلمُ الناسِ بالداء الأطبُّونا[٣]

قال نصيب : فوالله لقد زُهيتُ بما سمعت زهْوا ، خيّل إلىّ أنى من قُريش، وأن الخلافة لى ، ثم قالت : حَسْبُكِ يا بُنيّة ، هاتِ الطعام ياغلام ؛ فوثب الأحوصُ وكثيِّرٌ ، وقالا : والله لا نَطْعَمُ لكِ طعاماً ، ولا نجلس لكِ فى مجلس ، فقد أسأتِ عِشْرَتَنا واستخففتِ بنا ، وقدّمتِ شعر هذا على أشعارنا ، واستمعت الغناءفيه؛ وإن فى أشعارنا لمَا يَفْضُل شعرَه ، وفيها من الغناء ما هو أحسنُ من هذا ، فقالت : على معرفةٍ كلٌّ مَا كان منّى !

---

(١) الاستعتاب : طلب العتبى وهو الرضا . (٢) يشير إلى المثل : « إن العصا قرعت لذى الحلم » يضرب لمن إذا نبه انتبه ، والمعنى أنه قد ليم قديماً فى حبها . (٣) الأطبون : البارعون فى الطب .

ثم خرجا مُغْضَبَيْنِ واحْتَبَسَتْنِي . فتغدّيت عندها ، وأمرتْ لى بثلاثمائة دينار وحُلّتَيْنِ وطيبٍ ، ثم دفعتْ إلىّ مائتى دينار ، وقالت : ادفعها إلى صاحبيك ، فإن قَبِلَاها وإلا فهى لك .

فأتيتُهما منازلَهما فأخبرتهما القصة ، فأمّا الأحوص فقَبِلها ، وأما كثيّر فلم يقبلها ، وقال : لعن الله صاحبتَك وجائزتَها ولعنك معها ، فأخذتها وانصرفتُ .

قال الراوى : فسألتُ النصيب : مِمّن المرأةُ ؟ قال : من بنى أميّة ، ولا أذكر اسمها ما حييتُ لأحد .

٦١ — حديث عائشة بنت طلحة مع النُّميرى*

لما تأيَّمَتْ(١) عائشةُ بنتُ طلحة كانت تقيم بمكّة سنةً وبالمدينة سنة ؛ وتخرج إلى مالٍ(٢) عظيم لها بالطائف ، وقصرٍ كان لها هناك فتتنزّه فيه، وتجلس بالعشيّات ، فيتناضَلُ بين يديها الرُّماة .

فمرّ بها النُّميرىّ الشاعر(٣)، فسألتْ عنه فنُسب لها ، فقالت : ائتونى به، فأتَوْها به . فقالت له : أَنْشِدْنى ممّا قلت فى زينب(٤) ، فامتنع عليها وقال : تلك ابنةُ عمّى ، وقد صارت عظاماً باليـة ، قالت : أقسمتُ عليـك بالله إلّا فعلتَ ؛ فأنشدها قوله :

تَضَوَّعَ مِسكاً بطنُ نَعْمان(٥) إذ مشتْ ... به زينبٌ فى نســوةٍ عَطِراتِ

تهادَيْنَ ما بين المُحصَّبِ(٦) من مِنًى ... وأقبلْنَ لا شُعْثاً ولا غَـبِرَاتِ

أعانَ الذى فوق السموات عرشُـه ... مَواشىَ بالبطحـاء مُؤْتَجِرَاتِ(٧)

مرَرْنَ بفخٍ(٨) ، ثم رُحْنَ عشيّةً ... يلبّلـين للرّحمن مُعْتَمِراتِ

---

* الأغانى : ٦ ـ ٢٠٣ (طبعة دار الـكتب)

(١) تأيمت المرأة : إذا مات عنها زوجها ولم تتزوج. وقد كانت عائشة عنـد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر فهلك عنها فتزوجها بعـده مصعب بن الزبير فقتل عنها ، ثم تزوجها عمر بن عبدالله بن معمر ، فمات عنها ، فلم تتزوج بعده . توفيت سنة ١١٠ هـ . (٢) المال: ماملكه الإنسان من كل شىء . (٣) هو محمد بن عبد الله، من ثقيف، شاعر غزل مولد من شعراء الدولة الأموية. توفى سنة ٩٠ هـ (٤) هى زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج الثقفى، وللنميرى فيها أشعار كثيرة : شبب بها فى حياتها ورثاها بعد موتها . (٥) بطن نعمان : موضع بين مكة والطائف .
(٦) المحصب: موضع بين مكة ومنى . (٧) مؤتجرات: طالبات للأجر . (٨) فخ: موضع؛ بينه وبين مكة ثلاثة أميال .

يخَبِّئْن أطرافَ البَنَان من التُّقى   وَيَقْتُلْن بالألحاظ مُقْتَدِراتِ

تقسّمن لُبّي يوم نَعْمان إنّني   رأيت فؤادي عارِمَ[1] النَظَراتِ

جَلَوْنَ وُجُوهاً لم تَلُحْها سمائمٌ   حَرُورٌ، ولم يُسْفَعن بالسَّبَراتِ[2]

***

ولمّا رأتْ رَكْبَ النميريّ راعَها   وكنّ مِنَ آنْ يلقَيْنَه حذِراتِ

فأدْنَين حتى جاوز الركبُ دونَها   حجاباً من القَسّيِّ[3] والحِبَراتِ

فكِدْتُ اشتياقاً نحوها وصبابةً   تقطّعُ أنفاسي إثْرَها حَسَراتِ

فراجعتُ نفسي والحَفِيظةَ بعدما   بَلَلْتُ رداءَ العَصْبِ[4] بالعَبَراتِ[5]

فقالت : والله ما قلتَ إلّا جميلًا ، ولا ذكرتَ إلا كرماً وطيباً ، ولا وصفتَ إلا دِيناً وتقًى ! أعطوه ألف درهم .

فلما كانت الجمعة الأخرى تعرّض لها ؛ فقالت : عليّ به ، فأحضر . فقالت له : أنشدني من شعرك في زينبَ ، فقال لها : أوأُنْشِدُك من شعر الحارث بن خالد فيك ؟ فوثب مواليها إليه ؛ فقالت : دعوه فإنه أراد أن يَسْتَقِيد[6] لبنت عمّه ؛ هات مِمّا قال الحارث فيّ ، فأنشدها[7] :

---

(١) عارم النظرات : شديدها . (٢) لاحته الشمس : لفحته وغيرت وجهه ، والسمائم : جمع سموم وهي ريح حارة ، وسفعته : غيرته . والسبرات : جمع سبرة ، وهي شدة البرد . (٣) القسي : نوع من الثياب ، والحبرات : ضرب من برود اليمن. (٤) العصب : برود يصبغ غزلها ثم تنسج.

(٥) روى أن هذه القصيدة حينما بلغت عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج : « قد بلغني قول الخبيث في زينب ، فاله عنه ، وأعرض عن ذكره ؛ فإنك إن أدنيته أو عاتبته أطمعته ، وإن عاقبته صدقته » . (٦) يأخذ بثأرها . (٧) قال الحارث بن خالد هذه الأبيات حين تزوج مصعب بن الزبير عائشة ، ورحل بها إلى العراق . والحارث بن خالد : أحد شعراء قريش المعدودين الغزلين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبي ربيعة في شعره ، لا يتجاوز الغزل إلى المدح والهجاء إلا نادراً .

ظعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخلْق ... وغـدا بلبّك مَطْلَع الشّرْق

فى البيت ذى الحسب الرفيع ومنْ ... أهل التُّقَى والبرِّ والصّـدق

ما صبَّحَتْ أحـداً برؤيتها ... إلّا غدا بكواكب الطَّلْقِ[1]

فقالت : والله ما ذكر إلّا جميلًا ؛ ذكر أنّى إذا صبّحتُ زوجى بوجهى غدا بكواكب الطَّلْق ، وأنّى غدوتُ مع أمير تزوَّجنى إلى الشّرق ، وأنّى أحْسَنُ الخلق فى البيتِ ذى الحسب الرفيع ؛ أعطوه ألف درهم واكْسُوه حلّتيْن ، ولا تَعُدْ لإتيانِنا بعد هذا يانميرىّ .

---

(١) يقال : يوم طلق : أى مشرق معتدل ، وهو يريد : أن من تصبحه برؤيتها يرى اليوم طيباً سعيداً .

٦٢ — تريد أن تقتلني !*

أقبل أبو العباس السفاح[1] على أخي أمّ سلمة[2] بنت يعقوب ، فسأله التزويج بها فزوجه إياها ، فأصْدَقها خمسمائة دينار ، وأهدى مائتي دينار ، ودخل عليها من ليلته ، وحظيت عنده ، وحلف ألا يتزوج عليها ولا يتَسَرّى ، وغلبت عليه غلبةً شديدة حتى ما كان يقطعُ أمراً إلا بمشورتها وبأمرها ، ثم أفضت الخلافةُ إليه ، فوفَى لها بما حلف .

فلما كانَ ذات يوم في خلافته خلا به خالدُ بن صفوان ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إني فكرتُ في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملّكْتَ نفسك امرأةً واحدة ، فإن مرضتْ مرضتَ ، وإن تألمتْ ألمتَ ، وحرمت نفسك الجواري ، والتمتّع بما تشتهي منهنّ ؛ فإنّ منهنّ - ياأمير المؤمنين - الطويلةَ الغَيْدَاء[3] ، وإنّ منهن الغضّةَ ، والدقيقةَ السمراء ، من مولّدات المدينة ؛ ولو رأيتَ ياأميرَ المؤمنين الطويلة البيضاء ، والسمراء اللّعْسَاء[4] ، من مولّدات البصرة والكوفة ، وذوات الألسن العذبة والقُدُود المهفهفة ، وحسن زيّهنّ وزينتهنّ ، وشكلهنّ لرأيت شيئاً حسناً .

---

* المحاسن والمساوئ : ٣٠٠ ؛ (طبع ليبزج) ، ثمرات الأوراق : ٢ - ٢٩٢ ، المسعودي : ٢ - ٢١٥ .

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ورأس الدولة العباسية . بويع بالخلافة سنة ١٣٢ ومات سنة ١٣٦ هـ . (٢) كانت عند عبد العزيز بن الوليد فهلك عنها ، ثم كانت عند هشام فهلك عنها . (٣) الغيداء : المتثنية ليناً . (٤) اللعس : سواد مشرب بحمرة .

وأين أنت يا أمير المؤمنين من بنات الأحرار ، والنظر إلى ما عنـدهنّ من الحياء والتخفُّر !

وجعـل خالد يجيد فى الوصف ، ويجدُّ فى الإطناب ، بحلاوة لفظه وجودة وصفه .

فلمّا فرغ قال له أبو العباس : ويحك ياخالد ! ما صَكَّ مسامعى — والله — قطّ كلام أحسنُ مما سمعته ، فأَعِدْ علىّ كلامك ؛ فقد وقع منى موقعاً . فأعاد عليه خالد الـكلام أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف .

وبقى أبو العباس مفـكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه أمّ سلمة امرأته . وكانت تبرّه كثيراً وتتحرى مسرّته وموافقته فى جميع ماأراده — فقالت له : إنى لأَنْـكِرُكَ يا أمير المؤمنين ؛ فهل حدث أمر تـكرَهُه ؟ أو أتاك خَبَر فارتمتَ له ؟ قال : لم يكن من ذلك شىء !

قالت : فما قصتُكَ ؟ فجعل ينزوى عنها ؛ فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد له ، فقالت : فما قلت له ؟ إنه . . . قال : سبحان الله ينصحنى وتشتمينه !

فخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت إلى خالد بعض خدمها ، وأمرتهم ألاّ يتركوا منه عضواً صحيحاً .

قال خالد : فانصرفتُ إلى منزلى ، وأنا مسرور بما رأيتُ من المؤمنين ؛ وإعجابه بما ألقيته إليه . ولم أشكّ أن صلتـه ستأتينى ، فلم ألبث حتى صار إلىّ أولئك الخـدم ، وأنا قاعد على باب دارى ؛ فلما رأيتُهم قد أقبلوا نحوى أيقنتُ بالجائزة ، حتى وقفوا علىّ ؛ فسألوا عنّى ؛ فقلت : هأنذا خالد ؛ فسبق إلىّ أحدهم

بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها إلىّ وثبتُ فدخلتُ منزلى ، وأغلقتُ الباب علىّ واستترتُ ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرجُ من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أتيتُ من قِبَل أمّ سلمة .

وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلّا بقومٍ قدهجموا علىّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنتُ بالموت.

ولما وصلت إلى الدار أومأ إلىّ بالجلوس ، ونظرتُ فإذا خلف ظهرى بابٌ عليه ستور قد أُرْخِيَت ، وحركةٌ خلفها ! فقال : يا خالد ؛ لم أرك منذ ثلاث . قلت : كنتُ عليلًا يا أمير المؤمنين . قال : ويحك ! إنك وصفت لى فى آخر دَخْلَةٍ من أمر النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قطّ ؛ فأَعِدْه علىّ .

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أنّ العرب اشتقّت الضَّرَّة من الضّرّ ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان فى جَهْدٍ[1] ؛ فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافِىّ[2] القدر يغلى عليهن . قال أبو العبـــاس : برئتُ من قرابتى من رسول الله إن كنتُ سمعتُ هـذا منك فى حديثك ! قلت : وأخبرتك أن الأربعـة من النساء شرٌّ لصاحبهن يُشَيِّبْنَهُ ويُهَرِّمْنَه ويُسْقِمْنه . قال : ويلك ! والله ما سمعت هـذا الكلام منك ولا من غـيرك قبل هـذا الوقت . قلت : بلى والله ، قال : وتلك ! أوَ تُكَذِّبنى ! قلت : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين !

---

(١) الجهد : المشقة . (٢) الأثافى : جمع أثفية . وهى مايوضع عليه القدر .

قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر . قلت : نعم ، وأخبرتك أيضاً أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمع بعينيك إلى حرائر النساء وغيرهنّ من الإما .

فقيل لى من وراء الستر : صدقتَ والله يا عمّاه وبَررت ، بهـذا حدَّثْتَ أميرَ المؤمنين ، ولـكنه بدّل وغيَّر ، ونطق عن لسانك !

فقال أبو العباس : مالَكَ قاتلك الله وأخزاك ، وفعل بك وفعل !

فتركته وخرجت ، وقد أيقنتُ بالحياة ، فما شعرت إلا برسل أمّ سلمـــة قد صاروا إلىَّ ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت[1] وبِرْذَوْن وغلام .

---

(١) التخت : وعاء يصان فيه الثياب .

٦٣ — بعد أن ذهب الملك*

كانت الخَيزُران[1] أم الهادى والرشيـد فى دارها ، وعندها أمّهاتُ أولادِ الخلفاء وغيرُهنّ من بنات بنى هاشم ؛ فبينما هى كذلك إذ دخلت عليهـا جارية من جواريها ، فقالت : أعز الله السيدة ! بالباب امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمال ، فى أطمارٍ رثّة ، وليس وراء ما هى عليه من سوء الحال غاية ، تأبى أن تُخبرَ باسمها ، وهى تروم الدخول .

فقالت الخيزران للجارية : أدخليها ، فإنه لابد من فائدة أو ثواب . فدخلت امرأة ذاتُ بهاء وجمال ، فى أطمارٍ رثّة ؛ فوقفت بجنب عُضَادة الباب ثم سلّمتْ متضائلة ، وتكلمت فأوضحت عن بيان ولسان . فقالت : من أنت ؟

قالت : أنا مزنة زوج مروان بن محمد ، وقد أصارنى الدهر إلى ماترين ، ووالله ما الأطمارُ الرثّةُ التى علىّ إلا عاريّة ، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر ، وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطةَ العامة ـ على مانحن فيه من الضرر ـ على بَادِرَة إلينا تزيل موضع الشرف ؛ فقصدناكم لنكونَ فى حجابكم على أية حال كانت ؛ حتى تأتىَ دَعوةُ مَن له الدعوة .

---

* ثمرات الأوراق : ١ ـ ٢١٨ ، المسعودى : ٢ ـ ٢٤٩

(١) هى زوجة المهدى العباسى ، وأم الهادى والرشيد ، يمانية الأصل ، ولما ولى ابنها الهادى استبدت بالأمور دونه ، فكانت المواكب تغدو وتروح إلى بابها فنعها الهادى من ذلك . وكانت حازمة ، توفيت فى خلافة الرشيد سنة ١٨٣ هـ .

فاغرورقتْ عينا الخيزران بالدموع ، ونظرت إليها زينب[1] بنت سليمان بن علي فقالت : لا خفَّفَ الله عنك يامُزْنة ! أتذكرين وقد دخلتُ إليك وأنت على هذا البِساط بعينه ، فكلمتُك في جثة إبراهيم الإمام ، فانتهرْتِيني ، وأمرت بإخراجي ، وقلتِ : ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم ! فوالله لقد كان مَرْوانُ أرْعَى للحقّ منك ! لقد دخلتُ إليه فحلف إنّه ما قتله ـ وهو كاذب ـ وخيّرني بين أن يدفنَه ، أو يدفعَ إليّ جُثّته ، وعرض عليّ مالًا فلم أقْبله .

فقالت مزنة : والله ما أدّاني إلى هذه الحال التي ترينها إلّا تلك الفِعال التي كانت مني ، وكأنكِ استحسنْتِها ، فحرضتِ الخيزران على مثلها ؛ إنما كان يجب أن تحضّيها على فعلِ الخير ، وتركِ المقابلة بالشر ؛ لتُحْرِزَ بذلك نعيمها ، وتصونَ دينها. ثم قالت لزينب : يابنت عم ؛ كيف رأيت صَنِيع الله بنا في العقوق ، أفأحببتِ التأسي بنا ! ثم ولّت باكية .

فأشارت الخيزران إلى جاريةٍ من جواريها ، فعدلت بها إلى بعض المقاصير ، وأمرت بتغيير حالها والإحسان إليها .

فلما دخل المهدي عليها ـ وقد انصرفت زينب ـ قصّت الخيزران عليه قصّتها وما أمرت به من تغييرِ حالها ؛ فدعا بالجارية التي ردّتْها ، فقال لها : لمّا رددتِها إلى المقصورة : ما الذي سمعتِها تقوله ؟ قالت لحقتُها ، وهي تبكي في خروجها ، وتقرأ : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كلِّ مَكَانٍ ؛ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ .

---

(١) كان المهدي قد تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان، وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقها ، فإنها عجوز لنا قد أدركت أوائلنا .

ثم قال للخيزُران : والله لو لم تفعلى بها مافعلت ما كلمتك أبداً ، وبكى بكاء كثيراً ، وقال : اللهمّ إنى أعوذ بك من زوال النعمة !

ثم بعث جارية إلى مقصورتها التى أُخْلِيَتْ لها ، وقال للجارية : اقرئى عليها السلام ، وقولى لها : يابنت عم ؛ إن أخواتك قد اجتمعنَ عندى ، ولولا أنى ابن عمك لجئناك !

فلما سمعت الرسالة علمت مرادَ المهدى ، فجاءت تسحب أذيالها؛ فأمرها بالجلوس، ورحّب بها ورفع منزلتها .

ثم تذكروا أخبار أسلافهم ، وأيام الناس والدولة وتنقّلها ؛ فما تركت لأحد فى المجلس كلاماً !

فقال لها المهدىّ : يابنت عم ؛ والله لولا أنى لا أحب أن أجعلَ لقوم أنتِ منهم فى أمرنا شيئاً لتزوّجتك ، ولكن لا شىء أصْونَ لك من حجابى ، وكونك مع أخواتك فى قصرى ؛ لك مالهنّ ، وعليك ماعليهن ، إلى أن يأتيك أمرُ مَنْ له الأمر فيما حكم به على الخلق .

ثم أخْدَمها[1] وأجازها ، فأقامت فى قصره إلى أن قضَى المهدى والهادى ، ومضى صَدْر من أيام الرشيد ، وماتت فى خلافته ؛ فجزع عليها جزعاً شديداً .

---

(١) أخدمت فلانا : أعطيته خادما يخدمه .

٦٤ — أمّ أمير المؤمنين بالباب*

كانت أم جعفر[١] بن يحيى أرضعت الرشيد[٢] مع جعفر ، لأنه كان رُبّي في حِجْرها ، وغذّي برِسْلِها[٣] إذْ أنّ أمه ماتتْ عن مَهْدِه ، فكان الرشيد يشاورها، مُظهراً لإكرامها ، والتبرُّك برأيها . وكان آلى — وهو في كفالتها — ألّا يحجبها،ولا استشفعته لأحد إلّا شفّعها ، وآلت عليه أم جعفر ألّا دخلتْ عليه إلّا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحدٍ مقترف ذَنْباً ، فكم أسيرٍ فكّت ، ومُبْهَم عنده فتحتْ،ومستغلق منه فرّجَت !

وتغيّر الرشيد على البرامكة[٤] ، فقتل جعفراً ، وسجن يحيى والفضل، وسجن معهما أقاربهما ، واستصفى ضياعهم وأموالهم . ثم احتجب عن الناس ، فسمت إليه أم جعفر ، وطلبت الإذنَ عليه ومتّت[٥] بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجتْ كاشِفةً وجهها ، واضعةً لثامها ،محتفية[٦] في مشيها ، حتى صارتْ بباب قصر الرشيد .

فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال : ظئرُ أمير المؤمنين بالباب ، في حالةٍ تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويْحك ياعبد الملك!

---

*العقد الفريد : ٣ — ٣٣

(١) هي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة . (٢) هو هارون الرشيد بن محمد المهدى، كان ديناً محافظاً كثير الجهاد ، وافر العطاء ؛ توفي سنة ١٩٣ هـ . (٣) الرسل : اللبن.

(٤) كانت نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ ؛ بعد عودة الرشيد من الحج .

(٥) متت : توسلت . (٦) احتفى : مشى حافيا .

أوَ ساعية ؟ قال : نعم يا أميرَ المؤمنين وحافية ! قال: أدخلها ياعبد الملك، فربَّ كبد غذَّتْها ، وكُربةٍ فرّجتْها ، وعَوْرَة سترتْها !

ودخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلةً محتفية ، قام محتفياً حتى تلقّاها بين عَمَد المسجد ، وأكبّ على تقبيل رأسها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أيَعْدُو علينا الزمان ، ويجفونا خوفًا لك الأعوان ، ويُحردك[1] بنا البهتان ، وقد ربّيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوّى ودهرى ! فقال لها : وماذا يا أمَّ الرشيد ؟ قالت : ظِئْرُك[2] يحيى وأبوك ، ولا أصفُه بأكثرَ مما عرَفه به أميرُ المؤمنين ؛ مِنْ نصيحته له ، وإشفاقه عليه . . .

فقال لها : ياأمَّ الرشيد ، أمرٌ سَبق ، وقضاء حُمّ[3] ، وغضب من الله نفذ .

فقالت : ياأميرَ المؤمنين ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ .

فقال : صدقتِ ، فهذا مما لم يَمْحُه الله . فقالت : الغيبُ محجوبٌ عن النبيّين ، فكيفَ عنك يا أميرَ المؤمنين ! فأطرق الرشيد مَليًّا ، ثم قال :

وإذا المنيّةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لاتنفعُ[4]

فقالتْ بغير رَويّةٍ : ما أنا ليحيى بتَميمةٍ يا أميرَ المؤمنين، وقد قال الأول[5]:

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجدْ ذُخراً يكون كصالح الأعمالِ

هذا بعد قول الله عز وجل : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) يحردك : يغضبك . (٢) الظئر : من يعطف على ولد غيره ، للذكر والأنثى .
(٣) حم : نزل ووقع . (٤) التميمة : خرزة كان العرب فى جاهليتهم يعلقون العدد منها على أولادهم وقاية لهم من العين ، والبيت لأبى ذؤيب . (٥) البيت للأخطل .

فأطرق الرشيد ثانية ، ثم قال : يا أم الرشيد ، أقول :

إذا انصرفتْ نفسى عن الشىء لم تكدْ ... إليه بوجهٍ آخِر الدهر تُقبِل

فقالت : يا أمير المؤمنين ، وهو يقول أيضاً[1] :

ستقطعُ فى الدنيا ـ إذا ما قطعتَنى ـ ... يمينَك ، فانظر أىَّ كف تبدِّلُ !

فقال هارون : رضيت ! فقالت : هَبْهُ لى ياأمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تركَ شيئا لم يُوجدْه الله لفقده » ، فأكبَّ مليًّا ، ثم رفع رأسه وقال : ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ . فقالت: يا أمير المؤمنين، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، واذكر يا أمير المؤمنين أليَّتك[2] : مَا استشفعتُ إلّا شفَّعتنى ! فقال : واذكرى يا أمَّ الرشيد أليَّتَكِ ألّا شفعتِ لمقترف ذنباً . فلمّا رأته قدصرَّح بمنعها ، ولاذَعن مطلبها ، أخرجت حُقًّا من زُمُرُّدَةٍ خضراء فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد: ماهذا؟ ففتحتْهُ ، وأخرجت منه ذَوائبه وثناياه ، وقد غَمَسَتْ جميع ذلك فى المسك .

فقالت : يا أميرَ المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيِّب جوارحك أن تشفِّعنى فى عبدك يحيى .

فأخذ هارون ذلك ، ولثمه ، ثم بكى طويلا ، فأبكى أهلَ المجلس ، وذهب البشيرُ إلى يحيى وهو لا يظنُّ إلا أن البكاء رحمةٌ له ورجوعٌ عنه . فلما أفاق رمى جميعَ ذلك فى الحُقِّ ، وقال لها : لَحسَنٌ ما حفظتِ الوديعة . قالت : وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين .

---

(١) هذا البيت والذى قبله لمعن بن أوس . (٢) الألية : الحلفة .

فسكت وأقفل الحُقّ ، ودفعه إليها ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ . فقالت : والله يقول : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ . ثم قال : وما ذاك ياأمَّ الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت ألا تحجبنى ولا تمتهنى .

فقال : أحب ياأمّ الرشيد أن تبيعينى ذلك محكمة فيه . فقالت : أنصفتَ ياأمير المؤمنين ، وقد فعلتُ غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . فقال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطكَ . فقال : ياأم الرشيد ؛ أما لى من الحقّ عليك مثلُ الذى له ! قالت : بلى ! أنت أعزّ علىّ وهو أحبُّ إلى. قال: فتحكّمى فى تَمْنِيَةٍ بغيره . فقالت : قد وهَبْتُكه وجعلتك فى حِلٍّ منه ؛ وقامت عنه غضبَى ، وبقى مبهوتاً ، ما يُحير لفظة .

٦٥ — كريم يجمع بين زوجين *

قال إبراهيم بن ميمون : حججتُ فى أيام الرشيد[١] ، فبينا أنا بمكة أجول فى سككها إذا أنا بسوداء قائمة ساهية ، فأنكرتُ حالها ، ووقفت أنظر إليها ، فمكثتْ كذلك ساعةً ثم قالت :

أعمرُو وعلامَ تجنَّبتَنِي ... أخذتَ فؤادى فعذَّبتنى !
فلو كنتَ يا عمرو خيَّرْتنى ... أخذْتُ حذارِى فما نِلْتَنى

فدنوت منها ، فقلت : ياهذه ؛ مَنْ عمرو ؟ فارتاعت من قولى ، وقالت : زوجى . فقلت : وما شأْنُه؟ قالت: أخبرنى أنه يهوانى وما زال يدس إلىَّ ، ويعلق بى فى كُلِّ طريق ، ويشكو شدةَ وَجْدِه حتى تزوّجنى ، فلبث معى قليلًا ، وكان له عندى من الحبّ مثل الذى كان لى عنده ، ثم مضى إلى جُدّة ، وتركنى. قلت : صفِيه لى ، فقالت : أحْسَنُ من تراه ، وهو أسمرُ حلو ظريف .

قلت : فخبّرينى ، أتحبين أن أجمع بينكما ؟ قالت : فكيف لى بذلك ! وظنتنى أهْزِل بها .

فركبتُ راحلتى ، وصرت إلى جُدة فوقفت فى المرفأ أتبصَّرُ منْ يعمل فى السفن ، وأُصوِّت[٢] ياعمرو ! ياعمرو ! فإذا به خارجٌ من سفينة وعلى عنقه صَنٌّ[٣] ، فعرفته بالصِّفَة .

---

* مصارع العشاق: ١٥٩

(١) انظر صفحة ١٦٢ . (٢) أصوت : أنادى . (٣) الصن : شبه السلة المطبقة ؛ يجعل فيها الطعام الخبز .

فقلت : « أعمرو ، علام تجنّبْـتنى ! » فقال : هيه ! هيه ! رأيتَها، وسمعتَه منها! ثم أطرق هنيهة ، واندفع يغنّيه ، فقلتُ : ألا ترجع ! فقال : بأبى أنت ! ومَنْ لى بذلك؟ ذلك والله أحبُّ الأشياء إلىّ ، ولـكن منعَ منه طلبُ المعاش . قلت : كم يكفيك كلّ سنة ؟ قال : ثلاثمائة درهم ، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم ، وقلت : هذه لعشر سنين ، وردَدْتُه إليها ، وقلت له : إذا فَنِيَتْ أو قاربتِ الفنـاء قدمت علىّ وأعطيتك ، وإلّا وجهت إليك . وكان ذلك أحبَّ إلىّ من حَجِّى .

٦٦ — أعرابيةٌ على قبرِ زَوجها !*

قال الأصمعي(١) : دخلتُ بعضَ مقابر الأعراب ، ومعى صاحبٌ لى ، فإذا جارية على قبر كأنّها تمثال ، وعليها من الحَلْيِ والحلل ما لم أر مثله ، وهى تبكى بعين غزيرة ، وصوتٍ شَجِيّ ! فالتفتُّ إلى صاحبى ؛ فقلت : هل رأيتَ أعجبَ من هذه ؟ قال : لا والله ، ولا أحسبنى أراه !

ثم قلتُ : يا هذه ؛ إنى أراك حزينة وما عليكِ زِىّ الحزن ! فأنشأت تقول :

فإن تسألانى: فِيمَ حزنى؟فإنّنى ... رهينةُ هذا القبر يافتيانِ
وإنى لأستحييه والتربُ بيننا ... كما كنتُ أستحييه حين يرانى

ثم اندفعت فى البكاء ، وجعلت تقول :

ياصاحب القبر ، يامَنْ كان ينعم بى ... بالًا ، ويكثِرُ فى الدنيا مُواساتى
قد زرتُ قبركَ فى حَلْيِى وفى حُلَلى ... كأنّنى لستُ من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنتُ أعرفُه ... أنْ قد تسرُّ به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عَبْرى مولّهة ... عجيبة الزّى تبكى بين أمواتِ !

---

* العقد الفريد : ١ — ٢٦
(١) انظر صفحة ٥٤

٦٧ — على قبور الذاهبين*

قال الأصمعي :

دَفعتُ يوماً فى تلمُّسى بالبادية إلى وادٍ خَلاء ، لا أنيسَ به إلا بيت مُعْتَنِز[١] بفنائه أعنز ، وقد ظمِئتُ ، فيمَّمْتُه فسلَّمت ، فإذا عجوزٌ قد برزت كأنهـــا نعامة رَاخِم[٢] ، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لَبَن ! فقلت : ما كانُ بغيتى إلا الماء ، فإذ يسَّرَ الله اللبن فإنى إليه فقير .

فقامت إلى قَعْب فأفرغت فيه ماء ، ونظَّفت غَسْله ، ثم جاءتْ إلى الأعنز فتغبَّرتهن[٣] حتى احتلبتْ قُراب[٤] مِلْء القَعْب ، ثم أفرغتْ عليه ماء حتى رَغَا ، وطفتْ ثُمَالته[٥] ، كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناوَلَتنى إياه فشربت حتى تحبَّبت[٦] رِيًّا ، واطمأننْتُ .

فقلت : إنى أراكِ مُعتنِزةً فى هذا الوادى الموحش ، والحِلَّة[٧] منك قريب ، فلو انضممت إلى جَنَـــابهم[٨] فأنستِ بهم . فقالت : ياابن أخى ! إنى لآنَسُ بالوَحْشة، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئنُّ قلبى إلى هـذا الوادى الموحش ، فأتذكر مَنْ عهدتُ، فكأنى أخاطبُ أعيانهم ، وأتراءى أشباحَهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم ، وملاعبُ وِلْدانهم ، ومندى أموالهم .

---

* الأمالى : ٢ — ٧

(١) معتنز : منفرد . (٢) الراخم : التى تحضن بيضها . (٣) تغبرتهن: احتلبت الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع . (٤) قراب : قريب. (٥) الثمالة : الرغوة . (٦) تحببت : امتلأت . (٧) الحلة ؛ وجمعها حلال : بيوت الناس . (٨) الجناب : فناء الدار .

والله يا ابنَ أخى ، لقد رأيتُ هذا الوادى بَشِعاً[١] اللديدين[٢] بأهل أدواح[٣] وقِبَاب ، ونَعَمٍ كالهضاب[٤] ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصَّبَاح ، فأحال عليهم الجَلَاء قَمًّا[٥] بغرفة ، فأصبحتِ الآثارُ دارسة ، والمحالُّ طامسة ، وكذلك الدهر فيمن وثِق به .

ثم قالت : ارْمِ بعينك فى هــذا الملا[٦] المُتَباطن[٧] . فنظرت فإذا قبــور نحوِ أربعين أو خمسين . فقــالت : أتَرَى تلك الأجداث ؟ قلت : نعم . قالت : ما انطوتْ إلا على أخ أو ابن أخ أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألمأت[٨] عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غَالَهمْ ! انْصَرِفْ راشداً رحمك الله .

---

(١) بشع : ملآن . (٢) اللديدان : الجانبان . (٣) الأدواح : الأشجار العظيمة .
(٤) الهضاب : الجبال الصغار . (٥) قما : كنسا . (٦) الملا : ما اتسع من الأرض .
(٧) المتباطن : المتطامن . (٨) ألمأت . احتوت .

٦٨ — الحقّ أنطقها وأخرسه*

قال الشَّيبانىّ : جلس المأمون[١] يوماً للمظالم ، فكان آخرُ مَنْ تقدم إليه وقد همَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئةُ السَّفر ، عليها ثياب رَثّة .

فوقفت بين يديه وقالت : السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فنظر المأمونُ إلى يحيى بن أكثم . فقال لها يحيى : وعليكِ السلام يا أَمَةَ الله ، تكلّمى فى حاجتك ؛ فقالت :

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى له الرَّشَدُ ... ويا إمامًا به قد أشرَقَ البَـلَدُ
تشكو إليك عميدَ القَوْمِ أرْملةٌ ... عَدَا عليها فلم يُتْرَكْ لها سَبَدُ[٢]
وابتَزَّ منى ضِيَاعى بعدَ منْعَتِها ... ظُلْمًا وفُرِّقَ منى الأهلُ والولدُ

فأطرق المأمونُ حيناً ، ثم رفع رأسه إليها ، وهو يقول :

فى دُونِ ما قُلْتِ زال الصبر والجلَدُ ... عنى ؛ وقُرِّح منِّى القلبُ والكبدُ
هذا أوانُ صلاةِ العصرِ فانصرفى ... وأَحضِرى الخصمَ فى اليوم الذى أَعِدُ
والمجلس السبتُ إن يُقضَ الجلوسُ لنا ... نُنْصِفْكِ منه ؛ وإلّا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أوَّلَ من تقدم إليه تلك المرأة ،

---

* العقد : ١ ـ ١٥ ، المحاسن والمساوى : ٣٥٠ (طبع ليبزج).

(١) هو عبد الله بن المأمون بن هارون الرشيد ، من أعاظم خلفاء بنى العباس وعلمائهم وحكمائهم كان وافر الخلق ، عظيم الحلم ، محباً للعلم ، مؤثراً الحكمة . توفى سنة ٢١٨ هـ .

(٢) السبد هنا : القليل ، وهو فى الأصل القليل من الشعر .

فقالت : السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال : وعليكِ السلام ، أين الخصمُ ؟ فقالت : الواقفُ على رأسك يا أميرَ المؤمنين ـ وأومأتْ إلى العباس ابنـــه .

فقال : يا أحمد بن أبى خالد ، خُذْ بيده فأجْلسه معها مجلس الخصـــوم فجعل كلامُها يعلو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمَةَ الله ؛ إنكِ بين يدَىْ أمير المؤمنين ، وإنك تكلّمين الأمير ، فاخفضى من صوتك ، فقال المأمون : دَعْها يا أحمد ، فإنّ الحقّ أنْطَقَها وأخرسه . ثم قضى لها بردّ ضَيْعَتِها إليها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغِر لها[1] ضيعتها ويُحْسِن معاونتها ، وأمرَ لها بنفقة .

---

(١) أوغر الملك الرجل الأرض : جعلها له من غير خراج .

٦٩ — أجارها ثم تزوجها*

قال إبراهيم بن المدبر[١] :

جاءني يوماً محمد بن صالح[٢] بعد أن أُطْلِقَ من الحبس ، فقال لي : إني أريد المقام عنـــدك اليوم على خَلْوَة لأبثَّك من أمري شيئاً لا يصلحُ أن يسمعه غيرُنا. فقلت : أفعل ؛ فصرفتُ مَن كان بحَضْرَتي وخَلَوْت معه .

فلما اطمأن وأكلنا واضطجعنا قال لي : إني خرجت في سنة كذا وكذا ، ومعي أصحابي على القافلة، فقاتَلْنا من كان فيها فهزمناهم وملــكنا القافلة ؛ فبينما أنا أَحُوزُها وأُنيخُ الجمالَ إذ طلعت عليّ امرأة، ما رأيتُ قطُّ أحسنَ منها وجهاً ولا أحلى منطقا . فقالت : يافتى ؛ إنْ رأيتَ أن تدعوَ لي بالشريف المتولّى أمرَ هــذا الجيش ؟ فقلت : قد رأيتِه وسمِع كلامكِ ! فقالت : سألتــك بحق اللهِ وحقِّ رسوله ؛ أنتَ هو؟ فقلت : نعم وحقِّ الله وحقِّ رسوله إني لهو. فقالت: أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى ؛ ولأبي محلٌّ من سلطانه، ولنا نعمة إنْ كنتَ ممن سمعَ بها فقد كفاك ما سمعتَ ، وإن كنتَ لم تسمع بها فسلْ عنها غيري! ووالله لااستأثرت عنك بشيء أملــكه، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقهُ عليّ. وما أسألك إلا أن تصونَني وتَسْتُرَني، وهذه ألفُ دينار معي لنفقتي، فَخُذْها حالا، وهذا حَلْيٌ عليّ ثمنه خمسمائة

---

* الأغاني : ١٥٠ ـ ٨٧ (طبعة الساسي) .

(١) إبراهيم بن المدبر ، شاعر كاتب ، من وجوه كتاب أهل العراق ومتقدميهم وذوي الجاه فيهم ، وكان المتوكل يقدمه ويؤثره ويفضله ، توفي سنة ٢٧٠ هـ . (٢) محمد بن صالح : ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب ، كان شاعرا حجازياً ظريفاً من شعراء أهل بيته المقدمين : توفي سنة ٢٣٨ هـ.

دينار نخذه ؛ وما شئت بعده آخذه لك من تجارِ المدينة أو مكةَ أو أهل المَوْسم ، فليس منهم أحدٌ يمنعنى شيئاً أطلبه ، وادفعْ عنى واحْمِنى من أصحابك ومن عارٍ يلحقنى. فوقع قولها من قلبى موقعاً عظيماً . فقلت لها : قد وهب الله لك مالك وحُلْيَكِ وجاهك ، ووهب لك القافلة بجميع ما فيها .

ثم خرجتُ ، فناديتُ فى أصحابى فاجتمعوا ، فناديت فيهم : إنى قد أجَرْتُ هذه القافلة وأهلها وخَفَرْتُها وحَمَيْتُها ، ولها ذِمَّةُ الله وذمة رسوله وذمتى ؛ فمن أخذ منها خيطاً أو عقالاً فقد آذنته بحَرْبٍ . فانصرفوا معى وانصرفت .

فلما أُخِذْتُ(١) وحبِستُ جاءنى يوماً السجان ، وقال لى : إنّ بالباب امرأتين تزعمان أنهما من أهلك ، وقد حُظِرَ علىّ أن يدخلَ عليكَ أحدٌ ؛ إلّا أنهما أعطتانى دُمْلَج ذهب ، وجعلتاه لى إن أوصلتُهما إليك ، وقد أذِنتُ لهما وهما فى الدّهليز . فاخرجْ إليهما إن شئت .

ففكرت فيمن يجيئنى فى هذا البلد وأنا به غريب لا أعرف أحدا . ثم قلت : لعلهما من وَلَد أبى أو بعض نساء أهلى . فخرجتُ إليهما فإذا بصاحبتى ، فلما رأتنى بكَتْ لما رأتْ من تغيير خلقى وثقل حديدى ، فأقبلت عليها الأخرى فقالت : أهو هو ! فقالت : إى والله إنه لَهُوَ هُوَ ! ثم أقبلت علىّ فقالت : فداك أبى وأمى ! والله لو استطعت أن أقِيك مما أنت فيه بنفسى وأهلى لفعلت وكنت بذلك منى حقيقاً ، ووالله لا تركت المعاونة لك والسعى فى حاجتك وخلاصك بكل حيلة ومالٍ وشفاعة. وهذه دنانير وثياب وطيب فاستعِنْ بها على موضعك ، ورسولى يأتيك فى كل يوم بما يصلحك حتى يُفرِج الله عنك. ثم أخرجت إلىّ كسوة وطيباً ومائتى دينار .

---

(١) حبس المتوكل محمد بن صالح حين خرج عليه ثلاث سنين ثم عفا عنه لشعر مدحه به .

وكان رسولُها يأتينى كلَّ يوم بطعام نظيف ، ويتواصل برُّها بالسجَّان ، فلا يمتنع من شىء أريدُه . ثمَّ مَنَّ الله بخلاصى فخطبتُها ؛ فقالت : أمَّا من جهتى فأنا مُتَابِعةٌ مطيعةٌ والأمر إلى أبى . فأتيتُه فخطبتها إليه ، فردَّنى ؛ فقمتُ من عنـده منكسراً مستحيياً .

قال إبراهيم بن المدبر : فقلت له : إن عيسى صنيعة اخى وهو لى مطيع وأنا أكفيك أمره . فلما كان من الغد لقيت عيسى فى منزله وقلت له : قد جئتُك فى حاجةٍ لى ، فقال : مقضيَّة ؛ ولو كنتَ استعملتَ ما أُحِبُّه لأمرتنى فجئتك ، وكان أسَرَّ إلىّ . فقلت له : قد جئتُك خاطباً إليك ابنَتك ، فقال : هى لك أَمَةٌ وأنا لك عبدٌ وقد أجبتك . فقلت : إنى خطبتها على من هو خير منى أباً وأمَّا ، وأشرف لك صهراً : محمد بن صالح العلوى . فقال : ياسيِّدى ؛ هلا كان غير هذا ! فلم أزل أرفق به حتى أجاب . وبعثت إلى محمد بن صالح فأحضرته ، وما برحت حتى زوَّجته ، وسقتُ الصداقَ عنه[1] .

---

(١) وفى ابن المدبر يقول محمد بن صالح حينما أولاه وأعانه على زواجه :

فهلا فى الذى أولاكَ عرفاً ... تـدى من مقالك ما تثير
ثناء غير مختلق ومدحاً ... مع الركبـان ينجد أو يغور
أخ واساكَ فى كلب الليـالى ... وقد خذل الأقارب والنصير
حفاظاً حين أسلمك الموالى ... وضن بنفسه الرجل الصبور
فإن تشـكر فقد أولى جميلا ... وإن تكفر فإنك للـكفور

٧٠ — كيف ربّت ابنها !*

قال الفضل بن يزيد : نزل علينا بنو ثَعلبة فى بعض السنين وكنت مشغوفاً بأخبار العرب ؛ أحبُّ أن أسمعها وأجمعها . فبينما أنا أدُور فى بعض أحيائهم ، إذا بامرأة واقفة فى فناء خبَائها ، وهى آخذةٌ بيد غلام ، قلّما رأيتُ مثلَه فى حُسنه وجماله، وهى تعاتبُه بلسان رطب ، وكلام عذب ، تَحِنُّ إليه الأسماع ، وترتاح إليه القلوب . وأكثر ما أسمع منها : أىْ بنىّ ، وهو يبتسم فى وجهها ، قد غلب عليه الحياء والخجل لا يردّ جوابا ؛ فاستحسنتُ ما رأيت ، واستحليت ما سمعت ، ثم دنوت منه وسلمت عليه ، فردّ علىّ السلام فوقفت أنظر إليهما .

فقالت : ياحضرىّ ، ما حاجتك ؟ فقلت : الاستكثار مما أسمع ، والسرور بما أرى من هذا الغلام . فقالت : ياحضرىّ ، إن شئت سقتُ إليك من خبره ماهو أحسن ممّا شاهدتَ من أدَبه ، فقلت : قد شئتُ ـ يرحَمُك الله ! فقالت : حمَلْتُه والرزق عَسِر ، والعيش نَكِد ، حملا خفيفاً ، حتى إذا مضت له تسعة أشهر وَلدْتُهُ ؛ فوَرَبِّك ماهو إلّا أن صار ثالثَ أبويه حتى أفضَل الله عز وجلّ وأعطى ، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ؛ ثم أرضعتُه حَوْلَين كاملَيْن ، فلما استتمّ الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه ، فنشأ كأنه شِبل أسد ، أقيه برد الشتاء وحرّ الهجير ، حتى إذا مضت له خمسُ سنين أسلمتُه إلى المؤدب ، فحفّظَهُ القرآن فتلاه ، وعلّمه الشعر فرَوَاه ، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده ، فلما أن بلغ الحلُمَ ، واشتدّ عَظمه

* المستطرف : ١ — ٢٢٧ .

وكمل خلقه ، حملتُه على عِتَاق الخيل فتفرّس وتمرّس[1] ، ولبس السلاح ، ومشى بين بُوَيْتَاتِ الحيّ الخُيَلاء ، فأخذ فى قِرَى الضيف ، وإطعام الطعام ، وأنا عليه وَجِلة ، أُشفق عليه من العيون أن تصيبه .

ثم اتفق أن نزلنا بمَنْهَل من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيانُ الحيّ فى طلب ثَأْرٍ لهم ، وشاء الله أن أصابته وَعْـكة[2] شغلته عن الخروج ، وأمعن القوم ، ولم يبق فى الحيّ غـيره ، ونحنُ آمنون وادعون ، ثم أدبر الليـل ، وأسفر الصباح ، فطلعت علينا غُرر الجياد ، وطلائع العدوّ ، وما هو إلا هُنَيْهَة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألنى عن الصوت ، وأنا أستر عنه الخبر إشفاقًا عليه وضنًّا به .

ولما عَلَتِ الأصوات ، وبرزت المخدّرات[3] ، رَمى دِثاره[4] ، وثار كما يثور الأسد ، وأمر بإسراج فرسه ، ولبس لأْمَةَ حربه ، وأخذ رُمحه بيده ، ولحق حُماة القوم ، فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم منه فقتله ؛ فانصرفت وجوه الفرسان ، ثم رأوه صبيًّا صغيراً لا مدَدَ وراءه ، فحملوا عليه ، فأقبل يؤم البيوت ، ونحنُ ندعو الله عز وجلّ له بالسلامة ، حتى إذا مدّهم وراءه ، وامتدوا فى أثره عطف عليهم ، ففرّق شملهم ، وشتّت جمعهم ، وقلّل كثرتهم ، ومَزّقهم كلّ مُمَزّق ، ومَرَق كما يمرُقُ السهم ، وناداهم : خلّوا عن المال ! فوالله لا رجعت إلا به أو أهلِكَ دونه !

فانصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفُرْسان ، وحملوا عليه ، وقد رفعوا إليه الأسنّة ، وعطفوا عليه بالأعنّة ، فوثب عليهم وهو يهْدِرُ كما يهدرِ الفحل من وراء

---

(١) تفرس : تثبت ونظر ، وأرى الناس أنه فارس . وتمرس : عالج الأمور ، واحتك بها .
(٢) الوعكة : الألم من شدة التعب. (٣) المخدرات : المحجوبات من النساء (٤) الدثار : مافوق الشعار من الثياب .

الإبل ، وجعل لا يعطف على ناحية إلا حطَّمها ، ولا كتيبة إلا مزّقها ، حتى لم يبق من القوم إلا مَنْ نجا به فرسه .

ثم ساق المـال وأقبل به ، فـكبّر القوم عند رؤيته ، وفرح الناس بسلامته . فوالله ما رأينا قطّ يوماً كان أسمَحَ صباحاً ، وأحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات :

تأمّلن فعلى هـل رأيْتُنَّ مثـلَه ... إذا حَشرَجَتْ نفسُ الجبان من الكرب!
وضاقت عليـه الأرضُ حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلًّا حقَّـه ونصيبَـه ... من السَّمْهَرِىّ اللّدن والمُرهف العَضْب[1]
أنا ابنُ أبى هنـد بن قيس بن مالكٍ ... سليل المعالى والمكارم والسَّيب[2]
أبَى لِىَ أن أعطى الظُّلامة مُرْهَفٌ ... وطِرْف[3] قوىّ الظّهر والجوف والجنْب
وعزمٌ صحيح لو ضربت بحـدّه الـ ... جبالَ الرواسى لا نحططْن إلى التّرب
وعِرضٌ نقىّ أتّقى أنْ أعيبَـهُ ... وبيتٌ شريف فى ذُرَا تَغْلب الغُلْبِ[4]
فإن لم أقاتـل دونكُنّ وأحتمى ... لكنّ ، وأحميكُنّ بالطعن والضرب
فلا صـدق اللاتى مشـينَ إلى أبى ... يهنّئنَه بالفارسِ البَطَلِ النَّدْب[5]

---

(١) السمهرى : الرمح ، وهو منسوب إلى سمهر ؛ رجل كان يثقف الرماح. والمرهف : السيف الرقيق الحد . والعضب: القاطع. (٢) السيب : العطاء . (٣) الطرف : الكريم من الخيل .
(٤) تغلب : أصله تغلبة، وهى قبيلة الغلام، والغلب: جمع أغلب وهو الأسد ؛ يريد أنهم شجعان.
(٥) الندب : الخفيف فى الحاجة .

٧١ — خائف وجد مأمناً*

قال وهب بن ناجيــة الرُّصافىّ : كنت أحـد مَنْ وقعت عليه التّهمةُ فى مال مصر أيامَ الواثِق ، فطلبنى السلطـان طلباً شديداً ، حتى ضاقتْ علىّ الرُّصافة(١) وغـيرُها ، فخرجت إلى البادية مرتاداً رجلًا عزيزَ الدار ، منيعَ الجار ، أعوذُ به، وأنزِلُ عليه .

فبينما أنا أسيرُ إذ رأيت خياماً ، فعدلتُ إليها ، فلتُ إلى بيت منها مضروب ، وبِفنائه رُمْحٌ مركوز ، وفرس مرْبوط ؛ فدنوتُ فسلّمت ، فردّ علىّ نساء من وراء السّجف(٢) ، وقالت لى إحداهنّ : اطمئنّ ياحضَرىّ ، فنعم مناخُ الضيفان بَوّأك القدَر ، ومهّدك السفر . قلت : وأنّى يطمئنُّ المطلوب ، أو يأمنُ المرغوب ، من دون أن يأوى إلى جَبَلٍ يعصِمهُ ، أو مأمنٍ أو مفزع يَمْنَعه ! وقليلًا ما يهجع مَن السلطان طالبهُ ، والخوفُ غالبه ! قالت : لقد تَرجم لسانك عن ذَنْبٍ عظيم ، وقلبٍ صغير ، وايمُ الله لقد حللتَ بفناء رجل لا يُضَام بفنائه أحـدٌ ، ولا يجوع بساحتـه كَبِد ، هذا الأسودُ بن قنان ، أخواله كعب ، وأعمامه شيبان ، صُعلوكُ(٣) الحىّ فى ماله ، وسيّدُهم فى حاله ، وسندُهم فى فَعاله(٤) ، صدوق الجوار ، وقود النار ؛ وبهذا وصفته أُمامة بنت خزرج حيث تقول :

---

* محاضرات الأبرار : ٢ ـ ١١٦ .

(١) الرصافة : محلة ببغداد (٢) السجف: الستر. (٣) أصل الصعلوك الفقير ، والمراد أنه ينفق حتى يصير فقيراً . (٤) الفعال (بالفتح) : الفعل الحسن من فاعل واحد ، وإذا كان من فاعلين فهو الفعال (بالـكسر) .

إذا شئتَ أن تلقى فتًى لو وَزَنْتَه   بكلّ معدّيٍّ وكل يمـانى
وفَى بهما فضلًا وجوداً وسُودَدا   ورأيا ، فـذاك الأسود بن قنان
فتًى لا يُرى فى ساحةِ الأرض مثله   ليوم ضِرَابٍ أو ليوم طِعـان

قال : فقلت : ياجارية ، وأنَّى لى به ! فقالت : ياخادم ، مولاكَ ! فلم تلبثْ أن جاءت وهو معها فى جماعةٍ من قومه ، وقال : أيّ المُنعمين علينا أنت ؟ فسبقَتْنى المرأة ، وقالت : هذا رجل نَبَت به أوطانُه ، وأزعَجه زمانُه ، وأوحشَه سلطانُه ؛ وقد ضَمِنَّا له مايُضْمَن لمثله على مثلك . قال : بلْ اللهُ فاك ، أشهدكم يا بَنِى عمّى أنّ هذا الرجلَ فى جوارى وفى ذِمَّتى ، فمن آذاه فقد آذانى ، ومن كاده فقد كادنى.

وأمر ببيتٍ فضُرب إلى جانبه ، وقال : هذا بيتك وأنا جارك،وهؤلاء رجالك. فلم أزلْ بينهم فى خَفْض وسَعَة إلى أن سِرتُ عنهم .

٧٢ — تحنُّ إلى وطنها*

هَوى بعضُ خُلَفَاء بنى العباس أعرابيةً فتزوَّج بها ، فلم يوافقْها هَوى المدن ، فلم تزل تعتلّ وتتأوّه ، مَعَ ما هى عليه من النّعيم والرّاحة ، والأمرِ والنّهى ؛ فسألها عن شأنها ، فأخبرتهُ بما تجد من الشوقِ إلى البرارى وأحاليب[1] الرّعاء ، وورُودِ المياه التى تعودتْ ؛ فبنى لها قصراً على رأس البرية بشاطىء دجْلة[2] ، وأمر بالأغنام والرّعَاء أن تَسْرَح بين يديها وتتراءى لها ؛ فلم يزدها ذلك إلا اشتياقا إلى وطنها .

ثم مرّ بها يوماً فى قصرها من حيث لا تشعر بمكانه ، فسمعها تنتحبُ وتبكى ، حتى ارتفعَ صوتُها ، وعلا نحيبُها ، ثم قالت :

وما ذنبُ أعرابيــــةٍ قذَفَتْ بهــا　　صروفُ النَّوَى من حيثُ لم تكُ ظَنَّتِ

تمنّتْ أحاليبَ الرُّعاةِ وخيمــةً　　بنجـد فلم يُقْضَ لهـــا ما تمنّـتِ

إذا ذكَرَتْ ماء العُذَيبِ[3] وطيبَــه　　وبردَ حَصــاهُ آخر الليــل أنّتِ

لهـــا أنّةٌ عنـــد العشاء وأنّةٌ　　سحـــيراً ، ولولا أنّتَاهـا لَجُنّتِ

فخرج عليها الخليفة ، وقال : قد قُضى ما تمنيت ، فالحقى بأهلك من غير فراق ؛ فما مرّ عليها وقتٌ أسرّ من ذلك ، وسرى ماء الحياة فى وجهها من حينها ، والتحقت بأهلها بجميع ما كان عندها فى قصرها ، وظلّ الخليفة يزورُها فى أهلها بين الحين والحين .

---

* محاضرات الأبرار : ٢ — ٢٤٨

(١) الإحلابة : أن يحلب لأهله وهو فى المرعى لبناً ، ثم يبعث به إليهم ، وجمعه أحاليب ، والرعاء : جمع راع . (٢) دجلة : نهر بالعراق . (٣) العذيب : موضع .

٧٣ – سئمتُ حياتى حين فارقت قَبْرَهُ!*

قال محدّث : سألت أبا الندى(١) – وكان من أعلم مَنْ شاهدتُ بأخبار العرب: هل تعرف من شعر الدّلفاء بنت الأبيَض فى ابن عمها نجْدَة بن الأسْوَد ؟ قال : نعم، كنتُ فيمن حضرَ جنازة نَجْدَةَ ، حتى وضعناه فى قبره ، وأهَلْنا عليه التراب ، وصَدَرْنا(٢) عنه غير بعيد ، فأقبلتْ نسوةٌ يتهادَيْنَ(٣) ، فيهنَّ امرأة قد فاقتْهُنَّ طولا ، كالغصن الرطبْ ، وإذا هى الدّلفاء ؛ فأقبلت حتى أكبّتْ على القبر ، وبكتْ بكاءً مُحْرِقًا ، وأظهرَتْ من وجْدِها ما خِفْنَ معه على نفسها ، فقلن لها : يا ذلفاء ؛ إنه قد مات الساداتُ من قومك قبل نجدةَ ، فهل رأيتِ نساءهم قتلْنَ أنفسهنَّ عليهم؟ فلم يزلْنَ بها حتى قامت ، فانصرفَتْ عن القبر ، فلمّا صارت منه غير بعيد عطفتْ بوجهها عليه ، وقالت :

سئمتُ حياتى حين فارقْتُ قبرَه ... ورُحْتُ وماء العين ينهلُّ هامِلُه(٤)

وقالت نساء الحىّ : قد مات قبلَهُ ... شريفٌ فلم تَهْلِكْ عليه حلائلُه(٥)

صدقْنَ ، لقد مات الرجالُ ولم يَمت ... كنَجْدَةَ مِنْ إخوانه من يُعادِلُه

فتًى لم يَضِقْ عن جِسْمِهِ لحدُ قَبْرِهِ ... وقد وسِعَ الأرضَ الفضاء فضائلُه

قال : فقلت : أحسنْتَ والله يا أبا الندى وأحسنْتَ ! فهل تعرف من شعرها شيئًا آخر ؟ قال : نعم ! كنتُ ممَّنْ حضرَ قبرَ نجدةَ عند زيارتها إياه لتمام الحول ،

---

* معجم الأدباء : ١٧ – ١٦٠

(١) محمد بن أحمد أبو الندى الغندجانى اللغوى: رجل واسع العلم، راجح المعرفة باللغة وأخبار العرب وأشعارها . (٢) رجعنا عنه . (٣) يتمايلن فى مشيتهن . (٤) ينهل : ينصب ؛ وهامله : دمعه الفائض . (٥) أى زوجاته .

فرأيتها قد أقبلت حتى أكبَّتْ على القبر ، وبكَتْ بكاء شديداً ، ثم أنشأت تقول :

ياقبرَ نجْدَةَ لم أهجُرْكَ مقْليـــةً ... ولا جفونُكَ من صَبْرِى ولا جَلَدِى

لـكِنْ بكيتُكَ حتى لم أجد مَدَداً ... من الدموعِ ولا عوناً من الـكَمَد

وآيسَتْنِى جفونى من مَدَامِعها ... فقلت للعين : فِيضى من دم الـكَبِد

فـلم أزَلْ بدَمِى أبـكيكَ جاهدةً ... حتى بقيتُ بـلا عينٍ ولا جَسَد

والله يعـــلمُ لولا الله مارضيتْ ... نَفْسِى عليكَ سوى قَتْلٍ لها بيدِى

قال : فقلت : أحسنتَ والله ياأبا الندى وأحسنَتْ ! فهـل تعرف من شعرها شيئاً آخر ؟ قال : نعم . حضرنا فى زمن الربيع ونحنُ فى رياضٍ خَضِرَةٍ مُعْشِبَةٍ ، فركبَ الفتيانُ ، وعقدوا العَذَبَ الصُّفْرَ ، فى القنا الحُمرِ[1] ، وجعلوا يتجاولون. فلما أردنا الانصراف قال بعضنا لبعض : ألا تجعلون طريقكم على الذلفاء ! لعلهـا إذا نظرت إليكم تسلتْ بمن بقى عمن هلك ؟

قال : فخرجنا نؤُمُّها فأصبناها بارزةً من خبائها ، وهى كالشمس الطالعة ، إلا أنه يعلُوها كسوفُ الحزن ، فسلّمنا عليها ، وقلنا : ياذلفاء ! إلى متى يـكون هذا الوَجْد على نجْدَةَ ! أما آن لكِ أن تتسلّىْ بمن بقِيَ من بنى عمِّـك عمّنْ هَلَكَ ؟ هانحن أولاء سادات قومك وفتيانهم ونجومهم ، وفينا السادة والذَّادة[2] ؛ والبأس والنَّجدةُ ؛ فأطرقتْ مليا ، ثم رفعت رأسها باكية وهى تقول :

صدقتمْ إنـكمْ لنجـــومُ قـومى ... لُيوثٌ عنـد مُختَلفِ العَـوَالى[3]

ولـكنْ كانَ نجـدةُ بدرَ قومى ... وكَهْفَهُم المنيفَ على الجبـــال !

فما حسنُ السماء بلا نجـــــوم ... وما حسن النجوم بـلا هـــلال !

ثم دخلت خباءها ، وأرسلت سِتْرَها ، فـكان آخرَ العهد بها !

---

(١) أى الرايات ، والقنا الحمر : الرماح. (٢) الذادة : المدافعون، جمع ذائد . (٣) العوالى : جمع عالية ، وهى أعلى القناة أو النصف الذى يلى السنان .

٧٤ — المتكلّمة بالقرآن*

قال عبدُ الله بن المبارك : خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام ، وزيارة نبيّه عليه السلام ، فبينما أنا فى الطريق إذْ أنا بسَواد ، فتميّزْت ذاك ، فإذا عجوزٌ عليها دِرْع[1] من صوف وخِمار ، فقلت : السلامُ عليك ورحمة الله وبركاته . فقالت : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ . فقلت لها : رَحِمَكِ الله ! ما تصنَعين فى هذا المكان ؟ قالت : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ؛ فعلمتُ أنها ضالة عن الطريق .

فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَىٰ ﴾ ، فعلمتُ أنها قضَتْ حجَّها وهى تريدُ بيت المقدس فقلت لها : أنت منذ كم فى هذا الموضع؟ قالت:﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾. فقلت : ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟ قالت : ﴿ هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ . فقلت : فبأىّ شىء تتوضئين ؟ قالت : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ﴾ . فقلت لها : إن معى طعاماً ؛ فهل لكِ فى الأكل ؟ قالت :﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱللَّيْلِ ﴾، فقلت : قد أبيحَ لنا الإفطار فى السفر ، قالت:﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فقلت : لم لا تكلمينىَ مثل ما أكلمك ؟ قالت : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، فقلت : فمن أىِّ ٱلنّاسِ أنْتِ ؟ قالت : ﴿ وَلَا تَقْفُ

---

* ذيل ثمرات الأوراق : ٢ـ٢٤٣

(١) درع : قميص .

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ .

فقلت : قد أخطأتُ فاجعليني في حِلٍّ ، قالت : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾

فقلتُ : فهل لكِ أن أحملَك على ناقتي ؛ فتدركى القافلة ؟ قالت :﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ .

قال : فأنختُ الناقة ، فقالت : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ . فَغَضَضْتُ بصرى عنها ، وقلت لها : ارْكَبى .

فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة ؛ فمزّقتْ ثيابها ؛ فقالت : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ، فقلت لها: اركبى ، قالت: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ .

فأخذت بزمام الناقة ، وجعلت أسعى وأصيح ؛ فقالت : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ، فجعلت أمشى رويداً رويداً ، وأترنم بالشعر ؛ فقالت ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ . فقلت لها : لقد أُوتيتِ خيراً كثيرا ، فقالت : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

فلما مشيت بها قليلًا قُلْتُ لها : ألكِ زَوْجٌ ؟ قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

فسكتّ ولم أكلّمها، حتى أدركتُ بها القافلة، فقلت لها: هذه القافلة ؛ فمَنْ لكِ فيها ؟ فقالت : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ؛ فعلمت أنّ لها أولاداً .

---

(١) أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه .

فقلت : وماشأنهم فى الحج ؟ قالت : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ، فعلمت أنهم أدلّاء الركب .

فقصدت القباب والعمارات ؛ فقلت : هذه القباب ؛ فمن لك فيها ؟ قالت : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ . ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ . ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ . فناديت : ياإبراهيم ، ياموسى ، يايحيى ؛ فإذا بشبّانٍ كأنهم الأقمار قد أقبلوا ؛ فلما استقرّ بهم الجلوس ، قالت : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ [1] هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ .

فمضى أحدهم ، فاشترى طعاماً فقدّموه بين يدَيَّ ، فقالت : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

فقلت : الآن طعامكم علىَّ حرام حتى تخبرونى بأمرها ؛ فقالوا : هذه أمّنا ، لها منذ أربعين سنة لم تتكلمْ إلا بالقرآن ؛ مخافةَ أن تزل فيسخط عليها الرحمن ؛ فقلت : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

---

(١) الورق : الدراهم المضروبة .

الباب الثاني

في القصص التي تمثل ذلاقة ألسنتهم ، وحكمة منطقهم ، وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ ، وبلاغة المعنى ، وجمال الأسلوب ، وحسن التصرف في الإبانة والتعبير .

٧٥ — بنو أسد وامرؤ القيس*

قَدِمَ على امرىء القيس[1] بن حُجْر الكِنْدِيّ بعد مَقْتَلِ أبيه رجالاتٌ من بني أَسَد ، فيهم المُهَاجر بن خِدَاش ، وعَبيد بن الأبرص ، وقَبيصة بن نُعَيْم ؛ وكان رجلًا مقيماً في بني أسد، ذا بصيرة بمواقع الأمور ورِدْاً وإصداراً، يَعْرِف ذلك له مَن كان محيطاً بأكناف بلده من العرب .

فلمّا علم امرؤ القيس بمكانهم أمر بإنزالهم ، وتَقَدَّمَ[2] في إكرامهم والإفضال عليهم ، واحتجَب عنهم ثلاثاً .

فقالوا لمَنْ ببابه من رجال كِنْدَة : ما بالُ الرجل لا يخرجُ إلينا ؟ فقيل لهم : هو في شُغْل بإخْرَاج ما في خزائن حُجْر من العُدَّة والسلاح . فقالوا : اللهم غَفْراً ! إنّما قدمنا في أمرٍ نتناسى به ذِكرَ ما سلف ، ونستدرك به ما فرَط ؛ فليُبَلَّغْ ذلك عنّا .

فخرج إليهم بعد ثلاثٍ في قَبَاء[3] وخُفٍّ وعِمامة سوداء — وكانت العرب لاتعتمّ بالسّواد إلّا في التِّرات[4] — فلما رأوْهُ نهضوا له ، وبَدَر إليه قَبيصة فقال : إنك في المَحَلّ والقدْر والمعرفة بتصرُّف الدهر ، وما تحدِثه أيامه ، وتتنقّلُ به

---

* الأغاني : ٩ — ١٠٣ (طبعة دار الكتب) . صبح الأعشى : ٣ — ١٢٦

(١) هو أشهر شعراء الجاهلية وأرفعهم منزلة ، يتصل نسبه بملوك كندة ، كان قوى الشاعرية رقيق الوصف، دقيق الشعور . توفى سنة ٥٦٠ م . (٢) تقدم فى كذا: أمر به . (٣) القباء : الثوب المجتمع الأطراف . (٤) الترات : جمع ترة ؛ وهى فى الأصل مصدر وتر ؛ أى نقص ، واستعمل فى الثأر .

أحواله بحيث لا تحتاجُ إلى تبصيرِ واعظٍ ، ولا لتذكرة مُجرِّب ، ولك من سؤدُدِ مَنْصبك ، وشرف أعْرَاقك[1] ، وكرم أصلك فى العرب مُحْتَمَلٌ يَحتمِلُ ماحُمِّل عليه من إقالة العَثْرَة ، والرجوع عن الهفْوَةِ ؛ ولا تَتجاوزُ الهِمَمُ إلى غايةٍ إلّا رَجعتْ إليك ، فوجدتْ عندك من فضيلة الرأى ، وبَصِيرةِ الفَهْمِ ، وكَرَمِ الصفح مايُطوِّل رَغَباتِها ، ويستغرق طَلِباتِها .

وقد كان الذى كان من الخطْبِ الجليل، الّذِى عمَّت رزيَّتُهُ نِزَاراً واليمَن ، ولم تخصَّصْ به كِنْدَةُ دوننا ؛ للشرفِ البارع الذى كان لحُجْر . ولو كان يُفدَى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بَخِلَتْ كرائمُنا[2] على مثله ببذْلِ ذلك،ولفديناه منه،ولكنْ مَضَى به سبيلٌ لا ترجع أولاه على أُخْراه ، ولا يَلْحَقُ أقصاهُ أَدْنَاه .

فأَحْمَدُ الحالات فى ذلك أن تعرف الواجبَ عليك فى إحدى خلالٍ ثلاث إمّا إن اخترتَ من بنى أسدٍ أشرفَها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرُمات صوتاً ، فَقُدْناه إليك بِنِسعَة[3] تذهب مع شَفَرات حُسامك بباقى قَصَرَتِه[4] ؛فيقال: رجل امتُحِن بِهُلْك عزيزٍ عليه ؛ فلم تُسْتَلَّ سخيمتُه إلّا بتمكينه من الانتقام ؛ أو فداء بما يرُوح[5] على بنى أسدٍ من نَعَمِها ، فهى أُلوف تجاوزُ الحِسْبَة ، وكان ذلك فداء ترجع به القُضُب[6] إلى أجفانها ، لم يَرْدُدْه تسليط الإحَن على البُرَآء ؛ وإمّا أن توادعنا حتى تضَع الحواملُ فتُسْدَلَ الأُزُرُ ، وتُعْقَدَ الخُمُرُ فوق الرايات .

فبكى امرؤُ القيس ساعة ، ثم رفع طرْفَهَ إليهم فقال : قد علمتِ العربُ أن

---

(١) الأعراق : جمع عرق ، وهو أصل كل شىء . (٢) الكرائم : خيار الأموال وقد يراد بها النفوس أو النساء . (٣) النسعة : السير من الجلد يجعل زماما للبعير فيقاد به . (٤) القصرة : العنق . (٥) يروح : يرجع . (٦) القضب : السيوف .

لا كُفْء لُحجْرٍ فى دم ، وأنى لن أعتاض به ناقةً أو جملًا فأ كْتَسِب بذلك سُبَّـة الأبد ، وفَتَّ العَضُد؛ وأمّا النَّظِرة فقد أوجبَتْها الأجنّةُ فى بطون أمهاتها، وإنى لن أكون لعَطبها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنَقاً، وفوق الأسنة عَلَقاً[١] :

إذا جالتِ الخيلُ فى مأزِقٍ[٢] تُصافِحُ فيه المنـايا النّفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوأ الاختيار ؛ لحربٍ وبليّة، ومكروه وأذيّة ! ثم نهضوا عنه وقبيصة يقول متمثّلًا :

لعلك أن تَسْتَوخِمَ الموتَ إن غدت كتائبُنا فى مأزِق الموت تُمْطِر

فقال امرؤ القيس : لا والله ، لا أستوخمه، ولـكن أستعذِبُه ؛ فرويداً ينكشف لك دُجاها عن فُرْسان كندة وكتائب حِمْير، ولقد كان ذكرُ غير هذا أولَى بى، إذ كنتَ نازلًا برَبْعى ، ومتحرّماً بذِمامى ، ولـكنك قلتَ فأَجَبْتُ .

قال قَبيصة : إنّ ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب[٣]، قال امرؤ القيس : هو ذاك !

---

(١) العلق : الدم . (٢) المأزق : المضيق . (٣) الإعتاب والعتبى : رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب .

٧٦ — نهاية الأعشى*

وفد الأعشى[١] إلى النبيّ عليه السلام، وقد مدحه بقصيدته التى أولها:

ألم تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمدَا[٢] وعادكَ ما عاد السليمَ[٣] المُسَهَّدَا

وما ذاكَ من عِشْقِ النّساء وإنّما تناسيتَ قبل اليوم خُلَّةَ مَهْدَدَا[٤]

وفيها يقول لناقته:

فآليتُ لا أرْثِي لها من كَلالةٍ[٥] ولا من حفًا[٦] حتى تَزُورَ محمدَا

نبيٌّ يَرى ما لا تَرَوْنَ وذِكْرُه أغار لعمرى فى البلاد وأنجدَا[٧]

متى ما تُنَاخِى عند باب ابن هاشمٍ تُرَاحِى[٨] وتَلْقَىْ من فواضله يَدَا

فبلغ خبرُه قريشا؛ فرصدوه على طريقه وقالوا: هذا صَنَّاجَةُ[٩] العرب، ما مدح أحداً قط إلا رفع فى قدره.

فلما ورد عليهم قالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردتُ صاحبكم هذا لأسْلِم. قالوا: إنه ينهاكَ عن حلال ويحرّمها عليك، قال: وما هى؟ فقال أبو سفيان بن حرب: الزّنا. قال: لقد تركنى الزّنا وتركته، ثم ماذا؟ قالوا: القِمار، قال: لَعَلِّى إن لقيتُه أن أصيب منه عوضاً من القمار، ثم ماذا؟

---

* الأغانى: ٩ ــ ١٢٥ (طبعة دار الكتب)، سيرة ابن هشام: ١ ــ ٢٣٦.

(١) اسمه ميمون بن قيس، أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، متصرف فى المديح والهجاء، وهو أول من سأل بالشعر، وانتجع به أقاصى البلاد. توفى سنة ٦٢٩ م.

(٢) رجل أرمد: به رمد فى عينيه، والكلام على تقدير مصدر محذوف، والتقدير: اغتماض ليلة أرمد، فحذف المضاف وأقيمت ليلة بدله. (٣) السليم: اللديغ. (٤) مهدد: اسم امرأة.

(٥) الكلالة: التعب. (٦) الحفا: رقة القدم. (٧) أغار: دخل الغور؛ وهو كل ما انحدر مغربا عن تهامة، وأنجد: دخل النجد، وهو ضد الغور. (٨) تراحى: تستريحى.

(٩) كان الأعشى يسمى صناجة العرب، لجودة شعره. وأصل الصناجة: اللاعب بالصنج.

قالوا : الرِّبا . قال : ما دِنْتُ ولا ادَّنْتُ ؛ ثم ماذا ؟ قالوا : الخمر . قال : أَوَّهْ ! أرْجِعُ إلى صُبَابةٍ قد بقيت فى المِهْراس[١] فأشربُها .

فقال له أبو سفيان : هل لك فى خيرٍ مما هممتَ به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآن فى هُدْنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك سنَتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا . فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خَلَفًا ، وإن ظهر علينا أتيتَه . فقال : ما أكرهُ ذلك . فقال أبو سفيان : يا معشر قريش، هذا الأعشى! والله لئن أتى محمداً واتبعه ليُضرمَنْ عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا ، فأخذها وانطلق إلى بلده . فلما كان بقاع مَنْفُوحَة[٢] رَمَى به بعيرٌ فقتله .

---

(١) المهراس : حجر منقور يسع كثيرا من الماء . (٢) منفوحة : قرية مشهورة من نواحى اليمامة .

٧٧ — رثاء فوق قبر*

كان عامرُ[١] بن الطُّفيل أفرسَ أهلِ زمانِه وأسودَهم، فلما مات ودُفِن مرَّ على قبره حيَّان بنُ سلمى ـ وقد غاب عند موته ـ فقال : ما هذه الأنْصَاب ؟ فقالوا : نَصَبناها على قبر عامر ، فقال : ضيَّقتم على أبي عليّ ، وأفضَلْتم[٢] منه فضلا كثيراً.

ثم وقف على قَبْره وقال : أنعم ظلاماً أبا علي ! فوالله لقد كنت تَشُنُّ الغارة، وتحمى الجارَة ، سريعاً إلى المولَى بوعْدِك، بطيئاً عنه بوعيدك[٣]؛ وكنت لا تضلّ حتى يضلّ النجم ، ولا تَهَابُ حتى يهابَ السيل ، ولا تعطش حتى يعطشَ البعير؛ وكنتَ والله خيرَ ما تكون حين لا تظنّ نفسٌ بنفس خيراً .

ثم التفتَ إليهم ، فقال : هلّا جعلتم قَبر أبي عليّ ميلا في ميل !

---

* مجمع الأمثال : ٢ ــ ٢٣

(١) عامر بن الطفيل بن مالك ابن أخي عامر ملاعب الأسنة ، وابن عم لبيد الشاعر المعروف ، كان مناديه ينادى بعكاظ: هل من راجل فأحمله، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه ؟ وكان سيد بنى عامر غير مدافع. وقد وفد على النبي ومعه أربد أخو لبيد يضمران الشر والسوء فخاب مسعاهما ، وسار عامر يريد قومه فمات فى الطريق سنة ١١ هـ . (٢) أفضل منه : إذا ترك منه شيئا ، والفضل والفضلة : البقية من الشئ . (٣) الوعيد فى الشر ، والوعد فى الخير .

٧٨ — بمثل هذا فلْيُثْنَ على الملوك*

قال حسان بن ثابت[١] : قدِمت على عَمْرو بن الحارث ، فاعتاص علىّ الوصول إليه ، فقلت للحاجب بعد مدّة : إن أذنتَ لى عليه وإلّا هجوتُ اليمنَ كلّها ثم انقلبتُ عنكم . فأَذِن لى، فدخلتُ عليه فوجدتُ عنده النابغَة وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عبدة وهو جالس عن يساره ، فقال لى : يا بن الفُرَيْعة ؛ قد عرفت عِيصَك[٢] ونسبك فى غَسَّان ، فارجع فإنّى باعث إليك بصِلَةٍ سنيَّة ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإنّى أخافُ عليك هذين السَّبُعين ـ النابغة وعلقمة ـ أن يفضحاك ؛ وفضيحتُك فضيحتى ، وأنت والله لا تُحْسِنُ أن تقول :

رِقَاق النعالِ طيِّب حُجُزاتُهمْ   يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يومَ السَّبَاسِبِ[٣]

فأبيتُ وقلت : لابدّ منه . فقال ذاك إلى عمَّيك ، فقلت لهما : بحقّ الملك إلّا قدّمتمانى عليكما ! فقالا : قد فعلنا، فقال عمرو بن الحارث : هات يا بن الفُرَيعة، فأنشأت :

---

* الأغانى : ١٤ ــ ٢٢

(١) حسان بن ثابت ، شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر رسول الله فى النبوة ، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام ، دافع عن رسول الله بشعره كما دافع عنه قومه بسيوفهم، وعمر طويلا . ومات سنة ٥٤ هـ . (٢) العيص : الأصل ، والفريعة : أمه . (٣) رقاق النعال : أى أن نعالهم رقيقة لايخصفونها طباقا ، وذلك كناية عن قلة مشيهم ، لأنهم ملوك . بل يركبون الخيل غالبا ، وحجزة الإزار والسراويل: مجمع شدها على الوسط من الجسم، كناية عن عفتهم، والسباسب: يوم الشعانين، وهو يوم عيد عند النصارى ، وكان الممدوح نصرانيا .

لله دَرّ عصــــابة نادَمْتُهُم يوماً بجِلَّق[1] فى الزّمان الأوّلِ

أولادُ جفنةَ[2] عند قبر أبيهمُ[3] قبرِ ابن[4] ماريةَ الـكريم المُفضِلِ

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريص[5] عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ[6] بالرحيق السَّلْسَلِ

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابُهُمْ لا يَسأَلون عن السواد المُقبِـــلِ

بيضُ الوجوهِ كريمة أحسابُهم شمُّ الأنوف من الطّراز الأوّلِ

فلبثتُ أزماناً طوالًا فيهمُ ثم ادّرَكْتُ كأننى لم أفعَلِ

* * *

قال: فلم يزل عمْرو بن الحارث يَزْحل[7] عن موضعه سُرُوراً ، وهو يقول : هذا وأبيك الشعر ؛ لاما يُعلّلانى به منذ اليوم ! هذهِ والله البتّارة التى قد بترتْ المدائح ! أحسنت يابن القُرَيْعة ! هات له ياغلام ألفَ دينار مَرْجُوحَة[8] ، فأُعطِيتُ ذلك ، ثم قال : لك علىّ فى كل سنة مثلُها .

ثم أقبل على النابغة فقال : قم يا زياد ، فهاتِ الثناء المسجوع ، فقام النابغة فقال : الا انعم صباحاً أيّها الملك المبارك ! السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، ووالدى

---

(١) جلق : دمشق . (٢) جفنة : هو جفنة بن عمرو أبو ملوك الشام ، وأولاده هم : النعمان والمنذر والمنيذر وجبلة وأبو شمر، وكانوا جميعا ملوكا . (٣) أراد بهذا أنهم أعزاء مقيمون بدار مملكتهم، ليسوا أصحاب رحلة وانتجاع . (٤) هى مارية بنت ظالم الـكندية أم الحارث الأعرج، وهى ذات القرطين اللذين يضرب بهما المثل ، فيقال لما يغلى به الثمن : بقرطى مارية ، وأختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار . (٥) البريص : غوطة دمشق . (٦) صفق الشراب : حوله ممزوجا من إناء إلى إناء ليصفو . والرحيق : الخمر ، أو أطيبها ؛ والسلسل : العذب البارد .
(٧) زحل عن موضعه : زحف. (٨) مرجوحة : هى ما كان فى كل دينار منها عشرة دنانير.

فداؤك ، والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك،والحكماء جلساؤك ، والمَدارهُ[1] سُمَّارك، والمقَاوِلِ إخوانك، والعقلُ شِعارك، والحلمُ دِثارك، والسكينة مِهادك، والوقار غشاؤك! والبرُّ وِسادك ، والصدق رداؤك ، واليُمن حذاؤك ، والسخاء ظهارتك ، والحميَّة بطانتك ، والعَلَاء غايتك؛ وأكرمُ الأحياء أحياؤك ، وأشرفُ الأجداد أجدادُك ، وخيرُ الآباء آباؤك ، وأفضلُ الأعمام أعمامُك، وأسرى الأخوال أخوالك،وأعفُّ النساء حلائلك ، وأنجبُ الشبان أبناؤك ، وأطهر الأمهاتِ أمهاتك ، وأعلى البنيان بنيانك ، وأعذب المياه أمواهُك ، وأفيحُ الدازات[2] دارتُك ، وأنزهُ الحدائق حدائقك ، وأرفع اللباس لباسك ، قد حالف الإضريجُ[3] عاتقك ، ولاءم المِسْكُ مَسْكَك[4] ، وجاور العنبرُ ترائبَك[5] ، وصاحبَ النعيمُ جَسَدَك .

العسجد آنيتك، واللُّجين صِحَافك ، والعَصْبُ[6] مناديلك ، والحُوَّارَى[7] طعامك ، والشهد إدامُك ، والخُرطُوم[8] شرَابك ، والأشراف مناصِفك[9] ، والخير بفنائك ، والشر بساحة أعدائك، والنصر منوطٌ بلوائك، والخِذلان مع ألوية حُسَّادك ، والبر فعلك . قد طَحْطَحَ[10] عدوَّك غضبُك ، وهزم مَقَانبهم[11] مشهدُك ، وسار فى الناس عدلك ، وسكن قوارعَ الأعداء ظَفرُك .

الذهب عطاؤك ، والدواة رمزُك، والأوراق لحظُك، والغنى إطراقك، وألف دينار مرجوحة إيماؤك .

---

(١) المداره : جمع مدره ، وهو السيد الشريف ، والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة .
(٢) الدارة : المحل يجمع البناء . (٣) الإضريج : الخز . (٤) المسك : الجلد .
(٥) الترائب: عظام الصدر. (٦) العصب: نوع من البرود . (٧) الحوارى: لباب الدقيق.
(٨) الخرطوم : أول مايجرى من العنب قبل أن يداس . (٩) جمع منصف، وهو الخادم .
(١٠) طحطح: كسر وفرق وبدد إهلاكا. (١١) المقنب من الخيل: مابين الثلاثين إلى الأربعين.

أيفاخرك المنذر اللخميّ! فوالله لقَفَاك خيرٌ من وجهه، ولَشمالك خير من يمينه، ولأخمَصك خيرٌ من رأسه، ولخطؤك خيرٌ من صوابه ، ولصمتُك خيرٌ من كلامه، ولأمُّك خير من أبيه ، وَلخدمُك خير من قومه. فهب لى أُسَارى قومى، واستَرْهِنْ بذلك شكرى ، فإنك من أشراف قَحْطان ، وأنا من سَرَوات عَدنان .

فرفع عمرو رأسه إلى جارية كانت قائمة على رأسه، وقال: بمثل هذا فليُثْنَ على الملوك ، ومثل ابن الفُريعة فليمدحهم . وأطلق له أسرى قومه .

---

٧٩ — عُتبة وأعرابىّ*

حجّ عتبة[١] سنة إحدى وأربعين، والناسُ قريبٌ عهدُهم بفتنة، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد وَلينا هذا المقام الذى يُضَاعف فيه للمُحْسن الأجرُ ، وعلى المسىء فيه الوِزر ، ونحن على طريق ما قصَدنا ؛ فلا تمدوا الأعناقَ إلى غيرنا؛ فإنها تنقطع دوننا، وربّ مُتَمَنٍّ حَتْفُه فى أُمنيَّته؛ فاقبلوا العافية ماقَبِلْنَاها فيكم وقبلْنَاها منكم ؛ وإياكم ولَوًّا[٢] فإنها أَتعبَتْ مَنْ كان قبلكم، ولن تُرِيحَ مَنْ بَعْدَكم ؛ وأنا أسألُ الله أن يعين كُلًّا على كُلّ .

فصاحَ به أعرابىّ : أيهـــا الخليفة ! فقال : لستُ به ولم تُبْعِدْ[٣] . فقال : يا أخاه . قال : سمعتُ فقل . قال : تاللهِ إن تحسنوا ـ وقد أسأنا ـ خير من أن تسيئوا وقد أحْسَنَّا ؛ فإن كان الإحسانُ بكم دوننا فما أحقكم باسْتِمامه ، وإن كان منا فما أَوْلاكم بمكافأتنا ! رجل من بنى عامر بن صَعْصعة يلقاكم بالعُمُومَة ، ويقرُب إليكم بالخئولة ، قد كَثَرَهُ العيال[٤] ، ووَطئه الزمان، وبه فقر، وفيه أجر ، وعنده شكر .

فقال عتبة : أستغفرُ الله منكم، وأستعينه عليكم، قد أمَرْنا لك بغِنَاك، فليت إسْرَاعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك !

---

* الأمالى : ١ ـ ٢٣٦

(١) هو عتبة بن أبى سفيان ، أخو معاوية بن أبي سفيان ، ولاه أخوه معاوية إمارة مصر سنة ٤٣هـ، وشهد يوم الدار مع عثمان ، ويوم الجمل مع عائشة ، وكان من خطباء بنى أمية المعدودين ، وتوفى سنة ٤٤ هـ . (٢) اللو: قول المتندم على الفائت : لوكان كذا لقلت ولفعلت، ومنه الحديث « إياك واللو ؛ فإن اللو من الشيطان » . (٣) ولم تبعد : أى أنا أخو الخليفة وهو معاوية بن أبى سفيان . (٤) كثره العيال : كانوا كثيرين فغلبوه بكثرتهم .

٨٠ — إن من البيان لَسِحراً*

وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزِّبْرِقان[١] بن بدر وعمرو[٢] بن الأهتم؛ فقال الزبرقانُ: يا رسولَ الله، أنا سيدُ تميم، والمطاعُ فيهم، والمجابُ منهم، آخذ لهم بحقهم، وأمنعهُم من الظلم؛ وهذا يعلمُ ذلك ـ يعنى عمراً. فقال عمرو: أجل يا رسولَ الله! إنه مانع لحَوْزَتِهِ[٣]، مطاعٌ فى عشيرته، شديدُ العارضة[٤] فيهم.

فقال الزِّبرقان: أما إنه والله قدعلم أكثرَ مما قال، ولكنه حسدنى شرفى!

فقال عمرو: أما والله لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيِّق العطن[٥] زَمِر[٦] المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى!

فرأى الكراهةَ فى وجه رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله، فقال: يا رسول الله، رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمتُ، وغضبتُ فقلتُ أقبحَ ما علمتُ، وما كذبتُ فى الأولى، ولقد صدقتُ فى الثانية!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن منَ البيان لَسِحْراً».

---

* زهر الآداب ١ــ٥ . مجمع الأمثال : ١ــ٧

(١) الزبرقان: اسمه حصين بن بدر، وفد على رسول الله فى قومه ـ وكان أحد سادتهم، فأسلموا فى سنة تسع، وولاه صدقات قومه. وأقره أبو بكر وعمر على ذلك، والزبرقان فى الأصل: القمر، ولقب به لحسنه. وتوفى سنة ٤٥هـ (٢) عمرو بن الأهتم: هو عمرو بن سنان، وسمى سنان الأهتم، لأن قيس بن عاصم المنقرى ضربه بقوس فهتم فاه. وبنو الأهتم أهل بيت بلاغة فى الجاهلية والإسلام. (٣) حوزة الرجل: مايحوزه ويتملكه. (٤) العارضة: البديهة وقوة الكلام. (٥) العطن: المناخ حول الورد، وضيق العطن: كناية عن البخل.

(٦) زمر المروءة: قليلها.

٨١ — عبد الله بن عباس والحطيئة*

بينا ابنُ عباس جالسٌ في مجلسِ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كُفَّ بَصرُه، وحوله ناسٌ من قريش، إذ أقبل أعرابي[2] يَخْطِرُ، وعليه مُطْرَفٌ[3] وجُبَّة وعمامة خزّ، حتى سلّم على القوم، فردّوا عليه السلام، فقال: يابنَ عمِّ رسول الله؛ أَفْتِني، قال: فيمَ؟ قال: أتخاف عليّ جُنَاحاً إن ظلمني رجل فظلمته، وشتمني فشتمتُه، وقصَّر بي فقصرتُ به؟ فقال: العفوُ خيرٌ، ومَن انتصر فلا جُنَاح عليه.

فقال: يابن عمّ رسول الله؛ أرأيت امرأً أتاني فوعدني وغرّني ومنّاني، ثم أخلفني واستخفّ بحُرمتي، أيسعني أن أهجُوه؟ قال: لا يصلحُ الهجاء؛ لأنه لابدَّ لك من أن تهجُوَ غيره من عَشِيرته، فتظلِمَ من لم يظلمْك، وتشتُمَ من لم يشتِمك، وتبغي على من لم يبْغِ عليك، والبغيُ مرتَعه وخيم، وفي العفو ما قد علمتَ من الفَضْل؛ قال: صدقتَ وبرِرتَ.

فلم يَنْشَبْ أن أقبل عبد الرحمن بنُ سَيْحان المُحَاربيّ حليفُ قريش، فلمّا رأى الأعرابيَّ أجلّه وأعظَمه وألطف في مَسألته، وقال: قرّب الله دارَك يا أبا مُليكة، فقال ابن العباس: أجَرْوَل؟ قال: جرول! فإذا هو الحطيئة، فقال ابن عباس: للهِ أنت! أي مِرْدَى[4] قِذاف، وذائدٍ عن عشيرته، ومُثْنٍ بعارفةٍ تؤتاها

---

* الأغاني: ٢ - ١٩٢

(١) مجلس رسول الله: أي المكان الذي كان يجلس فيه. (٢) هو جرول بن أوس من بني عبس؛ كان من فحول الشعراء ومتقدميهم، ولكنه كان ذا شر وسفه شديد الهجاء يخاف العرب لسانه ويسترضونه بالمال خوفاً من شره ومات سنة ٥٩ هـ (٣) المطرف: رداء من خز.

(٤) المردى: في الأصل حجر يرمى، ويطلق على الرجل الشجاع، فيقال: مردى حروب.

أنت يا أبا مليكةَ ! والله لو كنتَ عركتَ[1] بجَنْبك بعض ما كرهتَ من أمر الزِّبْرقان كان خيراً لك، ولقد ظلمتَ من قومه من لم يظلمْك، وشتمت من لم يشتِمْك. قال : إنّي والله بهم يا أبا العباس[2] لعالم ؛ قال : ما أنتَ بأعلم بهم من غيرك، قال بلى والله ! يرحمك الله ! ثم أنشأ يقول :

أنا ابنُ بجْدَتِهم[3] علماً وتجربةً فَسَلْ بسعدٍ تجدنى أعلمَ الناس

سعدُ بن زيدٍ كثيرٌ إن عددتَهمُ ورأسُ سعد بن زيد آلُ شمَّاس

والزبرقان ذُنَاباهم[4] وشرُّهمُ ليس الذُّنابَى أبا العباس كالرَّاسِ

فقال ابن عباس : أقسمت ألَّا تقولَ إلا خيراً ، قال : أفعل .

ثم قال ابن عباس : يا أبامُلَيكةَ ؛ من أشعرُ الناس ؟ قال : أمن الماضين أم من الباقين ؟ قال : من الماضين ، قال: الذى يقول :

ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِه يَفِرْهُ ، ومَن لا يَتّقِ الشتم يُشْتمِ

وما بدونه الذى يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه على شَعَثٍ ، أىُّ الرجال المهذَّبُ !

ولكنَّ الضراعة أفسدَتْه كما أفسدتْ جَرْولا — يعنى نفسه — والله يا بنَ عمّ رسول الله لولا الطمعُ والجشعُ لكنتُ أشعرَ الماضين ، فأما الباقون فلا تشكَّ أنى أشعرهم وأصْرَدُهم[5] سهما إذا رَميت !

---

(١) عرك بجنبه ما كان من صاحبه: احتمله . (٢) كنية عبدالله بن العباس . (٣) البجدة : دخلة الأمر وباطنه ، والمراد : أنا العالم بالشىء . (٤) ذناباهم : ذنبهم . (٥) أنفذهم .

٨٢ — طريد لسانه*

لما وُلّى سعيدُ بن عثمان بن عفّان خُراسان أراد أنْ يستَصْحِبَ يزيد[1] بن ربيعة بن مفرّغ ، فأبى عليه ، وصَحب عبّادَ بن زياد، فقال له سعيد : أمّا إذْ أبيت أن تصحبَني وآثرت عبّاداً فاحفَظْ ما أُوصيكَ به : إنّ عباداً رجلٌ لئيمٌ ، فإياك والدّالةَ عليه ، وإن دعاكَ إليها من نفسه ، فإنها خُدْعة منه لكَ عن نفسك؛ وأقلِلْ زيارتَه ، فإنه طرِفٌ[2] مَلُولٌ ، ولا تفَاخره وإنْ فاخرك ، فإنه لا يحتمل لكَ ما كنتُ أحتمله .

ثم دعا سعيد بمال فدفعه إلى ابن مفرّغ وقال : استَعِن به على سفرك ؛ فإن صَحّ لَكَ مكانُكَ من عبّاد ، وإلا فمكانُك عندى مُمَهّد فأتنى .

ثم سار سعيد إلى خُراسان وتخلّف ابن مفرّغ عنه ، وخرج مع عبّاد ابن زياد .

قال الراوى : فلما بلغ عبيدَ الله[3] بن زياد صحبةُ ابن مفرّغ أخاه عبّاداً شقّ عليه ، ولما عزم عبّادٌ على السير إلى سِجِستان ، جاء عبدُ الله يودعه ، فَدَعا ابن مفرّغ وقال له : إنكَ سألت عبّاداً أن تصحبه وأجابك إلى ذلك وقد شقّ علىّ .

فقال له ابن مفرّغ : ولِمَ أصلحك الله ؟ فقال : لأنّ الشاعر لا يُقْنِعه من

---

* تاريخ الطبرى : ٦ — ١٧٧ ، الأغانى : ١٧ — ٥٥ (طبعة الساسى) .

(١) يزيد بن ربيعة بن مفرغ : شاعر محسن غزل من شعراء الحماسة ، توفى سنة ٦٩ هـ .

(٢) الطرف : من لا يثبت على صاحب . (٣) كان عبيد الله والى البصرة على عهد معاوية .

الناس ما يُقْنِعُ بعضهم من بعض؛ لأنه يظنُّ فيجعل الظنّ يقيناً ، ولا يعذر فى مَوْضع ؛ وإن عبّاداً يقدم على أرض حرب فيشتغلُ بحروبه وخَراجِه عنك ، فلا تعذِره أنت وتكسبنا شرًّا وعاراً .

فقال له : لستُ كما ظنّ الأمير ، وإن لمعروفه عندى لشكراً كثيراً ، وإنّ له عندى ـ إنْ أغفلَ أمْرى ـ عذراً مُمَهَّدًا .

قال عُبيد الله : لا ، ولكنْ تضمن لى إن أبطأ عنك ما تحبّه ألّا تعجّل عليه حتى تكتب إلىّ ! قال : نعم ، قال : امض على الطائر المَيْمُون .

قال الراوى : فلّما قدم عبّاد سِجِسْتَان ، واشتغل بحربه مع التّرْكِ وخراجه استبطأه ابن مفرّغ ، ولم يكتب إلى عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له ، ولكن بَسَط لسانه، فذمّه وهجاه؛ وكان عبّاد عظيم اللحية كأنها جُوالَق[1]، فدخلت الريح فنفشَتْها ، فضحك ابن مفرّغ وقال لرجل كان إلى جنبه :

ألاليت اللّحَى كانَتْ حشيشاً فنعلفَهَا خُيولَ المُسْلمينا ![2]

فسعى به الرجل إلى عبّاد ، فغضب من ذلك غضباً شديداً وقال : لا يجملُ بى عقوبتُه فى هذه السرعة مع الصحبة لى ، وما أؤخِّرُها إلّا لأشْفِىَ نفسى منه .

وبلغ الخبرُ ابنَ مفرّغ فقال : إنى لأجِدُ ريحَ الموت من عبّاد ؛ ثم دخل عليه فقال : أيها الأمير، إنى كنت مع سعيد بن عثمان، وقد بلغك رأيُه فىّ، وجميلُ أثرِه علىّ ، وإنى اخترتُكَ عليه فلم أظفرْ منك بطائل ؛ وأريد أن تأْذَنَ لى فى الرجوع ؛ فلا حاجةَ لى فى صحبتك .

---

(١) الجوالق : الوعاء . (٢) كان قد أصاب الجند مع عباد ضيق فى أعلاف دوابهم .

فقال له : أمّا اختيارُك إياى فإنى اخترتُك كما اخترتنى ، واستصحبتُك حين سألتنى ، وقد أعْجلتنى عن بلوغ محبّتى فيك ، وطَلبتَ الآن أن ترجع إلى قومك فتفضحَنى فيهم ، وأنت على الإذن قادرٌ بعد أن أقضى حقّك . فسكت ابنُ مفرّغ .

ثم أجرى عبّاد الخيلَ يوماً ، فجاء سابقاً ، فقال ابن مفرّغ يهزأ به : سبق عبّاد وصلّت(١) لحيته . فبلغ ذلك عبّاداً ، وبلغه أنه لا يزال يسبُّه ويذكره ، فطلب عليه العِلل . ودسّ إلى قوم كان لهم عليه دين ، فأمرهم أن يقدّموه إليه ، ففعلوا فحبسه وأضرّ بِهِ .

ثم بَعث إليه : أن بِعْنى الأراكة(٢) وبُرْدًا ، فبعث إليه ابن مفرّغ مع الرسول : أيبيعُ المرء نفسه أو ولده ! ثم أضَرَّ بِهِ عبّاد حتى باعهما لرجل من أهل خُراسان ، فقال ابن مفرّغ :

شريتَ بردًا ولو ملكت صفقتَه ... لما تطلبتُ فى بيعٍ له رَشَدَا

لولا الدّعىُّ ولولا ما تعرَّضَ لى ... من الحوادث ما فارقتُه أبدَا

أمّا الأراكُ فكانتْ من محَارمنا ... عيشًا لذيذًا وكانت جنّةً رغَدَا

كانت لنا جَنّةً كنا نعيشُ بها ... نَغْنى بها إن خشينا الأزْل والنّكَدَا(٣)

ياليتنى قبلَ ما ناب الزمانُ به ... أهلى لقيتُ على عُدْوانه الأسدَا

قد خاننا عيشُ من لم نخشَ عثْرَتَه ... مَنْ يأمن اليوم أمّن ذا يعيش غدًا !

لامتنى النفس فى بُردٍ فقلت لها : ... لا تهلكى إثر بُرْد هكذا كَمَدا

---

(١) المصلى فى الخيل : هو الذى يتلو السابق . (٢) كانت الأراكة قينة لابن مفرغ ، وبرد غلامه ، رباهما ، وكان شديد الضن بهما . (٣) الأزل : الضيق والشدة .

كم من نعيمٍ أصَبْنَا من لذاذته قلنا له إذ تولّى : ليته خَلَدَا[1] !

ثم قال عبّاد لحاجبه : ما أرى هذا يبالى بالمقام فى الحبس، فبِعْ فرسه وسلاحه وأثاثه ، واقسم ثمنها بين غُرَمائه . ففعل ذلك ، وقسم الثمن بينهم ، وبقيتْ عليه بقية حبسه بها .

وعلم ابن مفرّغ أنه إن أقام على ذمّ عباد وهجائه ، وهو فى محبسه ، زاد نفسه شرًّا ، فكان يقول للناس — إذا سألوه عن حبسه ماسَبَبُه — رجلٌ أدَّبه أميره ليُقوِّم من أَوَدِه ، أو يكفَّ من غَرْبه ، وهــذا لَعَمْرِى خيرٌ من جرِّ الأمير ذيلَه على مُداهنة صاحبه .

فلمّا بلغ ذلك عبّاداً من قوله رقّ له ، وأخْرَجه من السجن ، فهربَ حتى أتى البَصْرَة ، ثم خرج منها إلى الشام ، وجعل ينتقل فى مُدُنها هارباً ، ويهجو زياداً وولده ، وأشعارهُ فيهم ترد البصرة وتنتشر وتبلغهم، ثم تعدَّى ذلك إلى أبى سُفيان فقذفه وسبَّ وَلدَه .

ولما تمادى فى ذلك جاء عبَّاد إلى أخيه عبيد الله بالبصرة ، فوجده وافداً على معاوية ، فكتب إليه ببعض ما هجا به آل زياد وأبا سفيان .

---

(١) ذكروا أن الأراكة وبرداً حينما دخلا منزل الخراسانى قال له برد — وكان داهيــة أريباً : أتدرى ما اشتريت ؟ قال : نعم، اشتريتك وهذه الجارية ، فقال: لا والله مااشتريت إلا العار والدمار والفضيحة أبداً ماحييت! فجزع الرجل، وقال له: كيف ذلك ؟ ويلك ! قال: نحن ليزيد بن مفرغ، والله ما أصاره إلى هذه الحال إلا لسانه وشره ؛ أفتراه يهجو ابن زياد وهو أمير خراسان وأخوه أمير العراقين وعمه الخليفة فى أن استبطأه ، ويمسك عنك وقد ابتعتنى وابتعت هذه الجارية ، وهى نفسه التى بين جنبيه ! والله ما أرى أحداً أدخل بيته أشأم على نفسه وأهله مما أدخلته على منزلك ! فقال : فاشهد أنك وإياها له ؛ فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا وإن شئتما أن تكونا عندى فافعلا ! قال : فاكتب إليه بذلك ، فكتب الرجل إلى ابن مفرغ فى الحبس بما فعله ، فكتب إليه يشكر فعله وسأله أن يكونا عنده حتى يفرج الله عنه .

فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية ، ثم استأذنه فى قتل ابن مفرّغ ، فأبَى عليه أن يقتله وقال : أدِّبه ولا تبلغ به القتل .

ثم جعل ابن مفرّغ ينتقل من بلد إلى بلدٍ ، فإذا شاعَ خبره انتقل حتى لفَظَته الشام ؛ فأتى البصرة ، ونزل على الأحنف بن قيس فالْتَجأ واسْتَجارَ به ، فقال له الأحنف : إنى لا أجير على ابن سُمَيَّة[1] ، إنما يجير الرجل على عشيرته ، فأما علَى سلطانه فلا .

ثم أتى خالد بن عبد الله فاستجار به ، فأبى أن يجيره ، فأتى عمر بن عبيد الله فوعده ، وأتى طلحة الطلحات فوعده ، ثم أتى المنذر العبْدىّ فأجاره، وكان عبيدالله ابن زياد زوجاً لبنته ، وكان من أكرم الناس عليه ، فاغترّ بذلك ، وأدَلّ بموضعه منه، وطلبه عبيدُ الله فقيل له : قد أجارَه المُنذر.

فبعث عبيدُ الله إلى المنذر فأتاه ، فلمّا دَخل عليه بعث بالشُّرَط ، فكبسوا دارَ المنذر وأتوه بابن مفرّغ ، فلم يشعر المنذر إلا بابن مفرّغ قد أقيم على رأسه . فقام إلى عبيد الله فكلّمه فيه وقال : أذكّرُك اللهَ أيها الأمير ، لا تَخفِرْ جوارى فإنى قد أجرْته .

فقال عبيدالله : يا منذر ، ليمدحَنّ أباك وليَمْدَحَنّك ، ولقد هجانى وهجا أبى ثم تجيره علىّ ! والله لا يكون ذلك أبداً ، ولا أغفرُها له . فغضب المُنذر ، فقال له عبيد الله : لعلك تُدِلّ بكريمتك عندى ، إن شئت والله لأبينّها بتطليق البتّةَ[2] .

فخرج المُنذر من عنده ، وأقبل عبيدُ الله على ابن مفرّغ ، وقال له : بئسما

---

(١) ابن سمية : زياد . (٢) منصوب على المصدر، يقال : لاأفعله البتة . لكل أمر لارجعة فيه .

صحبتَ به عبَّاداً ! فقال : بئسما صحبنى به عبَّاد ! اخترته على سعيد بن عثمان ، وأنفقتُ على صحبته كلَّ ما أفدتُه وكلَّ ما أملكه ، ثم عاملنى بكلِّ قبيح ، وتناولنى بكلِّ مكروه ، من حبْس وغُرْم ،وشَتْم وضرْب ، فكنت كمن شَامَ برقاً خلَّباً فى سحاب جَهام ، فأراق ماءه طمعاً فيه فمات عطشاً ، وما هربت من أخيك إلَّا لما خفت أن يُجرِى فىّ ما يَنْدم عليه ، وقد صرتُ الآن فى يدك ، فشأنك فاصنع بى ما أحببتَ .

فأخذ عبيدُ الله فى تعذيبه ، وأمر أن يُطاف به ، بحالة سيئة ، وقُرن بهرَّة وخنزيرة ، والصبيان حوله يصيحون به ويلحّون عليه ، ثم رُدَّ إلى السجن ، وسُقِى فيه من ألوان العذاب والنَّكال . فقال يذكر ما فُعل به وإهمال قريش إيَّاه :

دَارَ سَلْمَى بالخَبْت ذِى الأطلال كيف نومُ الأسير فى الأغلال !

أينَ منِّى السَّلَامُ من بعد نأْيٍ فارجعى لى تحيَّتى وسُؤالى !

أينَ منِّى نَجائِبى وجِيادِى وغَزَالى ، سقى الإلٰه غزالى !

أين ، لا أين جُنَّتِى وسِلَاحِى ومَطايا سيَّرتُها لارتِحالى !

هَدم الدَّهرُ عرشنا فتداعَى فبَلِينا إذ كلُّ عيشٍ بال

إذْ دَعَانا زوالُه فأجَبْنا كلُّ دنيا ونعمةٍ لزوال

أم قضينا حاجاتِنا فإلى المو تِ . مصيرُ الملوك والأقْيال

لا وصَوْمِى لربِّنا وزكاتى وصلاتى أدعو بها وابْتهالى

ما أتيتُ الغداة أمراً دَنِيًّا ولَدى اللهِ كابرُ الأعمال

أيُّها المالك المرَهَّب بالقَتْ لِ بلغتَ النكالَ كلَّ النَّكالِ

فاخْشَ ناراً تقذف الوجوه ويَوْماً يقذف الناس بالدَّواهى الثِّقال

قد تعدّيتَ فى القصاص وأدرك تَ ذُحولا[1] لمعشر أقتالِ
وكسرت السنّ الصحيحة مِنّى لا تُذِلّنى فَمُنْكرٌ إذْلالى
وقَرَنتم مع الخنازير هرّا وَيمينى مغلولةٌ وشمالى
وأطلتم مع العقوبة سِجنًا فكم السجن؟ أو متى إرسالى!
يغسلُ الماء ما صنعتَ، وقولى راسخ منك فى العظام البوالى
لو قبلتَ الفِداء أو رُمت مالى قلت: خذه، فداء نفسىَ مالى
لو بغيرى من معشرٍ لَعِبَ الدهـ ـرُ لما ذمّ نصرتى واحتيالى
كم بكانى من صاحب وخليلٍ حافظ الغيب حامدٍ للخصال!

* * *

ليت أنى كنتُ الحليف للخمٍ وجـذامٍ أو طيِّءِ الأجبالِ
بدلًا من عصابةٍ من قريشٍ أسلمونى للخصم عند النِّضالِ
خَذَلونى وهم لذاك دعَوْنى ليس حامى الذّمار بالخذَّالِ
لا تدَعْنى، فِداك أهلى ومالى إنّ حَبْليك من متين الحبال
حسرتا إذ أطعتُ أمر غُواتى وعصيت النَّصيح، ضَلَّ ضَلالى!

ولكن عبيد الله أرسله إلى أخيه عبّاد بسِجِسْتان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية؛ فأرسل رسولًا إلى عبّاد أن يحمل إليه ابنَ مفرِّغ، فحُمِل من عنده، وقال فى طريقه:

---

(١) الذحل: الثأر.

عدَسْ ما لعبَّادٍ عليك إمارةٌ نجوتِ ، وَهَذَا تحْملين طليق[1]
لعمرى لقد نجَّاك من هُوَّةِ الرَّدَى إمامٌ وحبْلٌ للأنام وثيق
سأشكر ما أوليتَ من حسن نعمةٍ ومِثْلِي بشكر المنعمين حقيقْ

فلما دخل على معاوية بكى وقال : ركِبَ منى ما لم يركبْ منى مسلم ، على غير حَدَث ولا جريرة ! قال أو لست القائل :

ألَا أبْلغ معاوية بن حربٍ . . . .

ألم تقل :

فأشهدُ . . . .

فى أشعار كثيرة هجوت بها زيادا ! اذهب فقد عفونا عن جرْمك ، أما لو إيَّانا تعامل لم يكن مما كان شىء ؛ انطلق ، وفى أى أرض شئتَ فانزل. فنزل الموْصل.

---

(١) عدس : اسم زجر البغال .

٨٣ — عبد الله بن الزبير ومقتل أخيه مصعب*

قال شيخ من أهل مكة :

لما أتى عبدَ الله[1] بنَ الزبير قتلُ مُصعبٍ[2] أخيه أضرب عن ذِكْرِه أياماً حتى تحدَّثَتْ به إماءُ مكةَ فى الطرق ، ثم صعِد المِنْبَر ، فجلس عليه مليًّا لا يتكلم ، فنظرتُ إليه والكآبةُ على وجهه ، وجبينُه يَرْشَحُ عرقاً ، فقلت لآخر إلى جنبى : ما له لايتكلم ؟ أتراه يَهاب المنطق ! فوالله إنه لخطيب ، فما تراه يهاب ! قال : أراه يذكر قتلَ مصعب سيِّد العرب ، وهو بفَظِيع تذكُّره غيرُ ملوم . فقال : « الحمد لله الذى له الخلقُ والأمر وملْكُ الدنيا والآخرة ، يُعِزُّ مَنْ يشاء ويذِلُّ من يشاء ؛ ألا إنه لم يذِلّ — والله — مَنْ كان الحقُّ معه وإن كان مُفرداً ضعيفاً ، ولم يعزّ من كان الباطل معه ، وإن كان فى العُدَّة والعَددِ والكثرة » .

ثم قال : « إنه قد أتانا خبرٌ من العِراق، بلدِ الغَدْرِ والشقاق، فساءنا وسرَّنا؛ أتانا أنّ مُصعباً قُتِلَ — رحمة الله عليه ومغفرته ! فأما الذى أحزننا من ذلك فإنَّ لفِراقِ الحميم لذعةً يجدُها حميمُه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوِى من بعدُ ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر ، وأما الذى سرَّنا منه ، فإنا قد علمنا أن قتلَهُ شهادةٌ له ، وأنه

* الأغانى : ١٧ — ١٦٦

(١) انظر صفحة ١٢٦ (٢) كان من أجواد العرب ، وولاه أخوه عبد الله بن الزبير العراقين فسار إليه عبد الملك بن مروان بجيش ووجه أخاه محمد بن مروان على مقدمته فلقيه مصعب فقاتله ، فقتل مصعب . ودخل عبد الملك الكوفة ، وبايع له أهلها .

عز وجل جاعل ذلك لنـا خيرةً إن شاء الله تعالى .

إنّ أهلَ العراق أسلموه وباعوه بأقل ثمن ، لقد قُتِل أبوه وعمّه وأخوه وكانوا خيارَ الصالحين؛ إنّاوالله مانموتُ حَتْفَ أنوفنا ؛ مانموت إلا قتلا ، قَعْصًا[1] بالرماح، وتحتَ ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مَرْوَان ؛ والله ماقُتِل منهم رجلٌ في جاهليّة ولا إسلام قط ؛ وإنّما الدنيا عارية من المَلِك القهّار، الذى لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملـكه ، فإن تقبل الدنيـا علىّ لا آخذها أخذ الأشِر البَطِر ، وإن تُدْبِر عنى لا أبكى بكاء المُهتَر[2] » . ثم نزل !

---

(١) قعصه : قتله مكانه .   (٢) المهتر : الذى فقد عقله من الـكبر أو المرض أو الحزن .

٨٤ – عمر بن أبي ربيعة وجميل *

اجتمع عمرُ بن أبي ربيعة، وجميل[1] بن عبد الله العُذْرِيّ، فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها:

لقدْ فرِحَ الواشون أن صَرَمتْ[2] حبلي ... بُثَيْنَةُ أو أبدتْ لنا جانب البُخْلِ

يقولون: مهلًا ياجميلُ، وإنّني ... لأقسِمُ مَالِي عن بثينةَ من مَهْلِ

خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلًا بكى من حبِّ قاتله قبلي!

أبيتُ مع الهُلّاكِ[3] ضيفًا لأهلها ... وأهلي قريب مُوسِعُون ذوو فضلِ

أَفِقْ أيّها القلب اللّجُوجُ عن الجهلِ ... ودع عنك «جُمْلًا[4]» لاسبيلَ إلى جُمْلِ

فلو تركتْ عقلي معي ما طلبتُها ... ولكن طِلَابِيهَا[5] لِما فات من عقلي

حتى أتى على آخرها، ثم قال لعمر: ياأبا الخطّاب، هل قلتَ في هذا الرويّ شيئًا؟ قال: نعم، قال: فأنشدْنيه، فأنشده:

جرى ناصحٌ بالودِّ بيني وبينها ... فقرّبني يوم الحِصَابِ[6] إلى قتلي

فلمّا تواقفنا عرفت الذي بها ... كمِثْل الذي بي حذْوَكَ النعلَ بالنعل

فقلْنَ لها: هذا عِشاءٌ وأهلُنا ... قريبٌ ألَمّا تَسْأَمِي مركبَ البَغْلِ!

فقالت: فما شِئْتُنَّ؟ قلْنَ لها: انزلي ... فَلَلأرضُ خير من وقوفٍ على رَحْلِ

---

* الأغاني: ١ – ١١٥ (طبعة دار الكتب)، زهر الآداب: ٢ – ٢٤٠

(١) يعد جميل بن معمر مثال الغزل البدوى العفيف، نشأ في البادية، وأحب ابنة عمه بثينة وعرف بها، وقال فيها شعرا كثيرا وقد لقى في سبيل حبه العنت والعذاب، مات سنة ٨٢ هـ.

(٢) صرمت حبلي: قطعت الصلة بي. (٣) الهلاك: الصعاليك الذين ينتابون الناس ابتغاء معروفهم.

(٤) جمل: علم على امرأة، وهو يقصد بها بثينة. (٥) طلابيها: طلبي إياها.

(٦) الحصاب كالمحصب: موضع رمى الجمار.

نُجُوم دراريٌّ تكنّفنَ صورة ... من البدر، وافتْ غيرَ هُوجٍ[1] ولا عُجْل

فسلّمتُ واستأنستُ خيفةَ أن يَرَى ... عــدوٌّ مقامِى أو يرى كاشحٌ فِعْلى

فقالت ـ وأرخت جانب السِّتْر : إنمّا ... معى ـ فتكلم غير ذى رقْبةٍ ـ أهلى

فقلت لهــا : ما بى لهم من تَرَقّبٍ ... ولــكنّ سرِّى ليس يحمله مثلى

فلمّا اقتصرنا دونهنّ حــديثنــا ... وهنّ طبيبات بحاجة ذى الشَّكْلِ[2]

عرفْن الذى تهْوى فقلن ائذنى لنــا ... نَطُفْ ساعة فى بَرْد ليــلٍ وفى سَهْلِ

فقالت : فَلَا تَلْبثْن قلن : تحــدّثى ... أتيْنَاكِ ، وانسَبْن انسياب مَها الرمل

فقمنَ وقد أفهمن ذا اللّب أنّمــــا ... أتينَ الذى يأتين من ذاك من أجلى

فقال جميل : هيهاتَ يا أبا الخطّاب ! لا أقول والله مثل هذا سَجِيسَ الليالى[3]، والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام مشمّراً .

---

(١) هوج : جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجاً وحمقاً . (٢) الشكل : دل المرأة وغزلها . (٣) أى لا أقول مثل هذا أبدا ، وهى كلمة تستعمل للتأبيد .

٨٥ — لشعر عمر بن أبى ربيعة نَوْطة بالقلب*

ذُكر شِعرُ الحارث[١] بن خالد وشعرُ عمرَ بن[٢] أبى ربيعة عند أبى عتيق فى مجلس رجلٍ من ولد خالد بن العاص بن هشام، فقال: صاحبُنا – يعنى الحارثَ ابن خالد – أشعرُهما.

فقال له ابن أبى عتيق: بَعْضَ قولك يابنَ أخى! لِشعر عمرَ بن أبى ربيعة نَوْطَةٌ[٣] فى القلبْ، وعُلُوقٌ بالنفس، ودَرَكٌ للحاجة ليست لشعر الحارث، وما عُصِىَ اللهُ عزّ وجل بشعرٍ أكثَر مما عُصِى بشعر عمر بن أبى ربيعة، فخذ عنى ما أصف لك: أشعرُ قريش مَنْ دَقَّ معناه، ولَطُفَ مَدْخَلُه، وسَهُل مَخْرجه، ومَتُن حَشْوُه، وتعطفتْ حواشيه، وأنارتْ معانيه، وأعرب عن حاجته!

فقال المفضّل للحارث: أليس صاحبُنا الذى يقول:

إنّى وما نَحَروا غَدَاة مِنًى ... عندالجمار يَئُودها العَقْلُ[٤]

لو بُدِّلَتْ أعلى مساكِنها ... سُفْلًا، وأصبح سُفْلُها يَعْلُو

فيكاد يعرفها الخبيرُ بها ... فيردُّه الإقْوَاء والمَحْلُ[٥]

لعرفتْ مغْنَاهاَ بما احتملتْ ... منى الضُّلُوعُ لأهلها قَبْلُ

---

* الأغانى: ١ – ١٠٨ (طبعة دار الكتب)، الأمالى: ٢ — ١٧

(١) انظر ص ١٥٣

(٢) هو عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى، اختص شعره بوصف النساء، وعد أنسب الشعراء وأوصفهم لربات الحجال، وكان يقيم بمكة ويتعرض للحجاج، وله فى ذلك أخبار كثيرة توفى سنة ٩٣ هـ.

(٣) النوطة: التعلق. (٤) يئودها: يثقلها، والعقل، الحبس. (٥) أقوت الدار: أقفرت وخلت من أهلها، والمحل: الجدب.

فقال له ابنُ أبى عتيق : يابنَ أخى ؛ استُرْ على نفسك ، واكتُمْ على صاحبك ، ولا تشاهدِ المحافل بمثل هذا ؛ أما تَطَيَّر الحارثُ عليها حين قلبَ ربعَها ، فجعل عاليه سافلَه ، ما بقى إلَّا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارةً من سجِّيل[1] ؛ ابن أبى ربيعة كان أحسنَ صُحْبةً للرَّبْع من صاحبك ، وأجملَ مخاطبة حيث يقول :

سائلَا الرَّبع بالبُلَىِّ[2] وقُولَا ... هجتَ شوقاً لِىَ الغداة طويلا

أينَ حىٌّ حَلُّوكَ إذ أنت محفو ... فٌ بهم آهلٌ أراكَ جميلا !

قال : سارُوا فأمنعوا واستقلُّوا[3] ... وبرغْمِى لو استطعتُ سبيلا

سَئِمُونا وما سئِمْنـا مُقاماً ... وأحبُّوا دَماثةً وسُهُولا

فانصرف الرجُل خَجِلًا مُذْعِناً .

---

(١) السجيل: الطين المتحجر . (٢) البلى: تل قصير . (٣) استقلوا: واصلوا السير وجدوا فى الارتحال .

٨٦ — ابن المسيَّب يفخر بصاحبه*

قال بعض الرواة :

دخلتُ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مع نَوْفل بن مُساحِق ؛ وإنّه امتَمد على يدىَّ إذ مرَرْنا بَسعيد بن المسيّب[1] فى مجلسه ، فسلّمنا عليه ، فردَّ سلامنا ثم قال لنوفل : يا أبا سعيد ؛ من أشعرُ ؟ أصاحبنا أم صاحبُكم ؟ يعنى عبيد الله ابنَ قيس الرقيَّات أو عمر بن أبى ربيعة ـ فقال نوفل : حين يقولان ماذا ؟ فقال : حين يقول صاحبنا :

خليلىَّ مابالُ المطىِّ[2] كأنَّما نراها على الأدبار بالقوم تنْكُص[3]

وقد أبْعَدَ الحادى سُرَاهُنَّ وانتحى بهِنَّ فما يَألو عَجُول مقلِّص[4]

وقد قُطِعَت أعناقهن صَبــابةً فأنفُسُنا مما تكلَّفْ شُخَّصُ

يزِدْنَ بنـــا قُرْباً فيزدادُ شَوْقنا إذا زاد طولُ العهدِ ، والبعدُ يَنْقصُ

ويقول صاحبكم ما شئت ! فقال له نوفل : صاحبكم أشهرُ بالقول فى الغزل ـ أمتع الله بك ـ وصاحبُنا أكثر أفَانين شعر .

قال : صدقت ؛ فلما انقضى ما بينهما من ذِكرِ الشعر ، جعل سعيد يستغفر الله ويعقد بيده ، ويعده بالخمس كلّها ، حتى وفّى مائة .

---

* الأغانى : ٥ ـ ٩٢ (طبعة دار الكتب).

(١) كان سعيد بن المسيب سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع والعبادة ، وله فى كل ذلك أخبار مأثورة، توفى سنة ١٠١هـ . (٢) المطى : جمع مطية : مايركب. (٣) تنكص : ترجع وتولى وتحجم . (٤) مقلص : مشمر جاد فى السير .

قال الراوى : فلما فارقْناه قلت لنوفل : أتراه استغفر الله من إنشاده الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : كلا ! هو كثير الإنشاد والاستشهاد للشعر ، ولكنى أحسبهُ للفخر بصاحبه !

٨٧ — أعشى همدان يهجو ويمدح*

كان أعشى[١] همْدانَ شاعرَ أهل اليمن بالكوفة وفارسَهم ، وكان مع خالد ابن عتّاب بن وَرْقاء الرّياحىّ بالرّى ، فلما قدم خالدٌ من مَغزاه خرج جواريه يتلقّينه ، وفيهنّ أمُّ ولدٍ له كانت رفيعةَ القَدْر عنده ؛ فجعل الناس يمرُّون عليها إلى أن جازَ بها الأعشى ، وهو على فرسه يميل يميناً ويساراً من النُّعاس ، فقالت أم ولد خالد لجواريها : إن امرأة خالد لتفاخرنى بأبيها وعمِّها وأخيها، وهل يزيدون على أن يكونوا مثل هذا الشيخ المُرْتَعِش[٢] !

وسمعها الأعشى فقال : مَنْ هذه ؟ فقال له بعض الناس : هذه جاريةُ خالد ، فضحك وقال لها : إليك عنى يالكْعاء[٣] ؛ ثم أنشأ يقول :

وما يُدْريك ما فرسٌ جَرُورٌ[٤]   وما يُدْريك ما حَمْلُ السلاحِ !
وما يدريك ما شيخٌ كبير   عَدَاه الدهرُ عن سَنَنِ المِراحِ[٥]
فأقسمُ لو ركبتِ الوَرْدَ[٦] يوماً   وليلتَه إلى وَضَحِ الصباحِ

* الأغانى : ٦ — ٢ :

(١) هو عبد الرحمن بن عبدالله ، ويكنى أباالمصبح، شاعر فصيح كوفى من شعراء الدولة الأموية، وكان أحد الفقهاء القراء ، ثم ترك ذلك وقال الشعر، وقتله الحجاج صبراً حين خروجه عليه مع ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ . (٢) تريد الأعشى . (٣) لكعاء : لئيمة . (٤) فرس جرور : لا ينقاد ولا يكاد يتبع صاحبه . (٥) المراح : الاختيال والتبختر . (٦) الورد من الخيل : ما بين الكميت والأشقر .

إذن لنظرت . . . .

فأصبحت الجاريةُ ، فدخلت إلى خالد فشكتْ إليه الأعشى ، وقالت : والله ما تكرَّم ، ولقد اجترئ عليكَ ! فقال لها : وما ذاك ؟ فأخبرته أنها مرّت برجل فى وجه الصبح ، ووصفته له وأنه سبَّها ، فقال : ذلك أعشى همْدان ، فأىّ شىء قال لك ؟ فأنشدته الأبياتَ ، فبعث إلى الأعشى ، فلما دخل عليه قال له : ما تقول هذه ؟ زعمت أنك هجوتَها ، فقال : أساءت سمعاً ؛ إنما قلت :

مررتُ بنسوةٍ متعطّراتٍ كضوْء الصُّبْحِ أو بَيْضِ الأداحى[1]

علَى شُقْرِ البغال فَصِدْنَ قلبى بحسن الدَّلِّ والحدَقِ المِلاحِ

فقلتُ : مَنِ الظباء ؟ فقُلْنَ : سِرْبٌ بدا لَكَ مِن ظباءِ بنى رِياحِ

فقالت : لا ، والله ، وما هكذا . قال . . . وأعادت الأبيات .

فقال له خالد : أما لولا أنها قدْ وَلَدَتْ منى لوهبتُها لك ، ولكنى أفتدى جنايتَها بمثل ثمنها ، فدفعه إليه وقال له : أقسمتُ عليك يا أبا المصبّح ألّا تعيد فى هذا المعنى شيئاً بعد ما فرَط منك .

---

(١) الأداحى : جمع أدحية ، وهى مبيض النعام فى الرمل .

٨٨ — أشجع الناس شعراً*

سأل يوماً عبدُ الملك[١] بن مروان : مَن أشجعُ الناس شعراً ؟ فقيل: عمرو بن معديكرب . فقال : كيف وهو الذى يقول :

فجاشَتْ إلىَّ النَّفْسُ أوَّلَ مرةٍ ... وَرُدَّت على مكْرُوهِها فاسْتَقَرَّتِ[٢]

قالوا : فعمرو بن الإطْنابة . فقال : كيف وهو الذى يقول :

وقوْلى كلَّما جَشأتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحْمَدِى أو تستريحى[٣]

قالوا : فعامر بن الطُّفيل . قال : كيف وهو الذى يقول :

أقول لِنَفْسٍ لا يُجَادُ بمثلها : ... أقِلِّى مِراحاً إننى غيرُ مدبرِ

قالوا : فمن أشْجَعُهُم عند أمير المؤمنين ؟ قال : أربعة : عباس بن مرداس السُّلَمِى ، وقيس بن الخطيم الأوسىّ ، وعنترة بن شدّاد العبسىّ ، ورجل من بنى مُزَينة .

أما عباس فلقوله :

أشدُّ على الكتيبة لا أبالى ... أفيها كان حَتْفى أم سواها

---

* مجمع الأمثال : ٢ — ٢٢

(١) كان عبد الملك بن مروان لبيباً عاقلاجباراً، قوى الهيبة، شديد السياسة، حسن التدبير، تولى الخلافة سنة ٦٥ ، فوطد أركانهـا ، وقتل ابن الزبير وأخاه مصعباً وكانع حتى استقرت له الأمور ، ومات سنة٨٦هـ. (٢) جاشت النفس: اضطربت من الفزع ، وأصل جاشت : غشت وفاضت . (٣) جشأت : ارتفعت من حزن أو فزع .

وأما قيس بن الخطيم فلقوله :

وإنى لَدَى الحربِ العَوَانِ موكّل بتقديم نفسٍ لا أريد بقَاءها

وأما عنترة بن شداد فلقوله :

إذ تتقُون بىَ الأسِنَّةَ لم أخِم[1] عنها ولكن قد تضايق مقْدَمى[2]

وأما المزنى فلقوله :

دعوتُ بنى قُحافة فاستَجَابوا فقلت : رِدُوا فقد طابَ الوُرود

(١) أخم : أجبن . (٢) تضايق مقدمى : تضايق الموضع الذى هو قدامى من أن يدنو منه أحد .

٨٩ — الحجَّاج على قبر ابنه*

لما هلك أبانُ بنُ الحجاج ، وأمه أم أبان بنت النعمان بن بشير ، ودفنه الحجاج[1] قام على قبره ؛ فتمثّل بقول زياد الأعجم :

الآن لمّا كُنْتَ أكْملَ مَن مَشَى ... وافترّ نابُكَ عن شَبَاةِ القَارِحِ

وتكاملَتْ فيك المروءةُ كلُّها ... وأعنْتَ ذلك بالفعالِ الصالحِ !

فلما انصرف إلى منزله قال : أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصارى ؛ فأتاه فقال : أنشدنى مرثيتَك فى ابنك الحسن ، فأنشده :

قد أكْذَبَ اللهُ من نَعَى حَسَناً ... ليس لتكذيبِ موتهِ ثَمَنُ

أَجُولُ فى الدار لا أراكَ وفى الـ ... ـدار أناسٌ جِوَارُهُم غَبَنُ[2]

بُدِّلْتُهم منك ليتَ أنهـم ... أَضْحَوْا وبينى وبينهم عَدَنُ !

فقال له الحجاج : ارثِ ابنى أبان . فقال له : لا أجد به ما كنتُ أجدُ بحسن . قال : وما كنت تجدهُ ؟ قال : ما رأيته قطُّ فشبِعت من رؤيته ، ولا غاب عنى قطّ إلا اشتقتُ إليه .

فقال الحجاج : كذلك كنت أجدُ أبان !

---

* ذيل الأمالى : ٧

(١) انظر صفحة ٣٧ . (٢) ضعف

٩٠ — إن صدقناكَ أغضبناكَ*

شكا الحجّاج يوماً سوء طاعة أهل العراق وسَقَم مذهبهم، وسَخَط طريقتهم؛ فقال له جامع المحاربيّ ـ وكان شيخاً صالحاً خطيباً لَسِناً : أمَا إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك[1] لنسبك، ولا لبلدك، ولا لِذَاتِ نفسك، ولكنهم نَقَموا أفعالك؛ فدعْ ما يُبْعِدهم عنك إلى ما يُدْنيهم منك، والتمس العافية ممّنْ دونك تُعطَها ممّن فوقك، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك، ووعيدُك[2] بعد وعدك.

فقال له الحجّاج : والله ما أرى أن أردّ بنى اللكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف!

فقال جامع : أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار!

فقال الحجاج : الخيارُ يومئذ لله! قال جامع : أجل، ولكن لا تدرى لمن يجعله الله!

فغضب الحجاج وقال : يا هناه[3]، إنك من محارب!

فقال جامع :

وللحربِ سُمِّينا وكان محارباً ... إذا ما القَنَا أمسى من الطَّعْن أحمرَا

فقال له الحجاج : والله لقد هممتُ أن أخْلَع لسانك، وأضربَ به وجهك.

---

* زهر الآداب : ٤ ـ ٤٨، البيان والتبيين : ٢ ـ ٦٨، العقد الفريد : ٢ ـ ١٥١، عيون الأخبار : ٢ ـ ٢١٢

(١) شنئوك : أبغضوك. (٢) الوعيد فى الشر، والوعد فى الخير. (٣) ياهناه : يافلان.

فقال جامع : إن صدَقْنَاكَ أغضبناك ، وإن كَذَبناك أغضبْنَا الله ، وغَضَبُ الأمير أهونُ علينا من غَضب الله.

فقال الحجاج : أَجَلَ ! وسَكَن واشتغل ببعض الأمر ، فخرج جامع ، وانسلّ من صفوف الناس .

٩١ — الحجاج يخطب *

دخل الحجاجُ الكوفة ؛ فصعد المنبر ، فانكسر تحت قدمه لَوْح ، فعلم أنهم قد تطيَّروا له بذلك ، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى ، وقال :

شاهت الوجوه(١) ، وتَبّت(٢) الأيدى، وبُؤْتم بغضب من الله ! إذا انكسر عودُ جِذْع ضعيف تحت قدم أسدٍ شديد تفاءلتم بالشؤم ! إنى على أعداء الله تعالى لأنكدُ من الغراب الأبقع(٣) ، وأشأم من يوم نَحْسٍ مستمر ، وإنى لأعجبُ من لوط وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ؛ فأىُّ ركن أشدُّ من الله تعالى !

أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجّه إلى أمير المؤمنين ، وقد ولَّيْتُ عليكم أخى محمد بن يوسف ، وأمرتُه بخلاف ما أمر به رسول الله مُعَاذاً فى أهل اليمن ؟ فإنه

---

* المستطرف : ٢ — ٨٥

(١) شاهت الوجوه: قبحت . (٢) تبت يداه: خسرتا . (٣) الأبقع: الذى فيه سواد وبياض.

أمره أن يُحْسِنَ إلى مُحْسِنِهم ، ويتجاوزَ عن مُسيئِهم ؛ وقد أمرتُه أن يسيء إلى محسنكم ، وألّا يتجاوز عن مسيئكم .

وأنا أعلم أنكم تقولون بعدى : لا أحسَن الله له الصحابة ! وأنا معجّل لكم الجواب ؛ لا أحسنَ الله عليكم الخلافة ! أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم .

٩٢ — جميل أشعر الناس*

حدّث أحد الرواة فقال :

دخلَ علينا كُثيِّر[١] يوماً وقد أخذ بطرف رَيْطَتِهِ[٢] ، وألقى طرَفها الآخر وهو يقول : هو واللهِ أشعرُ الناس حيث يقول :

وخبَّرْتُمَانى أنَّ تَيْمَاءَ[٣] منزلٌ   لليلى إذا ما الصَّيفُ ألقى المَراسِيَا

فهذى شهورُ الصيفِ عنى قد انقضتْ   فما لِلنَّوى تَرْمِى بليلى المراميَا !

ويجرُّ رَيْطته حتى يبلغ إلينا ، ثم يولّى عنا ويجرُّها ويقول : هو والله أشعرُ الناس حيث يقول :

وأنتِ التى إن شئتِ كدّرتِ عِيشتى   وإن شئت بعد الله أنعمت باليَا

وأنتِ التى ما مِنْ صديقٍ ولا عِدًا   يرى نِضْوَ ما أبقيتِ إلّا رَثَى ليَا

ثم يرجع إلينا ويقول : هو والله أشعر الناس ؛ فقلنا : مَنْ تعنى ياأبا صخر ؟ قال : ومَنْ أعنى سِوَى جميل ! هو والله حيث يقول هذا .

---

* الأغاني : ٨ ـ ١٢٥ (طبعة دار الكتب) .

(١) كثير بن عبدالرحمن: شاعر من أهل الحجاز ، أخباره مع عزة كثيرة، توفى سنة ١٠٥ .

(٢) الريطة: كل ملاءة غير ذات لفقين ؛ كلها نسج واحد وقطعة واحدة . (٣) تيماء لبنى عذرة.

٩٣ — مَنْ أشْعَر الناس ؟*

قال عبد الملك بن مسلم : كتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج : إنه لم يبق شيء من لَذَّة الدنيا إلا وقد أصبتُ منــه ، ولم يَبْقَ لى إلا مُناقَلَةُ[1] الإخوان الأَحاديث، وقِبَلك عَامِرٌ الشعبي[2] ، فابعث به إلىّ يحدّثنى .

فدعا الحجاج بالشعبيّ وجهَّزَه ، وبعث به إليه ، وأطْرَاهُ فى كتابه .

فخرج الشّعبيّ ، حتى إذا كان بباب عبد الملك قال للحاجب : استأذنْ لى ، فقال : ومنْ أنت ؟ قال : عامر الشعبيّ ، قال : حَيَّاك الله ! ثم نهض ، وأجلسه على كرسيّه ، فلم يلبث أن خرج إليه فقال : ادخل .

قال الشعبيّ : فدخلت فإذا عبد الملك جالس على كرسيّ ، وبين يديه رجل أبيضُ الرَّأس واللحية على كرسيّ ، فسلّمتُ فردَّ السلام ، ثم أَوْمَأَ إلىَّ ، فقعدتُ عن يساره ، ثم أقبل على الذى بين يديه فقال : ويحك ! من أشعر الناس؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين ! فأظلم علىّ ما بينى وبين عبد الملك ، ولم أصبر أن قلت : ومَنْ هذا يا أمير المؤمنين الذى يزعم أنه أشعر الناس ؟ فَعجِب عبدُ الملك من عَجَلتى قبل أن يسألنى عن حَالى ، ثم قال : هذا الأخطل ! فقلت : يا أخطل ، أشْعَرُ منك الذى يقول[3] :

* أمالى المرتضى : ٣ — ١٠١ ، خزانة الأدب : ٢ — ١١٨ (المطبعة السلفية) ، الأغانى : ٩ : ١٦٢ (طبعة الساسى) .

(١) المناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك . (٢) هو عامر بن شراحيل. كوفى المنشأ، تابعى جليل القدر وافر العلم ، يقال إنه أدرك خمسمائة من الصحابة . توفى سنة ١٠٣ هـ.

(٣) قال النابغة هذا الشعر حين نظر إلى النعمان بن الحارث أخى عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر بن أبي شمر (مهذب الأغانى : ٢ — ٢٣٠) .

هـــذا غـلامٌ حسنٌ وجهه ... مقتبـــلُ الخـــير سريع التمامْ

للحارث الأكبر والحارث الأصـ ... ـغر والأعرج خــــير الأنامْ

ثم لهنـــدٍ ولهنـــد ، فقـدْ ... ينْجعُ فى الرّوضـاتِ ماء الغمامْ

خمســـــةُ آباء هُمُ ما هُمُ ... هُمْ خيْرُ مَنْ يشربُ صَوْبَ المدامْ

فقال عبد الملك : ردِّدها علىّ ، فرددتُها حتى حفظها ؛ فقال الأخْطَل : مَنْ هذا يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : هذا الشَّعبىّ ، قال : صدق والله، النابغة أشعرُ منى!

قال الشعبىّ : ثم أقبلَ علىّ عبد الملك فقال : كيف أنت ياشعبىّ ؟ قلت: بخير- قال : لا زلتَ به — ثم ذهبتُ لأصنعَ معاذيرى لما كان من خِلافِى على الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد الأشعث .

فقال : مَهْ ! فإنا لا نحتاج إلى هذا المنطق ، ولا تراه منا فى قولٍ ولا فعل حتى تُفارقَنا ، ثم أقبل علىّ فقال : ما تقول فى النابغة ؟ قلت : يا أميرَ المؤمنين ، قد فَضَّله عمرُ بن الخطاب فى غير موطن على جميع الشعراء ، وذاك أنَّهُ خَرَج يوماً وببابه وَفْد غَطفان ، فقال : يامَعشر غطفان ، أىّ شعرائكم الذى يقول :

حَلَفتُ فلم أترُكْ لنفسكَ ريبةً ... وليس وَراء الله للمرء مَذْهَبُ

ألمْ تَرَ أن الله أعطاكَ سَوْرةً ... ترى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبُ

كأنكَ شمس والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتْ عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذبُ

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه ... على شعثٍ ؛ أىّ الرجال المهذبُ!

قالوا : النابغة ؛ قال : فأيّكم الذى يقول:

فإنَّكَ كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلتُ أن المنتأى عنكَ واسعْ
خطاطيف[1] حُجْنٌ فى حبال متينة ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازِعُ

قالوا : النابغة ؛ قال: أيّكم الذى يقول :

إلى ابن مُحَرِّقٍ أَعْمَلْتُ نفسى ... وراحلتى وقد هدتِ العُيُون
أتيتُكَ عارياً خَلَقاً ثيابى ... على خوفٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنُونُ
فألفيتَ الأمانةَ لم تَخُنْهَا ... كذلك كان نوحٌ لا يَخُونُ

قالوا : النابغة . قال : هذا أشعر شعرائكم . ثم أقبل عبدُ الملك على الأخطل فقال : أتحبّ أنّ لك قياضاً[2] بشعرك شعر أحد من العرب ؟ أو تحبّ أنك قلته؟ فقال : لا والله ، إلا أنى وددت أنى كنت قلت أبياتاً قالها رجل منّا ؛ كان والله مُغْدِف[3] القناع ، قليل السماع ، قصير الذراع . قال : وما قال ؟ فأنشده :

إنّا محيُّوك فاسلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإن بليتَ وإن طالَتْ[4] بك الطِّوَلُ
ليس الجديدُ بهِ تبقَى بَشاشَتُهُ ... إلّا قليلًا ولا ذو خَلّةٍ يصلُ
والعيشُ لا عيشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عينٌ ، ولا حالَ إلا سوف تنتقلُ
والناسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له ... ما يشتهى ؛ ولأمّ المخطئ الهَبَلُ
قد يدرِكُ المتأنّى بعض حاجتهِ ... وقد يكون مع المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

قالَ الشعبىّ : فقلت : قد قال القَطَامىُّ أفضلَ من هـــذا ، قال : وما قال ؟ قلت : قال :

طرقَتْ جنوبُ رحالَنَا من مَطْرِقٍ ... ما كنتُ أحسبهُ قريب المَعْنقِ

---

(١) الخطاف : حديدة حجناء تعقل بها البكرة ، والحجن : الاعوجاج .
(٢) المقايضة : المبادلة والمعاوضة . (٣) أغدف قناعه : أرسله على وجهه . (٤) يقال : طال طولك أى عمرك .

حتى أتيتُ على آخرها ، فقال عبد الملك : ثكلَتِ القطاميَّ أمُّه ! هـذا والله الشعر ، ثم قال: ياشعبيّ، أيّ شعراء الجاهليَّة كان أشعر من النساء ؟ قلت : الخَنْساء. قال : ولِمَ فَضَّلْتَها على غيرها ؟ قلت : لقَوْلِها :

وقائلةٍ والنّعشُ قد فاتَ خَطْوَهَا ... لتدركَه: يالَهفَ نفسى على صَخْرِ !

ألا ثكِلتْ أمّ الذين غَدَوْا به ... إلى القبر، ما ذا يحملون إلى القَبْرِ !

فقال عبد الملك : أشعر والله منها ليلى الأخيليّة حيث تقول:

مُهَفْهَفُ الكَشْحِ والسِّرْبالُ مُنْخَرِقٌ ... عنه القميصُ لِسيْرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ

لا يأمَنُ النـاسُ مُمْسَاه ومُصْبَحَهُ ... فى كلّ حَيّ ، وإنْ يَغْزُوه يُنْتَظَرُ

ثم قال : يا شَعْبيّ ، لعلّه شقّ عليك ماسمعتَه ! فقلت : إى والله ياأمير المؤمنين أشد المَشقّة ، إنى قد حدّثتُك فلم أُفِدْكَ إلا أبيات النّابغة فى الغلام .

ثم قال عبد الملك : يا شَعْبيّ ، إنما أعلمناك هذا ، لأنه بلغنى أن أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام ويقولون : إن كانوا غلبونا على الدّولة ، فلَنْ يغلبونا على العلم والرواية ، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق . ثم رَدَّدَ علىّ أبياتَ ليلى حتى حفظتُها ، وأذن لى فانصرفت ، فكنت أوّلَ داخل وآخر خارج .

٩٤ — الشعبيّ عند عبد الملك بن مروان*

قال الشعبيُّ : دخلت على عبد الملك بن مروان في عِلّتِه التي مات فيها ، فقلتُ : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ياشعبيّ ؛ أصبحت كما قال عَمْرو بن قميئة[1] :

كأني وقد جاوزتُ تِسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عنّي عِنَانَ[2] لجامي

رمَتْني بناتُ الدهرمن حيثُ لاأرى ... فكيف بمن يُرْمى وليس بِرَامِ !

فلو أنني أُرْمَى بنبْلٍ رميتُها ... ولكنني أُرْمَى بغيرِ سِهَامِ

وأهلكني تأميلُ يومٍ وليلةٍ ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعامِ

على الراحتين تارة وعلى العصا ... أَنُوء ثلاثاً بَعْدَهنّ قيامي

فقلت : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لَبيد ، وقد بلغ سبعين حجة :

كأني وقد جاوزتُ سبعين حجةً ... خلعتُ بها عن منكِبيّ رِدائيَا

فلما بلغ سبعاً وسبعين سنةً قال :

باتت تَشَكّى إليّ النفسُ مُجْهِشَةً[3] ... وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

فإن تُزَادِي ثلاثاً تَبْلُغِي أملًا ... وفي الثلاثِ وفاء للثمانينا

فلما بلغ مائةَ سنة قال:

---

* الأغاني : ١٦ — ١٠٩ (طبعة الساسي) ، مهذب الأغاني : ٢ — ٦٢

(١) هو عمرو بن قميئة : شاعر جاهلي مقدم ؛ أقام في الحيرة مدة ، وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلى قيصر ، فمات في الطريق . (٢) عنان اللجام : السير الذي يشد به . (٣) الجهش والإجهاش أن يفزع الإنسان إلى غيره ، وهو مع ذلك كأنه يريد البكاء.

ولقد سئمتُ من الحياةِ وطولها   وسؤالِ هذا الخَلْق كيف لبيد !

فلما بلغ مائةَ سنة وعشرا قال :

أليس ورائى إن تراخت مَنِيَّتى   لزوم العصا تُحْنَى عليها الأصابع

أخبّر أخبار القرون التى خَلَتْ   أدِبّ كأنى كلمـــا قمت راكع

فلما بلغ الثلاثين ومائة سنة ، وقد حضَرتْهُ الوفاة قال :

تمنّى ابْنَتاىَ أنْ يعيشَ أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ !

فإن حان يوماً أن يموت أبوكما   فلا تخمِشا وَجْهاً ولا تحلقا الشَّعَرْ

وقولا : هو المرء الذى لا صَديقَه   أضاع ، ولا خانَ الخليلَ ولا غَدَر

إلى الحوْل ثم اسمُ السّلامِ عليكما   ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقداعْتَذَرْ[1]

قال الشعبىّ : فتبسّم عبد الملك وقال : لقد قويت من نفسى بقولك يا عامر ، وإنّى لأجد خفًّا وما بى من بأس ، وأمر لى بصِلة . وقال لى : اجلس يا شعبىّ ؛ فحدّثنى ما بينك وبين الليل . فجلست فحدّثته حتى أُمسيتُ وخرجت من عنده ، فما أصبحت حتى سمعت الواعية فى داره[2] .

---

(١) اعتذر : أتى بعذر . (٢) الواعية : الصراخ والصوت .

٩٥ — تلطُّف عبد الله بن الحجّاج*

كان عبد الله بن الحجاج شجاعا فاتـكا صُعلوكا من صعاليك العرب ، وكان متسرّعا إلى الفِتَن ، فكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك ابن مروان .

فلمّا ظفر به عبد الملك هرب إلى ابن الزّبير ، فكان معه حتى قُتِل ، ثم جاء إلى عبد الملك متنكّرا ، واحْتال حتى دخل عليه ، وهو يطعم النـــاس ، وجلس حَجْرَةً(١) فقال له : ما لك ياهذا لا تأكل ؟ قال : لاأستحلُّ أنْ آكل حتى تأذنَ لى . قال : إنى قد أذنت للناس جميعاً ، قال : لم أعلم ، أفآكل بأمرك ؟ قال : كُلْ. فأكل وعبد الملك ينظر إليه ويَعجب من فعله .

فلما أكل الناس جلس عبد الملك فى مجلسه، وجلس خواصُّه بين يديه، وتفرّق الناس ، فجاء عبد الله ووقف بين يديه ، واستأذنه فى الإنشاد فأذن له ، فأنشد :

أبلِـغْ أميرَ المؤمنين فإننى ... مما لقيت من الحوادث مُوجَع

مُنِـعَ القرارُ فجئت نحوك هارباً ... جيش يُجَرُّ ، ومِقْنَبٌ يتلمع(٢)

فقال عبد الملك : وما خوفُك لا أمّ لك ؟ فقال عبد الله :

إن البلادَ علىَّ وهْى عريضةٌ ... وَعِرَتْ مذاهبُها ، وسُدَّ المطلع

فقال عبد الملك : ذلك بما كسبت يداك ، وما اللهُ بظلّام للعبيد ، فقـــال عبد الله :

---

* الأغانى : ١٢ — ٢٥ (طبعة الساسى) .

(١) حجرة : منفردا فى ناحية : (٢) المقنب : جماعة الخيل تجتمع للغارة ، ويتلمع : يضىء .

إنّ الذى يَعصيك منّا بعدها ... من دينــه وحياته متودّع

آتى رضاك ولا أعود لمثلهـا ... وأطيع أمرك ما أمرتَ وأسمع

فقال له عبد الملك : هذا لا نقبله منك إلّا بعد المعرفة بك وبذنبك، فإذا عرفت الحَوْبة[١] قبلت التوبة ؛ فقال عبد الله :

ولقد وطئتَ بنى سعيدٍ وطأةً ... وابنَ الزبير فعرشُه متضعضعُ

فقال عبد الملك : لله الحمد والمنّة على ذلك ، فقال عبد الله :

مازلت تضرب منكباً عن منكبٍ ... تعلو ويَسْفُل غـيركم ما يُرفع

لا يستوى خاوى نجومٍ آفلٌ ... والفجر منبلجـاً إذا ما يطلـعُ

وُضِعَتْ أميـة واسطين لقومهم ... وَوُضِعْتَ وسْطَهمُ فنعم الموضـع

بيتٌ أبو العاصى بنـاه بِرَبْوةٍ ... عالى المشـارف عزُّه ما يُدفَعُ

فقال له عبـد الملك : إن توريتك عن نفسك لَتريبنى ، فأىُّ الفسقة أنت ! وماذا تريد ؟ فقال :

حَرَبَتْ[٢] أُصَيْبِيَتِى يدٌ أرسلتَها ... وإليك بعد مَعـادها ما ترجع

وأرى الذى يرجُو تُراثَ محمـد ... أفَلَتْ نجومهمُ ونجمُك يَسْطَعُ

فقال عبد الملك : ذلك جزاء أعداء الله ، فقال عبد الله :

فارحم أصيبيتى الذيـن كأنهم ... حَجْلَى تَدرَّج بالشربَّةِ وُقَّعُ[٣]

فقال عبد الملك : لا أنعشهم الله، وأجاع أكبادهم ، ولا أبقى وليداً من نسلهم، فإنهم نَسْلُ كافر فاجر لا يبالى ما صنع ، فقال عبد الله :

---

(١) الحوبة : الإثم . (٢) حربه : سلب ماله ، وأصيبية : تصغير صبية . (٣) الحجلى : حيوان ، والشربة : موضع بنجد .

مال لهم ممّا يُضَنّ جمعته يوم القَلِيبِ لحيزَ عنهمْ أجمعُ

فقال له عبد الملك : لملك أخذته من غير حلّه وأنفقته فى غير حقّه ، وأرصدت به لمشاقّة أولياء الله ، وأعددته لمعاونة أعدائه ، فنزعه منك إذا استظهرتَ به على معصية الله . فقال عبد الله :

أدْنُو لترحمنى وتجبُر فاقتى[1] فأراكَ تدفعُنى،فأينَ المَدْفَع!

فتبسم عبد الملك وقال له : إلى النار ! فمن أنتَ ؟ قال : أنا عبد الله بن الحجاج؛ وقد وطئت داركَ ، وأكلت طعامَك ، وأنشدتُك ، فإن قتلتنى بعد ذلك فأنت وما تراه ، وأنت بما عليك فى هذا عارف ! ثم عاد إلى إنشاده فقال :

ضاقت ثيابُ الملبِسين وفَضْلهم عنّى ، فألبسنى فثوبكَ أوْسَعُ

فنبذ عبد الملك إليه رداء كان على كتفه ، وقال: البسه لا لبست ! فالتحف به، ثم قال له عبد الملك : أولى لك ! والله لقد طاولتك طمعا فى أن يقوم بعضُ هؤلاء فيقتلك . فأبى الله ذلك ، فلا تجاورنى فى بلد ، وانصرف آمنا ، وأقم حيث شئتَ !

(١) الفاقة : الفقر .

— نُصيب عند عبد العزيز بن مروان*

قال نُصَيْب[١] : قلتُ الشعر وأنا شابٌ فأعجبنى قولى ؛ فجعلت آتى مَشْيخة من بنى ضَمْرة ، ومَشْيخة[٢] من خُزاعة، فأُنشِدهم القصيدةَ من شعرى، أَنْسُبُهَا إلى بعضِ شعرائهم الماضين فيقولون : أحسن والله ! هكذا يكونُ الكلام ! وهكذا يكون الشعر .

فلما سمعتُ ذلك منهم علمت أنى مُحسِن ؛ فأزمعوا وأزمعت الخروجَ إلى عبدالعزيز بنِ مروان، وهو يومئذٍ بمصر؛ فقلت لأختى أُمامة ـ وكانت عاقلةً جَلْدة: أى أُخَيَّة؛ إنّى قد قلتُ شعراً، وأنا أريد عبد العزيز بن مَروان، وأرجو أن يُعتِقَكِ اللهُ به وأُمّكِ ومن كان مَرْقُوقاً[٣] من أهل قَرَابتى .

قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون! يابن أُمّ : أتجتمع عليك الخصلتان : السوادُ، وأن تكون[٤] ضُحْكةً للناس ! قلت : فاسمعى . فأنشدتها فسمعت ، فقالت : بأبى أنت ! أحسنت والله ! فى هذا رجاء عظيم ، فاخرُجْ على بركة الله .

فخرجتُ على قَعُودٍ لى حتى قدمتُ المدينة ، فوجدت بها الفرزدق فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعرَّجت إليه فقلت : أُنْشِدُهُ وأَسْتَنْشِدُهُ، وأعرض عليه شعرى . فأنشدته ، فقال لى : ويلك ! أهذا شعرك الذى تطلب به الملوك ! قلت:

* الأغانى : ١ ـ ٣٢٥ (طبعة دار الكتب) .

(١) هو نصيب بن رباح . كان رقيقاً لبعض العرب ، ثم اشتراه عبد العزيز ، وكان شاعراً فحلا مقدماً فى النسيب والمديح، وكان عفيفاً كبير النفس يجيد مدائح الملوك ومراثيهم، توفى سنة ١٠٠هـ.

(٢) المشيخة : الشيوخ . (٣) مرقوقاً : صار فى رق . (٤) الضحكة بسكون الحاء : من يضحك الناس منه .

نعم . قال : فلستَ فى شىء . إن استطعتَ أن تكتم هـذا على نفسك فافعل ! فانفضختُ[1] عرقاً !

فصحبنى رجل من قريش كان قريباً من الفرزدق ، وقد سمع إنشادى ، وسمع ما قالَ لى الفرزدق ؛ فأومأ إلىَّ ؛ فقمت إليه ، فقال : ويحك ! أهذا شعرُك الذى أنشدتَه الفرزدق ؟ قلت : نعم . فقال : قد والله أصبتَ ، ولئن كان هـذا الفرزدق شاعراً لقد حَسَدَكَ ، فإنّا لنعرف محاسنَ الشعر ؛ فامض لوجهك ، ولا يكسرنَّك .

فسرَّنى قوله ، وعلمت أنه قد صدَقنى فيما قال، فاعتزمتُ على المضىِّ، فمضيت!

فقدمت مصرَ وبها عبدُ العزيز بنُ مرْوان، فحضرتُ بابه مع الناس، فَنُحِّيتُ عن مجلس الوجوه ، فكنتُ وراءهم ، ورأيتُ رجلا جاء على بَغْلة ، حسنَ الشارة ، سهل المدخل، يُؤْذَن له إذا جاء. فلما انصرف إلى منزله انصرفت معه أماشى بَغْلَتَه، فلما رآنى قال : ألك حاجة ؟ قلت: نعم! أنا رجلٌ من أهل الحجاز ، شاعر ، وقد مدحتُ الأمير ، وخرجتُ إليه راجياً معروفَه ، وقد ازدُريت فطردت من الباب ، ونُحِّيتُ عن الوجوه . قال : فأنشدنى . فأنشدته ، فأعجبَه شعرى ، فقال : ويحك ! أهذا شعرك ؟ فإياك أن تَنْتَحِل ! فإن الأمير راويةٌ عالم بالشعر ، وعندهُ رُواةٌ، فلا تَفْضَحْنى ونفسَك ، فقلت : والله ما هو إلا شعرى . فقال : ويحك ! فقل أبياتاً تذكر فيها حَوف[2] مصر وفضلَها على غيرها ، والْقَنى بها غداً .

فغدوت عليه من غد فأنشدته قولى :

سَرَى الهمُّ تَثْنِينى إليك طلائِعُه ... بمصر وبالحَوْف اعترتنى روائعهْ

(١) انفضخت عرقاً: تدفقت عرقاً . (٢) الحوف: بمصر حوفان : الشرقى والغربى وهما متصلان.

وبات وسادى ساعدٌ قلَّ لحمه عن العظم حتى كاد تبدُو أشاجِعُه[1]

قال : وذكرتُ فيها الغيثَ فقلت :

وكم دون ذاك العارضِ البارقِ الذى له اشتقْتُ من وجهٍ أسيلَ مَدَامعهْ

تمشّى به أفناء[2] بكر ومذحجٍ وأفناء عمرو ، وهْو خِصْبٌ مرابعهْ

فكلُّ مسيلٍ من تهامةَ طيب دميثُ الرُّبا تسْقِى البحارَ دَوَافِعُه[3]

أعِنّى على برق أُريكَ وميضَه تضىءُ دُجُنّاتِ الظلامَ لوامِعُه

إذا اكتحلتْ عينا محبٍّ بضوئه تجافت به حتى الصباح مضاجِعُه

فقال : أنت والله شاعر ! احضُرْ بالباب حتى أذكُركَ للأمير .

قال : فجلستُ على الباب ودخل ، فما ظننتُ أنه أمكنه أن يذكرنى حتى دعا بى ، فدخلت على عبد العزيز ، فسلّمت ، فصعّد فىَّ بصره وصوَّبَ ، ثم قال : أنت شاعر ، ويلك ! قلت : نعم أيها الأمير ! قال : فأنشدنى ، فأنشدته فأعجبه شعرى .

وجاء الحاجب فقال : أيها الأمير ، هذا أيمن بن خُرَيم الأسدى بالباب . قال : ائذنْ له . فدخل فاطمأنّ ، فقال له الأمير : ياأيمن ، كم ترى ثمن هذا العبد؟ فنظر إلىّ فقال : والله لنعم الغادى فى أثَر المخاض[4] ، هذا أيها الأمير ؟ أرى ثمنه مائة دينار . فقال : فإن له شعراً وفصاحة ! فقال لى أيمن : أتقول الشعر ؟ قلت : نعم . قال : قيمته ثلاثون ديناراً . قال : يا أيمن ، أرْفَعُهُ وتخفضه أنت ؟ قال : لكونه أحمق أيها الأمير ، ما لهذا وللشعر ؟ مثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ؟ فقال : أنشده يانصيب ، فأنشدته .

---

(١) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف . (٢) أفناء بكر ومذحج : أخلاط الناس . (٣) الدوافع : مسايل الماء . (٤) المخاض الحوامل من النوق، وهو يريد : لنعم هذا العبد يرعى الإبل .

فقال له عبد العزيز : كيف تسمع ياأيمن ؟ قال : هو أشعر أهل جِلْدته . قال : هو والله أشعرُ منك . قال : أمِنّى أيها الأمير ! قال : إى والله منك . قال : والله أيّها الأمير إنك لَمَلُولٌ طَرِفٌ[1] . قال : كذبت ، والله ما أنا كذلك ، ولو كنت كذلك ماصبرت عليك تنازعنى التحية ، وتوا كلنى الطعام ، وتتكئ على وسائدى وفرُشى ، وبك ما بك ! وكان بأيمن بياض .

قال : ائذن لى أن أخرج إلى بِشْر بالعراق[2] ، واحملنى على البريد . قال : قد أذنتُ لك وأمر به فحُمِل على البريد إلى بشر ، فقال فيه يمدحه ويعرض بأخيه عبد العزيز :

ركبتُ من المقطّم فى جُمَادى ... إلى بشر بن مَرْوان البريدَا
ولو أعطاك بشرٌ ألفَ ألفٍ ... رأى حقًّا عليـــه أن يزيدَا
أميرَ المؤمنين أقم ببِشْرٍ ... عمودَ الحـــقّ إنّ له عمودَا
ودَعْ بشراً يقوِّمُهمْ ويحدثْ ... لأهل الزيغ إسلاماً جـدِيدَا
كأن التاجَ تاج بنى هِرَقْلٍ ... جلَوْهُ لأعظم الأيام عيــدَا
على ديباجِ خدَّىْ وَجْه بشرٍ ... إذا الألوانُ خالفتِ الخدودا[3]

قال : فأعطاه بشر مائة ألف درهم .

---

(١) يقال رجل طرف : إذا كان لا يثبت على عهد . (٢) بشر بن مروان: أخو عبد العزيز ابن مروان . (٣) فى قوله هذا يعرض بكلف كان بوجه عبد العزيز بن مروان .

٩٧ — سليمان بن عبد الملك وسميُّه*

أقبَلَ على سليمان[١] بن عبد الملك فتى من بنى عبس وَسِيمٌ ، فأعجبه ، فقال : ما اسمك ؟ قال : سليمان ، قال : ابنُ مَنْ ؟ قال : ابنُ عبد الملك ! فأعرض عنه ؛ وجعل يُفْرِضُ[٢] لِمَنْ دونه ، فعلم الفتى أنه كره موافقة اسمه واسم أبيه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، لا عدمتَ اسْمَك ، ولا شقى اسمٌ يوافق اسمَك ، فارْضَ ؛ فإنما أنا سيفٌ بيدك ، إن ضرَبْتَ به قطعْتَ ، وإن أمرْتَنى أطَعْتُ ؛ وسهمٌ فى كنانتك أشتدُّ إن أرْسلتُ ، وأنفُذُ حيث وجِّهت .

فقال له سليمان وهو يختبره : ما قولك يا فتى لو لقيتَ عدوا ؟ قال : أقول : حسبى الله ونعم الوكيل ! قال سليمان : أكنتَ مكتفياً بهذا لو لقيت عدوّك دون ضربٍ شديد ؟

قال الفتى : إنما سألتَنى يا أمير المؤمنين : ما أنت قائل ؟ فأخبرتُك ، ولو سألتنى ما أنت فاعل ؛ لأنبأتُك ، إنه لو كان ذلك لضربتُ بالسيفِ حتى يتعقّف[٣] ، ولطعنتُ بالرمح حتى يتقصَّف !

فأعْجب به سليمان وألحقَه فى العطاء بالأشراف ، وتمثل :

إذا ما اتّقَى اللهَ الفتى ثم لم يكن ... على قومه كَلًّا فقد كَمَلَ الفتى

---

* ابن أبى الحديد : ١ ــ ٣٢٢

(١) كان سليمان ملكا غيورا ، نهماً يحب الطعام؛ كما كان فصيحاً لسناً ، توفى سنة ٩٩ هـ

(٢) يقال: أفرض له : إذا جعل له فريضة ، والفريضة، البعير المأخوذ فى الزكاة، ثم اتسع فيه حتى سمى البعير فريضة من غير الزكاة . (٣) التعقيف : التعويج .

٩٨ — عقيد النَّدى*

قال الحارث بن سليمان : شهدت مجلس أمير المؤمنين سليمانَ بنِ عبد الملك ، وأتاه سعيدُ بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ أتيتُك مُسْتَعْدِياً . قال : ومَنْ بكَ ؟ قال : موسى شَهَوَات[١] . قال : وماله ؟ قال : سَمَّعَ[٢] بي ، واستطال في عِرْضي .

فقال : يا غلام ؛ عليَّ بموسى ، فأْتِني به ، فأُتِيَ به ، فقال: ويلك ! أَسَمَّعْتَ به واسْتَطَلْتَ في عِرْضِهِ ؟ قال : ما فعلتُ يا أميرَ المؤمنين ، ولكنّي مدحتُ ابنَ عمه فغضب هو .

قال : وكيف ذلك ؟ قال : أردتُ شراء جاريةٍ لم يبلغ ثمنها جِدَتِي[٣] ، فأتيتُه وهو صديق ، فشكوتُ إليه ذلك ، فلم أصب عنده شيئاً ، فأتيتُ ابنَ عمه سعيدَ ابن خالد ، فشكوت إليه ما شكوتُه إلى هذا : فقال : تَعُودُ إليَّ؛ فتركته ثلاثاً ثم أتيتُه ، فَسَهَّلَ مِنْ إذْني ، فلما استقر بي المجلس قال : يا غلام ؛ قل لقَيِّمي : هاتِ وديعتي .

فَفَتَحَ باباً بَيْن بَيْتَيْنِ ، وإذا بجارية ، فقال لي : أهذهِ بُغَيَتُكَ ؟ قلت : نعم ،

---

* الأغاني ٣ : ٣٥٣ (طبعة دار الكتب) .

(١) هو موسى بن يسار مولى قريش ، ويكنى أبا محمد ، وشهوات لقب غلب عليه ، كان سؤولا ملحفاً ، فكان كلما رأى مع أحد شيئاً يعجبه من مال أو متاع أو ثوب أو فرس تباكى ، فإذا قيل له: مالك ؟ قال: أشتهي هذا، فلقب موسى شهوات. (٢) سمع به في الناس: شهره وفضحه.

(٣) الجدة : الغنى ، ويريد هنا ماعنده من مال .

فِدَاكَ أبى وأمى! قال : اجلس : ثم قال : ياغلام ؟ قل لقَيِّمتى : هاتى ظَبْيَةَ[1] نفقتى. فَأَتى بظَبْيَة ، فنُثِرَتْ بين يديه ، فإذا مائةُ دينار ، فَرُدَّتْ فى الظَّبْيَةِ . ثم قال : عتيدةَ طيبى[2] ، فأُتِىَ بها؛ ثم قال : مِلْحَفَةَ[3] فراشى، فأُتِىَ بها؛ فصيَّرَ ما فى الظبية وما فى العتيدة فى حواشى المِلحفة ، ثم قال : شأنك بالجارية واستعن بهذا .

فقال له سليمان بن عبد الملك : فذلك حين تقولُ ماذا ؟ قال : قلت :

أبا خالدٍ - أعْنِى سعيدَ بن خالد أخا العُرف ، لاأعنى ابنَ بنت سعيدِ
ولكننى أعْنِى ابنَ عائشةَ الذى أبُو أبويه خالدُ بن أسيدِ
عقيدُ[4] الندى ماعاش يرضَى به الندى فإنْ مات لم يرضَ الندى بعَقيدِ
دَعوهُ دَعُوهُ إنكم قد رقدتمُ وما هو عن أحسابكم برَقُودِ
قَتَلْتَ أناساً هكذا فى جلودهم من الغيظ لم تقتلهمُ بحديدِ

فقال سليمان : علىَّ يا غلام بسعيد بن خالد ، فأُتِىَ به، فقال : أحَقٌّ ما وصفك به موسى ؟ قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فأعاد عليه . فقال : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين . قال : فما طوَّقتكَ هذه الأفعال ؟ قال : دَيْن ثلاثين ألف دينار . فقال له : قد أمرت لك بمثلها وبمثلها وبثلث مثلها ، فحملت إليه مائة ألف دينار .

قال الحارث : فلقيت سعيدَ بن خالد بعد ذلك فقلت له : ما فعل المالُ الذى وصلك به سليمان ؟ قال : ما أصبحتُ واللهِ أَمْلكُ منه إلا خمسين ديناراً . قلتُ : ما اغْتَالَه ؟ قال : خَلَّةٌ[5] من صديق ، أو فَاقةٌ من ذى رَحِم .

---

(١) الظبية هنا : جراب صغير من جلد ظبى. (٢) العتيدة : الحقة يكون فيها طيب الرجل أو العروس . (٣) الملحفة : الملاءة . (٤) عقيد الندى : حليف الكرم . (٥) الخلة : الحاجة والفقر .

٩٩ — خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء*

لمّا استخلف عمر[١] بن عبد العزيز وفدتْ إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أيّاماً لا يَأذنُ لهم بالدخول حتى قدم عديّ بن أرْطَاة على عمر — وكانت له منه مكانة — فقال جرير :

يا أيّهَا الرَّجُل المُزْجِي مَطِيَّتَه ... هذا زمانك إنى قدْ مَضى زَمَنى

أبلغْ خليفَتَنا إن كنتَ لاقِيَهُ ... أنى لدى الباب كالمصْفُود[٢] فى قَرَن

وحْشُ المكانة من أهلى ومن ولدى ... نائى المَحَلّة عن دارى وعن وَطَنى

فقال : نعم أبا حَزْرَة[٣] ونُعْمَى عيْن؟ فلما دخل على عمر قال: ياأميرَ المؤمنين؛ إن الشّعراء ببابك ، وأقوالُهم باقية ، وسهامُهم مسنونة .

قال : يا عدى ، مالى وللشعراء ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله قد مُدح وأعطى ؛ وفيه أسوةٌ لكل مسلم . قال : مَنْ مدحه ؟ قال : عباس بن مِرْدَاس ؛ فكساه حلّةً قطع بها لسانه .

---

* العقد الفريد : ١ ـ ١٠٨ ، ثمرات الأوراق : ١ ـ ٧١

(١) ولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ، وكان من خيار الخلفاء عالماً ، زاهداً ، عابداً ، تقياً ، سار سيرة رضية ، وسلك المثل الأعلى فى الحكم. توفى سنة ١٠١هـ.

(٢) صفده : أوثقه . (٣) هو جرير .

قال : صدقت ، فمن بالباب منهم ؟ قال : ابنُ عمك عمرُ بنُ أبى ربيعة القرشى.
قال : لا قرّب اللهُ قرابتَه ، ولا حيّا وَجْهه ؛ أليس هو القائل :

ألا ليتَ أنّى يومَ تدْنو منيّتى — شَمِمْتُ الذى مابينَ عينيكِ والفمِ
وليت طَهورى كان رِيقَك كلَّه — وليت حَنوطى من مُشاشِك[1] والدمِ
ويا ليت سَلْمَى فى القبورِ ضجيعتى — هنالك أو فى جنةٍ أو جهنمِ

فليته تمنّى لقاءها فى الدنيا ، ثم يعملُ عملًا صالحًا ، والله لا يدخل علىّ أبداً .
فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : جميل بن مَعْمَر العذرىّ .
قال أليس هو القائل :

ألا ليتنا نَحْيَا جميعاً وإن نَمُتْ — يُوافى لدى الموتَى ضريحى ضريحُها
فما أنا فى طولِ الحياةِ براغبٍ — إذا قيل قد سوّى عليها صفيحُها[2]
أظلّ نهارى لا أراها وتلتقى — مع الليل رُوحى فى المنام ورُوحها

والله لا يدخل علىّ أبداً . فمنْ بالبابِ غيرُه ممن ذكرت ؟ قال : كثيِّر عزة ،
قال : أليس هو القائل :

رُهْبانُ مَدْينَ والذين عهدتهم — يبكون من حَذَرِ الفراق قُعُودا
لو يسمعون ـ كما سمعتُ ـ حديثَها — خرُّوا لعزّة ركّعاً وسجودا

أبعده الله ! فوالله لا يدخلُ علىّ أبداً . فمن بالباب غيرهُ ممن ذكرت ؟ قال :
الأحوص الأنصارى . قال : لا دَخَلَ علىّ أبداً ، أليس هو القائل ـ وقد أفسد
على رجلٍ من أهل المدينة جاريتَه حتى هربَ بها منه :

الله بينى وبين سيِّدِها — يفرُّ عنّى بها وأتبعُ

(١) المشاش : رءوس العظام ؛ مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين . (٢) الصفائح : الحجارة العريضة ؛ واحدتها صفيح وصفيحة .

فمن بالباب غيره ممن ذكرتَ ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق ! قال : أليس هو القائل :

هما دلَّتان من ثمانينَ قامــةً كما انقضّ بازٍ أقْتَمُ الريشِ كاسِرُهْ

فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا : أحَيٌّ يُرَجّى أم قتيل نحاذِرُه ؟

فقلت : ارْفَعا الأسباب لا يشعروا بنا ووليّت فى أعقــابِ لَيْــلٍ أُبادِرُهْ

والله لا دخل على أبداً . فمن بالباب غيرُه ممن ذكرتَ؟ قال: الأخطل التغلبىّ. قال : أليس القائل :

ولستُ بصـائم رَمَضَانَ عمرى ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحى[1]

ولستُ بزاجرٍ عَنْساً[2] بكُوراً إلى بَطْحاء مــكةَ للنجاح

ولستُ بقائم كالعــيْرِ يدعو قبيل الصبح:حيَّ على الفَلاح

ولـكنى سأشربهـا شَمُولًا[3] وأسجـد عند مُنبلج الصباح[4]

أبْعِدْهُ ـ أبعَدَهُ الله ـ عنى ! فوالله لا دَخلَ علىَّ أبداً ، ولا وَطِئَ لى بساطاً .

فمن بالباب غيرُه من الشعراء ممن ذكرتَ ؟ قال : جرير ، قال: أليس هو القائل :

ذُمَّ المنازل بعــد منزله اللِّوى والعيش بعــد أولئك الأيام

طرقَتكَ صائدةُ القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارْجعى بســلام

فإن كان ولا بد فهذا ، فأْذَنْ له .

قال عدى بن أرْطَاة : فخرجتُ إليه ، فقلت : ادخــلْ ياجرير . فدخل وهو يقول :

إنّ الذى بعث النبىّ محمــداً جعل الخــلافةَ فى إمامٍ عادلِ

---

(١) الأضاحى : جمع أضحية، وهى شاة يضحى بها . (٢) العنس : البازل الصلبة من الإبل .
(٣) الشمول : البارد من الخمر . (٤) انبلج الصبح : أضاء وأشرق .

وسع الخلائقَ عـــدلُهُ ووفاؤه حتى ارعَووا وأقامَ ميلَ المـائلِ
والله أنزلَ فى الـكتاب فريضـةً لابن السبيل وللفقـــير العائلِ
إنّى لأرجو منك خـــيراً عاجلًا والنفسُ مولعة بحبِّ العاجـــلِ

فلمـا مثلَ بين يديه قال : ياجرير ، اتقِ الله ، ولا تقـل إلا حقًّا ، فأنشأ يقول :

كم باليمامـــةِ من شعثاء أرمَـلةٍ ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر !
ممن يعـــدّكَ تـكفى فقدَ والده كالفرْخ فى العُشِّ لم يدْرُج[1] ولم يطرِ
أأذكر الجَهْدَ والبلوى التى نزلَتْ أم قد كفانى ما بُلِّغت من خبَرى
إنا لنرجو ـ إذا ما الغيثُ أخلفنا ـ من الخليفة ما نرجُـــو من المطر
نال الخـــلافةَ أو كانت له قدَراً كما أتى ربَه مـــوسى على قدَر
هذى الأرامـل قد قضّيت حاجتها فمَنْ لحاجة هـذا الأرمل الذّكر !
الخـــيرُ ما دمت حيًّا لا يفارقنا بوركْتَ ياعُمر الخيرات من عُمَرِ !

فقال : ياجرير ، ما أرى لك فيما هاهنا حقًّا ! قال : ياأميرَ المؤمنين ، إنى ابنُ سبيل ومنقطع به ! فقــال له : ويحك ياجرير ! قد وُلِّينا هذا الأمر ، ولا نملكُ إلا ثلثمائة درهم ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام ، أعطهالمائة الباقية .

فأخـذها جرير ، وقال : والله يا أميرَ المؤمنين لهى أحبُّ مال اكتسبته ، ثم خرج ، فقال له الشعراء : ما وراءك ؟ قال : مايسوءكم ! خرجتُ من عندخليفة يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض ، وأنشد :

رأيتُ رُقى الشيطـانِ لا تَستفزُّه وقد كانَ شيطانى من الجنِّ راقيا

---

(١) درج : مشى .

١٠٠ — الشعراء عند عمر بن عبد العزيز*

قال حمّاد الراوية :

دخلتُ المدينةَ ألتمس العلم ، فكان أوّل مَنْ لقيتُ كُثيِّر[1] عزّة ، فقلت : يا أبا صَخْر ؛ ماعندك من بضاعتى ؟ قال : عندى ما عند الأحوص[2] ونُصَيب . قلت : وما هو ؟ قال : هُما أحقّ بإخبارك . فقلت له : إنا لم نَحُثّ المطىّ نحوكم شهراً نطلب ما عندكم إلا ليبقى لكم ذكرٌ ، وقلّ مَنْ يفعل ذلك ، فأخبرنى عما سألتك ليكون ماتخبرنى به حديثاً آخذُه عنك .

فقال : إنه لما كان من أمر عمر بن عبد العزيز ما كان ، قَدِمتُ أنا ونُصَيب والأحوصُ ، وكلّ واحدٍ منا يُدِلّ بسابقته عند عبد العزيز وإخائه لعمر . فكان أوّلُ من لقينا مَسْلَمَةَ بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، وكلٌّ واحد منّا ينظر فى عِطْفَيْه لا يشكّ أنه شريك الخليفة فى الخلافة، فأحسنَ ضيافتنا وأكرم مَثوانا ، ثم قال : أما علمتُمْ أن إمامكم لا يُعطى الشعراء شيئاً ؟ قلنا : قد جئنا الآن ، فوجِّه لنا فى هذا الأمر وَجها . فقال : إن كان ذو دِين من آل مروان قد وَلى الخلافة فقد بقى من ذوى دنياهم من يقضى حوائجكم ، ويفعلُ بكم ما أنتم له أهل .

فأقمنا على بابه أربعة أشهر لا نصلُ إليه ، وجعل مَسْلَمَةُ يستأذن لنا فلا يُؤْذَن . فقلت : لو أتيتُ المسجدَ يوم الجمعة فتحفظتُ من كلام عمرَ شيئاً ! فأتيتُ

---

* الأغانى : ٩ — ٢٥٦ (طبعة دار الكتب) ، العقد الفريد : ١ — ٢١٣

(١) انظر صفحة ٢٢٥ . (٢) انظر صفحة ١٤٨ .

المسجد فأنا أوّل مَنْ حَفِظ كلامَه ، سمعته يقول فى خطبة له : « لـكل سَفَر زادٌ لا محالة، فتزوّدوا لـسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتّقوى، وكونوا كمن عاينَ ما أعدّالله له من ثوابه وعِقابه ، فعمِل طلباً لهذا وخوفاً من هـذا . ولا يَطُولَنّ عليـكم الأمَدُ فتَقْسُوَ قلوبكم ، وتنقادوا لعدوِّكم » .

« واعلموا أنَّهُ إنما يطمئن بالدنيا من وَثِقَ بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة . فأمّا من لا يُداوِى جُرْحاً إلا أصابه جُرْحٌ من ناحيةٍ أخرى فكيف يطمئن بالدنيا . أعوذ بالله أن آمُرَكم بما أنْهَى نفسى عنه فتَخْسَرَ صَفْقَتِى ، وتبدُوَ عَيْلَتى ، وتظهرَ مَسْكَنتى يومَ لا يَنفَع فيه إلا الحقُّ والصدق » .

فارْتجّ المسجدُ بالبـكاء ، وبكى عمر حتى بَلَّ ثوبَهُ ، وظننا أنه قاضٍ نَحْبَهُ . فبلغتُ إلى صاحبىَّ فقلت : جَـدِّدَا لعمر من الشِّعرِ غـيرَ ما أعـددناه ، فليس الرجلُ بدُنيوىّ .

ثم إن مَسْلَمة استأذن لنـا يوم جُمُعة بعد ما أُذِن للعامّة . فدخلنا فسلّمْنا عليـه بالخلافة فردّ علينا ؛ فقلت له : يا أمير المؤمنين ؛ طال الثَّوَاء[1] ، وقلّتِ الفائدة ، وتحدّثتْ بجفائك إيّانا وفودُ العرب .

فقال : يا كثير؛ أما سمعتَ إلى قول الله عزّ وجلّ فى كتابه : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، أفمن هؤلاء أنت ؟ قلت له ـ وأنا ضاحك : أنا ابن سبيل ومُنْقَطَعٌ به ! قال : أوَ لستَ ضيفَ أبى سعيد ! قلت : بَلَى ، قال . ما أحسِب مَنْ كان ضَيْفَه ابنَ سبيل، ولا مُنْقَطَعاً به .

(١) الثواء : المكث والإقامة .

ثم استأذنتُه في الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقًّا ، فإن الله سائلك .

فقلت :

وَلِيتَ فلم تَشْتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ بَرِيًّا ولم تَتْبَعْ مقالةَ مُجْرِمِ
وقلت فصدَّقتَ الذي قلت بالذي فعلتَ ، فأضحى راضياً كلُّ مسلمِ
لقد لبستْ لُبْسَ الهَلُوكِ[1] ثيابَهَا وأبدت لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصَمِ
وتُومِضُ أحياناً بعينٍ مريضةٍ وتَبْسِم عن مثل الُجمَانِ المنظَّمِ
فأعرضتَ عنها مشمئزا كأنما سَقَتْكَ مَدُوفاً[2] من سِمام وَعَلْقَمِ
وقد كنتَ من أجبالِهَا في مُمَنَّعٍ ومن بحرها في مُزْبِدِ الموج مُفْعَمِ
وما زلتَ سَبَّاقاً إلى كلِّ غايةٍ صعدتَ بها أعلى البناء المقدَّمِ
فلما أتاك الملكُ عفواً ولم يكنْ لطالب دُنيا بعده من تكلُّمِ
تركتَ الذي يَفْنَى وإنْ كان مُونقاً وآثرتَ ما يبقى برأيٍ مُصمِّمِ
فأضررْتَ بالفاني وَشَمَّرْتَ للذي أمامَك في يوم من الهولِ مُظلمِ
وما لك أن كنتَ الخليفة مانعٌ سوى اللهِ من مالٍ رعيتَ ودرهمِ
سَمَا لكَ[3] همٌّ في الفؤادِ مؤرِّقٌ صَعِدْتَ به أعلى المعالي بسُلَّمِ
فما بين شرق الأرض والغرب كلِّها مُنَادٍ يُنَادِي مِنْ فَصيح وأعجمِ
يقول : أميرَ المؤمنين ظلمتني بأخذٍ لدينارٍ ولا أخذِ دِرْهمِ
فلو يستطيع المسلمون لقسَّموا لكَ الشَّطْرَ من أعمارهم غيرَ نُدَّمِ
فعِشْتَ به ما حَجَّ لله راكبٌ مُغِذٌّ مُطيفٌ بالمقَام وَزمْزَمِ

(١) الهلوك من النساء : الفاجرة المتساقطة على الرجال. (٢) مدوفا: مخلوطاً. والسمام : السم.
(٣) سما لك : ارتفع .

فأَرْبِح بها من صَفْقةٍ لمبايعٍ وأعظِمْ بهـا ثم أعظِم بها أعظِم!

فقال لى يا كثيِّر ؛ إن الله سائلك عن كل ما قلتَ . ثم تقدم إليه الأحوص فاستأذنه، فقال : قل ، ولا تَقُلْ إلا حقًّا ، فإن الله سائلك . فأنشده :

وما الشعرُ إلّا خُطبةٌ من مؤلّفٍ بمنطقِ حقٍّ أو بمنطقِ باطلِ

فلا تَقْبَلَنْ إلّا الذى وافق الرِّضا ولا تَرْجِعَنَّا كالنّساء الأرامل

رأيناك لم تَعْدِل عن الحق يَمْنةً ولا يَسْرَةً فعلَ الظلومِ المجادِلِ

ولـكن أخذت القَصْدَ جُهدَكَ كلَّهُ وتَقْفُو مثال الصالحين الأوائل

فقلنا ولم نـكذِبْ بما قد بَدَا لَنا ومَنْ ذَا يَرُدُّ الحقَّ من قولِ عاذل!

ومَنْ ذا يَرُدُّ السَّهْمَ بعد مُرُوقِهِ على فُوقِهِ إن عارَ[1] من نزْعِ نابِل

ولولا الذى قد عَوَّدَتْنَا خلائفٌ غطاريفُ كانت كالليوث البواسِلِ

لَما وَخَدت شهراً برَحْلِيَ جَسْرَةٌ[2] تَفُلُّ مُتُونَ البيدِ بين الرَّواحِلِ

ولـكن رجونا منك مِثْلَ الذى به صُرِفنا قديماً من ذويك الأفاضِل

فإن لم يـكن للشعر عندك موضعٌ وإن كان مثلَ الدُّرِّ من قول قائل

وكان مُصيباً صادقاً لا يَعيبه سوى أنه يَبْنِى بناء المنازل

فإنَّ لنـا قُرْبى ومَحْضَ مَوَدَّةٍ وميراثَ آباء مَشَوْا بالمناصل[3]

فذادُوا عدوَّ السِّلْمِ عن عُقْرِ دراهم وأرْسَوْا عَمُودَ الدِّين بعد تمايُلِ

فقبلَكَ ما أعطى الْهُنَيْدَةَ جِلّةً على الشعر كَعْباً من سَدِيسٍ وبازِل[4]

---

(١) السهم العائر: الذى لا يدرى من أين أتى . (٢) الجسرة: الناقة العظيمة . (٣) المناصل: جمع منصل وهو السيف القاطع . (٤) هنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة ، ويريد بكعب كعب ابن زهير ، والسديس : من الإبل مادخل فى الثامنة ، والبازل : مابلغ التاسعة .

رسولُ الإله المصطفى بِنُبُوَّةٍ عليه سلامٌ بالضُّحا والأصائل
فكلُّ الذى عدَّدْتُ يكفيك بعضُهُ ونيلُك خيرٌ من بحور السوائل

فقال له عمر : ياأحوص ؛ إن الله سائلك عن كل ما قلت .

ثم تقدم إليه نصيب فاستأذن فى الإنشاد، فأبى أن يأذن له ؛ وغضب غضبا شديدا، وأمره باللحاق بدابق[1] ؛ وقال لنا : ما عندى ما أعطيكم، فانتظروا حتى يخرج عطائى فأواسيكم منه . فانتظرناه حتى خرج ، فأمر لى وللأحوص بثلاثمائة درهم ، وأمر لنصيب بمائة وخمسين درهماً . فما رأيت أعظمَ بركة من الثلاث المائة التى أعطانى ، ابتعتُ بها وصيفةً فعلَّمتُها الغناء ، فبعتُها بألف دينار .

---

(١) دابق : قرية قرب حلب .

١٠١ — إيجاز فى المقال وبلاغة فى البيان*

قال سُفْيان القرشى :

كنا عند هشام[1] بن عبد الملك ، وقد وفد عليه وفدُ أهل الحجاز ـ وكان شباب الكتّاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغةِ خطبائهم ـ فحضرتُ كلامَهم .

وكان محمد بن الجَهْم أعظمَ القوم قدراً ، وأكبرَهم سنًّا، وأفضلَهم رأياً وحلماً؛ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ! إنّ خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت ، وأكثرتْ وأطنبتْ ، والله ما بلغ قائلُهم قدرَك ، ولا أحصَى خطيبهم فضلَك ، وإن أذنتَ فى القول قلت . قال : تكلّم ، قال : أفأوجِزُ أم أطنب ! قال : بل أوْجِزْ .

قال : تولّاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى ، وزيَّنكَ بالتَّقْوى ، وجَمع لك خيرَ الآخرة والأولى ، إنّ لى حوائجَ أفأذكرها ؟ قال: هاتِها ، قال : كَبِرتْ سنّى ، ونالَ الدهرْ منّى؛ فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يَجْبُرَ كَسْرِى ، وينْفِى فَقْرِى فعل !

قال : وما الذى ينفِى فقرَك ، ويجبرُ كسرَك ! قال : ألفُ دينار ،وألفُ دينار ، وألفُ دينار !

فأطرق هشام طويلًا ، ثم قال : هيهات يا بنَ أبى الجَهْمِ ! بيت المال لا يحتملُ ماذكرت . فقال : إن الله آثرك لمجلسك ، فإن تعطِنا فحقًّا أدَّيت ، وإن تمنعْنا

* العقد الفريد : ٣ ـ ١٨٦ ، الأمالى : ١ ـ ١٤٧ ، صبح الأعشى : ١ ـ ٢٦٤

(١) تولى الخلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، وكان غزير العقل ، حليما عفيفاً ، امتدت أيامه ، وجرى فيها كثير من الوقائع . توفى سنة ١٢٥ هـ .

فتسأل الذى بيده ماحويت ياأمير المؤمنين . إنّ الله جعل العطاء محبّة ، والمنع مَبْغَضَة ؛ والله لأنْ أُحِبَّك أحبُّ إلىّ من أن أُبغضَك !

قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها ديناً فَدَحَنِى[1] قضاؤه ، وقد عنَّانِى حَمْلُه ، وأضرَّ بى أهلُه . قال : فلا بأس ؛ تُنَفِّس كُرْبة ، وتؤدى أمانة . وألفُ دينار لماذا ؟ قال : أزوِّج بها مَن أَدْرَك من ولدى . قال : نِعْمَ المسلكُ سلكتَ ، أغضضْت بصراً ، وأعففت وَلَداً ، ورفعت نسلًا . وألف دينار لماذا ؟ قال : أشترى بها أرضاً يعيش بها ولَدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ؛ وتكون ذُخْراً لمن بقى بعدى .

قال : فإنّا قد أمرنا لك بما سألت . قال : فالمحمودُ الله على ذلك ، وجزاكَ الله يا أمير المؤمنين والرحم خيرا ! ثم خرج .

فأتبعه هشام بصره ، وقال : تالله مارأيت رجلًا ألطفَ فى سؤال ، ولا أرفق فى مقال من هذا ! هكذا فليكن القرشىّ . أما والله إنّا لنعرف الحقّ إذا نَزَل ، ونكرهُ الإسرافَ والبَخَل ، وما نعطِى تبذيراً ، ولا نمنع تقتيراً ، وما نحن إلا خُزّانُ الله فى بلاده ، وأُمناؤه على عباده ، فإذا أُذِن أعطينا ، وإذا منع أبَيْنَا ، ولو كان كل قائل يَصْدُق ، وكلّ سائل يستحق ، ماجَبَهْنا[2] قائلا ، ولا رَدَدْنا سائلًا ، ونسأل الذى بيده ما استحفظَنا أن يُجريه على أيدينا ، فإنّه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِر[3] ؛ إنه كانَ بعباده خبيراً بصيراً ! فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ لقد تكلّمت فأبلغت ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْت ؛ قال : إنه مبتلًى ، وليس المبتلَى كالمُعْتَلِي .

---

(١) فدحنى : أثقلنى . (٢) جبهه : لقيه بما يكره . (٣) يقدر : يضيق .

١٠٢ — سعيت فأكديت ، ورجعت فرُزقت*

وفد عُرْوَة[١] بن أذينة الشاعر على هشام بن عبد الملك فى جماعة من الشعراء، فلما دخلوا عليه عرف عروة ، فقال له : ألست القائل :

لقد علمتُ وما الإشراف[٢] من خلقى ... أنّ الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسْعَى له فَيُعَنِّينى تطلُّبُــــه ... ولو قعــــدتُ أتانى لا يعنّينى

وأراك قد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق! فقال له: يا أميرَ المؤمنين؛ زادك الله بسْطةً فى العلم والجسم ، ولا ردّ وافدَك خائبا . والله لقد بالَغْتَ فى الوعظ، وأذْكرتنى ما أنسانيه الدهر !

وخرج من فوره إلى راحلته ؛ فركبها وتوجّه راجعا إلى الحجاز، فلما كان الليل ذكره هشام وهو فى فراشه ، فقال : رجل من قريش قال حكمة ، ووفد إلىّ فجبهته ورَدَدْته عن حاجته ، وهو مع ذلك شاعر لا آمن مايقول .

فلما أصبحَ سأل عنه ، فأُخْبِر بانصرافه ، فقال: لاجرم ، ليعلم أن الرزق سيأتيه.

---

* الشعر والشعراء : ٥٦٠ ، المستطرف : ١ ــ ٧ ، ابن خلكان : ١ ــ ٢١٢

(١) عروة بن أذينة: كان من أعيان العلماء وكبار الصالحين؛ وله شعر فى الغزل عفيف رائق ؛ وقفت عليه سكينة بنت مرة، فقالت له : أنت القائل :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدى ... ذهبت نحو سقـاء القوم أبترد
هبنى بردت ببرد المـاء ظاهره ... فمن لنـار على الأحشاء تتقد !

فقال لها : نعم . فقالت : وأنت القائل :

قالت : وأبثثتها سرى وبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى؟ فقلت لها : ... غطى هواك وما ألقى على بصرى!

قال : نعم ، فالتفتت إلى جواريها وقالت : هن الحرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم .

(٢) الإشراف : التطلع للأمر .

ثم دعا مولى له ، وأعطاه ألفى دينار ، وقال : الحق بهذه ابنَ أُذَينة، وأعطِه إيّاها؛ فأدْرَكه وقد دخل بيته ، فقرع البابَ عليه ، فخرج إليه ، فأعطاه المال .

فقال : أبلغ أمـــير المؤمنين قولى : سعيت فأ كديت ، ورجعت إلى بيتى فأتانى رزقى .

١٠٣ — هذا الذى تعرِفُ البَطْحاءُ وطْأتَهُ*

حجّ هِشامُ بن عبد الملك فى خلافة الوليد أخيه ، ومعه رؤساء أهلِ الشام ، فجهِد أن يستلِم الحجر ، فلم يقدر من ازدحام الناس ، فنُصب له منبر فجلسَ عليه ينظر إلى الناس ، وأقبل علىُّ بن الحسين ـ وهو أحسنُ الناسِ وجهاً ، وأنظفُهم ثوباً ، وأطيبهم رائحة ـ فطاف بالبيت ، فلما بلغ الحجر الأسود تنحّى الناسُ كلُّهم ، وأخلَوْا له الحجر ليستلمه هيبةً وإجلالاً .

فغاظ ذلك هشاماً ، وبلغ منه ، فقال رجل لهشام : مَنْ هذا ؟ أصلح الله الأمير ! قال : لا أعرفه ـ وكان به عارفاً ـ ولـكنه خاف أن يَرْغَبَ فيه أهل الشام ، ويسمعوا منه ، فقال الفرزدق ـ وكان لذلك كله حاضراً : أنا أعرفه ، فسلنى ياشامىّ. قال : ومن هو ؟ قال :

هذا الّذى تعرف البَطْحاء[1] وَطْأَتَهُ ... والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرَمُ

هـذا ابنُ خـيرِ عبادِ الله كلِّهِمْ ... هـذا التقىُّ النقىُّ الطّاهِرُ العَـلَمُ

---

* الأغانى : ١٤ ــ ٧٥ (طبع ساسى) ، المحاسن والمساوئ : ٢٣١ (طبع ليبزج) .

(١) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

إذا رأته قريشٌ قال قائلهـــا : إلى مكارمِ هـــذا ينتهى الكرمُ
يـــكادُ يُمسكُه عِرفانَ[١] راحته رُكْنُ الحطيم[٢] إذاما جاء يستلمُ
فليس قولك : مَن هـــذا بضائره العُرْبُ تعرفُ مَن أنكرتَ والعجَمُ

فحبسه هشام فقال فى حبسه :

أتحبسنى بين المدينـــــة والّتى إليها قلوب الناس يهوى منيبُها !
يقلّبُ رأساً لم يكُنْ رأس سيدٍ وعيناً له حولاء بادٍ عيوبُها

فبعث إليه هشام فأخرجه ، ووجّه إليه علىُّ بن الحسين عشرة آلاف درهم ، وقال : اعذِر يا أبا فراس، فلو كان عندنا فى هذا الوقت أكثرُ من هذا لوصلناك به. فردّها ، وقال : ما قلتُ ما كان إلا لله ، وما كنتُ لأرْزَأ[٣] عليه شيئاً ، فقال له علىّ : نحن أهل بيت إذا أنفذنا شيئاً ما نرجع فيه .

---

(١) عرفان: منصوب على أنه مفعول له . (٢) الحطيم: حجر الكعبة أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام . (٣) رزأه ماله : أصاب من ماله شيئاً .

١٠٤ — واعظ الملوك*

قال خالد بن صفوان بن الأهتم[١] :

أوفدنى يوسفُ بن عمرَ الثقفى إلى هشام بن عبد الملك فى وفد أهـل العراق قدِمتُ عليه ، وقد خرج بقَرابته وحَشمه وغاشيته[٢] وجلسائه ، فنزل فى أرض قاع صَحْصَح، تنائف[٣] أفْيَح[٤]، فى عام قد بكر وسْميُّه، وتتابع وَلِيُّه[٥]، وأخذَت الأرض فيه زينَتها على اختلاف ألوان نَبْتها؛ من نَوْرِ رَبيعٍ مُونق[٦] ، فهو فى أحسن منظر ومَخْبَر ، وأحسن مُسْتَمطَر ، بصَعِيد[٧] كأنَّ ترابه قطعُ الكافور . وقد ضُرب له سُرادِق من حِبَر[٨]، كانَ يوسفُ بن عمرَ صنعه له باليمن، فيه فُسْطَاط فيه أربعة أفرشةٍ من خَزٍّ أحمر ، مِثْلُها مَرافِقُها ، وعليها دُرَّاعة[٩] من خزّ أحمرَ مِثلُها عمامَتُها ، وقد أخذ الناس مجالسهم .

فأخرجت رأسى من ناحيـة السِّماط[١٠]، فنظر إلىّ شِبْهَ المُستَنطق لى؛ فقلت : أتمّ الله عليك يا أمير المؤمنين نعمه ، وجعل ما قلّدك من هذا الأمر رُشْداً، وعاقبةَ مايئُول إليهِ حَمْداً؛ وأخْلَصَه لك بالتُّقى؛ وكثَّره لك بالنماء ، ولا كدَّرَ عليك

* الأغانى : ٢ — ١٥٣ (طبعة دار الكتب) . معجم الأدباء : ١١ — ٢٧

(١) كان خالد خطيباً بليغاً ولسناً مبيناً ، حسن السمر، جيد المنادمة ، مات سنة ١٣٣هـ .

(٢) غاشية الرجل: من ينتابه من زواره وأصدقائه . (٣) القاع الصحصح: الأرض الجرداء المستوية ، والتنائف : جمع تنوفة ، وهى أرض لاأنيس بها ولا ماء . (٤) الأفيح : الواسع .

(٥) الوسمى : مطر الربيع الأول ، والولى : المطر الذى يلى الوسمى . (٦) مونق : معجب .

(٧) الصعيد : التراب أو وجه الأرض . (٨) الحبر : جمع الحبرة، وهى نوع منسوج من اليمن فيه نقط . (٩) الدراعة : الثوب المشقوق من الأمام . (١٠) السماط جمع سمط، وهو الصف من الناس وغيرهم .

منه ما صَفَا ، ولا خالَطَ سرورَه بالرّدى قد أصبحتَ للمسلمين ثِقَة،إليكَ يقصدون فى أمورهم ، ويفزَعُون فى مظالمهم ، وما أجدُ شيئاً ـ يا أمير المؤمنين ـ هو أبلغُ فى قضاء حقِّك وتوقيرِ مجلسك ، وما منَّ اللهُ علىّ به من مُجَالستِك ، من أن أذَكِّرَك نِعَمَ اللهِ عليك ، وأنبِّهَكَ لشُكْرِها ؛ وماأجد فى ذلك شيئاً هو أبلغُ من حديث من سَلَف قبلَك من الملوك ؛ فإن أذِن أمير المؤمنين أخبرته به .

فاستَوى هشامٌ جالساً ـ وكان مُتَّكِئاً ـ ثم قال : هات يا بن الأهتم ! فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن مَلِكاً من الملوك قبلَك خرج فى عامٍ مثل عامك هــذا إلى الخوَرْنَق والسَّدِير[1] فى عام قد بَكَر وسْمِيُّه،وتتابَعَ وَلِيُّه، فهو فى أحسنِ مَنْظر، وأحسن مُستمْطر ، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور، وكان قد أُعطِىَ فتاء[2] السنّ، مع الكَثْرة والغلبة والقَهْر ؛ فنظَرَ فأبْعَدَ النظر ؛ ثم قال لجلسائه : لمن هذا ؟ هل رأيتم مثلَ ما أنا فيه ؟ وهل أحدٌ أُعْطِى مثلَ ما أعطيت ؟

وكان عنده رجل من بقايا حَمَلة الُحجَّة[3] ، والمضىّ على أدبِ الحقّ ومناهجه ـ ولم تخلُ الأرض من قائمٍ لله بالحجة فى عباده ـ فقال : أيّها الملك ! إنّك سألت عن أمرٍ ، أفتأذنُ لى فى الجواب عنه ؟ قال : نعم ، قال : أرأيت[4] هــذا الذى أنتَ فيه ، أشىء لم تزَلْ فيه ، أم شىء صار إليك ميراثاً وهو زائلٌ عنك وصائرٌ إلى غيرك ، كما صار إليك من لَدُنْ غيرك ؟ قال : كذلك هو ! قال : فما أراك إلا أُعجِبتَ بشىء يسيرٍ تكونُ فيه قليلا، ويغيبُ عنك طويلا ، وتكون غداً بحسابه مُرتَهَناً . قال : ويحك ! فأين المَهرَبُ ؟ وأيْنَ المطلَب ؟ فقال : إمّا أن تقيم

---

(١) الخورنق والسدير : قصران بالحيرة . (٢) الفتاء : الشباب . (٣) الحجة : البرهان .
(٤) أرأيت : أخبرنى .

فى مُلْكِك فتعملَ بطاعة الله ربّك على ماساءك وسرّك، وأمضّك[1] وأرْمَضك[2]، وإمّا أن تضعَ تاجَك، وتخلع أطْمارَك[3]، وتلبَس أمساحك[4]، وتعبد ربّك، حتى يأتيَك أجلُك!

قال الملك: فإذا كان السَّحَر فاقرَع علىّ بابى؛ فإنى مُختارٌ أحَدَ الرأيين، فإن اخترتُ ما أنا فيه كنتَ وزيراً لا يُعصَى، وإن اخترتُ فَلَوَاتِ الأرض وقَفْرَ البلاد كنتَ رفيقاً لا يخالف.

فلما كان السحر قرع عليه بَابَه، فإذا هو قد وضع تاجَه، وخلع أطْمارَه، ولبس أمْساحه، وتهيأ للسياحة، فلزما والله الجبل، حتى أتاهما أجلهما، فذلك حيث يقول عدىّ بن زيد، أخو بنى تميم:

أيُّهـــا الشامتُ المعيِّر بالدهْـــرِ أأنتَ المُــــبرَّأُ الموفُور!
أم لديكَ العهدُ الوثيق من الأيّــامِ بل أنتَ جاهلٌ مغرور!
مَن رأيتَ المنونَ خلدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه من أن يُضَام خفير!
أين كسرى، كسرى الملوك أنوشِرْ وَان، أم أين قبله سابُورُ!
وبنو الأصفَر الكرامُ ملوك الرّ وم، لم يبق منهمُ مذكُورُ
وأخو الحضرِ[5] إذ بناهُ وإذ دجـــلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ[6]
شاده مرْمراً وجلّله كِلْ ساً[7] فللطيرِ فى ذراه وكُورُ
لم يهبهُ رَيْبُ المنون فباد الْــمُلك عنه، فبابهُ مهجورُ

---

(١) يقال أمضنى: أحرقنى وشق علىّ. (٢) أرمضك: أوجعك. (٣) الطمر: الثوب الخلق. (٤) المسح: الكساء من الشعر الغليظ، ويجمع على أمساح على قلة. (٥) الحضر: قصر بجبال تكريت بين دجلة والفرات بناه الضيزن بن معاوية، ملك الجزيرة. (٦) الخابور: نهر بالجزيرة (٧) الكلس: ما يدهن به النزل وغيرها.

وتذكّرْ ربّ الخورنَقِ إذْ أشْـــرف يــوماً وللهُدَى[1] تفكيرُ
سرَّهُ مالُـــه وكثرةُ ما يمـــلكُ والبحرُ مُعْرِضاً[2] والسديرُ
فارْعَوى قلبُـــه فقـال : وما غِبْــطَةُ حيّ إلى المـاتِ يصـيرُ !
ثم بعـد الفلاحِ والملك والإمّـ ـةِ[3] وارتْهُمُ هُنـــاكَ القبورُ
ثم صاروا كأنهـم ورقٌ جَفْ فألوَتْ[4] به الصَّبا والدَّبُورُ

فبكى هشام حتى اخضلّتْ[5] لحيته ، وبُلّتْ عمامته ، وأمر بنَزْع أبنيته ، ونقل قرَابته وحَشَمِه وغاشيته وجلسائه ، ولزِمَ قصره .

فأقبلت الموالى والحشم عليّ فقالوا : ما أردتَ بأمير المؤمنين ! أفسدتَ عليه لذّته ، ونَغّصْتُ عليه مأْدُبته . فقلت : إليكم عنى ، فإنى عاهدت الله عز وجل ألا أخلُوَ بملك إلا ذكّرته الله عزّ وجلّ !

---

(١) يريد بهذه الجملة : أن التفكير طريق الهدى. (٢) معرضا : متسعا . (٣) الإمة: النعمة.
(٤) ألوت : ذهبت . (٥) اخضلت : ابتلت .

١٠٥ — إن خالداً أدلّ فأملّ*

قال خالد بن صفوان : دخلتُ على هشام بن عبد الملك ، وذلك بعد عزْله خالدَ بن عبدِ الله القسْرىّ ، فألفيتُه جالساً على كرسىّ فى بِرْكةٍ ، ماؤها إلى الكعبين ، فدعا لى بكُرْسِىٍّ فجلستُ عليه ، فقال : ياخالد؛ ربَّ خالدٍ جلسَ مجلسك، كان ألْوَط بقلبى ، وأحبَّ إلىّ !

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن حِلْمك لا يضيقُ عنه ، فلو صفحتَ عن جُرْمه ! فقال : إن خالداً أدلّ فأملّ ، وأوْجفَ فأجْحف ، ولم يدَع لراجع مَرْجعاً ، ولا لعودةٍ موضعا ، ثم قال : ألا أخبرَك عنه يا بنَ صفْوان ؟ قلت : نعم ، قال : إنه ما بدَأنى بسؤال حاجةٍ قطُّ مذ قَدِمَ العراق حتى أكونَ أنا الذى أبدؤه بها. فقلت: فذاك أحرَى أن ترْجعَ إليه ، فقال متمثّلا :

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تكَدْ   إليــه بوجــهٍ آخرَ الدّهْرِ تُقْبلُ

قال خالد : ثم قال لى هشام : حاجتَك ، فقلت : تزيدُنى فى عطائى عشرة دنانير . فأطرَق ثم قال : ولم ؟ وفيم ؟ ألعبادةٍ أحدثْتَها فنعينَك عليها ، أم لبلاءٍ حسنٍ أبليتَه عند أمير المؤمنين ، أم لماذا يابن صفوان ! إذن يكثُر السؤّال ولا يحتملُ ذلك بيتُ المال ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، وفقّك اللهُ وسدّدك ، أنت والله كما قال أخو خُزاعة :

إذا المالُ لم يوجبْ عليك عطاءَهُ   قرابةُ قُربَى أو صديقٌ توافِقُه

---

* أمالى المرتضى : ٤ — ١٧٢

مَنعتَ وبعضُ المنع حَزْمٌ وقوة ولم يفتلتْك[1] المالَ إلا حقائقُه

فلما قَدِمَ خالد البصرة، قيل له: ماالذى حملك على تزيين الإمساك له؟ فقال: أحببتُ أن يمنَع غيرى فيكثُرَ مَنْ يلومُه!

١٠٦ ـ أبو النجم عند هشام بن عبد الملك*

ورد أبو النّجم[2] على هشام بن عبد الملك فى الشعراء، فقال لهم هشام: صفوا لى إبلا فَقَطِّروها[3] وأوْرِدوها؛ وأصْدِروها؛ حتى كأنى أنظر إليها؛ فأنشدوه، وأنشده أبو النجم:

* الحمدُ لله الوَهُوبِ المُجْزِلِ *

حتى بلغ إلى ذكر الشمس، فقال: « وهى على الأفْق كعين . . . » وأراد أن يقول « الأحول »، ثم ذكر حَوْلةَ هشام؛ فلم يتمّ البيت وأرْتج عليه.

فقال هشام: أجِز البيت؛ فقال: « كعين الأحول » وأتمّ القصيدة، فأمر هشام فَوُجِىء[4] عنقه، وأُخْرج من الرُّصافة؛ وقال لصاحب شرطته: يا ربيع؛ إيّاك وأن أرى هذا! فكلّم وجوهُ الناس صاحب الشرطة أن يقرّه ففعل.

قال أبو النجم: ولم يكن أحدٌ بالرُّصافة يُضِيف إلا سُلَيم بن كَيْسان الكلبىّ

(١) افتلت الشىء: أخذته فى سرعة، ويتعدى إلى مفعولين.

*الأغانى: ١٠ ـ ١٥٥ (طبعة دار الكتب)، رغبة الآمل: ٦ ـ ٢٣٩

(٢) اسمه الفضل بن قدامة، أحد رجال الإسلام الفحول المقدمين، وفى الطبقة الأولى منهم.

(٣) قطر الإبل: قرب بعضها من بعض على نسق.

(٤) وجىء: وجأه باليد وبالسكين إذا ضربه.

وعَمْرو بن بِسْطام التّغلبيّ ، فكنتُ آتى سُلَيماً فأتغدّى عنده ، وآتى عمراً فأتعشّى عنده ، وآتى المسجد فأبيت فيه .

قال : فاهتمّ هشام ليلةً ، وأمسى لَقِسَ[1] النفس ، وأراد محدّثاً يحدّثه ؛ فقال لخادم له : ابغِنى محدّثاً أعرابياً شاعراً يروى الشعر .

فخرج الخادم إلى المسجد فإذا هو بأبى النَّجم ، فضربه برجله ، وقال له : قم أجبْ أمير المؤمنين . قال: إنى رجل أعرابى غريب . قال: إيّاك أبغى ، فهل تروى الشعر ؟ قال : نعم ، وأقوله .

فأقبل به حتى أدخله القصر ، وأغلق الباب ، فأيقن بالشرّ ، ثم مضى به ، فأدخله على هشام فى بيت صغير ، والشّمع بين يديه يَزْهَر[2] .

فلما دخل قال له هشام : أبو النجم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين طريدك ! قال : اجلسْ ، فسأله وقال له : أين كنت تأْوى ؛ ومن كان يُنزلك ؟ فأخبره الخبر . قال : وكيف اجتمعا لك ؟ قال : كنت أتغدّى عند هذا وأتعشّى عند هذا . قال : وأين كنت تبيت ؟ قال : فى المسجد حيث وجدنى رسولك . قال : وما لك من الولد والمال ؟ قال : أمّا المال فلا مال لى ، وأما الولد فلى ثلاث بنات وبُنَىّ يقال له شَيْبان .

فقال : هل زوّجْت من بناتك أحداً ؟ قال : نعم ؛ زوّجت اثنتين ، وبقيت واحدة تَجْمِزُ[3] فى أبياتنا كأنها نعامة .

قال : وما وصيت به الأولى ؟ فقال :

---

(١) لقس النفس : ضيق النفس .

(٢) يزهر : يتلألأ . (٣) تجمز : تعدو وتسرع .

أوْصَيْتُ من بَرَّةَ[1] قلباً حُرًّا بالكَلْبِ خيراً والحَمَاةِ شَرًّا
لا تَسْأَمِي ضَرْباً لها وَجَرًّا حتى ترى حُلْوَ الحياةِ مُرًّا
وإنْ كَسَتْكِ ذَهَباً ودُرًّا والحَيَّ عُمِّيهم بشرٍّ طُرًّا

فضحك هشام ، وقال : فما قلت للأخرى ؟ قال : قلت :

سُبِّي الحَمَاةَ وابهتِي[2] عليها وإن دَنَتْ فازْدَلِفِي إليها
وأوجعي بالفِهْرِ[3] ركبتيها ومِرْفَقيْهَا واضْرِبِي جَنْبَيْهَا
وظاهرِي النَّذْرَ لها عليها لا تخبرِي الدَّهرَ به ابْنَتَيْهَا

قال : فضحك هشام حتى بدت نواجِذُه ، وسقط على قفَاه . فقال : ويحك ! ما هذه وصية يعقوب ولدَه ! فقال : وما أنا كيعقوب ياأمير المؤمنين؟ قال : فما قلت للثالثة ؟ قال : قلت :

أوصيكِ يا بنتي فإني ذاهبُ أوصيك أن تَحْمَدَكِ القرائبُ
والجارُ والضيفُ الكريمُ الساغِبُ لا يرجعُ المسكينُ وهو خائبُ
ولا تني أظفارُك السَّلاهبُ[4] منهنَّ في وجه الحماة كاتبُ
والزَّوجَ إن الزَّوج بئس الصاحبُ

قال : فكيف قلت لها هذا ولم تتزوج ؟ وأى شىء قلت فى تأخير تزويجها ! قال : قلت فيها :

---

(١) كان اسمها برة . (٢) بهته: قذفه بالباطل، وقال عليه مالم يفعل . (٣) الفهر : الحجر يملأ الكف . (٤) السلاهب : الطويلة .

كأن ظلّامَة أُختَ شَيْبَانْ   يتيمةٌ ووالداها حَيَّانْ
الرأسُ قملٌ كله وصِئْبَانْ[1]   وليس فى الرجلين إلا خَيطَانْ
فهى التى يُذْعَرُ منها الشَّيطانْ

فقال هشام لحاجبيه : ما فعلتِ الدنانيرُ المختومهُ التى أمرتُك بقبضها ! قال : هى عندى ، ووزنها خَمسمائة ! قال : فادفعها إلى أبى النجم ؛ ليجعلها فى رجْلَىْ ظَلّامةَ مكان الخيطين !

---

(١) الصئبان : جمع الصؤابة، وهى : بيضة القمل ؛ جمعه صئبان.

١٠٧ — لا يعرف الكلام إلا بنَشْرِه*

قُحطت البادية فى أيام هشام بن عبد الملك ، فقدمت العربُ من أحياء القبائل، فجلس هشام لرؤسائهم فدخلوا عليه ، وفيهم دِرْوَاس بن حبيب وله أربع عشرة سنة ، عليه شَمْلتان وله ذؤابة . فأحْجَم القومُ وهابوا هشاما ، ووقعت عينُ هشام على دِرْوَاس فاستصغره ، فقال لحاجبه : ما يشاء أحدٌ أنْ يَصِل إلىّ إلا وصل حتى الصبيان !

فعلم درواس أنه يريده ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن دخولى لم يُخلّ بك شيئاً ، ولقد شرّفنى ، وإن هؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه ، وإن الكلامَ نَشْر ، والسكوت طىّ ، ولا يُعْرف الكلام إلا بنشره . فقال هشام : فانْشر لا أبا لك ! ! وأعجبه كلامه .

فقال : أصابتنا ثلاث سنين ، فَسَنَةٌ أذابت الشَّحم . وسنة أكلت اللحم ، وسنة نَقَتْ[1] العظم ، وفى أيديكم فضول أموال ؛ إن كانت لله ففرّقوها على عباده المستحقين لها ، وإن كانتْ لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم ، فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزى المتصدقين ، ولا يُضيع أجرَ المحسنين . واعلم يا أمير المؤمنين أن الوالىَ من الرعية كالروح من الجسد ، لا حياة للجسد إلا به .

فقال هشام : ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً . وأمر أن يقسّم فى

---

* لباب الآداب : ٣٥٣

(١) النقى : مخ العظام وشحمها ، ونقى العظم : استخرج نقيه .

باديته مائة ألف درهم ، وأمر لدرواس بمائة ألف درهم . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ اردها إلى أعطية أهل باديتي؛ فإني أكره أن يعجز ما أمر لهم به أميرُ المؤمنين عن كفايتهم . قال : فما لك من حاجة تذكرها لنفسك ؛ قال : مالي من حاجة دون عامة المسلمين ! !

ولما عاد درواس إلى منزله بعث إليه هشام بمائةِ ألف درهم ، ففرقها في تسعة أبطن من العرب ، لكل بطن عشرة آلاف ، وأخذ هو عشرة آلاف ، فقال هشام : إن الصنيعة عند درواس لتضعف على سائر الصنائع[1] .

---

(١) جمع صنيعة ، وهي المعروف والإحسان ، وتضعف : تزيد .

١٠٨ — أنجحتْ وفادتك، ووجبتْ ضيافتك*

وفد سعدُ بن مرة بن جُبَير – وكان شاعراً – على الوليد[1] بن يزيد، فعرض له في يوم من أيامِ الربيع ، وقد خرج إلى متنزَّهٍ له ، فصاح به : يا أمير المؤمنين ؛ وَافِدُكَ وزائرك ومؤمِّلُك ! فَتَبَادَرَ إليه الحرس ليصدّوه عنه ، فقال : دعوه ، ادْنُ إليّ . فدنا إليه، فقال : من أنت ؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الحجازِ ، شاعر ، قال : تريد ماذا ؟ قال : تسمع مني أربعة أبيات ، قال : هاتِ ؛ فقال :

شِمْنَ[2] المخايلَ نحوَ أرضِك بالحيَا[3] ... ولقِين ركباناً بعُرْنكَ قُفَّلا

قال : ثم مَهْ ؟ قال :

فعمَدْن نحوكَ لم يُنَخْنَ لِحَاجةٍ ... إلا وقوعَ الطير حتى ترْحلا

قال : إن هذا السيرَ حثيث ، ثم ماذا ؟ قال :

يعمِدْن نحو موطّئٍ حجراتِه ... كرماً ، ولم تعدِل بذلك مَعْدِلَا

قال : وقد وصلت إليه، فمه ؟ قال :

لاحت لها نيرانُ حَيّ قسطَلٍ[4] ... فاخترْنَ نارك في المنازل منزلا

قال : فهل غيرُ هذا ؟ قال : لا ، قال : أنجحتْ وفادتُك، ووجَبتْ ضيافتك ، أعطوه أربعة آلاف دينار ، فقبضها ورَحَل !

---

* الأغانى : ٧ — ٢٤ (طبعة دار الكتب) .

(١) كان الوليد قبل أن يلى الخلافة من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشعرائهم ، ولما ولى الخلافة انهمك فى اللهو والشراب وسماع الغناء ، مات مقتولا سنة ١٢٦ هـ (٢) شمت مخايل الشىء : إذا تطلعت نحوه ببصرك منتظراً له (٣) الحيا : الخصب والمطر (٤) قسطل : اسم لموضعين : أحدهما قرب البلقاء من أرض دمشق ، والثانى بين حمص ودمشق .

١٠٩ — شاعر بنى هاشم*

لما قال الكُميت[1] بن زيد الأسدىّ الهاشميات قدم البصرة ، فأتى الفرزدق ، فقال : ياأبا فِراس؛ إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك ! قال : ومن أنتَ؟ فانتَسب له. فقال : صدقتَ ، فما حاجتك ؟ قال : نُفِثَ عَلَى لسانى ، فقلتُ شعرا ، وأحببتُ أن أعرضَ عليك ما قلت ، فإن كان حسنا أمرْتنى بإذاعته ، وإن كان غيرَ ذلك أمرتنى بسَتْره ، وسترتَه علىّ . فقال : يا بن أخى ؛ أحسب شعرك على قَدْر عقلك ، فهاتِ ما قلتَ راشداً ، فأنشده :

طربتُ وماشوقاً إلى البيض[2] أطرَبَ وما لعباً منّى ، وذو الشيب يَلْعَبُ !

قال : بلى ؛ فإنك فى أوان اللعب فالْعَبْ . فقال :

ولم يُلْهِنى دار ولا رسمُ مَنْزِلٍ ولم يَتَطَرَّبْنى[3] بنانٌ مُخَضَّبُ

قال : فما يطربك يا بن أخى ؟ فقال :

وما أنا ممــــن يزجرُ الطَّيرَ هَمُّه أصاحَ غرابٌ أم تعرَّض ثعلبُ[4]

قال : فما أنت ؟ ويحك ! وإلى من تَسْمُو ؟ فقال :

---

* خزانة الأدب : ٤ ـ ٢٣٧ (الطبعة الأميرية) ، المسعودى : ٢ ـ ١٩٠

(١) نشأ الكميت فى الكوفة وتأدب على علمائها ، وأخذ عن الأعراب ، وعالج الشعر حتى نبه شأنه، واتصل بالولاة والهاشميين يمدحهم وينال جوائزهم، وقد لقى فى سبيل مذهبه الشيعى بلاء كثيرا، وقد أثار الفتنة بين عدنان وقحطان ، وفتح للشيعة طريق مناظرة خصومهم بالشعر، وتوفى سنة ١٣٦ (٢) البيض : جمع بيضاء ، يريد النساء (٣) رسم : أثر ، ويتطربنى : يحملنى على الطرب (٤) الزجر للطير : هو التيمن والتشاؤم بها ، والغراب أعظم ما كانت العرب تتطير به . وهو نوع من العيافة .

ولا السانحاتُ[1] البارحات عشيّةً   أمرّ سليمُ القرنِ أو مرّ أعضبُ

قال : أمّا هذا فقد أحسنتَ فيه ، فقال :

ولكن إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى   وخيرِ بنى حوّاء والخيرُ يُطْلب

قال : مَن هم ! ويحك ! قال :

إلى النفَرِ البيض[2] الذين بحبّهم   إلى اللهِ فيما نابنى أتقرّبُ

قال : أرحْنِي ؛ ويحك ! مَنْ هؤلاء ؟ قل :

بنى هاشمٍ رَهْطِ[3] النبيّ فإننى   بهم ولهم أرْضى مراراً وأغضب

قال : لله درُّ بنى أبيك! أصَبْتَ وأحسنت ؛ إذْ عدلت عن الزعانف والأوباش ؛ إذَن لا يَصْرَد[4] سهمُك ، ولا يكذب قولك .

ثم مرّ فيها ، فقال له : أظهر ثم أظهر ؛ فأنت واللهِ أشعر مَنْ مضى ، وأشعرُ من بقى .

فقدم المدينة فأتى أبا جعفر محمد بن على بن الحسين ، فأذِنَ له ليْلا ، وأنشده ، فلمّا بلغ من الميمية قوله :

وقتيلٌ بالطّف[5] غُودِرَ منهم   بين غوغاءِ أمةٍ وطَغَام

بكى أبو جعفر ، ثم قال : يا كُميت ! لو كان عندنا مالٌ لأعطيناك ، ولكن لك ما قال رسول الله لحسّان بن ثابت : لا زلت مُؤيداً بروح القدس ماذَبَبْتَ عنا أهلَ البيت !

---

(١) السانح : ماولاك ميامنه ، والبارح : ماولاك مياسره ، وكان أهل نجد يتيمنون بالأول ويتشاءمون بالثانى ، وأهل العالية على العكس . والأعضب . الثور المكسور القرن ، وكانوا يتشاءمون به (٢) البيض هنا : المشهورين من الأشراف (٣) الرهط : القوم والقبيلة (٤) صرد السهم : أخطأ . (٥) الطف : موضع قرب الكوفة ، وقتيل الطف هو الحسين عليه السلام .

فخرج من عنده فأتى عبدَ الله بن الحسن بن على فأنشده، فقال له : إن لى ضيعةً أُعطيتُ فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا كتابُها ، وقد أشهدتُ لك بذلك شُهودا ، وناولَه إياه !

فقال : بأبى أنت وأمى ! إنّى كنتُ أقولُ الشعر فى غيركم أريد بذلك الدنيا والمال ، ولكنى ــ والله ــ ما قلتُه فيكم إلا لله، وما كنت لآخذ على شىء جعلتُه لله مالًا ولا ثمناً ؛ فألحّ عبدُ الله عليه ، وأبى من إعفائه.

فأخذ الكميت الكتابَ ومضى ؛ فمكث أياما ، ثم جاء إلى عبد الله فقال: بأبى أنتَ وأمّى ؛ يابنَ رسول الله ! إنّ لى حاجة ؟ قال : وما هى ، وكلّ حاجة لك مقضية ؟ قال : كائنة ما كانت ؟ قال : نعم ! قال : هــذا الكتاب تقبلُه ، وترتجعُ الضّيعة . ووضَع الكتابَ بين يديه ، فقبله عبد الله .

ونهض عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، فأخذ ثوْباً ، فدفعه إلى أربعة من غلمانه ، ثم جعل يدخل دور بنى هاشم ويقول : يابنى هاشم ، هذا الكميت قال فيكم الشعر حين صَمَت الناسُ عن فَضْلكم ، وعرض دمه لبنى أمية، فأثيبُوه بما قدرتم ! فيطرحُ الرجل فى الثوب ما قدر عليه من دراهم ودنانير ؛ وأُعْلِم النساء بذلك ؛ فكانت المرأةُ تبعث ما أمْكَنها ، حتى إنهــا لتخلع الُحلىّ عن جسدها . فاجتمع من الدنانير والدراهم ماقيمتُه مائةُ ألف درهم .

فجاء بها إلى الكميت فقال له : أتيناك بجهد الُمقلّ ، ونحن فى دولة عدوِّنا ، وقد جمعنا هذا المال، وفيه حلى النساء كما ترى ، فاسْتَعِنْ به على دهرك . فقال . بأبى أنت وأمى ! قد أكثرتم وأطيبتم ، وما أردت بمدحى إياكم إلا اللهَ ورسولَه ، ولم أكُ لآخذ لذلك ثمناً من الدنيا ، فارْدُده إلى أهله ، فجهد به عبد الله أن يقبله بكلّ حيلة

فأبى ، فقال : إن أبيتَ أن تقبل فإنى رأيت أن تقول شيئا يغضب منه بعض الناس ؛ لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعضُ ما يحب .

فابتدأ الكميت ، وقال قصيدته[1] التي يذكُر فيها قومه مناقب من مضر ، وربيعة[2] وإياد وأنمار ، ويكثر فيها من تفضيلهم ويطنب فى وصفهم، وأنهم أفضل من قحطان .

فثارت العصبية فى البدو والحضر ، وانحرف أهل اليمن إلى الدعوة العباسية ، وأعقب ذلك انتقال الدولة عن بنى أمية إلى بنى هاشم .

---

(١) من هذه القصيدة :

وجدت الله إذ سمى نزارا ... وأسكنهم بمكة قاطنينا

لنا جعل المكارم خالصات ... وللناس القفا ولنا الجبينا

وقد نقض دعبل هذه القصيدة على الكميت ، وذكر مناقب اليمن وفضائلها من ملوكها كما فعل الكميت ، وذلك فى قصيدته التى منها :

أفيقى من ملامك يا ظعينا ... كفاك اللوم مر الأربعينا

ألم تحزنك أحداث الليالى ... يشيبن الذوائب والقرونا

(٢) كان الكميت من شعراء مضر وألسنتها المتعصبين على القحطانية المقارعين بالمثالب .

١١٠ - إنّ يُمْنِي يغلب شؤمك*

لمـــا تُوفِّى السفاح دخل أبو دُلَامة[1] على المنصور ، والناسُ عنـده يعزُّونه فقال :

أمسيتَ بالأنبارِ يابنَ محمــدٍ ... لم تستطع عن عُقْرِها[2] تحويلَا

ويلى عليك وويل أهــلى كلِّهم ... وَيْلًا وعَوْلًا فى الحيــاة طويلًا

فلَتَبكِينَّ لك السماءُ بِعَبْرَةٍ ... ولَيَبْـكِينَّ لك الرِّجَالُ عويلا

مات النَّدَى إذ مِتَّ يابنَ محمــدٍ ... فجعلتَه لك فى التراب عـــديلا

إنى سألتُ الناسَ بعـــدك كلَّهم ... فوجدتُ أسمحَ من سألت بخيــلا

ألشقْوَتى أُخِّرْتُ بعـــدك لِلّتى ... تَدَعُ العزيزَ من الرجال ذليلا ؟

فلأحلفنَّ يمينَ حقٍّ بَرَّةً ... تاللهِ ما أُعطِيتُ بعـدك سُولا[3]

فأبكى الناسَ قولُهُ ؛ فغضب المنصور غضباً شديداً ، وقال : لئن سمعتُك تنشد هذه القصيدة لأقطعنَّ لسانك ، قال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لى مُكْرِما ، وهو الذى جاء بى من البَدْو ، كما جاء اللهُ بإخوة يوسف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

---

* الأغانى ١٠ ــ ٢٤٠ (طبعة دار الكتب) ، معاهد التنصيص : ٢ ــ ٢١٠

(١) أبو دلامة : اسمه زند بن الجون ، كوفى المنشأ ، كان أبوه عبــدا لرجل من بنى أسد ثم أعتقه ، نبغ فى الشعر وانقطع إلى السفاح والمنصور والمهدى، وكانوا يقدمونه ويصلونه ويستطيبون محاسنه ونوادره. توفى سنة ١٦٢ هـ (٢) عقر الدار : أصلها ووسطها (٣) السول : يهمز ولا يهمز : ما سألته .

فسُرِّى عن المنصور ، وقال : قد أقلْناك يا أبا دُلامة ، فسَلْ حاجتك ! قال : يا أميرَ المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمرَ لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً،وهو مريض ، ولم أقبضْها ؛ فقال المنصور : ومَنْ يَعلمُ ذلك ؟ قال : هؤلاء ـ وأشار إلى جماعة ممّن حضر .

فوثب سليمان بن مُجالد ، وأبو الجَهْم؛ فقالا : صدق أبو دُلامة،نحن نعلم ذلك، قال المنصور لأبى أيوب الخازن ـ وهو مَغِيظ : ياسليمان،ادفعْها إليه ، وسيِّره إلى هذا الطاغية ـ يعنى : عبد الله[1] بن على ، وكان قد خرج بالشام ، وأظهرَ الخلاف ـ فوثب أبو دُلامة ، وقال : يا أميرَ المومنين ، أُعيذك بالله أن أخرجَ معهم ، والله إنى مشئوم !

قال المنصور : امضِ ، فإن يُمْنى يغلبُ شؤمك . فقال : يا أمير المؤمنين، والله ما أُحِبُّ أن يُجرّب ذلك منى على مثل هذا العسكر ؛ فإنى لا أدرى أيُّهما يغلب : يُمْنُك أم شؤمى ؟ إلا أنِّى بنفسى أوثق وأعرف وأطولُ تجربة .

فقال : دَعنى وهذا ؛ فما لك من الخروج بُدّ . قال:فإنى أصْدُقك الآن،شهدتُ والله تسعةَ عشر عسكراً ، كلُّها هُزِمتْ ، وكنتُ سببها ، فإن شئتَ الآن ـ على بصيرة ـ أن يكونَ عسكرك تمام العشرين فافعل .

فضحك المنصور ، وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

---

(١) هو عبد الله بن على ؛ عم الخليفة المنصور ، خرج عليه ودعا لنفسه ، فوجه إليه المنصور أبا مسلم .

١١١ — قتلهم الشعر*

كان أبو العباس جالساً فى مجلسه على سريره، وبنو هاشم دونه على الكراسى، وبنو أميّة على الوسائد، قد ثُنيَتْ لهم — وكانوا فى أيام دَوْلتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير، ويجلس بنو هاشم على الكراسىّ — فدخل الحاجب فقال: ياأمير المؤمنين؛ بالباب رجلٌ حجازىٌّ أسود راكبٌ على نجيب، مُتلثّمٌ(١)، يستأذن ولا يُخبر باسمه، ويحلف ألّا يَحْسر اللثام عن وجهه حتى يراك؛ قال: هذا مولاى سُدَيف، يدخل؛ فدخل، فلما نظر إلى أبى العباس وبنو أمية حوله، حَدَر(٢) اللّثام عن وجهه ثم سلم، ودنا وقبل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله، وأنشأ يقول:

أصبح المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبَهَاليـــل(٣) من بنى العبّاسِ
بالصُّدُور المُقدّمين قديمـــاً ... والرُّءوس القَماقِم(٤) الرُّوَّاسِ(٥)
يا أمـــير المطَهّرين من الذّ ... مّ ويا رأس مُنْتَهى كلّ راسِ
أنت مهدىُّ هاشم وهُدَاهـــا ... كم أناسٍ رَجوْك بعـــد إياسِ
لا تُقِيلَنَّ عبـــدَ شمس عِثاراً ... واقْطَعَنْ كلّ رَقْلَةٍ(٦) وغِراسِ
أنزِلُوهـــا بحيث أنْزَلها اللـــهُ ... بدار الهوانِ والإتعاسِ

* الأغانى ٤ — : ٣٤٥ (طبعة دار الكتب)، المحاسن والمساوئ. ٤١٠، (ليزج).

(١) تلثم الرجل: وضع اللثام؛ وهو رد العمامة على الوجه. (٢) حدر اللثام: حطه من علو إلى سفل. (٣) البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير. (٤) القمقام: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل. (٥) الرؤاس: الولاة والحكام. (٦) الرقلة: النخلة الطويلة التى تفوت اليد.

خوفُهمْ أظهر التودُّدَ منهم وبهم منكمُ كحزِّ المواسى
أقصِهمْ أيها الخليفةُ واحْسِمْ عنك بالسيف شأْفَةَ[1] الأرْجاس
واذكرنْ مصرعَ الحسين وزيدٍ[2] وقتيلٍ[3] بجانب المِهْرَاسِ
والإمام[4] الذى بحَرّان أمسى رَهْنَ قبرٍ فى غُرْبةٍ وتناسى
فلقد ساءنى وساء سَوائى قربُهمْ من نَمارقٍ وكراسى

فتغير لون أبى العباس ، وأخذه زَمَع[5] ورِعدة ؛ فالتفت بعضُ ولد سليمان ابن عبد الملك إلى رجلٍ منهم ، وكان إلى جَنْبه ، فقال : قتلنا والله العبد ، ثم أقبل أبو العباس عليهم ، فقال : أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذّذون فى الدنيا ، خذوهم ؛ فأخذتهم الخراسانية وضربوهم فأهمدوا ؛ إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداود بن على ، وقال له : إن أبى لم يكن كآبائهم ، وقد علمتَ صَنيعَتَه إليكم ؛ فأجاره واستوهَبَهُ من السفاح، وقال له: قد علمتَ يا أميرَ المؤمنين صنيعَ أبيه إلينا . فوهبه له ، وقال له : لا تُرينى وجهه ، وليكن بحيث تأمَنُه ، وكتب إلى عماله فى النواحى بقَتْل بنى أمية .

---

(١) الأرجاس : جمع رجس ؛ وهو القذر . (٢) هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب قتل فى أيام هشام بن عبد الملك . (٣) المهراس : ماء بأحد ، ويعنى بالقتيل حمزة بن عبد المطلب، قتله يوم أحد غلام لجبير بن مطعم ؛ اسمه وحشى . (٤) الإمام الذى بحران: هو إبراهيم الإمام ، رأس الدولة العباسية ؛ قتله مروان بن محمد صبراً وحبسا . (٥) الزمع : شبه الرعدة تأخذ الإنسان .

١١٢ — المنصور أحق بشعر طَريف*

قال أبو بكر الهذلىّ : سرتُ مع أمير المؤمنين المنصور(١) إلى مكةَ وسايرتُه يوماً ، فعرضَ لنا رجل على ناقةٍ حمراء تذهبُ فى الأرض، وعليه جُبّةُ خَزّ وعمامةٌ عدَنية ، وفى يده سوط يكادُ يمسُّ الأرض ، سرىّ الهيئة .

فلما رآه أمرنى أن أدعوَهُ ، فدعوتُه فجاء ، فسأله عن نسبه وبلاده وباديةِ قومه وعن ولَاة الصدقة ، فأحسنَ الجواب ، فأعجبه ما رأى منه ، فقال : أنشدنى، فأنشده شعراً لأوس بن حَجَر وغيره من الشعراء، وحدّثه حتى أتى على شعر لطريف ابن تميم العَنْبَرىّ ، وهو قوله :

إن قناتى لنَبْعٌ(٢) لا يؤيّسُها(٣) غَمْزُ الثِّقَاف(٤) ولا دُهْنٌ ولا نارُ
متى أُجِرْ خائفاً تأمَنْ مسارحُه(٥) وإن أُخِفْ آمنا تَقْلَقْ به الدّارُ
إنّ الأمورَ إذا أوردتَها صَدَرَتْ إنّ الأمور لها وِرْدٌ وإصدار

فقال : ويحك ! ما كان طريف فيكم حيث قال هذا الشعر ؟ قال : كان أثقلَ العرب على عدوّه وطأةً ، وأدركَهم بثأر، وأيْمَنَهم نقيبةً(٦)، وأصلبَهم قناةً لمنْ رامَ

---

* الطبرى : ٩ — ٢٩٨ .

(١) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على، ثانى خلفاء بنى العباس وأعظمهم شدة وبأسا ويقظة وثباتا . توفى سنة ١٥٨ هـ . (٢) النبع : شجر من أشجار الجبال ؛ تتخذ منه القسى .

(٣) التأييس : التذليل والتأثير ؛ أى لا يؤثر فيها شىء . (٤) الثقاف : ما تقوم به الرماح .

(٥) المسارح جمع مسرح : وهو الموضع الذى تسرح إليه الماشية بالغداة للرعى .

(٦) النقيبة : النفس ؛ وميمون النقيبة : مبارك النفس .

هَضْمه، وأقراهم لضيفه، وأحوطَهم من وراء جاره ؛ اجتمعت العربُ بعكاظ فكلُّهم أقرّ له بهذه الخِلال ، غير أنَّ امرأ أراد أن يقصِّر به فقالَ : والله ما أنت ببعيد النُّجْعة[1] ؛ ولا قاصد الرّميَّة[2] ؛ فدعاه ذلك إلى أن جعل على نفسه ألَّا يأكل إلا لحم قَنَص يَقْتَنصه ، ولا ينزع كل عام عن غزوة يبعد فيها أثره .

قال : يا أخا تميم ، لقد أحْسَنْتَ إذ وصفت صاحبك ، ولكنى أحقُّ ببيتيه منه، أنا الذى وَصف ، لا هو !

---

(١) النجعة : المذهب فى طلب الكلأ . (٢) قصد الرمية : أصابها .

١١٣ — المحبة مفتاح كلّ خير*

دعا المنصور بالربيع[1] فقال : سَلْنِي ما تريد ! فقد سكتَّ حتى نطقت ، وخففت حتى ثقَلْت ، وأقللتَ حتى أكثرت !

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أرهبُ بُخلَك ، ولا أستَصْغِرُ فضلَك ، ولا أغتنم مالك ، وإنّ يومى بفضلك علىّ أحسنُ من أمْسى ، وغدَك فى تأميلى أحسنُ من يومى ! ولو جاز أن يَشْكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد .

قال : صدقت ، على بهذا منك أحلَّك هذا المحل ، فَسَلْنى ماشئت !

قال : أسألك أن تقرِّبَ عبدك الفضل[2] ، وتؤثِره وتُحبَّه ! قال : ياربيع ؛ إنَّ الحبَّ ليس بمـال يوهَب ، ولا رُتبة تبْذَل ، وإنما تُؤَكِّدُه الأسباب ! قال : فاجْعَلْ له طريقاً إليه بالتفضُّل عليه !

قال : صدقتَ ، وقد وصلتهُ بألف درهم ! ولم أصِلْ بها أحداً غـير عُمومتى ؛ لتعلمَ ماله عندى ؛ فيـكونَ منه ما يستدعى به محبتى .

ثم قال : فـكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟ قال : لأنها مِفتَاحُ كلّ خـير ، ومِغْلاقُ كل شر ؛ تُسْتَرُ بها عندك عيوبُه ، وتصير حسناتٍ ذنوبُه !

قال : صدقت.

---

* زهر الآداب : ٢ — ٢٩٩

(١) هو الربيع بن يونس ، خدم المنصور ، ثم تدرج فى المناصب عنده إلى أن استوزره ، وكان جليلا نبيلا عارفاً بخدمة الخلفاء ، مات سنة ١٧٠ هـ . (٢) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة ؛ ولابنه الأمين .

١١٤ — المنصور والشعراء *

قال الربيع بن يونس يوماً لأبي جعفر المنصور : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ الشعراء ببابك ، وهم كثير ، وقد طالت أيّامُهم ، ونفدَت نفقاتهم ، فقال: اخرُجْ إليهم، وسلم عليهم ، وقل لهم : مَنْ مَدَحنا منكم فلا يصف الأسد ؛ فإنما هو كلبٌ من الكلاب، ولا الحيّة ؛ فإنما هي دُوَيْبَّةٌ تأكل التراب ؛ ولا الجبل ؛ فإنه حجر أصمّ ، ولا البحرَ ؛ فإنه غِطَمٌ لَجِبٌ[1] ؛ فمن ليس في شعره شيء من هذا فليدخل ، ومَنْ كان في شعره شيء منه فلينصرف . فأبلغهم ؛ فانصرفوا كلّهم إلا إبراهيم[2] بن هَرْمَة ، فقال : أنا له يا ربيع ، فأدْخلني عليه .

فأدخله ، فلما مَثَلَ بين يديه قال له يا ربيع ؛ قد علمتُ أنّه لا يجيبك غيرُه ، فأنشدَه قصيدته التي منها :

له لَحَظاتٌ عن حِفَافَيْ[3] سَرِيرِه ... إذا كرّها[4] فيها عقابٌ ونائلُ

فأمُّ الذى أمّنْتَ آمنـــةُ الرَّدى ... وأمّ الذى خوّفْتَ بالثُّكْل ثاكلُ

---

* نهاية الأرب : ٣ ــ ٣٠٦ ، العقد الفريد : ١ ــ ١٦٥ ، ذيل زهر الاداب: ١٨٤، الغرر: ١٨٥ ، الأغاني : ٦ ــ ١٠٩ (طبعة دار الكتب) .

(١) لجب : ذو لجب ، وبحر ذو لجب : إذا سمع اضطراب أمواجه . (٢) هو إبراهيم بن علي بن هرمة المنتسب إلى قريش ؛ نشأ بالمدينة ، وأخذ عن الرواة والمتقدمين والمتأدبين كثيراً ، وقال الشعر وأجاده . وتوفي سنة ١٥٠ هـ . (٣) الحفافان : الجانبان . (٤) كرها : أرجعها ، والنائل : العطاء .

فقال له المنصور : أما لقد رأيتك فى هذه الدار قائما بين يدى عبد الواحد بن سليمان تُنشده قولك فيه :

وجدنا غالباً كانت جناحاً　　وكان أبوك قادمةَ الجناحِ

فقُطع بابن هَرْمة حتى ما قدر على الاعتذار ، فقال له المنصور : أنت رجل شاعر طالب خير ، وكلّ ذلك يقول الشاعر ، وقد أمرلك أمير المؤمنين بثلاثمائة دينار .

فقام إليه الحسن بن زيد فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ هَرْمة رجلٌ منفاق مِتْلاف لا يبقى شيئاً ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يأمر له بها ، يُجرَى عليه منها مايكفيه ، ويكفى عياله ، ويكتب بذلك فعل .

فقال : افعلوا ذلك به .

١١٥ — المؤمّل يمدح المهـــدى*

وفد المؤمّل[1] بن أمِيل على المَهدىّ بالرّى فامتدحه ، فأمر له بعشرين ألف درهم ، فاتّصل الخبر بالمنصور ، فـكتب إليه أن يعذُله ويقول : إنما كان سبيلُك أن تأمرَ للشاعر بعد أن يقوم ببابك سنة بأربعة آلاف درهم! وكتب إلى كاتب المهدى بإنفاذ الشاعر إليه . فسأل عنه . فقيل له : قد شَخَص إلى مدينة السلام .

فـكتب إلى المنصور يخـــبِره ، فأنفذ المنصور قائداً من قواده إلى النَّهْرَوَان يتصفّح وجوه الناس رجلا رجلًا ممّن يمرّ به حتى يظفر بالمؤمّل .

وسار القائد حتى انتهى إلى القافلة التى فيها المؤمّل ، فسأله : من أنتَ ؟ قال : أنا المؤمّل بن أمِيل المحاربىّ الشاعر ، أحدُ زوّار الأمير المهـــدى ، قال : إيّاك طلبتُ .

قال المؤمّل : فـكاد قلبى يَنْصدع خوفاً من أبى جعفر ، وقبض علىّ ؛ ثم أتى بى وأسلَمنى إلى الربيع ، فأدخلنى إلى أبى جعفر ، فسلّمتُ تَسْليمَ مُروَّع ، فردّ السلام ،

* نهاية الأرب : ٣ ـ ٣٠٧ ، مهذب الأغانى : ٤ ـ ١٣٥ ، أمالى الزجاجى : ٢٦ ، ذيل زهر الآداب : ٨٤ ، الغرر : ١٨٥ ، المحاسن والمساوى : ٢٧٠ ، معجم الأدباء : ٩ ـ ٢٠٣

(١) شاعر كوفى من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية ، وانقطع إلى المهدى فى حياة أبيه وبعده ، وكان فى شعره لين ، وله طبع صالح. (٢) المهدى هو ابن أبى جعفر المنصور والخليفة بعده، كان فطناً كريماً شديداً على أهل الإلحاد ، كثير الجلوس بنفسه للمظالم . توفى سنة ١٦٩ ﻫ .

وقال : أتيتَ غلاماً غِرًّا كريماً تخدعته ، قال : يا أمير المؤمنين ، إنما أتيتُ ملكاً جواداً كريماً فدحته فحملتْهُ أريحيّتهُ على أن وصلنى وبرّنى ؛ فكأنّ ذلك أعجبه ، فقال له : أنشدنى ما قلتَ فيه ، فأنشده :

هو المهدىُّ إلا أنَّ فيه   مَشَابِهَ[1] صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابهَ ذا وذا فَهُمَا إذَا مَا   أنارَا يُشْكِلَان على البَصيرِ
فهذا فى الضياء سراجُ عَدْلٍ   وهذا فى الظلام سراجُ نُورِ
ولكنْ فضَّل الرحمنُ هذا   على ذا بالمنابرِ والسريرِ
وبالمُلكِ العزيزِ فذا أميرٌ   وماذا بالأميرِ ولا الوَزيرِ
ونَقْصُ الشهرِ يُخْمِدُ ذاء وهذا   مُنيرٌ عند نُقْصَان الشهور
فيابْنَ خليفةِ الله المُصَفَّى   به تَعْلُو مُفَاخَرَةُ الفَخُورِ
لئن فُتَّ الملوكَ وقد توَافَوْا   إليك من السُّهولةِ والوعُور
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتَّى   تَرَاهُم بينَ كَابٍ أو حَسِيرِ
وجئتَ وراءه تجرى حَثيثاً   ومابك حين تجْرى من فُتُورِ
فقال الناس : ما هذان إلّا   بمنزلة الخَليقِ من الجَديرِ
فإن سبق الكبيرُ فأهلُ سَبْقٍ   له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ   فقد خُلِقَ الصغيرُ مع الكبيرِ

فقال : أحسنت ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، ثم قال له :

---

(١) مشابه : جمع شبه على غير قياس .

أين المال ؟ قال : ها هو ذا ! قال : ياربيعُ ؛ أَعْطِهِ منه أربعة آلاف درهم ، وخذ الباقى .

قال المؤمل : فأخذ منى ستة عشر ألفاً ، فآليت على نفسى ألا أدخل العراق وللمنصور بها ولاية .

فلما صارت الخلافة إلى المهدى رفعتُ إليه رقعة ذكرت فيها قصّتى ، فلما قرأها ضحك حتى استلقى ، وقال : هذه مظلمة أنا بها عارف ؛ ردُّوا عليه ماله ، وزيدوا له عشرين ألفا ، فأخذتها وانصرفت .

١١٦ — مدائح وعطايا*

أَهْدِيَتْ جارية يمانية إلى أبى جعفر المنصور ، فأنشدته شعرا لمرْوان بن أبى حَفْصة[1] يمدح به السرىّ بن عبد الله، ويذكر فيه وراثة العباس، فسألها : لمن هذا الشعر ؟ فأخبرته ، فأمر بإحضار مروان ، فوافاه بالرَّبَذَة[2] حاجًّا ، فلقى الربيع بن يونس والمنصورُ عليل ؛ العلة التى مات فيها . فقال: كُنْ قريباً حتى ندعوَ بك، فلم تزل العلة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان ، فقال له الربيع: الحقْ بالمهدى[3] ولا تتخلف عنه ؛ وانصرفَ مَرْوَانُ إلى اليمامة ، فجعلها طريقاً ، وعليها بِشْرُ بن المنذر والياً ، فأوفده بِشْر فيمن أوفده ، وأعطى كلَّ رجل ألفَ درهم، فقدم مروان على المهدى ؛ وقد مدحه بأربع قصائد . فأعطاه المهدى ثلاثين ألف درهم ، فانصرف إلى اليَمَامَة .

ثم عَاد بعد ذلك ، فطلب الوصول بيعقوب بن دَاود[4] ، فأقام نحواً من سنة، وغضب المهدىّ على يعقوب بن داود .

قال مروان : بينا أنا واقف على باب المهدى إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور فقال : يا بن أبى حفصة ؛ ذَكركَ أمير المؤمنين آنِفاً ؛ وهو يراكَ أشعرَ الناس ، غير أنه يقول : لا حاجةَ لنا فيما قِبَلك ؛ فانصرف عن بابنا .

---

* المحاسن والمساوئ : ٢٤٠ (طبع ليبزج) ، الفرج بعد الشدة : ١ — ٧٣

(١) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبى حفصة . نشأ فى أواخر الدولة الأموية ؛ ولم يشتهر إلا فى دولة بنى العباس ، مدح المهدى ومعن بن زائدة والرشيد ، ويعد من فحول الشعراء ، مات سنة ١٨١ هـ . (٢) الربذة : من قرى المدينة . (٣) انظر صفحة ٢٨١ . (٤) كان يعقوب وزير المهدى ، وكان عالى المنزلة عنده ، موضع ثقة منه ، ثم تغير عليه وحبسه ، ومازال فى حبسه حتى تولى الرشيد وأخرجه منه .

فانصرفتُ مغموماً ، ثم تذكّرتُ رجلا أتحدّث عنده ، وآنسُ لديه ، فأتيت يزيدَ بن مَزْيَد ، فشكوت إليه ما قال لى خالد بن يزيد . فقال : أدلُّك على رجل صدوق ، له رِقّةٌ ، لعله ينفعُك ! قلت : ومن هو ؟ قال : الحسن الحاجب، فغدوت إلى الحسن ، فشكوت إليه ما حكاه خالد مِنْ رأى أمير المؤمنين ؛ فقال: بل ذلك من يعقوب بن داود. فقلت : بأبى أنت وأمى! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحاً لما أنا فيه ! قال : ذاك كما أقول لك ، فانصرفتُ؛ وقلت :

أتانى من المهدىّ قولٌ كأنما ... به احتزّ أنفى مُدْمِنُ الضِّغْنِ جادعُ

وقلتُ ـ وقد خِفْتُ الّتى لا شَوَى لها[1] ... بِلَا حَدَثٍ : إنّى إلى الله راجعُ

ومَا لِى إلى المهدىّ لو كنتُ مُذْنباً ... سوى حِلْمِهِ الصّافِى من الناسِ شافعُ

ولا هو ـ عند السُّخْط منه ولا الرِّضا ـ ... بغَيْر الذى يَرْضى بهِ اللهُ صانعُ

عليه من التقوى رداءٌ يكُنُّهُ ... وللحقّ نورٌ بينَ عينَيْهِ ساطعُ

يُغَضُّ لهُ طَرْفُ العيون وطَرْفُهُ ... على غيرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خاشعُ

هلِ البابُ مُفْضٍ بى إليك ابنَ هاشمٍ ... فَعُذْرِىَ إن أفضى بِىَ البابُ ناصعُ

أتيتُ امْرَأً أطلقتَهُ مِنْ وَثاقِهِ ... وقد أنشِبَتْ فى أخْدَعَيْهِ الجوامعُ[2]

وَجَلّى ضَبابَ العُدمِ عنه وراشَهُ ... وأنْهضَهُ مَعرُوفُكَ المتتابعُ

فقلت : وزيرٌ ناصحٌ قد تتابَعَتْ ... عليه بإنعامِ الإمامِ الصنائعُ

وما كان لى إلا إليك ذريعةٌ ... وما مَالكٌ إلا إليه الذرائعُ

وإن كانَ مطويٌّ على الغَدْرِ كَشْحُهُ ... فلم أدرِ منه ما تُجِنُّ الأضالعُ

---

(١) لاشوى لها: لا برء لها .

(٢) الجوامع : جمع الجامعة : الغل .

وقلت فى قصيدة أخرى :

سَيُحْشَرُ يعقوب بن داوُدَ خائباً بلُوحُ كتابٌ بينَ عَيْنَيْهِ كافِرُ

بَدَا منكَ للمهدىّ كالصُّبح ساطعاً من الغِشِّ ما كانت تُجِنُّ الضمائرُ

وهل لبياضِ الصُّبحِ إن لاحَ ضَوْءُهُ لجِلْبابِ الدُّجا من ظُلْمَةِ الليلِ ساترُ !

أَمَنزلةٌ فوقَ التى كنتَ نِلْتَها تعاطَيْتَ ! لا أفلحت ممّا تُحاذِرُ

ثم أتيت الحسنَ بعد يومين ، فقال : ما صنعتَ ؟ فأنشدتُهما إيّاه ، فقال : اكتبهما لى . فقلت : قد فعلت . فقال : هاتِهما ، فتناولهما ، وقال : لست واضعهما من يدى حتى أضَعَهما فى يد المهدى ، ثم مضى .

وأتيتُه من الغدِ ، فقال : ما وضعتُهما من يدى حتى وضعتُهما فى يد المهدى ! فقرأهما فرقَّ لك وأمر بإدخالك عليه ؛ فاحضر يوم الاثنين .

فحضرت ، فخرج علىَّ ؛ فقال : قد علم أميرُ المؤمنين بمكانك ، وقد أحبَّ أن يجعلَ لك يوماً يشرّفُك فيه ويبلغ بك . قلت : فمتى ؟ بأبى أنت وأمى ! قال : يوم الخميس .

فعدتُ إليه يوم الخميس ، فإذا وجوهُ بنى العباس يدخلون على المهدىّ ، فلما تتَامّ المجلس دعانى فدخلتُ فسلمتُ فردَّ السلام ، وقال : إنما حبَسك عن الدخول انقطاعُك إلى يعقوب بن داود ، فافتتحت النشيد بما قلت فى يعقوب ، فأنشدته ، ثم أنشدته :

طرقَتْكَ[1] زائرةً فحىِّ خيالَها بيضاء تخلِطُ بالجمال دَلالَها

---

(١) طرق القوم : أتاهم ليلا .

قادَتْ فؤادَكَ فاستقاد ومثلُها ... قادالقلوبَ إلى الصِّبا[1] فأمالَها

فأنصت الناس حتى بلغت إلى قولى :

هل تَطْمِسُون من السماء نُجُومَها ... بأكفكم أو تسترون هلالها!

أو تجحدون مقالةً عن ربِّكم ... جبريلُ بلغها النبيَّ فقالها

شَهِدَتْ من الأنفال آخر آية ... بتُراثهم[2] فأردتُمُ إبطالها

فأعجب بذلك ، وقال : جزاك الله خيراً ! فقلت: اشهدوا، هذا والله الشرف، أمير المؤمنين يجزينى خيراً ، ثم أنشدته :

* أعادَكَ من ذِكْرِ الأحِبَّةِ عائد *

حتى صرت إلى قولى :

أيادى بنى العباسِ بيضٌ سوابغٌ ... على كلِّ قومٍ باديات عوائدُ

فهم يعدِ لون السَّمْكَ من قُبَّةِ الهدَى ... كما يَعْدِلُ البيتَ الحرامَ القواعدُ

سَوَاعِدُ عِزِّ المسلمينَ ، وإنما ... يَنُوء بصَوْلات الأكفِّ السواعِدُ

يَزِينُ بنى ساقى الحجيج[3] خليفةٌ ... على وَجْهِه نورٌ من الحقِّ شاهدُ

يكون غِراراً نومُهُ من حِذَارِهِ ... على قُبَّةِ الإسلامِ والخَلْقُ راقدُ

كأنَّ أميرَ المؤمنين محمداً ... لرأفته بالناس للناسِ والدُ

على أنه مَنْ خالفَ الحقَّ منهمُ ... سَقَتْهُ يدُ الموتِ الحتوفَ الرَّواصِدُ

---

(١) استقاد : انقاد، والصبا : الشوق. (٢) التراث : مايتركه الميت لورثته ، ويعنى بآخر آية من سورة الأنفال قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » . (٣) يشير إلى سقاية الحاج ، وهى ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس ابن عبد المطلب ، جد الخلفاء العباسيين .

فأشار إلىّ ، فأمسكتُ . فقال : يا بنى العباس ، هذا شاعركم المنقطعُ إليكم ، المعادَى فيكم ، فأعطوه ما يسرُّه . فقلت : ينبغى إذ سمعوا كلام أمير المؤمنين ، وعرفوا رأيه - أن يصلونى من أموالهم ، فقال : أنا فارضٌ عليهم لك مالاً ، ففرضَ على موسى ابنه خمسة آلاف درهم ، وعلى هارون خمسة آلاف ، ثم فرض على القوم على قدْرِ حالاتهم ، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم ، والربيعُ يكتبُ كلَّ ما فُرض على كل رجل منهم .

فقال واحد ممن حضر : يا أمير المؤمنين ؛ إنما نحن من أهلك ، فأدْخِلْنا فيما أدخَلْتَهُم فيه ؛ فجعل عليه ألفاً ، وعلى الربيع ألفين ؛ فتمَّت أربعين ألفا .

فقلت : يا أميرَ المؤمنين ؛ مَنْ لى بهذا المال ؟ قال : هذا - وأشار إلى الربيع . ثم قال : إن أمير المؤمنين يعطيك من صلب ماله . فأمر لى بثلاثين ألف درهم فى ثلاث بِدَر[1] فجيء بهنّ ؛ فَطَرِحْن قريباً ، فدعوتُ وشكرتُ ، فقال : يا بن أبى حفصة ؛ ستجيئك صِلاتى وبرِّى ، ويأتيك منِّى ما يؤدّيك إلى الغنى .

قلت: ياأمير المؤمنين، قد رأيتُ من قبُولك وبشْرِك وسرورك بما سمعتَ منّى ما سأزدادُ به شعراً، وستسمعُ ويبلغك، وقلت : ياأمير المؤمنين، لا يبلغ ما أعطيتنى لشاعرٍ بعدى ، قال : أجل ! قلت : وآذنِّى فى زيارتك ، قال : نعم .

قلت : ياأمير المؤمنين، لى عدوٌّ فيك، وفى أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يَجْعَلَ لأحدٍ علىَّ سلطان دونه ! قال: لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين ، فقلت : اكتبْ إلىّ بذلك كتاباً ، فأمر بالكتاب بذلك ! فانصرفت .

فلما صرتُ خَلْفَ السِّتْرِ خرج إلىّ خادم بمنديل فيه أربعة أثواب وشْى وثوب

---

(١) البدرة : كيس فيه عشرة آلاف .

خَزّ[١] وجُبّة وقميص . فقال: ألبسوه وأعيدوه إلىّ ؛ فلبست الخزّ والوَشْىَ على الثياب التى كانت علىّ ، وألقيت القميصَ على أحدِ مَنْكِبَىّ والجبّة على المَنْكِب الآخر . فقال لى : يابنَ أبى حَفْصة ؛ أتدخلُ على أمير المؤمنين هكذا ، وقد مَثَّلْتَ بنفسك ! فقلت : والله لو كانت كرامةُ أمير المؤمنين أحُداً ما خلعت منها شيئا أطيق حَمْلَه .

ثم دخلت فلما رآنى تبسّم، ثم قال:مُطْرَف[٢] ، فأبطئوا به، فقال : المُطْرَف — وأنا قائم — ، ثم قال الثالثة: المطْرَف . فلما أبطئوا انصرفت ، وقعدت خلف السِّتر، فلم ألبث أن رُفع السِّتْرُ ، وخرج أميرُ المؤمنين على دابّةٍ فقمتُ إليه فلمّا رآنى قال : المُطرَف ، فما برح حتى أُتِىَ به ؛ فَنُشِرَ علىّ بين يديه ، وأمر لى بعشرة من خدم الروم ، وجائزة سنية ، وبِرْذَوْن[٣] بسرْجه ولجامه .

---

(١) الخز : الحرير . (٢) المطرف : ثوب فى طرفيه علمان . (٣) البرذون : الدابة .

١١٧ — فصاحة نُصيب*

وجّه المهدى نُصيباً(١) الشاعرَ مولاه إلى اليمن فى شراء إبل مَهْرِيّة(٢) ، ووجّه معه رجلان من الشِّيعة ، وكتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار ، فمدَّ يده فى الدنانير ينفقها فى الأكل والشرب ، وشراء الجوارى والتزويج ، فكتب الشِّيعىّ بخبره إلى المهدى ، فكتب فى حَمْله موثقاً فى الحديد ، فلما دخل على المهدى أنشده شعراً ، قال :

تأوّبنى ثِقْلٌ من الهمِّ مُوجِع ... فأرّق عينى ؛ والخَلِيُّون هُجَّعُ
هموم توالت لو أطاف يسيرُها ... بَسَلْمَى لظلّتْ صُمُّهُ تتصدَّعُ(٣)
وعادتْ بلادُ الله ظلماء حِنْدِساً ... فخِلْتُ دُجَا ظلمائها لا تَقَشَّعُ
إليك أمير المؤمنين ولم أجد ... سواك مُجيراً منك يُدْنى ويَمْنَعُ
تلمَّست : هل من شافع لى ؟ فلم أجد ... سوى رحمةٍ أعطاكها الله تَشفعُ
لئن جلّت الأجْرام(٤) منى وأفظَعَتْ ... لَعَفْوُكَ عن جرمى أجلُّ وأوسعُ
لئن لم تَسَعْنِى يابنَ عمِّ محمدٍ ... فما عجزتْ عنّى وسائل أربَعُ
طُبِعْتَ عليها صِبْغَةً ثم لم تزَل ... على صالح الأخلاق والدين تُطْبَعُ

---

* الأغانى : ٢٠ — ٢٦ (طبعة الساسى) .

(١) هو عبد نشأ باليمامة ، واشترى للمهدى فى حياة المنصور ، فلما سمع شعره قال : والله ماهو بدون نصيب مولى بنى مروان ، فأعتقه وزوجه ، وأقطعه ضيعة بالسوداء ، توفى سنة ١٧٥ هـ .

(٢) مهرة بن حيدان : أبو حى فى اليمن ، والإبل المهرية منسوبة إليه . (٣) سلمى هنا : جبل .

(٤) الأجرام : الذنوب .

تَغَابِيكَ عن ذى الذنبِ ترجو صلاحَه ... وأنت ترى ما كان يأتى ويَصْنَعُ
وعفوُكَ عمن لو تكون جزيتَه ... لطارتْ به فى الجوّ نكباء زَعزَعُ
وأنك لا تنفكّ تَنْعَشُ عاثراً ... ولم تعترضه حين يكبو ويَخْمَعُ[1]
وحلمك عن ذى الجهل من بعد ما جرى ... به عَنَقٌ[2] من طائش الجهل أشنعُ
وإنى لَمولاكَ الذى إن جفوتَهُ ... أتى مستكيناً راهباً يتضرّعُ
وإنى لَمَوْلاكَ الضعيف فأعْفِنِى ... فإنى لعفوٍ منك أهلٌ وموضعُ

ثم تشفّع له الهادى وأعْتَقَهُ ، وأمضى المهدىُّ ذلك له ، وأمر بحديده ففُكّ عنه ، وخلع عليه عدّةً من الخِلَع ، ووصله بألفى دينار ، وأمر له بجارية يقال لها جعفرة ، جميلة فائقة ، فقال له سالمٌ قَيِّمُ الرقيق : لا أدفعها إليك أو تعطينى ألف درهم ، فعاد إلى المهدى وأنشده :

مازلتَ تبذلُ لى الأموالَ مجتهداً ... حتى لأصبحتُ ذَا أهل وذا مالِ
زَوّجْتَنِى يابنَ خيرِ النّاس جاريةً ... ما كان أمثالها يُهْدَى لأمثالى
زَوّجتنى بضّةً بيضاء ناعمةً ... كأنها دُرّةٌ فى كفّ لأّلِ[3]
حتى توهمتُ أن الله عجّلها ... يابْنَ الخلائفِ — لى من خير أعمالى
فَسَالنى[4] سالم ألفاً فقلت له : ... أنى لِىَ الألفُ ؟ ياقُبِّحْتَ من سَال !
هيهات أَلْفكَ إلا أنْ أجىء بها ... من فضلِ مولًى لطيف المنّ مِفْضَال

فأمر له المهدى بألف دينار ، ولسالم بألف درهم .

---

(١) الخمع : الظلع . (٢) العنق فى الأصل : نوع من السير . (٣) اللآل : بائع اللؤلؤ .
(٤) سالنى : سألنى .

١١٨ — أتته الخلافة منقادة*

جلس المهديُّ للشعراء يوماً فأذِن لهم ، وفيهم بشار[1] وأشجعُ ؛ وكان أشجعُ يأخذُ عن بشَّار ويُعظِّمه ، وكان فى القوم غيرَ هذين أبو العتاهية[2] ، قال أشجع : فلما سمع بشارٌ كلامَ أبى العتاهية قال : يا أخا سُلَيم ؛ أهذا ذلك الكوفىّ الملقَّب ؟ قلت : نعم ! قال : لا جزى الله خيراً مَنْ جَمَعنا معه . ثم قال له المهدىّ : أنشد ، فقال : ويحك ! أوَيُسْتَنشد أيضاً قَبْلنا ! فقلتُ : قد تَرَى ، فأنشد :

ألا ما لسيِّدتى مالَها أدلًّا فأحمِلَ إدْلالَها

وإلا ففيم تجنَّتْ وما جنيتُ سقَى الله أطْلالَها

ألا إن جاريةً للإما م قدأُسْكِنَ الحسنُ سِربالَها

مشتْ بين حورٍ قصار الخطا تُجاذِبُ فى المشى أكْفالَها

وقد أتْعَبَ اللهُ نفسى بها وأتْعَبَ باللَّوْم عُذَّالَها

قال أشجع : فقال لى بشار : ويحك يا أخا سُلَيم ! ما أدرى مِنْ أى أمْرَيْه أعجب : أمِن ضعف شِعْره ، أم من تشْبيبه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك بأذنه ! حتى أتى على قوله :

---

* الأغانى : ٤ — ٣٣ (طبعة دار الكتب) .

(١) هو فارسى الأصل ، أخذ أبوه فى سبى للمهلب بن أبى صفرة ، ثم ولد بشاراً ، وأعتق . ولد أعمى قبيح المنظر ، ونبغ فى الشعر ، فكان رئيس شعراء العصر العباسى غير مدافع ، وتوفى سنة ١٦٧ هـ . (٢) أبو العتاهية : اسمه إسماعيل بن القاسم، نشأ بالكوفة، وعالج الشعر صبيا خليعا ، ثم ألم بمذاهب المتكلمين والفلاسفة ، وظهر ذلك فى شعره . مات سنة ٢١١ هـ .

أتتهْ الخلافةُ منقادةً إليـه تجرِّرُ أذيالَها
فلم تكُ تصلحُ إلّا لَهُ ولم يكُ يصلحُ إلّا لها
ولو رَامَها أحـد غـيرُه لزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها
ولو لم تُطِعهْ بنات[1] القلوب لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَها
وإنّ الخليفة من بُغْض «لا» إليه لَيُبْغِضُ مَنْ قالها

قال أشجع : فقال لى بشار ، وقد اهتزّ طرباً : ويحك يا أخا سُلَيم ! أترى الخليفة لم يطِر عن فراشِه طرباً لما يأتى به هذا الكوفىّ .

---

(١) يريد النيات .

١١٩ — صريع الغوانى*

خرج مُسْلِمُ[1] بن الوليد ذات يوم ، فلقى يزيد بن منصور الحِميرىّ بباب الرّشيد ، فسلم فردّ عليه السلام ، ورحّب به ، وسأله عن شأنه فخبّره ، وسأله أن يقرِّبَه من الخليفة ، وأن يحتال حتى يُعَدَّ فى مُسَازِحيه ، ومَنْ يجرى عليه أرْزاقَه ! فقال له الحِميرىّ : سأتأتّى لوصولك إلى أمير المؤمنين .

فدخل الحِميرىّ ، فأصاب أميرَ المؤمنين لقِسَ[2] النفس ، قد اشتمل عليه الفكرُ فى سرعة تقضِّى أمور الدنيا ، وأنه لا يُتَشَبَّثُ منها بشىء إلا كان كالظلّ الزائل ، والسراب الخادع ! فقال له جعفر بن يحيى : يا أميرَ المؤمنين ؛ أفتظنُّ أنّ هذا الفكر يحبسُ عليك الأيام ، ويمنعك مما لا يستمتع به؟ إنما هذا الذى أنتَ فيه عارض عرض لك ، وقد كان ملِك من الملوك حكيماً يقول : الهمُّ مفْسَدة للنفس ، ومَضلّة للفهم ، ومَشْدَهَة للقلب ، ومن أعظمِ الخطأ التشاغلُ بما لا يمكن دفعُه .

وقال له سليمان بن أبى جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ قد قال لقمان الحكيم : من يملك يستأثر ، ومن لا يَسْتَشِرْ يندمْ ، والهمُّ نصف الهرمِ ، والفقرُ الموتُ الأكبر .

---

* المحاسن والمساوىء : ٢٥٣ (طبع ليبزج) .

(١) مسلم بن الوليد : من أبناء الأنصار، كان مداحاً محسناً، لطيف المعنى رقيق القول، مدح يزيد ابن مزيد والبرامكة والرشيد، وولاه المأمون بريد جرجان، ولم يزل بها إلى أن مات سنة ٢٠٨هـ

(٢) يقال : لقست نفسه من الشىء : انصرفت .

فكأن الرشيد نشط ، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر ، فتقدم إليه الحيرىّ ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ خلفتُ بالباب آنفاً رجلًا من أخوالك الأنصار ، متقدما فى شعره وأدبه وظرْفه ؛ أنشدنى قصيدة يذكر فيها أُنسه ولَهْوه ولعبه ومحادثته إخوانَه ، ويذكر مجالسَ اتصلت له بأبلغ قولٍ وأحسن وصفٍ وأقرب رَصْف ، يبعثُ والله على الصَّبَابة والفرح ، ويباعد عن الهمّ والترَح ، وكأنه قد وفّق - بيُمن أمير المؤمنين ، وسعادة جدّه - لأن يكون مُبْرِئاً من هذه الشكوى ، زائداً فى سرور أمير المؤمنين ، مستدعياً صِلَةَ رَحِمه ، والتشرُّف بخدمته .

فاستفزّه السرورُ والقلق إلى دخوله ، واستماع قصيدته ، وجعل يتابع الرسل بعضهم فى أثر بعض ، حتى دخل وكان حُلوَ الشمائل ، فوصل إليه فى وقتٍ قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشِرَّته ، ولم يكن فى عداد من اضطرب سنًّا ، وكان - ناهيك من رجل ! معه فهمٌ وتجربة وتمييز ومعرفة ، فأمْهل حتى سكن ، ثم أُذِن له فى الجلوس ، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التى يقول فيها :

أديرَا علىَّ الكأسَ لا تَشْرَبا قَبْلِى	ولا تطلُبَا من عند قاتلتى ذَحْلى[1]
فما جَزَعِى أنّى أموتُ صبابةً	ولكنْ على مَنْ لا يَحِلُّ لها قَتْلِى
أُحِبُّ التى صَدَّتْ وقالت لِتِرْبِهَا :	دَعِيهِ ؛ الثُّرَيَّا منه أقربُ من وَصْلِى !
بلى رُبَّما وَكَّلتُ عينى بنظرةٍ	إليها تزيدُ القلبَ خَبْلا على خَبْلِ
كتمتُ تباريحَ الصبابةِ عاذِلى	فلم يدرِ ما بى ، واسترحتُ من العَذْلِ

إلى أن قال :

---

(١) الذحل : الثأر .

إذا ما عَلَتْ منا ذُؤابَةُ واحـدٍ   تمشّتْ به مَشْيَ المقيَّدِ في الوَحْلِ

فلا نحنُ مِتْنا موتةَ الدهر بغتـةً   ولا هِيَ عادتْ بعدَ عَلٍّ ولا نَهْلِ

سأنقاد لِلّذاتِ متّبعَ الهوَى   لأُمْضِيَ همًّا أو أُصِيبَ فتى مِثْلِي

هل العيشُ إلّا أن تَرُوحَ مع الصِّبَا   وتَغْدُو صَرِيعَ الكأسِ والأعْيُنِ النُّجْلِ

فجعل الرشيدُ يتطاول لهـا ، ويستحسن ما حكاه من وصف شرابٍ ولهو وغَزَلٍ وسهولة ألفاظ ؛ فأمر له بمال، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحوّل إليه ، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته ، فسماه يومئذ ـ بآخر بيت من شعره : صريع الغواني !

١٢٠ – الرشيد وابن مناذر*

قال ابنُ مناذر[١] : حج الرشيدُ بعد إيقاعه بالبرامكة ، وحجّ معه الفضلُ بن الربيع ، فهيأْتُ فيه قولًا أجدْتُ تنميقَه ، وتَنَوّقْتُ[٢] فيه ، فدخلتُ إليه في يوم التروِية[٣] ، وإذا هو يسألُ عني ويطلبني ؛ فبدَرني الفضلُ بن الربيع قبل أن أتكلم ، فقال : ياأمير المؤمنين؛ هذا شاعر البرامكة ومادحُهم ـ وكان البِشْر ظهر لي في وجهه لما دخلتُ ـ فتنكَّرَ وعبس في وجهي ، فقال الفضل : مُره يا أمير المؤمنين أن يُنشدك قولَه فيهم :

* أتانا بنو الأملاك من آل برمك *

فقال : أنشدني ، فأبيت ، فتوعّدني وأكرهني فأنشدته :

أتانا بنو الأملاك[٤] من آل برمكٍ   فيا طيبَ أخبارٍ ويا حسنَ منظرِ !
إذا وردوا بطحاءَ مكةَ أشرقَتْ   بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فتُظلم بغداد ويجلو لنا الدُّجى   بمكةَ ـ ما حجُّوا ـ ثلاثة أقْمُرِ
فما صَلحت إلا لجود أكفهم   وأرجُلهم إلا لأعوادِ منبرِ
إذا راض يحيى الأمرَ ذلّتْ[٥] صعابُه   وحسبُك من راعٍ له ومدبِّرِ

---

* الأغاني : ١٧ ـ ٢٥ (طبعة الساسي).

(١) هو محمد بن مناذر ، شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة ، كان في أول أمره ناسكا متألها ، ثم عدل عن ذلك فهجا الناس ، وتهتك وخلع وقذف أعراض أهل البصرة ، ومدح المهدى ، ومات في أيام المأمون. (٢) تنوقت فيه: بالغت في تجويده. (٣) التروية : يوم قبل يوم عرفة ، وهو الثامن من ذي الحجة. (٤) الأملاك : الملوك. (٥) سهلت .

ترى الناس إجلالا له وكأنهمْ غَرانيقُ[1] ماءٍ تحت بازٍ مصرصِرِ[2]

ثمّ أتبعتُ ذلك بأن قلت : كانوا أولياءك يا أميرَ المؤمنين أيّام مدحتهم، وكانوا في طاعتك، لم يلحقهم سَخَطُك، ولم تحْلُلْ بهم نقْمتك، ولم أكن في ذلك مبتدِعاً، ولا خَلا أحدٌ من نظرائي من مَدْحِهم ، وكانو قوماً قد أظلّني فضلهم ، وأغناني رِفْدُهم ، فأثنيت بما أوْلَوْا .

فقال : ياغلام ؟ الطمْ وَجْهَهُ ، فلُطِمت والله حتى سَدِرْتُ[3] وأظلم ما كان بيني وبين أهل المجلس . ثم قال : اسحبوه على وجْهه ، والله لأحرمنّك ، ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئاً في هذا العام ! فسُحِبتُ حتى أخرجت .

وانصرفت وأنا أسوأ الناس حالا في نفسي وحالي ، وما جرى عليّ ؛ لا والله ما عندي ما يكفي عِيَالي لعيدهم، فإذا بشاب قد وقف عليّ؛ ثم قال: أعزِزْ عليّ والله يا كبيرَنا بما جرى عليك ، ودفع إليّ صُرَّة ، وقال : تبلَّغْ بما في هـذه ! فظننتها دراهم، فإذا هي ثلمائة دينار ، فقلت : من أنت ؟ جعلني الله فداك ! قال : أنا أخوك أبو نواس ، فاستعنْ بهذه الدنانير واعْذِرني ، فقبلتها وقلت : وَصَلك الله يا أخي ، وأحسن جزاءك !

(١) الغرانيق : جمع غرنوق ؛ وهو طائر أبيض من طيور الماء. (٢) المصرصر: من يرجع الصوت. (٣) سدر بصره : أظلم ولم يبصر .

١٢١ — رَبيعة الرَّقّى يمدح فلا يثاب*

امتدح رَبيعةُ الرَّقّى[١] العباس بنَ محمد بن على ؛ بقصيدة لم يُسْبَق إليهـا ، يقول فيها :

لو قيل للعباسِ : يابنَ محمدٍ ؛ قل:«لا» وأنتَ مُخلَّدٌ ماقالها

ما إنْ أعُدُّ من المكارم خَصْلَةً إلا وجدتُكَ عَمَّها أو خالهـا

وإذا الملوكُ تسايرتْ فى بَلْدَةٍ كانوا كواكبَها وكنتَ هِلالَهَا

إنّ المكارمَ لم تَزَلْ مَعْقولَةً[٢] حتى حَلَلْتَ براحتَيْكَ عِقالَهَا

فبعث إليه العباس بدينارين ، وكان يقدّر فيه ألفين ، فلما نظر إلى الدينارين كاد أن يُجَنَّ غضباً ، وقال للرسول : خذ الدينارين فهُمَا لكَ على أن تردّ إلىّ الرقعة من حيث لا يدرى العباس ، ففعل الرسول ذلك ، فأخذها ربيعة وأمر مَنْ كتب فى ظهرها :

مدحتُكَ مِدْحَةَ السَّيْفِ المُحَلَّى لتجرىَ فى الكرام كما جَرَيْتُ

فهَبْهَا مِدْحَةً ذَهبتْ ضَيــاعاً كذبتُ عليك فيهــا وافتريتُ

---

* الأغانى : : ١٥ـ٣٨ (طبعة الساسى)، نهاية الأرب :٣ـ٢١٥ ؛ معجم الأدباء: ١١ـ١٣٤

(١) اسمه ربيعة بن ثابت ، وكان ينزل الرقة، وبها مولده ومنشؤه . وكان من الشعراء المكثرين المجيدين ، ولكن خمل ذكره عن طبقته لبعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ، ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدما له . ومات سنة١٩٨هـ . (٢) عقل البعير : شد وظيفه إلى ذراعه، وهو استعارة من هذا .

ثم دفعها إلى الرسول ، وقال : ضَعْها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، ففعل .

فلما كان من الغد أخذها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبياتَ ، غَضِب ، وقام من فَوْرِه ، فركب إلى الرشيد ـ وكان أثيراً[1] عنده يبجّله ويقدمه ، وكان قدمّ أن يخطبَ إليه ابنته ـ فرأى الرشيد الكراهةَ فى وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ قال : هجانى ربيعةُ الرَّقى .

فأحضره الرشيد ، وقال له : أتهجو عمى وآثرَ خلقِ الله عندى! لقد هممتُ أن أضربَ عنقك ! فقال : يا أمير المؤمنين؛ والله لقد امتدحته بقصيدةٍ ما قال أحدٌ مثلَها من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء ، ولقد بالغتُ فى الثناء ، وأكثرتُ من الوصف ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بإحضارها فعل .

فلما سمع الرشيد ذلك سَكَن غضبُه ، وأحبَّ أن ينظر فى القصيدة، فأمر العباس بإحضارها ، فتلكَّأ عليه ، فقال له الرشيد : سألتُك بحق أمير المؤمنين إلا أمرتَ بإحضارها . فأُحضرت ، فإذا فيها القصيدةُ بعينها؛ فاستحسنها واستجادَها، وأُعْجِب بها ، وقال : والله ما قال أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء مثلَها ، ولقد صدق ربيعةُ فبرّ .

ثم قال للعباس : كم أثبتَه عليها ؟ فسكتَ العباس ، وتغيّر لونُه، وغَصّ بريقه، فقال ربيعةُ : أثابنى عليها بدينارين يا أمير المؤمنين ! فتوهَّم الرشيد أنه قال ذلك من الموْجِدَة[2] عليه ، فقال : بحياتى يارَقّى كم أثابك ؟ فقال : وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابنى إلا بدينارين .

فغضب الرشيد غضباً شديداً ، ونظر فى وَجْه العباس ، وقال : سوءة لك ! أية

---

(١) أثيرا : مكرما . (٢) الموجدة : الغضب .

حال قعدت بك عن إثابته ؟ أقلة مال ؟ فوالله لقد مَوَّلْتك جهدى[1] ، أم انقطاع المادة عنك ؟ فو الله ما انقطعت ، أم أصلك ؟ فهو الأصل الذى لا يُدانيه شئ ، أم نفسُك ؛ لا ذنبَ لى ! بل نفسُك واللهِ فعلتْ بك ذلك حتى فضحْتَ أجدادك وفضحتَنى وفضحْتَ نفسك ؛ فنكسَ العباس رأسه ، ولم ينطق .

فقال الرشيد : ياغلامُ ؛ أعْطِ ربيعة ثلاثين ألف درهم وخِلْعَةً ، واحمله على بغـلة .

ثم قال له : بحياتى لا تذكره فى شئ من شِعرِكَ تَعْرِيضاً ولا تصريحاً ، وفَتَر الرشيد عما كان قدهمّ به من أن يتزوج إليه ، وأظهر له بعد ذلك جَفاء واطراحا .

---

(١) موله : أعطاه مالا كثيراً ، والجهد : الطاقة .

١٢٢ — شاعر بين يَدَيِ الرشيد*

قال أحمد بن سَعِيد الباهلي : كنتُ عند الرشيد ، فدخل عليه أشْجَع (١) السلمى وَمَنصور النمرى (٢) ، فأنشده أشجع :

قَصْرٌ عليـــه تحيّة وســـلام ... ألقتْ عليـــه جمالَها الأيام

قصر سُقُوفُ المُزْنِ دون سقوفِـه ... فيه لأعْلَامِ الهُدَى أعـــلامْ

فيه اجتلى الدنيا الخليفــةُ والتقت ... للملك فيه سَلَامَةٌ وســـلامُ

نَشَرَتْ عليه الأرض كُسْوَتَها التى ... نسج الرّبيع وزَخْرَفَ الإرْهَامُ (٣)

أدْنتــك من ظل النبيّ وصيّــةٌ ... وقَرَابَةٌ وشَجَتْ (٤) بهـا الأرحام

برقت سماؤك فى العـدو وأمطرتْ ... هاماً لهـــا ظل السيوف غمامُ

وإذا سيوفُك صافحَتْ هامَ العدَا ... طارت لَهُنّ عن الرءوس الهـامُ

تُثْنِى على أيّامك الأيامُ ... والشاهدان : الحلّ والإحرامُ

ولما بلغ قوله :

وعلى عــدوِّك يابن عم محمـدٍ ... رَصَدَانِ : ضَوْءُ الصُّبْحِ والإظلامُ

---

* أمالى المرتضى : ٤ — ١٧٨ ، الأغانى : ١٢ — ١٩ ، ١٧ — ٣٢ (طبعة الساسى) .

(١) هو أشجع بن عمرو السلمى ، نشأ بالبصرة وقال الشعر وأجاده ، وعد من الفحول، ثم اتصل بالبرامكة ؛ واختص بجعفر بن يحيى فأعجب به وأوصله إلى الرشيد . (٢) منصور النمرى : نشأ فى الجزيرة بين النهرين ، أخذ عن كلثوم العتابى ، ثم قصد إلى البرامكة ، ومدحهم ، ثم قال لشعر السياسى ووصل به إلى الرشيد . (٣) الرهمة : المطر الضعيف الدائم، والجمع رهم (كعنب)، وأرهمت السماء : أتت بالرهم . (٤) وشجت : علقت .

فإذا تنبّه رُعْته وإذا غَفا سلّتْ عليه سيوفَك الأحلامُ

فاستحسن ذلك الرشيد، وأومأتُ إلى أشجَع أن يقْطعَ الشّعر، إذْ علمتُ أنه لا يأتى بمثلها فلم يفْعل. ولمّا أنشده ما بعْدهما فتَر الرشيد وضرب بِمخصَرَة[1] كانت بيده الأرض، واستنشد منصوراً النمرىّ فمرّ واللهِ فى قصيدةٍ قلّما تقولُ العربُ مثلَها، ومطْلَعها:

ما تنقضى حَسْرَةٌ منى ولا جزَعٌ إذا ذكَرتُ شباباً ليس يُرْتجعُ

بانَ الشبابُ وفاتتنى بلذّته صروفُ دهرٍ وأيام لها خُدَع

ولما بلغ إلى قوله:

ماكنتُ أوفى شبابى كُنْهَ غرّته حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَع

قال الرشيد: أحسن والله! لا يتهنّى أحدٌ بعيش حتى يخطر فى رداء الشباب.

ولما بلغ إلى قوله:

أىُّ امرىءٍ بات من هارون فى سخط فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إنّ المكارم والمعروف أوديةٌ أحَلّكَ الله مِنها حيث تنتجعُ

إذا رفعْتَ امرأ فاللهُ رافعهُ ومَنْ وَضَعْتَ مِنَ الأقوامِ مُتّضع

نفسى فداؤك والأبطالُ مُعْلمَةٌ يوم الوغى والمنايا بينَهُمْ قُرَعُ

رمى الرشيد بالخوان بين يديه، وصاح وقال: هذا واللهِ أطيبُ من كل طعام، وأعطاه سبعة آلاف دينار:

---

(١) المخصرة: ما يتوكأ عليه، كالعصا ونحوها؛ وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب والخطيب إذا خطب.

قال أحمد بن سعيد : فلمّا خرجنا قلت لأشجع : غمزتك أن تقطع فلم تفعل ، ويلك ! ولم تأت بشيء ، فهلّا متّ بعد البيتين أو خرست ، فكنت تكون أشعر الناس

١٢٣ — ببابك أنزلتُ حاجتي*

قصد أعرابيٌّ مالكَ بن طَوْق التغلبي[1] صاحب الرَّحْبَة[2]، وكان رثّ الهيئة، زَرِيَّ الحال ، فمنع الحال من الدخول عليه مدة ، إلى أنْ خرج مالك ذات يوم يريد النزهة حول مدينته ؛ فاعترض له الأعرابيّ ، فردّه رجاله ازدراء به . فلم يَنثنِ ؛ بل اقترب منه حتى أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : أيها الأمير ؛ أنا عائذ بك[3] من شرحرَسك ! فَنَهْنَهَهُم[4] عنه ، وقال له : ما حاجتُك ؟ قال : أن تُصْغِيَ إلى كلامي بسمعك ، وتنظر إليّ بطَرْفك ، وتُقْبِلَ عليّ بوجهك ، ثم أنشد :

ببابكَ دون الناس أنزَلْتُ حاجتي ... وأقبلت أسْعَى نحوه وأطُوف

ويمنعني الحجّابُ والليلُ مُسْبِل ... وأنت بعيدٌ والرجال صفُوف

يطوفون حولي عابسين كأنهم ... ذِئابٌ جياعٌ بينهنّ خروف

فكيف وقد أبصرتُ وجهك مقبلا ... ترُدّ امرأً وافاك وهو لهيف

وما لِيَ في الدنيا سواك وما لمن ... ترَكتُ ورائي مَرْبع[5] ومصيفُ

---

* غرر الخصائص : ١٦٨

(١) مالك بن طوق : أحد ندماء الرشيد ، أقطعه أرضاً بناها ونسبت إليه ثم خرج على الرشيد فأنفذ إليه الجيوش حتى ظفروا به ، وحبس ، ثم عفا عنه . (٢) مدينة جيلة بين بغداد والرقة . بناها مالك على الفرات ، وساعده الرشيد على بنائها بالأموال والرجال . (٣) عاذ به : لجأ إليه .
(٤) نهنههم : زجرهم وكفهم . (٥) المربع : منزل القوم في الربيع خاصة .

فجئتُك أبغى الخيرَ منك فراعنى ... ببابك من ضَرْبِ العبيد صنُوفُ
فلا تَجْعَلَنْ لى نحو بابك عودةً ... فقلبىَ من صُنْعِ القُساة مخوف

فضحك مالك ، ثم قال لحراسه : مَنْ يعطيه درهما بدرهمين ؟ فما أتمَّ كلمته حتى نُثِرَتْ الدراهم على الأعرابى من كل جانب حتى تحيَّر ، واختلط لديه الحابل بالنابِل ؛ لكثرةِ ما أُعطِى .

فعند ذلك التفت إليه مالك ، وقال له : هل بقيتْ لك حاجة يا أخا العرب ؟ قال : أمّا إليك فلا . فقال : وإلى من ؟ قال : إلى الله أن يبقيَك للعرب ؛ فإنهم لن يزالوا بخير مابقيتَ لهم !

١٢٤ — النكث فى البيع خير من خيانة الشريك*

جلس مالك بن طوق فى قصره ، فى شُبَّاك مطل على رَحَبَتِهِ ، ومعه جلساؤه ؛ فأقبل أعْرابى تَخُبُّ(١) به ناقته . فقال : إياىَ أراد ، ونحوى قصد ، ولعل منه أدبا يُنتفع به . ثم أمر بإدْخَاله .

فلما مَثَلَ بين يديه قال : ما أقدمك ياأعرابى ؟ قال : سَيْبُ(٢) الأمير ، ورجاء نائله ؛ قال : هل قدّمتَ أمام رَغْبتك وسيلة ؟ قال : نعم ! أربعة أبيات قلتُها بظَهْر البرية ، فلما رأيت ما بباب الأمير من الهَيْبَة والجلال استحقرتُها واستصْغَرْتُها . قال : فهل لك أن تُنْشِدَنا أبياتَكَ على أن نجيزك عليها ألفَ درهم ؛ فإن كنتَ ممن أحسَن رَبحنا ، وإلا فقد نِلْتَ مُرادك ، وربحتَ ! قال : رضيتُ ، وأنشده :

وما زلتُ أخْشَى الدهر حتى تَعَلَّقَتْ ... يداى بمن لا يَتَّقِى الدَّهر صاحبُهْ

فلما رآنى الدهرُ تحت جناحه ... رأى مرتقى صعبا مَنيعاً مطالبُهْ

رآنى بحيث النجم فى رأس باذخ(٣) ... تُظِلُّ الورى أكنافُهُ وجوانبُهْ

فتى كسماء الغيث والناسُ حولَه ... إذا قُحِطُوا(٤) جادت عليهم سحائبُهْ

فقال : والله ظَفِرْنا ياأعرابى ، ورُزِقْنا الفَلَج(٥) عليك ، والله ما قيمتُها إلا عشرةُ آلاف درهم . قال : فإن لى صاحباً شاركتُه فيها ، وما أراه يرضى بَيْعى .

---

* ذيل زهر الآداب : ٢٨٢

(١) الخبب : نوع من السير . (٢) السيب : العطاء والمعروف . (٣) باذخ : عال . (٤) قحطوا: أصابهم القحط ، وهو الجدب . (٥) الفلج: الفوز والظفر.

قال : أتراك حدَّثتك نفسك بالنَّكْثِ[1] ؟ قال : نعم ! وجدت النَّكث فى البيع خيراً من خيانة الشريك ، فأمر له بعشرة آلاف دينار .

١٢٥ — باتت تعيِّرنى الإقتارَ والعدَما*

قال الأصمعى : لقيت أعرابيًّا بالبادية فاسترشدتُه إلى مكان ، فأرشدنى وأنشدنى :

ليس العمى طولَ السؤال وإنَّما … تمام العمى طولُ السكوت على الجهل

فكُنْ سائلا عمَّا عنَاك فإنَّما … خلقتَ أخا عقْل لتسأل بالعقْل

ثم رجعتُ إلى البَصرة فمكثت بها حيناً ؛ ثم قدمتُ البادية ، فإذا بالأعرابى جالس بين ظَهْرَانى قوم ، وهو يقضي بينهم ، فرأيتُ قضيَّةً أخطأت قضيَّةَ الصالحين من أقضيته ، ثم جلستُ إليه وقلت : يرحمك الله ، أما من رِشْوة ! أما من هدية ! أما من صِلَة ! فقال : إذا جاء هذا ذهب التوفيق . فشكوتُ إليه ما ألقى من عَذْل حليلةٍ لى إياى فى طلب المعيشة ، فقال : لستَ فيها بأوْحد ، وإنى لَشريكُك ، ولقد قلت فى ذلك شِعْرا . قلت : أنشدِنيه ، فأنشدنى :

باتتْ تُعيِّرنى الإقتارَ والعدَمَا … لمّا رأتْ لأخيها المالَ والخدَمَا

عُنْفٌ لرأيكِ ما الأرزاق من جَلَدٍ … ولا من العجزِ بل مَقْسومة قسَمَا

يا أمَةَ الله إنى لم أدَعْ طلبـاً … للرزق قد تعلمين الشَّرْق والشأمَا

---

(١) بنقض العهد .

* أمالى المرتضى : ٢ — ١٤٠

لو كان من جَلَدٍ ذا المالُ أو أدَبٍ ... لكنتُ أكثرَ من نَمْلِ القُرَى نِعَما
أرضَى من العيش ما لم تحوجى مَعَهُ ... أن تَفْتحى لسؤال الأغنياء فَما
واستشعرى الصبْرَ علَّ الله خالقَنا ... يوماً سيكشِفُ عَنَّا الضُّرَ والعَدَماَ
لا تُحوجينى إلى مالو بذلتُ له ... نَفْسِى لأعْقَبكِ التهمامَ والندما
بالله سَرَّكِ أنَّ الله خَوَّلنى ... مَا كَان خَوَّله الأعراب والعجما
ما سرَّنى أنَّنى خُوِّلتُ ذاك وَلَا ... ألَّا أقولَ لِباغِى حاجةٍ نعَما
وأنَّنى لم أُفِدْ عَقْلًا ولا أدبًا ... ولا أرثْ والدى مَجْداً ولا كَرَمَا
فَعُسْرة المرء أحْرى فى معاشِك مِنْ ... أمرٍ يجرُّ عليكِ الهمَّ والألَمَا

قال : فوالله ما أنشدتُها زوجى حتى حَلَفتْ ألا تَعذُلنى أبداً .

١٢٦ — سكنت عنى والله الحمّى *

قال الأصمعى : نزلت ليلةً فى وادى بنى العَنْبَر ؛ وهو إذْ ذاك غانٍ (١) بأهله ، فإذا فتيةٌ يريدون البصرة ، فأحببتُ صُحبتَهم ، وأقمتُ ليلتى تلك،وإنى لَوَصِبٌ(٢) محمومٌ ، أخاف ألّا أستَمْسك على راحلتى ، فلما أقاموا ليرحَلُوا أيقظونى، فلمّا رأوا حالى حملونى ، وركبَ أحدهم ورائى يُمْسكنى ، فلما أمعنوا السير تنَادَوْا : ألا فتى يَحْدُو بنا أو ينشدنا ؟ فإذا منشدٌ فى سواد الّليل يُنشِد بصوتٍ ندٍ حزين :

لعمْركَ إنى يومَ بانوا فلم أمُتْ خُفاتاً(٣) على آثارهمْ لصَبُور
غداة المُنَقَّى(٤) إذ رميتُ بنظرةٍ ونحنُ على مَتْنِ الطريق نسيرُ
فقلتُ لقلبى حينَ خفّ به الهوى وكاد من الوجد المُبرّ(٥) يطير :
فهــذا ولمّا تمض للبين ليــلةٌ فكيف إذا مرّتْ عليه شُهُورُ !
وأصبحَ أعلامُ الأحبــة دُونَها من الأرضِ غَول(٦) نازحٌ ومسير
وأصبحتُ مجدى الهوى مُتْهِمَ النَّوى أزيد اشتياقاً أنْ يحِنّ بعيرُ
عسى الله بعد النأى أن يُسعف النَّوى ويُجْمَعَ شملٌ بعــدها وسرُورُ

قال : فسكنتْ والله عنّى الحمّى ما أحِسُّ بها ؛ وقلت لرفيقى : انزل يرحمكَ الله إلى راحلَتِك فإنى مُتماسك ، وجزاكَ الله عن الصحبة خيْراً !

* أمالى المرتضى ٢ ــ ١٤٢

(١) غان : آهل . (٢) الوصب : المرض . (٣) يقال : مات خفاتاً ؛ أى فجأة . (٤) المنقى : طريق للعرب إلى الشام ؛ كان فى الجاهلية يسكنه أهل تهامة . (٥) المبر : الشديد . (٦) الغول : بعد الشقة .

١٢٧ — عجوز تُنشد الأصمعيّ شعرا

قال الأصمعي : إنى لفى سوق ، وقد نزلتُ على رجلٍ من بنى كلاب ، كان متزوِّجاً بالبصرة؛ إذ أقبلت عجوز على ناقةٍ لها ، حسنةُ البِزّة ، فيها باقى جمال ، فأناخَتْ وعَقَلَتْ ناقتها ، وأقبلتْ تتوكّأ على مِحْجَن(١) لهَا ، فجلست قريباً منّا ، وقالت : هل من مُنشدٍ ؟ فقلت للكلابى : أيحضرك شىء ؟ قال : لا ، فأنشدتُها شعرا لبشر بن عبد الرحمن الأنصارى :

وقصيرَةِ الأيام(٢) وَدَّ جليسُها ... لو باعَ(٣) مجلسَها بفَقْدِ حَمِيمِ

من مُحْذِيات(٤) أخى الهوى غُصَصَ الجوى ... بدَلالِ غانيةٍ ومُقْلةِ رِيمِ

صفراء من بَقَرِ الجِوَاء(٥) كأنما ... خَفَرُ الحياء بها رُدَاعُ سقيمِ(٦)

قال : فجثَتْ على ركبتيها ، وأقبلتْ تَحرش(٧) الأرضَ بمِحْجَنها ، وأنشأتْ تقول :

قفى يا أميمَ القلبِ نقرأْ تحيّةً ... ونَشْكُ الهوى ثم افعلى مابدا لَكِ

فلو قلتِ : طَأْ فى النار أعلمُ أنهُ ... هَوًى لك أو مُدْنٍ لنا من وِصَالِكِ

لقدّمتُ رجلى نحوها فوطئتُها ... هُدًى مِنكِ لى أو ضَلّةً من ضَلالِكِ

سلى البانة العَلْيَاء بالأجرع الذى ... به البانُ هل حَيّيْتُ أطْلالَ دارِكِ ؟

---

* أمالى المرتضى ٢ : ٣٨ .

(١) المحجن : العصا المعوجة . (٢) يريد : أن أيام جليسها تقصر، إذ أن أيام السرور موصوفة بالقصر . (٣) باع : اشترى ، وهو من الأضداد . (٤) يقال : أحذيت الرجل : أعطيته . (٥) الجواء : موضع . (٦) الرداع : الوجع فى الجسد ، وكأنه أراد أنها منقبضة منكسرة من الحياء كما يتغير لون السقيم . (٧) تحرش الأرض : تخدشها .

وهل قمتُ فى أطلالهن عشيّـــةً ‏ مقام أخى البأساء واخترتُ ذلكِ؟
ليهنئك إمساكى بكفّى على الحَشى ‏ ورقراق عينى خشيةً من زيالكِ[١]

قال الأصمعى : فأظلمت علىّ والله الدنيا بحلاوة منطقها ، وفصاحة لهجتهـــا فدنوتُ منها وقلت : أنشدتُك الله لَما زدتنى من هذا ! فرأيت الضحك فى عينها وأنشدت :

ومستخفيـاتٍ ليس يُخفين زَرْننَا ‏ يسحّبن أذيال الصّبابة والشّـكْل[٢]
جَمعْـن الهوى حتى إذا ما مَلَكْنهُ ‏ نزعْن وقدأ كْثرنَ فيناَ من القتْل
مريضاتِ رجع الطّرف خُرْس عن الخَنا ‏ تألفْنَ أهواء القلوبِ بلا بَذْلِ
مَوارِقُ من خَتْلِ الحبّ ، عواطفٍ ‏ بخَتْلِ ذوى الألباب بالجدّ والهزْلِ
يمنّنى العُـذّال فيهن ، والهوَى ‏ يحذرُنى من أن أطيعَ ذوى العذْلِ

---

(١) الزيال : المفارقة . (٢) الشكل (بالفتح والـكسر) : دل المرأة وغزلها .

١٢٨ — الأصمعي وبعض الأعراب*

قال بعض الرواة : كنا مع أبي نصر راوية الأصمعي ، في رياض من المذاكرة ، نجتني ثمارها ، ونجتلي أنوارها ، إلى أن أفضنا في ذكر أبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ، فقال : رحم الله الأصمعي ! إنه لمعدنُ حِكَم ، وبحرُ علم ، غيرَ أنه لم نرَ قط مثل أعرابي وقف بنا فسلّم ، فقال : أيكم الأصمعي ؟ فقال: أناذاك ! فقال: أتأذنون بالجلوس ؟ فأذنا له ، وعجبنا من حُسن أدبه ، مع جفاء أدب الأعراب !

قال : يا أصمعي ؛ أنت الذي يزعمُ هؤلاء النفر أنك أتقنُهم معرفة بالشعر والعربية ، وحكايات الأعراب ! قال الأصمعي : منهم مَنْ هو أعلم مني ، ومَنْ هو دوني !

قال : أفلا تنشدني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسه على شعر أصحابنا ! فأنشده شعراً لرجل امتدح به مسلمةَ بن عبد الملك :

أمسلمَ أنت البحر إن جاء واردٌ ... وليثٌ إذا ما الحرب طار عُقابها[1]

وأنت كسيف الهندواني[2] إن غَدَتْ ... حوادثُ من حرب يعبُّ عُبابها

وما خُلقت أُكرومة[3] في امرئ له ... ولا غاية إلّا إليك مآبها

كأنك ديّانٌ عليها مُوكَّلٌ ... بها ، وعلى كفّيك يجرى حِسابُها

إليك رحلنا العِيس[4] إذ لم نجد لها ... أخا ثقة يُرْجى لديه ثوابُها

---

* زهر الآداب: ٢ — ١٠٠

(١) طار عقابها : كناية عن اشتداد الحرب . (٢) الهندواني : منسوب إلى رجال الهند .

(٣) الأكرومة : فعل الكرم . (٤) العيس : الإبل يخالط بياضها شقرة .

فتبسّم الأعرابى ، وهزّ رأسه ؛ فظننّا أن ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : ياأصمعى ! هـذا شعرٌ مُهَلْهلٌ ؛ خَلَق النسج ، خطؤه أكثرُ من صوابه ، يغطى عيوبَه حسنُ الرَّوِى ورواية المنشد ! يشبهون الملك إذا امْتُدِح بالأسد ، والأسد أبخر شَتِيم[1] المنظر ، وربما طرده شِرْذِمَة من إمائنا، وتَلاعَب به صِبْيانُنا ويشبهونه بالبحر ، والبحرُ صعبٌ على مَنْ رَكبه ، مُرٌّ على مَنْ شربه ! وبالسيف ، وربما خان فى الحقيقة ، ونبا عن الضريبة ! ألا أنْشَدْتنى كما قال صبىٌّ من حيِّنا !

قال الأصمعى : وماذا قال صاحبكم ؟ فأنشده :

أمْضَى من النجم إنْ نَابَتْهُ نائبةٌ ... وعند أعدائه أجْرَى من السيلِ

الموتُ يكره أن يلقى منيّته ... فى كرِّه عند لفِّ الخيلِ بالخيلِ

لو زاحم الشمسَ أبْقى الشمس كاسفة ... أو زاحم الصمَّ ألجأها إلى الميْلِ

لا يستريح إلى الدنيا وزينتِها ... ولا تراهُ إليها ساحبَ الذيْلِ

يقصر المجدُ عنه فى مكارمِه ... كما يقصِّر عن أفعاله قولى !

قال أبو نصر : فأبهتَنَا والله ما سمِعْنا من قوله .

ثم قال الأعرابى : ألا تنشدنى شعراً ترتاح إليه النفس ، ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده لابن الرّقاع العاملى :

وناعمةٍ تجلو بعودِ أراكةٍ ... مؤشَّرةً[2] يَسْبِى المُعانقَ طيبُها

أراكَ إلى نجدٍ تَحِنُّ وإنما ... مُنَى كلِّ نفسٍ حيثُ كان حبيبُها

فتبسم الأعرابى ، وقال : ياأصمعى ؛ ما هـذا بدون الأول ، ولا فوقه ؛

(١) شتيم : كريه . (٢) تأشير الأسنان : تحززها .

ألا أنشدتنى كما قلتُ ؟ قال الأصمعى: وما قلتَ جُعِلْتُ فداك؟ ! فأنشده :

تعلقْتها بِكْراً وعُلِّقْتُ حبهـــا ... فقلـبى عن كل الورى فارغٌ بـكرُ

إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها ... وتـكفيك ضوء البدر إن حُجب البدر

وما الصبر عنها إن صبرتَ وجدته ... جميلا ، وهل فى مثلها يَحْسُن الصبرُ!

لو أن جلد الذر[1] لامسَ جلدها ... لـكان لِمَسِّ الذّر فى جـلدها أثْرْ

فقال لنا الأصمعى : اكتبوا ماسمعتم ، ولو بأطراف المُدى فى رقاق الأكباد .

وأقام عندنا شهراً ؛ فجمع له الأصمعى خمسمائة دينار ! وكان يتعاهدُنا فى الحين بعد الحين ، حتى مات الأصمعى وتفرق أصحابنا !

---

(١) الذر : صغار النمل .

١٢٩ — شِعرٌ مُرْتجل*

جلس جعفر[1] بن يحيى بالصَّالِحيَّة[2]، يشرب على مُسْتَشْرَف له، فجاءه أعرابى من بنى هلال، فاشتكى، واسْتَماح[3] بكلام فصيح، ولفظٍ مثلُه يعطف المسئول.

فقال له جعفر : أتقول الشعر ياهلالىّ ؟ فقال : كنت أقوله وأنا حَدَثٌ أتملّح به، ثم تركته لمَّا صرتُ شيخاً، قال: فأنشِدْنا لشاعركُمْ حميد بن ثور، فأنشده قوله:

لِمَن الديار بجانب الخَمْسِ   كمخطّ ذى الحاجاتِ والنِّفس

حتى أتى على آخرها، وكان أشْجَع السُّلَمِىّ حاضراً المجلس، فاندفع يُنْشد مديحاً فى جعفر، قاله لوقته على الوزن والقافية :

ذَهَبتْ مكارمُ جعفرٍ وفَعالُه   فى الناس مثلَ مذاهب الشمس

ملك تسوسُ له المعالى نفسه   والعقل خير سياسَة النَّفْسِ

فإذا تراءته الملوك تَرَاجَعُوا   جهر الكلام بمنطق همْس

سادَ البرامكَ جعفرٌ وهُمُ الأُلى   بعد الخلائف سادةُ الإنسِ

فقال له جعفر : صِفْ موضعنا، فقال :

* الأغانى ١٧ — ٣٢ (طبعة الساسى) .

(١) جعفر بن يحيى : كان عالى القدر بعيد الهمة عظيم الكرم، ذا منزلة قريبة عند الرشيد، كما كان سمح الأخلاق، طلق الوجه، ظاهر البشر، فصيحاً لسناً، قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

(٢) الصالحية : محلة ببغداد .   (٣) استماح : طلب العطاء .

قُصُور الصالحية كالعذارَى لبسْنَ ثيابَهُنَّ ليوم عُرْسِ
مُطِـلَّاتٌ على بَطْنٍ كستْهُ أيادى المـاء وشْيًا نسجَ غَرْسِ
إذا ما الطّل أثَّرَ فى ثراهُ تنفَّسَ نَوْرُه من غـير نَفْسِ
فتغْبقُهُ[1] السماء بِصِبْغ وَرْسٍ وتَصْبَحُهُ بأكْؤُس عين شمس

فقال جعفر للأعرابىّ: كيف ترى صاحبنا ياهلالى؟ فقال: أرى خاطرَه طوع لسانه، وبيان الناس تحت بيانه، وقد جعلتُ له ما تَصِلُنى به؛ فقال: بل نصلك يا أعرابىّ ونرضيه، وأمر للأعرابى بمائة دينار؛ ولأشجع بمائتين.

(١) الغبوق: شراب العشى، والصبوح: شراب الصباح.

١٣٠ ـ هوّنت عليّ العزل*

ولّى الرشيد جعفر بن يحيى خُراسان(١) ، فدخل عليه الناسُ يهنئونه ، ثم دخل عليه الشعراء ، فقام أشجع السلمى آخرهم ، واستأذن فى الإنشاد ، فأذنَ له ، فأنشد :

أتصبرُ للبين أم تجزَعُ ... فإنّ الديارَ غداً بلقعُ
غداً يتفرّق أهلُ الهوى ... ويكثُرُ باكٍ ومُسْترجِعُ
وتفنى الطلولُ ويبقى الهوى ... ويَصْنَعُ ذو الشوق ما يَصْنَعُ

حتى انتهى إلى قوله :

ودَوِّيّةٍ(٢) بين أقطارها ... مقاطيعُ أرضينَ لا تُقْطَعُ
تجاوزتُها فوق رَيسانَةٍ(٣) ... من الريح فى سيرِها أسرَعُ .
إلى جعفرٍ نزعتْ رغبةٌ ... وأىُّ فتى نحوَه تنزعُ !
فما دونه لامرئٍ مطمَعٌ ... ولا لامرئٍ غيرِه مَقْنَعُ
ولا يرفعُ الناسُ مَنْ حطّه ... ولا يضعون الذى يرفَعُ
يريد الملوكُ مَدَى جعفرٍ ... ولا يصنَعون كما يَصْنَعُ
تلوذُ الملُوك بأبوابِهِ ... إذا نالها الحَدَثُ الأفْظَعُ
بديهتُه مثلُ تَدبيره ... متى رُمْتَه فهو مستجمعُ

---

* الأغانى : ١٧ ـ ٧ (طبعة الساسى) .

(١) خراسان ، بلاد واسعة كانت حدودها أول ما يلى العراق . (٢) الدوية : الفلاة .

(٣) الريسانة : الناقة الكثيرة اللبن .

وكم قائلٍ إذْ رأى ثروتى ... وما فى فضول الغِنَى أصْنَعُ
غَـدا فى ظِلَال نَدَى جعفرٍ ... يجرُّ ثيابَ الغِنَى أشْجـعُ
فقـل لخراسانَ تحيـا فقَدْ ... أتاها ابنُ يحيى الفتى الأرْوَعُ(١)

فأقبل عليه جعفرٌ ضاحكاً ، واستحسن شعرَه ، وجعل يخاطِبُه مُخَاطبـة الأخ أخاه ، ثم أمرَ له بألف دينار .

قال الراوى : ثم بدا للرَّشيد فى ذلك التدبير ، فعزل جعفراً عن خُراسَان بعد أن أعطاه العهد والـكتاب. وعقد له العقْد، وأَمرَ ونَهَى ، فوجم لذلك جعفر، فدخل عليه أشجع وقال :

أمْسَتْ خُراسانُ تُعزَّى بما ... أخطـأها من جعفر المرتجَى
كان الرشيدُ المعتـــلى أمْرُه ... ولَّى عليـه المُشرِقَ الأَبلجا
ثم أراه رأيُه أنه ... أمْسَى إليـه منهمُ أحوجا
فـكَمْ بهِ الرحمَن من كُرْبةٍ ... فى مـــدة تَقْصر قد فرَّجا

فضحك جعفر ، وقال : لقد هوَّنت على العَزل ، وقمتَ لأمير المؤمنين بالعذْر ؛ فسلْنى ما شئت . فقـال : قد كفـانى جودُكَ ذِلة السؤال ، فأمر له بألف دينـار أخرى .

---

(١) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته .

١٣١ — أرى الأيام لا تُدْنى الذى أرتجى*

قال محمد بن أمية[١] : كنت جالساً بين يدى إبراهيم بن المهدى ، فدخل إليه أبو العتاهية ، وقد تنَسَّك ولَبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد . فرفعه إبراهيم ، وسُرَّ به ، وأقبل عليه بوجهه .

فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير ؛ بلغنى خبرُ فتًى فى ناحيتك ومن مواليك يُعرف بابْن أمية ، يقول الشعر ، وأنشدتُ له شعراً فأعجبنى ، فما فعل ! فضحك إبراهيم ، ثم قال : لعلَّهُ أقربُ الحاضرين مجلساً منك .

فالتفت إلىَّ فقال : أنت هو فَدَيْتُكَ ؟ فقلت له : أنا محمد بن أمية جُعِلْتُ فداءك ! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبَثُ بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبَثُ الشاب . فقال لى : فَديتك ؛ ذاك واللهِ زمانُ الشعر وإبَّانُه ، وما قيل فيه فهو غُرَرُه وعيونُه ، وما زَال يُنشطنى ويؤْنِسُنى حتى رأى أنى قد أنِسْتُ به .

ثم قال لإبراهيم بن المهدى : إنْ رأى الأمير ـ أكرمَهُ الله ـ أن يأمرَه بإنشادى ما حضر من الشعر ! فقال لى إبراهيم : بحياتى يا محمد أنشده ، فأنشدته :

رُبَّ وعْدٍ منك لا أنساه لِى أوجبَ الشكرَ وإن لم تَفعلِ

---

* الأغانى : ١١ ـ ٣٠ (طبعة الساسى) .

(١) محمد بن أمية: كاتب شاعر ظريف ، كان نديماً لإبراهيم بن المهدى .

أقطعُ الدهرَ بظنٍّ حسن　　وأُجَلِّي غمرةً ما تَنْجَلِي

كلما أمّلتُ يوماً صالحاً　　عَرَضَ المكروهُ لى فى أمَلِي

وأرى الأيّامَ لا تدْنِى الذى　　أرْتَجِى منك وتدنى أجَلِي

فبكى أبو العتاهيـة حتى جرت د. ـــوعه على لحيته ، وجعـل يردِّد البيت الأخيرَ مـهـا وينتحب ، وقام فخرج وهـو يردِّدُه ويبـكى ، حتى خـرج إلى الباب !

١٣٢ — حديث عن دِعْبل*

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون ـ وقد قال له : أيّ شيء تَرْوِي لأخي خُزاعة؟ فقال : وأيّ خُزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال : ومَنْ تعرف فيهم شاعراً؟ فقال : أمّا مِنْ أنفسهم؛ فأبو الشِّيص، ودِعْبل[1]، وابن أبي الشِّيص، وداود ابن أبي رَزِين ؛ وأمّا مواليهم فطاهر وابنه عبد الله .

فقال : ومَنْ عسى في هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أي شيء عندك فيه ؟ فقال : وأيّ شيء أقول في رجل لم يترك أهلَ بيته حتى هَجاهم ، فقَرَن إحسانَهم بالإساءة ، وبذْلَهم بالمنع ، وجودَهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنةٍ منهم بإزاء سيئة ! قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المطلب بن عبد الله ابن مالك ـ وهو أصدقُ الناسِ له ، وأقربُهم منه؛ وقد وفد إليه في مصر ، فأعطاه الجزيل ، وولّاه ؛ ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرِبْ نَدَى طَلْحَةَ[2] الطَّلَحاتِ مُتّئِداً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ بلُؤْم مُطَّلِبٍ فينا وكُنْ حَكَما

---

* الأغانى : ١٨ ـ ٤٤ (طبعة الساسى) .

(١) هو دعبل بن على بن رزين ، من خزاعة . شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذى نباهة ؛ أحسن إليه أو لم يحسن ، وتوفى سنة ٢٤٦ هـ . (٢) طلحة الطلحات : قيل اسمه طلحة بن عبد الله ، وإنه إنما سمى طلحة الطلحات بسبب أمه ، وهى صفية بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة ، وإن أخاها طلحة بن الحارث ، فقد تكنفه هؤلاء الطلحات كما ترى ، وقد مدحه سحبان بن وائل الباهلى ، فقال :

يا طلح أكرم من مشى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ حسباً وأعطاهم لتالد

منك العطاء فأعطنى ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وعلى مدحك فى المشاهد

فقال له طلحة : احتكم ، فقال : برذونك الورد ، وغلامك الخباز ، وقصرك الذى بمكان كذا ، وعشرة آلاف درهم . فقال طلحة : أف لك ! سألتنى على قدرك، ولم تسألنى على قدرى ! لو سألتنى كل عبد وكل دابة وكل قصر لى لأعطيتك !

تَخَرَّجَ خُزاعة من لؤم ومن كَرَم ... فلا تَحِسَّ لها لؤماً ولا كَرَماً

فقال للمأمون : قاتله الله ! ما أغْوَصَه وألطفه وأدْهاه ! وجعل يضحك .

ثم دخل عبدُ الله بن طاهر ، فقال له : أىَّ شىء تحفظ يا عبدَ الله لدِعبل ؟ فقال : أحفظُ أبياتاً له فى أهل بيت أمير المؤمنين . قال : هاتِها ، ويحك ! فأنشده عبد الله قولَه :

سَقْياً وَرَعْياً لأيام الصَّبابات ... أيامَ أرْفُلُ فى أثوابِ لَذَّاتى

أيام غُصْنى رطيبٌ من ليَانَتِه ... أصْبو إلى غير جارات وكَنَّاتِ[1]

دَعْ عنك ذِكر زَمانٍ فاتَ مطلبُه ... واقذفْ برحْلِكَ عَنْ مَتْن الجَهَالاتِ

واقصِدْ بكل مديحٍ أنت قائلُه ... نحو الهداة بنى بيت الكراماتِ

فقال للمأمون : إنه قد وجد والله مقالًا فقال ، ونال ببعيد ذِكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم .

ثم قال : لقد أحْسَنَ فى وصف سفَرٍ سافَرَه، فطال ذلك السفرُ عليه، فقال فيه:

ألم يَأْنِ للسَّفْرِ[2] الذين تحمَّلوا ... إلى وطن قبل المماتِ رجوعُ ؟

فقلتُ ـ ولم أملِكْ سوابقَ عَبْرَةٍ : ... نَطَقْنَ بما ضُمَّتْ عليه ضلوعُ[3]

تَبَيَّنْ ! فكم دار تفرَّقَ شملُها ... وشَمْلٍ[4] شَتِيتٍ عادَ وهو جميعُ

كذاكَ اللَّيالِى صَرْفُهُنَّ[5] كما ترى ... لكل أناس جَدْبةٌ وربيعُ[6]

ثم قال : ماسافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهِجِّيرَاى ومسلِّيتى حتى أعودَ !

---

(١) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) يأن : يقرب ويحضر . والسفر : المسافرون .
(٣) العبرة : الدمعة ، وماضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن والأهل. (٤) الشمل: ما اجتمع من أمر أو ما تفرق منه ، والشتيت : المتفرق . والجميع : المجتمع . (٥) صرف الليالى : أحداثها . (٦) جدبة وربيع : حالتا خير وشر .

١٣٣ — دِعْبل عند وَالِي مصر *

قال دِعْبِل بن علي : حججتُ أنا وأخي رَزِين ، وأخذنا كتباً إلى المطَّلب ابن عبدِ الله بن مالك ، وهو بمصر يتولّاها .

فصِرْنا من مكة إلى مصر ، فصحبنا رجلٌ يعرف بأحمد بن السرّاج ، فما زال يحدِّثنا ويؤنسنا طولَ طريقنا ، ويتولّى خدْمَتنا ، كما يتولّاها الرُّفقاء والأتباع ، ورأيناه حَسَن الأدب ـ وكان شاعراً ولم نعلم ـ وكتَمنا نَفْسَهُ ، وقد علم ماقصدنا له فعرضنا عليه أن يقول في المطلب قصيدةً نَنْحَلُهُ إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سروراً وتقبُّلا له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا تُنْشِدُها المطلب ، وإنك تنتفع بها ، قال : نعم .

وورَدْنا مِصْرَ به ، فدخلنا إلى المطلب ، وأوصلنا إليه كتباً كانتْ معنا ، وأنشدناه ، فسُرَّ بموضعنا ووصفنا له أحمد بن السرّاج هذا ، وذكرنا له أمره ، فأذن له ، فدخل عليه ، ونحن نظنُّ أنه سيُنْشِدُه القصيدة التي نحلْناه إياها ، فلما مَثَل بين يديه عَدَل عنها وأنشده :

لم آتِ مُطَّلِباً إلّا بمطَّلب	وهمةٍ بلغت بي غايةَ الرتب
أفردتُه برجاء أن تشارِكَه	فيَّ الوسائل أو ألقاه في الكتب[1]
رحلتُ عيسى إلى البيت الحرام على	ما كان من وَصَبٍ فيها ومن نَصَب

---

* الأغاني : ١٨ ـ ٤٧ (طبعة الساسي) .

(١) قال دعبل : أشار بهذا إلى الكتب التي أوصلناها إليه وهي بين يديه، فكان ذلك أشد على من كل شيء مر بي .

أَلقى بها وبوجهى كلَّ هاجرةٍ[1] تكاد تَقْدَحُ بين الجلد والعَصَبِ

حتى إذا ما قضت نسكى ثنيتُ لها عِطْفَ[2] الزِّمامِ فأمَّت سيدَ العربِ

فأمَّمَتْكَ[3] وقد ذابتْ مفاصلُها من طول ماتعبٍ لاقت ومن نَقَبِ[4]

فصاح مُطّلب : لبيك لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذه بيده وأجلسه معه ، وقال : يا غلام ؛ البِدَر[5]، فأُحْضِرَت ، ثم قال : الخِلَع ، فنشرتْ ، ثم قال : الدوابَّ ، فقيدَتْ ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينَه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه ؛ وكان حسدُنا له بما اتَّفَقَ له من القَبُول وجودة الشعر ، وغيظُنا بكتمه إيانا نفسه واحتياله علينا أكثر وأعظم ، فخرج بما أمر له ، وخرجنا صِفْراً .

قال الراوى : ومكث دعبل أياماً ، ثم ولّاه المطلب أسْوان ، ولكن دعبلا كان قد هجاه غيظاً منه فقال :

أمطّلبُ أنت مستعذبٌ حُمَيّا[6] الأفاعى ومستقتلُ

ستأتيك إمّا وَرَدْتَ العراق صحائفُ يأثِرُها دعبِلُ

مُنَمّقةٌ بين أثنائها مخازٍ تُحَطُّ فلا ترحَلُ

وضعتَ رجالا فما ضرَّهُمْ وشرّفتَ قوماً فلم ينبُلوا[7]

إذا الحربُ كنتَ أميراً لها فحظُّهمُ منك أن يُقتَلُوا

شِعارُكَ فى الحرب يومَ الوَغَى إذا انْهَزَموا : عجِّلوا عجِّلوا !

---

(١) الهاجرة : إنما تكون فى القيظ نصف النهار . (٢) عطف الشىء : جانبه . (٣) يقال : أمه وأممه بمعنى قصده . (٤) نقب البعير ؛ إذا حفى . (٥) البدر : جمع بدرة (بفتح الباء) وهى عشرة آلاف . (٦) الحميا من كل شىء : شدته . (٧) روى هذا البيت :

وعاديت قوماً فما ضرهم وقدمت قوماً فلم يقبلوا

هزائمك الغُرُّ مشهورة يُقَرْطِسُ[1] فيهنَّ مَنْ يَنْضِلُ

فأَنْتَ إذا ما التقوْا آخرٌ وأنت إذا انهزموا أولُ[2]

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولّاه ؛ فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له ، وقال : انتظره حتى يصعد المِنْبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأَوْصل الكتابَ إليه ، وامنعه من الخطبة وأنزِله عن المنبر ، واصعد مكانه ؛ فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكَتاب ، فقال له دِعْبِل : دعنى أخطب، فإذا نزلتُ قرأتُه ، قال : لا ، قد أمرنى أن أمنعَك الخطبة حتى تقرأه . فقرأه، وأنزله عن المنبر معزولا .

---

(١) قرطس : أصاب القرطاس ، أى الغرض . (٢) قال دعبل : قال لى المطلب : ما تفكرت فى قولك قط :

إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب

إلا كنت أحب إلى ، ولا تفكرت والله فى قولك لى :

وعاديت قوماً فمـا ضرهم وقدمت قوماً فلم ينبلوا

إلا كنت أبغض الناس إلى .

١٣٤ — دِعْبِل وعليّ الرضا*

قال دِعْبِل بن علي: دخلتُ على عليّ بن موسى الرضا ـ عليه السلام ـ فقال لي: أَنشِدْني شيئاً ممّا أحدثتَ ، فأنشدته[1] :

مدارسُ آياتٍ خلَتْ من تلاوةٍ ... ومنزل وَحْيٍ مُقْفِرِ العَرَصَاتِ[2]

لآل رسول الله بالخَيْفِ من مِنًى ... وبالرُّكْنِ والتَّعْريف والجَمَرَاتِ

ديارُ عليّ والحسينِ وجعفرٍ ... وحمزة والسجّاد ذى الثَّفِنَاتِ[3]

حتى انتهيتُ إلى قولي :

بنفسيَ أنتمْ من كهولٍ وفتيةٍ ... لفكّ عُنَاةٍ[4] أو لحَمْلِ دِيَاتِ

أحبّ قصيّ الرَّحْم من أجل حبّكم ... وأهجرُ فيكم أسْرَتى وبناتى

وأكتمُ حُبِّيكمْ مخافةَ كاشحٍ ... عنيدٍ لأهل الحقّ غيرِ مُوَاتِ

لقدْ حفّتِ الأيّامُ حولي بشرّها ... وإنى لأرجو الأمْنَ بعد وفاتى

ألَمْ تَرَ أنّي من ثلاثين حِجّةً ... أروحُ وأغدو دائم الحسراتِ

أرى فيئَهُمْ فى غيرِهم متقسّما ... وأيديهمُ من فَيْئِهِمْ صَفِراتِ

* الأغاني : ١٨ ـ ٤٢ (طبعة الساسى) ، معجم الأدباء ١١ ، ١٠٨

(١) تعد هذه القصيدة من أحسن الشعر وفاخر المدائح . (٢) العرصات : جمع عرصة : وسط الدار ، والمعنى أنه لاأنيس بها . (٣) يعدد أسماء آل البيت، وذو الثفنات: على بن الحسين بن على، وسمى بذلك ، لأن طول السجود أثر فى ثفناته ، والثفنة من الإنسان : الركبة . (٤) العناة : جمع عان ، وهو الأسير .

فآلُ رسول الله نحفٌ جسومُهمْ وآلُ زياد حُفَّلُ القَصَرَاتِ[1]

إذا وُتروا[2] مَدُّوا إلى أهل وِتْرِهِمْ أكفًّا عن الأوتار منقبضاتِ

فبكى حتى أغمى عليه ، وأومأ إلىّ خادم كان على رأسه : أن اسكتْ ، فسكتُّ ساعة . ثم قال لى : أعدْ ، فأعدتُ حتى انتهيتُ إلى آخرها ، فقال لى : أحسنتَ ، ثلاث مرات ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضُرِب باسمه ، ولم تكن وقعتْ لأحدٍ بعد ، وأمر لى مَنْ فى منزله بحلْى كثير أخرجه الخادمُ إلىّ .

فقدمتُ العراق ، فبعتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم ، اشتراها منّى الشيعة ، فحصل لى مائة ألف درهم ، فكان أول مالٍ اعتقدته[3] .

قال حُذيفة بن محمد : ثم استوهب دِعْبل من الرضا ثوبًا قد لبسه ليجعلَه فى أكفانه ، فخلع جُبّةً كانت عليه ، فأعطاه إياها ، وبلغ أهلَ قُمّ خبرُها ، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم فلم يفعل ، فخرجوا عليه فى طريقه ، فأخذوها منه غصبًا ، وقالوا له : إن شئتَ أن تأخذ المال فافعل ، وإلا فأنت أعلم ، فقال لهم : إنى والله لا أعطيكم إياها طوعًا ، ولا تنفعكم غصبًا ، وأشكوكم إلى الرضا ؛ فصالحوه على أن أعطوه ثلاثين ألف درهم ، وفَرْدَ كُمٍّ من بطانتها ، فرضى بذلك !

---

(١) القصرات : جمع قصرة (بالتحريك) وهى أصل العنق ، وحفل : ممتلئة ، والمعنى أن أعناقهم مملوءة غلظة من طول النعيم . (٢) الوتر : الثأر ، أو الظلم فيه ، والمقصود : أنهم إذا اعتدى عليهم لايستطيعون رد الاعتداء . (٣) اعتقدته : اقتنيته .

١٣٥ — سَجَـــدُوا لِشِعْرِه !*

حدّث دِعْبِل الشاعر : أنه اجتمع هو ومُسْلِم وأبو الشِّيص[١] وأبو نُواس في مجلس ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم ما بعده ، فليأتِ كلٌّ واحدٍ منكم بأحسنِ ما قال فلْيُنْشِده ، فأنشد أبو الشِّيص :

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي ... متأخَّر عنـــه ولا متقدَّمُ
أجِـــدُ المَلَامَةَ في هواكِ لذيذة ... حبًّا لذكرك فلْيَلُمْني اللُّوَّم
وأهنتِنِي فأهنتُ نفسي صاغراً ... ما مَنْ يهون عليك ممن يُكْرَمُ !
أشبهت أعدائي فصرتُ أُحبُّهمْ ... إذ كان حظِّي منك حظِّي منهمُ

فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عجبه ، ثم أنشد مسلم أبياتاً من شعره الذي يقول فيه :

فأقسَمْتُ أنْسَى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتْها العينُ والستر واقِع
فغطَّت بأيديها ثمـــارَ نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلَتْها الجوامع[٢]

قال دِعْبِل : فقال لي أبو نواس : هات أبا علي ، وكأني بك قد جئتنا بأم القلادة ، فأنشدته :

أينَ الشبابُ ؟ وأيَّةً[٣] سَلَــكا ؟ ... أم أين يطلب ؟ ضلَّ بَلْ هلَــكا

---

* العقد الفريد : ٤ — ٢ ، مهذب لأغاني : ٧ — ٢٢٤ ، ديوان مسلم : ٢٠٩ (طبعة أوربا) .

(١) هو محمد بن رزين عم دعبل ، كان من شعراء عصره ، متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر لوقوعه بين شعراء كانوا أكثر منه شهرة . توفي سنة ١٩٦ هـ . (٢) جمع جامعة : وهي الغل ؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق . (٣) أي أية سبيل .

لا تَعْجَبِي يا سَلْمُ من رجـــلٍ   ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكى

ياليت شعرى كيف صَبْرُكما   يا صاحبيّ إذا دَمِي سُفِكا !

لا تطلبا بظُـــلامتى[1] أحداً   قلبى وطَرْفى فى دمى اشتركا

ثم سألنا أبا نواس أن يُنْشد ، فأنشد :

لا تَبْكِ هنداً ولا تَطْرَبْ إلى دَعْدِ   واشرب على الوِرْد[2] من حمراء كالوَرْدِ

كأساً إذا انحدرتْ فى كفّ شاربها   أخذت بحمرتها فى العينِ والخـــدِّ

فالخمرُ ياقوتةٌ ، والكأسُ لؤلؤةٌ   فى كف جارية ممشوقةِ القـــدِّ

تَسقيك من عينها خمراً ومن يدها   خمراً ، فما لكَ من سُكرَيْنِ من بُدِّ

لى نشوتان وللنُّدمان واحـــدةٌ   شيء خصصت به من بينهم وَحْدى

فقاموا كلهم ، فسجدوا ! فقال : أفعلتموها أعجمية ؟ لا كلمتكم ثلاثاً .

---

(١) الظلامة : ما احتمله من الظلم ، والمراد هنا موته عشقا من أثر النظر بعينه والحب بقلبه .

(٢) الورد : الماء الذى يورد .

١٣٦ — إنما الدنيا أبو دُلَف !*

قال المأمون يوماً لبعض جلسائه : أُقسم على مَنْ حَضَرَ مِمَّن يحفظُ قصيدة على ابن جَبَلة[١] الأعمى فى القاسم[٢] بن عيسى إلّا أنشدها ؛ فقال بعضُ الجلساء : قد أقسم أميرُ المؤمنين ، ولا بد من إبْرار قَسمه ، وما أحفظها ، ولكنها مكتوبة عندى . قال : قم فجئنى بها . فمضى وأتاه بها ، وأنشده :

ذادَ وِرْدَ الغىِّ عن صَدَرِهْ ... وارْعَوَى واللَّهْوُ منْ وطَرِهْ

وأبَتْ إلا البــكاء له ... ضحكات الشيب فى شعرهْ

نَدَمى أن الشباب مَضَى ... لم أبَلِّغه مَدَى أشرِهْ[٣]

حَسَرَتْ[٤] عــنِّى بشاشتُه ... وذَوَى المحمودُ من ثمرِهْ

ودمٍ أهدَرْتُ من رَشأٍ[٥] ... لم يُرِدْ عَقْلًا[٦] على هَدَرِهْ

* * *

دَعْ جَدَا قحطان أوْ مُضرٍ ... فى يمانيــهِ ، وفى مُضرِهْ

وامتدحْ من وائلٍ رجلًا ... عُصُر الآفاق من عُصرِهْ

---

* الأغانى : ٨ ــ ٢٥٩ (طبعة دار الـكتب) .

(١) على بن جبلة ، ويلقب بالعكوك : شاعر مطبوع عذب اللفظ ، لطيف المعاني، مداح حسن التصرف ، استنفد شعره فى مدح أبى دلف العجلى وأبي غانم الطوسى ،وزاد فى تفضيل أبي دلف حتى فضله على أهل مصر كلهم مما أسخط المأمون وكان سبباً فى تعذيبه . توفى سنة ٢١٣ هـ .

(٢) كنيته أبو دلف ، وكان محله فى الشجاعة وعلو المحل عند الخلفاء وعظم الغناء فى المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر محلا لم يكن لأحد من نظرائه . (٣) أشر (كفرح) : مرح .

(٤) حسرت : انكشفت . (٥) الرشأ : (فى الأصل) ولد الظبي . (٦) العقل : الدية .

المَنَايا فى مَقَانِبِهِ(١) والعطايا فى ذُرَا حُجَرِهْ
مَلِكٌ تَنْدَى أنامِلُه كانبلاجِ النَّوْءِ عن مَطَرِهْ
مستهلٌّ عن مواهِبِهِ كابتسامِ الرَّوْضِ عن زَهَرِهْ
جَبَلٌ عزَّتْ مناكبُه أَمِنَتْ عَدْنانُ فى ثَغَرِهْ
إنما الدنيا أبو دُلَفٍ(٢) بين مَبْدَاهُ ومحتضَرِهْ
فإذا وَلَّى أبو دُلَفٍ وَلَّتِ الدنيا على أثَرِهْ
كلُّ مَنْ فى الأرض من عَرَبٍ بين باديهِ إلى حَضَرِهْ
مستعير منه مَكْرُمَةً يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِهْ

فغضب المأمون واغتاظ، وقال : لستُ لأبى إن لم أقطعْ لسانه أو أسفكْ دمه. ثم قال : اطلبوه حيث كان ، فطُلب فلم يقدر عليه . ولما اتَّصَلَ به الخبر هرَبَ إلى الجزيرة ، فكتب إلى الآفاق فى طلبه ، فهرب من الجزيرة إلى الشام ، وظفروا به هناك ، وأُخِذَ وحُمِلَ إلى المأمون .

ولما وصل إليه سبّه ، وقال له : أنت القائل للقاسم بن عيسى :

كلُّ مَنْ فى الأرض من عَرَبٍ بين باديه إلى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً يكتسيها يوم مفتخَرِهْ

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ! فقال له : يا أميرَ المؤمنين ، أنتم أهل بيت

---

(١) المقانب : جمع مقنب ؛ وهو جماعة الخيل تغير . (٢) قيل : إنه بينا أبو دلف يسير مع معقل مرا بقصر ، فأشرفت منه جاريتان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا أبو دلف الذى يقول فيه الشاعر : « إنما الدنيا أبو دلف » فقالت الأخرى : أو هذا ؟ قد والله كنت أحب أن أراه منذ سمعت ماقيل فيه ، فالتفت أبو دلف إلى معقل، فقال : ماأنصفنا علىّ بن جبلة ولا وفيناه حقه ، وإن ذلك لمن كبير همى ، وكان قد أعطاه ألف درهم .

لا يُقَاس بكم أحدٌ ، لأن الله جلّ وعزّ فضّلكم على خلقه ، واختاركم لنفسه ، وإنما عنيت بقولى فى القاسم أشكالَ القاسمِ وأقرانَه ، فقال : والله ما استثنيتَ أحداً ، ولست أستحلّ دمك لذلك ، ولكنى أستحلّه بقولك وكفرك فى شعرك ، حيث تقول القول الذى أشركت فيه :

أنتَ الذى تُنْزِل الأيام مَنزلها   وتَنقُلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالِ

وما مددتَ مَدَى طرْفٍ إلى أحدٍ   إلا قضيْتَ بأرزاقٍ وآجالِ

كذبت . . . ما يقدر على ذلك أحدٌ إلا الله عزّ وجل ، الملك الواحد القهار ، ثم أمر بعقابه !

١٣٧ — مِدْحَة شاعر وعَطِية أمير*

قال على بن جَبَلة : زرتُ أبا دُلَفٍ بالجبل[١] ، فكان يُظْهِر من إكرامى وبرِّى والتحفِّى[٢] بى أمراً مفرطاً ، حتى تأخرت عنه حيناً حياء ؛ فبعث إلىّ مَعْقِلَ ابن عيسى ، فقال : يقول لك الأمير : قد انقطعت عنّى ، وأحسبك استقللتَ برِّى بك ، فلا يغضبنّك ذلك فسأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعنى إلا إفراطُه فى البر ، وكتبتُ إليه :

هجرتُكَ لم أهجُرْك من كُفْرِ نعمةٍ　　وهل يُرْتَجى نَيْلُ الزيادةِ بالكفرِ !

ولكننى لمّا أتيتُك زائراً　　فأفرطتَ فى برّى عجزتُ عن الشكر

فَمِلآن[٣] لا آتيك إلّا مسلِّماً　　أزورُك فى الشهرين يوماً أو الشهرِ

فإن زدتَنى برًّا تزايدتُ جفوةً　　ولم تلقنى طولَ الحياةِ إلى الحشْر !

فلما قرأها مَعقل استحسنها ، وقال : أحسنتَ والله ! أما إن الأمير لتعجبُه هذه المعانى .

فلما أوصلها إلى أبى دُلَف قال : قاتله الله! ما أشعره وأدقّ معانيَه ! وأعجبتْه وأجابنى لوقته — وكان حسن البديهة حاضر الجواب :

ألَا ربّ ضيفٍ طارقٍ قد بَسَطتُه　　وآنستُه قبل الضِّيافةِ بالبِشْرِ

---

* الأغانى : ٧ — ٢٥٦ (طبعة دار الكتب) .

(١) بلاد الجبل : مدن بين أذربيجان والعراق . (٢) تحفى به : بالغ فى إكرامه .

(٣) يريد فمن الآن .

أتانى يرجّينى فما حال دونه ودون القِرَى والعُرْف من نائلى سِتْرِى

وجدتُ له فضلًا علىَّ بقصْده إلىَّ ، وبرًّا زاد فيه على برِّى

فزوَّدته مالًا يقل بقاؤه وزوَّدنى مدحاً يدوم على الدَّهْرِ

وبعث إلىَّ بالأبيات مع وصيف له ، وبعث إلىّ بألف دينار ؛ فقلت حينئذٍ :

إنما الدنيا أبو دُلف بين مَبْداه ومُحْتَضَرهْ

١٣٨ — بين أبي تمام وعبد الله بن طاهر*

لما شَخَص أبو تمام[1] إلى عبدِ الله بن طاهر[2] وهو بخُراسان ، أقبل الشتاء وهو هناك : فاستَثْقَل البلد ، وكان عبد الله وَجِد[3] عليه ، وأبطأ بجائزته ؛ لأنه نثر عليه ألف دينار ، فلم يمسّها بيده ترفُّعاً عنها ، فقال : يحتقر فعلى ، ويترفّع علىّ ! فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء كالقوت : فقال أبو تمام :

لم يبْقَ للصَّيْفِ رَسْمٌ ولا طَلَلُ ‏ ‏ ولا قشيبٌ فَيُسْتَكْسَى ولا سَمَلُ[4]

عدلٌ من الدمع أن يَبْكِى المصيفَ كما ‏ ‏ يُبكَى الشبابُ ويُبكَى اللّهوُ والغَزَلُ

يُمْنَى الزمانِ انقضَى معروفُها وغدَتْ ‏ ‏ يُسْراه وَهْىَ لنا من بعدها بَدَلُ

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعرَ آلِ طاهر ، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبدالله ابن طاهر .

ثم دخل إلى عبد الله فقال : أيها الأمير ؛ أتتهاون بمثل أبي تمام، وتجفوه؟ فوالله لو لم يكن له ما لَه من النباهة فى قَدْره ، والإحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره ، والتوقّى لذمّه يُوجبُ على مثلك رعايتَه ومراقبتَه ،

---

* الأغانى : ١٥ ـ ١٠٢ (طبعة الساسى) .

(١) هو حبيب بن أوس ، ولد بالشام ثم انحدر إلى مصر ، فروى الأدب وأتقن الشعر، ثم سار إلى بغداد فمدح الخليفة وغيره ، وارتفع ذكره وتقدم على شعراء عصره، ومات سنة ٢٣١ هـ .

(٢) عبد الله بن طاهر : ولد سنة ١٨١ هـ فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة جيدة ، ثم نشأ فى كنف المأمون حيث كان أبوه من أكبر قواده . ثم حل عند المأمون بعد وفاة أبيه محله ، وكان كثير الاعتماد عليه حسن الالتفات إليه . وكان عبدالله أيضاً ظريفاً شاعراً مترسلا جيد الغناء . توفى سنة ٢٣٨ هـ . (٣) وجد عليه : غضب . (٤) السمل : الثوب الخلق .

فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن ، وفراقِه السكن شفيع ! وقد قصدك عاقداً بك أمَله ، مُعْمِلًا إليك ركابَه ، متعباً فيك فكره وجسمَه . وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى يَنْصرف راضياً ، ولو لم يأت بفائدة ولا سُمِع فيك منه ما سُمِع إلا قوله :

يقولُ فى قُومِسٍ[١] صحبى وقد أخذت منّا السُّرى وخُطا المَهْرِيّةِ[٢] القودِ[٣]

أمطلعَ الشمس تبغى أن تؤمَّ بنا ؟ فقلت : كلّا ! ولكنْ مطلعَ الجودِ

لكفى ! فقال له عبد الله : لقــد نبّهْتَ فأحسنت ، وعاتَبْتَ فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العُتْبَى[٤] . ادعه ياغلامُ ، فدعاه . فنادمه يومَه ، وأمر له بألفى دينار وما يَحْمِله من الظَّهر ، وخلع عليــه خِلْعة تامة من ثيابه ، وأمر ببَذْرَقَتِه[٥] إلى آخر عمله .

---

(١) قومس : إقليم فى طبرستان . (٢) الإبل المهرية : تنسب إلى مهرة : حى فى العرب .
(٣) القود : جمع أقود، وهو الطويل العنق. (٤) أعتبه : سره بعد ما ساءه ، والاسم العتبى.
(٥) البذرقة : الخفارة .

١٣٩ — لا يعجبنّك من يَصُون ثيابَه   خَوْفَ الغبار وعِرْضه مبذول *

ارتاح محمد[1] بن عبد الله بن طاهر يوماً للمنادمة ، وقد حضره ابنُ طالوت ، وكان وزيرَه وأخصَّ الناسِ به وأحضرَهم لخلَواته ، فأقبل عليه ، وقال : لا بد لنا اليومَ من ثالث تَطيبُ لنا به المعاشرة ، وتلذ بمُنَادمته المؤانسة ؛ فَمَنْ ترى أن يكون ؟ وأعفنا أن يكون شريرَ الأخلاق ، أو دَنِس الأعراق ، أو ظاهر الإملاق .

قال ابنُ طالوت : فأعملت الفِكر ، وقلت : أيها الأمير ؛ خطَر ببالى رجلٌ ليس علينا من مجالسته مئونة ، وقد برئ من إبرام[2] المجالسين ، وخلا من ثقل المؤانسين ، خفيفُ الوطأة إذا أدْنيته ، سريع الوَثبة إذا أمَرْته .

قال : ومَنْ ذلك ؟ قلت : مانى[3] المُوَسْوَس . قال : أحسنت والله! فما كان بأسرع من أن اقْتنصه صاحبُ الشُّرْطة ؛ فصار به إلى الأمير ، فأُخِذ ونُظِّفَ وأدخل الحمام ، وألبس ثياباً نظافاً ، وأدخل عليه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فقال محمد : وعليك السلام يامانى . أما آن لك أن تزورنا على حين تَوقانٍ منا إليك ، ومنازعة قلوب منا نحوك ؟ فقال : الشوق شديد ، والحب عتيد ، والمزار بعيد ، والحجاب صعب ، والبواب فظّ ؛ ولو سُهِّل لنا الإذن لسَهُلتْ علينا الزيارة !

---

* الأغانى : ٢٠ — ٨٥ (طبعة الساسى) ، المسعودى : ٢ — ٢٤٥

(١) توفى سنة ٢٥٣ هـ وذلك فى خلافة المعتز . وكان من الجود والكرم وغزارة الأدب مالم يكنْ عليه أحد من نظرائه . (٢) أبرمه : أمله . (٣) مانى الموسوس : اسمه محمد بن القاسم ، شاعر لين الشعر رقيقه ، لم يقل شيئاً إلا فى الغزل ، ومانى لقب غلب عليه .

فقال : ألطَفْتَ فى الاستئذان ، فليلطفْ لك فى الإذن : لا يمنعُ مانى أى وقت ورد من ليل أو نهار .

ثم أَذِن له فى الجلوس فجلس ، ودعا بالطعام فأكل ، ثم غسل يديه ، وأخذ مجلسه . وكان محمدٌ قد تشوق إلى السماع من مؤنسة جارية بنت المهدى فأحضرت ، فكان أول ما غنت به :

ولستُ بناسٍ إذ غدَوْا فتحمّلوا ... دموعى على الخدين منْ شدة الوَجْد

وقولى وقد زالت بليلٍ حمولُهم ... بوَاكِرِ تُحدى : لا يكن آخر العهد

فقال مانى : أحسنْتِ ! وبحق الأمير إلا ما زدتِ فيه :

وقفت أناجى الفكرَ والدمعُ حائر ... بمقلة موقوف على الضُّرِّ والجَهْدِ[1]

ولم يُعْدِنى هــذا الأميرُ بعَدْلِه ... على ظالمٍ قد لج فى الهجرِ والصدِّ

فاندفعت تغنيه ، فقال له محمد : أعاشق أنت ؟ فاستحيا ، وغمزه ابن طالوت ألا يبوح له بشىء فيسقط من عينيه ، وقال : مَبْلغُ طرب وشوق كان كامناً فظهر ؛ وهل بعد الشيب صَبْوة !

ثم اقترح محمد على مؤنسة هذا الصوت :

حجَّبُوها عن الرِّياح لأنى ... قلت : يا ريح بلغيها السلاما

لو رَضُوا بالحجاب هانَ ولكن ... منعوها عن الرياح الكلاما

فغنته ، فطرب محمد ، ودعا برطل فشرب ، فقال مانى : ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه :

---

(١) الضر : سوء الحال ، والجهد : المشقة .

فتنفَّسْتُ ، ثم قلت لطَيْفِي : آه إن زُرْتَ طيفَها إلماما
خُصَّه بالسلام منى فأخشى يمنعوها لشقْوَتى أن تناما

لكان أثقبَ[1] لزَنْدِ الصبابة بين الأحشاء ، وأشد تغلغلا إلى الكبد[2] الصادية من زلال الماء ، مع حسن تأليف نظمه ، والانتهاء بالمعنى إلى نهاية تمامه ؛ فقال محمد : أحسنت ! ثم أمر مؤنسة بإلحاقهما بالبيتين الأولين ، والغناء بهما ، ففعلت . ثم غنت بهذين البيتين :

ياخليلىّ ساعةً لا تَرِيما[3] وعلى ذى صبابة فأقيما
ما مَرَرْنا بدار زينب إلّا هَتَكَ الدمعُ سرَّنا المكتوما

فاستحسنه محمد ، فقال مانى : لولا رهبةُ التَّعدى لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يَرِدَانِ على سَمْعِ ذى لُب فيصدران إلا عن استحسانٍ لهما ، فقال محمد : يا مانى ؛ الرغبة فى حسن ما تأتى به حائلةٌ دون كلِّ رهبة ، فهات ما عندك ! فقال :

ظبيةٌ كالهلال لو تلحظُ الصخـ ـرَ بطَرْفٍ لغَادَرَتْهُ هشيما
وإذا ما تبسَّمَتْ خِلْتَ إيمـا ضَ بُرُوق أو لؤلؤاً منظوما

فقال : أحسنت يا مانى ! فأجِزْ[4] هذا الشعر :

لم تطلب اللذات إلا بمن طابَتْ بهـا اللذات مانوسه
غنت بصوت أطلقت عَـبْرَةً كانت بسجن الصبر محبوسه

فقال مانى :

وكيف صَبْرُ النفس عن غادة أظلمها إن قلتُ : طاوسه !

---

(١) ثقبت النار : اتقدت . والزند : العود الذى يقدح به النار وهو الأعلى . (٢) الكبد : مؤنثة وقد تذكر . (٣) لاتريما : لاتبرحا . (٤) الإجازة فى الشعر : أن تتم شعر غيرك .

وجُرت إن شبّهتُها بانةً[1] في جنـة الفردوس مَغْروسه

وغيرُ عدل إن عدلْنا بها جوهرةً في البحر مَغْموسـه

ثم سكت ، فقال محمد : ما عدا في وصفه لها ، فقال مانى :

جلّت عن الوصف فما فكرة تُلحِقهـا بالنعت محسوسه

فقال محمد : أحسنت ! فقالت مؤنسة : وجب شكرك يا مانى . فساعدك الدهر ، وعطف عليك إلفك ، وقارنك سرورك ، وفارقك محذورك ، والله يُديم لنا ذلك ببقاء من به اجتمع شملُنا ، فقال لها مانى - عند قولها : « وعطف عليك إلفك » - مجيباً :

ليس لى إلفٌ فيعطفنى فارقَتْ نفسى الأباطيـلُ

أنا موصول بنعمـة من حَبْلُه بالمجـدِ موصول

أنا مغبوط بنعـمة من طبعـهُ بالمجـد مأمول

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام فنهض ، وهو يقول :

ملك قلّ النظـير له زانه الغُرّ البهاليـل

طاهرىٌّ فى مواكبه عُرْفُه فى النـاس مبذول

فقال محمد : وجب جزاؤكُ لشُكْرك على غير نعمةٍ سبقتْ ، ثم أقبل على ابن طالوت ، فقال : ليست خساسة المرء ، ولا اتِّضَاع دهره ، ولا نُبُوّ العين عن الظاهر بمُذْهبٍ ما ركب فيه من الأدب ، وما أخطأ صالح بن عبد القدوس حين يقول :

لا يعجبنّك من يصُونُ ثيـابه خوفَ الغبارِ وعرضُه مبذول

فلربمـا افتقر الفتى فرأيتَه دَنِس الثياب وعرضه مَغْسُول

فلم يزل محمد مُجْرِياً عليه رزقه حتى توفى !

---

(١) البان : ضرب من الشجر .

١٤٠ — سِعَايَة*

سُعِي بأبى الحسن[1] على بن محمد العلوىّ إلى المتوكل ، وقيل له : إن فى منزله سلاحاً وكُتُباً وغيرَها من شيعته ، فوجّه إليه ليلًا مَنْ هجم عليه فى منزله على غفلة ممّن فى داره ، فوُجد فى بيتٍ وَحْدَه ، مغلق عليه ، وعليه مِدْرَعة[2] من شعر ، ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه مِلْحَفة[3] من الصوف ، متوجهاً إلى ربّه يترنّم بآياتٍ من القرآن فى الوَعْدِ والوعيد .

فأُخذ على ما وُجِدَ عليه ، وحُمل إلى المتوكل فى جوفِ الليل ؛ فَمَثَلَ بين يديه والمتوكلُ يشرب ، وفى يده كأسٌ ؛ فلما رآه أعْظَمه وأجْلَسه إلى جنبه ، ولم يكن فى منزله شىء مما قيل فيه ، ولا حالُه يُتَعَلَّلُ عليه بها ؛ فناوله المتوكلُ الكأس التى فى يده ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ ماخامر لَحْمِى ودمى قط ! فأعفنى منه، فأعفاه ، وقال : أنشدنى شعراً أستَحْسِنُه ، فقال : إنى لقليل الرِّواية للأشعار ؛ فقال : لابد أن تنشدنى، فأنشده :

باتوا على قُلَلِ الأجبـال تحرسُهم غُلْبُ[4] الرجال فما أغنتهم القُلَلُ

واستُنزلوا بعـد عزٍّ من معاقلهم فأُودعوا حُفَراً ، يابئسَ ما نزلوا !

---

* ابن خلـكان : ١ ــ ٣٢٢

(١) هو أحد الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان مولده بالمدينة وأقام بها ، ولما كثرت السعاية به عند المتوكل نقله إلى سرمن رأى فأقام بها ٢٠ سنة . وتوفى سنة ٢٥٤ هـ.

(٢) المدرعة : نوع من الثياب . (٣) الملحفة : اللباس فوق سائر اللباس يتقى به البرد كاللحاف.

(٤) الغلب : جمع أغلب، وهو الشجاع ، وأصل الأغلب : الأسد .

نَاداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبِرُوا : أين الأسرّةُ والتيجانُ والحُللُ !

أين الوجوه التى كانت منعمةً من دونها تُضْرَبُ الأستار والكِلَلُ

فأفْصَح القبر عنهم حين ساءلهم : تلك الوجوهُ عليها الدودُ يقتتلُ

قد طالما أكلوا دهراً وما شَبِعُوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكِلوا

وطالما عَمَرُوا دُوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموالَ وادَّخَروا فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا

أضْحت منازلهمْ قفراً معطلةً وساكنوها إلى الأجْدَاث قد رحلوا

فأشفقَ مَنْ حضر على علىّ ، وظنُّوا أن بادرةً تبدر منه إليه، ولكن للمتوكل بكى بكاء طويلا ، حتى بلّت دموعُه لحيته، وبكى مَنْ حَضره، ثم أمر برفع الشراب، وقال : يا أبا الحسن ، أعليك دين؟ قال : نعم أربعة آلاف دينار! فأمر بدفعها إليه، وردّه إلى منزله من ساعته مكرّماً .

١٤١ — أشعَر من بالشام ومن بالعراق*

دخل أبو نَصْر المنذرىّ على أبى العلاء[١] المعرى فى جماعة من أهل الأدب ؛ فأنشد كلٌ واحد من شعره ما تيسّر ، وأنشده أبو نصر :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ سقاهُ مضاَعَفُ الغيثِ العميمِ
نزلنا دَوْحَهُ[٢] فَحنَا علينـــا حُنُوَّ الوالداتِ على الفَطيمِ
وأرْشفَنا على ظمأٍ زُلالا[٣] ألذَّ من المُدامة[٤] للنديمِ
يَصُدّ الشمسَ أنى واجهتْنا فيحجُبها ويأْذنُ للنسيمِ
يَرُوعُ[٥] حَصَاهُ حاليَةَ[٦] العذارى فتلمس جانب العقـــد النَّظيمِ

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام .

ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، فدخل المنذرى عليه فى جماعة من أهل الأدب ببغداد، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً، فأنشد كل واحد منهم ماحضره من شعره، حتى جاءت نوبة المنذرى فأنشده :

لقد عرض الحمامُ لنا بِسَجْعٍ إذا أصْغى له رَكْبٌ تلاحى[٧]

---

* المستطرف : ١ ـ ٤٦ .

(١) أبو العلاء المعرى : هو أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخى المعرى الضرير الفيلسوف المؤلف، نشأ بالمعرة، ودرس على أبيه وأهله صبياً، ثم على علماء حلب وأعالى الشام حتى صار علماً فى الاشتهار، ثم ذهب إلى بغداد ولاق علماءها ورؤساءها ، ومكث فيها فلم يطب له العيش فرجع إلى منزله ولم يخرج منه . وعمر حتى مات سنة ٤٤٩ هـ . (٢) الدوح : جمع دوحة : الشجرة العظيمة من أى شجر كان . (٣) ماء زلال : عذب . (٤) المدامة : الخمر . (٥) يروع : يفزع . (٦) حليت المرأة : صارت ذات حلى ؛ فهى حلية وحالية . (٧) تلاحى . تنازع .

شجى[١] قلبَ الخليِّ فقيل : غَنّى ... وبرّح[٢] بالشجيِّ[٣] فقيل : ناحا

وكم للشوق فى أحْشاء صَبٍّ ... إذا اندملتْ أجَدَّ لهـــا جراحا

ضعيف الصبر عنك وإن تقاوَى ... وسكران الفؤاد وإن تصاحى

بذاك بنو الهوى سَـكْرَى صُحَاة ... كأحداقِ المَهَا مَرْضَى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومَنْ بالعراق . (عطفا على قوله : مَنْ بالشام[٤]) !

---

(١) شجاه : أطربه . (٢) برح به الأمر : جهده . (٣) الشجى : الحزين .
(٤) المعروف أن الأبيات الأولى لحمدونه الأندلسية.

١٤٢ — ابن جاخ ينشد المعتضد بن عباد شعره*

ورد ابن جاخ الشاعر على المعتضد بن عباد ، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء، فسألوه ، فقال : إنى شاعر ! فقالوا : أنشدنا مِنْ شعرك ؛ فأنشدهم شعراً ضحكوا منه وازْدَرَوْه .

فقال بعض عقلائهم : دعوه ، فإن هذا شاعر ، وما يبعد أن يدخَل مع الشعراء ويندرجَ فى سِلْكهم ؛ فلم يُبَالوا بكلام الرجل .

فبقى معهم ، وكان لهم فى تلك الدولة يومٌ مخصوص ، لا يدخلُ فيه على الملك غيرُهم ، فقال بعضٌ لبعض : هذه شُنْعَةٌ (١) بنا أن يكون مثلُ هذا البادى يُقَدَّم علينا ، ويجترئ على الدخول معنا.

فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم فى اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان ؛ وقدَّروا أن يقول مثلَ ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم ، ويكون ذلك حسما لعلة إقدام مثله عليهم .

فلما كان اليومِ المذكور ، وقعد السلطانُ فى مجلسه ، ونصِبَ الكرسى لهم ، رغبوا منه أن يكون هذا القادمُ أولَ متكلم فى ذلك اليوم ، فأمر بذلك فصعد الكرسى ، وانتظرُوا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك ، فقال :

قطَّعْتَ يا يومَ النوى أكبادى ... وحرمت عن عينى لذيذ رُقَادِى
وتركتنى أرعى النجوم مُسَهَّداً ... والنَّارُ تُضرَمُ فى صميم فؤادى

---

* نفح الطيب : ٢ — ٤٦٨

(١) الشناعة : الفظاعة ، والاسم الشنعة .

فكأنما آلى الظلامُ أليَّةً — لا ينجلى إلَّا إلى ميعـاد

ولرب خرق[1] قد قطعت نياطه — والليل يرفلُ فى ثياب حداد

بشِمِلَّةٍ[2] حَرْفٍ[3] كأنَّ ذَميلَها — سَرْحُ[4] الرياح ، وكلُّ برقٍ غادى

والنجمُ يحدوها وقد ناديتها : — ياناقتى عُوجى على عَبَّـادِ

ملك إذا ما أُضرِمَتْ نار الوغى — وتلاقت الأجنـاد بالأجناد

فترى الجسوم بلا رءوس تنثنى — وترى الرءوس لَقىً[5] بلا أجساد

يأيها الملكُ المؤمَّلُ والذى — قَدُماً سما شرفاً على الأنداد

إنَّ القريضَ لكاسدٌ فى أرضنا — وله هنا سوقٌ بغير كساد

فجلبتُ من شعرى إليك قوافياً — يَفْنَى الزمانُ وذِكْرُها مُتَمَادى

مِنْ شاعرٍ لم يضطلع ادبا ولا — خطَّتْ يداه صحيفةً بمداد

فقال له الملك : أنت ابن جاخ ؟ فقال : نعم ! فقال : اجلس، فقد وليتك رياسةَ الشعراء ، وأحسن إليه ، ولم يأذن فى الكلام فى ذلك لأحدٍ بعده !

---

(١) الخرق : القفر والأرض الواسعة . (٢) الشملة : السريعة . (٣) الحرف : الناقة الضامرة.
(٤) سرح الرياح : إرسالها . (٥) اللقى : ماطرح .

الباب الرابع

في القصص التي تسرد بارع ملَحهم، وروائع طرفهم، في جواباتهم المسكتة، وتصرفاتهم الحكيمة، وتخلصاتهم اللبقة، مما يدل على حضور الذهن وسرعة البديهة، وشدة المعارضة.

١٣٤ — حَسّان بن ثابت والنابغة*

قال حسان بن ثابت : قدمتُ على النعمانِ بن المنذر وقد امتدحتهُ ، فأتيتُ حاجبَه عِصَام بن شَهْبَر فجلست إليه ، فقال : إنى لأرى عربيا ، أفمن الحجاز أنت ؟ قلت: نعم ، قال: فكن قحطانيًّا ، قلت : فأنا قحطانىّ ، قال : فكن يثربيًّا ، قلت : فأنا يثربى ، قال : فكن خَزْرَجِيًّا ، قلت : فأنا خزرجى ، قال : فكن حسانَ ابن ثابت . قلت : فأنا هو !

قال : أجئْتَ بمدْحَة الملك ؟ قلت : نعم ، قال : فإنى أُرْشِدُك إذا دخلتَ عليه، فإنه يسألُك عن جَبَلة بن الأيهم ويسبُّه ، فإياك أن تساعدَه على ذلك ، ولكن أمِرَّ ذِكْرَه إمراراً لاتوافقُ فيه ولا تخالف ، وقل : ما دخولُ مثلى أيُّها الملك بينك وبين جَبَلة وهو منك وأنتَ منه ! وإن دعاك إلى الطعام فلا تؤاكله ، فإن أقسم عليك فأصِبْ منه اليسيرَ إصابة بارّ قسَمه ، متشرفٍ بمؤاكلته، لاأكلَ جائع سَغِب[1] ، ولا تُطِل محادثته ، ولا تبدؤه بإخبارٍ عن شىء حتى يكونَ هو السائل لك ، ولا تُطِلِ الإقامةَ فى مجلسه .

فقلت : أحسن الله رِفْدَك ! قد أوْصَيْتَ واعياً . ودخل ، ثم خرجَ إلىَّ فقال لى : ادْخُل ، فدخلتُ فَسلَّمتُ وحيَّيت تحية الملوك.

ثم جرى بينى وبينه فى شأن جبلة ما قاله عصام كأنه كان حاضراً ، وأجبتُ بما أمرنى ، ثم استأذنتُهُ فى الإنشاد فأذِن لى ؛ فأنشدته . ثم دعا بالطعام ، ففعلت ما أمرنى عِصَام به ، وبالشراب ففعلت مثل ذلك ، فأمر لى بجائزةٍ سنيَّة وخرجت.

---

* الأغانى : ٩ — ١٦٤ (طبعة الساسى) .

(١) السغب : الجوع ؛ ولايكون إلا مع تعب .

فقال لى عصام : بَقِيتْ علىّ واحدة لم أُوصِك بها ، قد بلغنى أن النابغةَ[1] الذبيانى قدم عليه ، وإذا قدم فليس لأحـدٍ منه حَظٌّ سواه ، فاستأذن حينئذ وانصرف مكرَّماً ؛ فذلك خيرٌ من أن تنصرفَ مجفُوًّا .

فأقمت ببابه شهراً ، ثم قدم عليه فزاريان كان بينهما وبين النعمان دُخْلَل[2] ، وكان معهما النابغة قدم استَجار بهما ، وسألها مسألة النعمان أن يَرْضَى عنه ، فضرب عليهما قُبَّةً من أدم ، ولم يشعر بأنَّ النابغة معهما ، ثم أرسل إليهما بطيب وألطاف مع قينةٍ من إمائه ، فكانا يأمرانها أن تبدأ بالنابغة قبلهما ، فذكرتْ ذلك للنعمان ، فعلم أنه النابغة ، ثم ألقى عليها شعره :

* يادار مَيَّة بالعَلْياء فالسَّنَدِ *

وسألها أن تُغَنِّيَه به إذا أخذتْ فيه الخمر ، ففعلت فأطربَتْهُ ، فقال : هـذا شعر النابغة .

ثم خرج فى غِبِّ[3] سماء ، فعارضه الفَزاريان والنابغة بينهما قد خَضب بحنَّاء ، فأقنأ[4] خِضَابه ، فلما رآه النعمان قال : هى بِدَم كانت أحْرى أنْ تُخْضب ! فقال الفَزاريان: أبيتَ اللعن ! لاتثريب[5] ! قدأجَرْناه ، والعفوُ أجملُ ، فأمَّنه واستنشده أشعاره .

قال حسان : فحسدتُه على ثلاث لا أدرى على أيَّتهن كنتُ له أشدَّ حسداً ؛ على إدناء النعمان له بعد المباعدة ، ومسامرته له وإصغائه إليه ؟ أم على جَوْدَةِ شعره؟ أم على مائة بعير من عصافيره[6] أمر له بها ؟

(١) هو زياد بن معاوية، من ذبيان من قيس، وهو من الأشراف الذين غض الشعر منهم كما غض من امرئ القيس ، مدح النعمان صاحب الحيرة وعمرو بن الحارث ملك الغساسنة، وكانت له منزلة كبرى عند شعراء عصره، فإذا جاء عكاظ ضربوا له قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدونه أشعارهم.
(٢) دخلل : خاصة . (٣) غب سماء : أى بعد أن أمطرت السماء . (٤) أقنأ خضابه : سوده.
(٥) لاتثريب : لالوم . (٦) العصافير : إبل كانت للمنذر تتخذ نجائب للملوك .

١٤٤ — أية أخلاق كانت للعرب فى الجاهلية*

رَافقَ أبو بكر وعلىٌّ بنُ أبى طالب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى سيره؛ ثم انتهوا جميعاً إلى مجلس عليه السكينةُ والوقار، وإذا مشايخ لهم أقدارٌ وهيئات.

فتقدم أبو بكر — وكان مقدَّماً فى كل خير — فسلم وقال: ممَّن القوم؟ قالوا: مِنْ شيبان بن ثَعْلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: بأبى أنت وأمى! ليس بعد هؤلاء من عزٍّ فى قومهم، وهؤلاء غُررٌ فيهم، وكان فيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمُثَنَّى بن حارثة، والنعمان بن شريك؛ وكان مَفْرُوق بن عمرو قد غَلَبهم جمالًا ولسانًا؛ وكانت له غَدِيرَتان[1] تسقطان على صدره، فكان أدنى القوم مجلساً من أبى بكر، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تُغْلَب ألفٌ من قلة؛ فقال له: كيف المَنَعَة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جَدّ[2]. فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال: إنّا أشدُّ ما نكون لقاء حين نَغْضَب، وإنا لنُؤْثِرُ الجيادَ على الأولاد، والسِّلاح على اللِّقاح[3]، والنصر من عند الله يُديلُنا مرة، ويُديلُ علينا[4] مرة، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول فها هو ذا.

فقال مفروق: قد بَلَغنا أنه يذكُرُ ذلك؛ ثم التفت إلى رسول الله فجلس،

---

* ابن كثير: ٣ — ١٤٤، الروض الأنف: ١ — ٢٦٤

(١) الغديرة: الذؤابة. (٢) الجد: الحظ. (٣) اللقوح: الناقة الحلوب، وجمعها لقاح.

(٤) يريد، تغلب مرة، ويغلبنا العدو مرة.

وقام أبو بكر يُظلّه بثوبه ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وأن تؤوُوني وتنصروني، حتى أؤدّيَ عن الله الذي أمرني به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذّبتْ رسوله ، واستغنَتْ بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد » .

قال مفروق : وإلامَ تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى[1] : « قُلْ تعالَوْا أتلُ ما حرّمَ ربُّكُمْ عليكُمْ ألّا تُشرِكُوا بِهِ شيئاً وبالوالدينِ إحساناً ولا تقتلوا أولادَكُمْ من إملاقٍ نحنُ نرزُقُكُمْ وإيّاهُمْ، ولا تقرَبُوا الفواحِشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ ، ولا تقتُلُوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلّا بالحقِّ ، ذلِكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تعقِلُونَ . ولا تقرَبُوا مالَ اليتيمِ إلّا بالّتي هيَ أحسَنُ حتّى يبلُغَ أشُدَّهُ ، وأوفُوا الكيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ ؛ لا نُكلِّفُ نفساً إلّا وُسعَها وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا ولوْ كانَ ذا قُربى وبعهدِ اللهِ أوفُوا ذلِكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تذكّرُونَ. وأنّ هذا صِراطي مُستقيماً فاتّبِعوهُ ولا تتّبِعُوا السُّبُلَ فتفرّقَ بكُمْ عنْ سبيلِهِ ، ذلِكُمْ وصّاكُمْ بهِ لعلّكُمْ تتّقونَ».

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى[2] : « إنّ اللهَ يأمُرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى وينهى عنِ الفحشاءِ والمُنكرِ والبغيِ يعِظُكُمْ لعلّكُمْ تذكّرُونَ » .

فقال مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمال، ولقد أفِكَ[3] قومٌ كذّبوك وظاهروا عليكَ ـ وكأنه أحبَّ أن يَشْرَكه في الكلام هانئُ بنُ قبيصة ـ فقال : وهذا هانئُ بن قبيصة شيخُنا .

(١) سورة الأنعام ١٥١ ، وما بعدها .
(٢) سورة النحل ٩٠ وما بعدها .
(٣) أفك : كذب .

فقال هانئ : قد سمعتُ مقالتَك يا أخا قريش ، وصدّقتُ قولك ، وإنى أرى أنّ تركَنا ديننا ، واتباعنا دينَك لمجلس جلَسْتَه إلينا ليس له أولٌ ولا آخر – زَلةٌ فى الرأى ، وطيشةٌ فى العقلِ ، وقلةُ نظرٍ فى العاقبة ؛ وإنما تكون الزَّلَّةُ مع العجلةِ ، وإن مِنْ ورائنا قوماً نَكْرَهُ أن نَعْقِدَ عليهم عقداً ، ولكن ترجعُ ونرجعُ ، وتنظرُ وننظرُ – وكأنه أحبَّ أن يشركَهُ فى الكلام المثنى بن حارثة – فقال: وهذا المثنى شيخُنا وصاحبُ حَرْبنا .

فقال المثنى : قد سمعتُ مقالتك ، واستحسنتُ قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمتَ به ؛ والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة ، فإنا إنما نزلنا الصَّرَيَيْنِ[1] : اليمامة والسَّمامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما هذان الصريَان ؟ فقال له : أما أحدهما فطفوف[2] البر وأرض العرب ، وأما الآخر فأرضُ فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ألا نُحْدِث حدثاً ، ولا نؤوى محدثاً ، ولعلَّ هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما تكرهه الملوك ؛ فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنبُ صاحبه مَغْفُور ، وعذره مقبول ، وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول . فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أسأتم الرد إذ أفْصَحتُم بالصدق ؛ إنه لا يقومُ بدين الله إلا مَنْ حاطه من جميع جوانبه » .

---

(١) كل ماء مجتمع صرى ، وتثنيته صريان ، ويروى : « نزلنا بين صيرين فقال رسول الله : وما هذان الصيران ؟ قال : مياه العرب وأنهار كسرى » . والصير : الماء الذى يحضره الناس . لسان العرب – مادة صرى .   (٢) طفوف : جمع طف ؛ وهو ساحل البحر وجانب البر .

ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أرأيتم إن لم تَلْبثوا إلا يسيراً حتى يمنحَكم اللهُ بلادهم وأموالهم أتسبِّحُون الله وتقدِّسُونه؟» فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإنَّ ذلك لك ياأخا قريش ! فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ».

ثم نهض قابضا على يدى أبى بكر ، والتفت إلى على وقال : ياعلى ! أيةُ أخلاق للعرب كانت فى الجاهلية ! ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا .

---

١٤٥ — مسلم يحتال على قُرَيش*

أسلم الحجاج[1] بن عِلاطٍ السُّلَمِى ، ولم تعلم قريش بإسلامه ، فاستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبر فى أن يصيرَ إلى مكة ، فيأخذَ ما كان له من مال — وكانت له أموالٌ متفرقة هناك ، وهو رجل غريب بينهم — فأذِن له النبى ، فقال : يارسول الله ؛ إنى أحتاجُ أن أقول[2] . قال : فقل ، فصار إلى مكة .

فقالت قريش : هذا لعمرُ الله عنده الخبر . قال : فقولوا . فقالوا : بلغنا أن القاطع[3] قد خرج إلى أهل خيْبر . فقال الحجاج : نعم ، فقتلوا أصحابه قتلًا لم يُسْمع بمثله ، وأخذوه أسيرا ، وقالوا : نرى أن نُكَارِم[4] به قريشا ؛ فندفعه إليهم ؛ فلا تَزالُ لنا هذه اليدُ فى رقابهم ، وإنما بادرتُ لجمع مالى ؛ لعلى أصيبُ به من فَلِّ[5] محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى إليه التجار ، ويتصل بينهم الحديث .

فاجتهدوا فى أن جمعوا إليه ماله أسرعَ جمع ، وسُرُّوا أكثر السرور ، وقالوا بلا رُغْم[6] !

وأتاه العباس بن عبد المطلب وهو كالمرأة الوَالِه[7] ، فقال : وَيْحك ياحجاج !

---

* الكامل للمبرد : ١ — ٢٠٧

(١) وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر ، فأسلم . (٢) يريد : أقول على جهة الاحتيال . (٣) يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم البار الواصل رحمه ، وكانوا يرمونه — سفهاً — بالقاطع ، أى القاطع رحمه . (٤) كارمه : غلبه فى الكرم . (٥) يريد من غنائم ذلك الفل . (٦) وقالوا بلا رغم : يريد وفعلوا ذلك بلا كره ، والعرب تجعل القول عبارة عن الفعل ، وتطلقه على غير الكلام . (٧) الوله : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، ويقال امرأة واله ورجل واله .

ما تقول ؟ فقال : أ كاتمٌ علىّ خبرى ؟ فقال : إى والله ، فقال : فالبَثْ[١] علىّ شيئاً حتى يخفّ موضعى .

ثم سار إليه ، فقال له : الخبرُ والله على خلاف ماقلتُ لهم ؛ خلّفْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فتح خَيْبَر ، وخلّفْتُه والله مُعْرِساً بابنةِ ملكهم[٢] ، وما جئتك إلا مسلماً ؛ فاطْوِ الخبر ثلاثاً ، حتى أُعْجِزَ[٣] القومَ ، ثم أشِعْهُ ، فإنه والله الحق .

فقال العباس : ويحك ! أحقٌّ ما تقول ؟ قال : إى والله . فلما كان بعد ثلاثة تخلّق[٤] العباسُ وأخذ عصاه ، وخرج يطوف بالبيت . فقالت قريش: ياأباالفضل، هذا والله التجلدُ ، فقال : كلا ومَنْ حلفتم به ، لقد فتح رسول الله خَيْبر ،وأعْرَسَ بابنة ملكهم ! فقالوا : مَنْ أتاك بها الحديث ؟ فقال : الذى أتاكم بخلافه ، ولقد جاءنا مسلماً .

ثم أتت الأخبار من النواحى بذلك ! فقالوا : أفلتنا الخبيث ، أوْلى لَه[٥] !

---

(١) البث على : هو يريد اصبر . (٢) يريد صفية بنت حي بن أخطب . (٣) أعجز القوم : صيرهم عاجزين . (٤) الخلوق : الطيب ، وتخلق : طلى ثوبه به . (٥) أولى له : كلة تهديد وتوعد.

١٤٦ — إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه*

جاء أعرابى إلى على رضى الله عنه ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، إن لى إليك حاجةً رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ؛ فقال له علىّ : خُطّها فى الأرض ؛ فإنى أرى الضُّر عليك . فكتب : إنى فقير . فقال : ياقَنْبَر[1] اكْسُه حُلّتى !

فلما أخذها مَثَلَ بين يديه فقال :

كَسَوْتَنى حُـــلّةً تَبْلَى محاسِنُها ... فسوف أكْسُوك من حُسْنِ الثنا حُلَلا

إيهِ أبا حسنٍ قد نلت مَـكْرُمَةً ... ولستَ تَبْغِى بما قدّمْتَهُ بَدَلا !

إن الثناء ليُحْيِى ذِكْرَ صاحبه ... كالغيثِ يحيى نداه السَّهْلَ والجَبَلا

لا تزهدِ الدهرَ فى عُرْفٍ[2] بدأتَ به ... كلُّ امرئٍ سوف يُجْزَى بالذى فعلا

فقال على : يا قَنْبَر ؛ زده مائة دينار ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لو فرقتَها فى المسلمين لأصلحتَ بها من شأنهم ! فقال على : صَهْ ياقنبر ؛ فإنى سمعت النبى يقول : اشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه !

---

* أدب السياسة : ١٧٦ ، المستطرف : ٢ ـ ٢٤٤

(١) قنبر : مولى على رضى الله عنه .

(٢) عرف : معروف وفضل .

١٤٧ — ما رأيتُه لاحَى أحداً إلّا غلَبه*

قال عبد الله بن عُمَر : كنتُ عند أبي يوماً ، وعنده نفرٌ من الناس ، فجرى ذكر الشعر ، فقال : مَنْ أشعَرُ العرب ؟ فقالوا : فلان وفلان . فطلع عبد الله بن عباس ، فسلّم وجلَس ، فقال عمر : قد جاءكم الخبير . من أشعر الناس يا عبد الله ؟ قال : زهير بن أبي سُلمى ، قال : فأنشِدْنى مما تستجيده له ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ إنه مدحَ قوما من غَطفان ، يقال لهم بنو سِنان فقال :

لو كان يَقْعدُ فوقَ الشَّمسِ من كرمٍ ... قومٌ بأوّلِهم أو مَجْـدِهم قَعَدُوا

قومٌ ، سِنَانٌ أبوهم حين تَنْسُبهم[1] ... طابوا وطاب من الأولاد ماوَلَدوا

إنسٌ إذا أمِنوا ، جِنٌّ إذا فَزِعوا ... مُرَزَّءون[2] بهاليل[3] إذا جَهَدُوا[4]

مُحَسَّدون[5] على ما كان من نعم ... لا ينزعُ اللهُ منهم مالَه حُسِدوا

فقال عمر : والله لقد أحسن ! وما أرى هذا المدحَ يصلحُ إلا لهذا البيت من هاشم ؛ لقرابتهم من رسول الله .

فقال ابنُ عباس : وفّقك الله يا أمير المؤمنين ، فلم تزل مُوَفّقاً .

فقال عمر : أتدرى يابنَ عباس مامنع الناسَ منكم ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين!

---

* ابن أبي الحديد : ٣ — ١٠٧ ، تاريخ الطبرى : ٥ — ٣٠ .

(١) نسبه ينسبه : ذكر نسبه ، وسأله أن ينتسب . (٢) المرزءون : الكرماء .

(٣) البهلول : السيد الجامع لكل خير . (٤) جهد — كمنع : جد واجتهد . (٥) حسده : تمنى أن تتحول إليه نعمته .

قال : لكنّى أدرى ، قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قالَ : كرهَتْ قريشٌ أن تجتمع لكم النُّبُوة والخلافة فتُجْحِفُوا[1] الناس جَحْفاً؛ فنظرت قريش لأنفسها فاختارت، وَوُفّقَتْ فأصابتْ .

فقال ابنُ عباس : أيُمِيطُ أمير المؤمنين عنى غَضَبه فيسمع ؟ قال : قل ما تشاء .

قال : أما قولُ أميرِ المؤمنين ، إن قريشا كرهت فإن الله تعالى قال لقوم : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » . وأما قولك : إنا كنا نجحف ، فلو جَحَفْنا بالخلافة جَحَفْنا بالقرابة ! ولكنا قوم أخلاقُنا مشتقة من خُلُق رسول الله ، الذى قال الله فيه : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » . وقال له: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وأمّا قولُكَ : فإن قريشاً اختارت فإن الله تعالى يقول : « وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ » .

وقد علمتَ يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه لذلك مَنِ اختار، فلو نظرتْ قريش من حيث نظر الله لها لوُفّقت وأصابت .

فقال عمر : على رِسْلك[2] يابْنَ عباس! أبتْ قلوبكم يابنى هاشم إلا غشًّا فى أمرِ قريش لا يزول ، وحقداً عليها لا يحُول .

فقال ابن عباس : مهلًا يا أميرَ المؤمنين ، لا تنسب قلوب بنى هاشم إلى الغش؛ فإن قلوبَهم من قلبِ رسول الله الذى طَهَّره الله وزَكّاه ، وهم أهلُ البيت الذين قال اللهُم: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » .

وأما الحقد ؛ فكيف لا يحقد من غُصِب شَيْؤُه، ويراه فى يد غيره؟ فقال عمر :

---

(١) أجحف به : ذهب . (٢) على رسلك : على مهلك .

ما أنت يا بن عباس ؛ فقد بلغنى عنك كلامٌ أكره أن أُخبِرك به ، فتزول منزلتُك عندى ! قال : وما هو يا أمير المؤمنين؟ أخبِرْنى به؛ فإنْ يَكُ باطلًا فمثلى أماط الباطلَ عن نفسه ، وإن يك حقًّا فإن منزلتى عندك لا تزول به ! قال : بلغنى أنك لا تزال تقول : أُخِذَ هذا الأمر حَسَداً وظُلْماً .

قال: أما قولك يا أمير المؤمنين : «حسدا» : فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة ، فنحن بنو آدم المحسود، وأما قولكَ : « ظلماً » فأميرُ المؤمنين يعلمُ صاحبَ الحقِّ مَنْ هو !

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تحتجَّ العربُ على العجم بحق رسول الله ، واحتجّت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ، فنحن أحقُّ برسول الله من سائرِ قريش .

فقال له عمر : قم الآن فارْجِعْ إلى منزلك . فقام ، فلما وَلّى هَتَف به[1] عمر : أيها المنصرف ؛ إنى على ما كان منك لراعٍ حقك. فالتفت ابن عباس فقال : إن لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقًّا برسول الله. فمن حفظه فحق نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقَّ نفسه أضاع ، ثم مضى .

فقال عمر لجلسائه : واهاً لابن عباس ! ما رأيْتُه لَاحَى[2] أحداً قط إلا خَصَمَه[3] !

---

(١) هتف به : ناداه .

(٢) لاحاه : نازعه . (٣) خاصمه فخصمه : غلبه .

١٤٨ — المغيرة بن شُعْبَة وأَحَد الأعراب*

خرج المُغيرة بن شُعْبَة، وهو على الكوفة يومئذ، ومعه الهَيْثَم بن الأسود النَّخَعى بعد مَطَرٍ يسير بظهر الكوفة؛ فلقى أعرابيًّا من بنى تَيْمِ اللهِ بن ثَعْلَبة. وهو لا يعرفُ المُغيرة[1].

فقال له المغيرة: من أين أقبلتَ يا أعرابى؟ قال: من السَّماوة، قال: كيف تركتَ الأرضَ خَلْفك؟ قال: عريضةً[2] أريضة، قال: وكيف كان المطر؟ قال: عفَّى الأثَر، وملأ الحُفَر.

قال: ممن أنت؟ قال: من بكْر بن وائل، قال: كيف علمُكَ بهم؟ قال: إن جهلتُهم لم أعرف غيرَهم، قال: فما تقول فى بنى شَيْبان؟ قال: سادتنا وسادةُ غيرنا، قال: فما تقول فى بنى ذُهْل؟ قال سادة نَوْكى[3]، قال: فقيسُ بن ثعلبة؟ قال: إن جاورتَهم سرقوك، وإن ائتمنتَهم خانوك. قال: فبنُو تَيْم الله بن ثعلبة؟ قال: رعاة[4] البقر، وعَراقيب الكلاب، قال: فما تقول فى بنى يَشْكُر؟ قال: صريح[5] تحسبه مَوْلى، قال: فعِجْل؟ قال: أحْلَاس الخيل[6]، قال: فحنيفة؟ قال:

---

* الأغانى: ١٥ — ١٣٨ (طبعة الساسى).

(١) المغيرة بن شعبة: صحابي جليل، شهد فى عهد رسول الله بعض المواقع، وشهد كثيراً من الفتوح فى عهد الخلفاء الراشدين. وتوفى سنة ٥١ هـ. (٢) يقال: أرض أريضة؛ إذا كانت زكية معجبة. (٣) نوكى: جمع أنوك وهو الأحمق. (٤) رعاء: جمع راع. (٥) الصريح: الخالص النسب. (٦) الحلس (فى الأصل): كساء على ظهر البعير تحت البرذعة، ويقال: هو حلس بيته؛ إذا لم يبرح مكانه. والمراد هنا أنهم يلازمون ركوب الخيل مغيرين أو عاريين.

يطعمون الطعام ، ويضربون الهام ، قال : فمَنَزَة ؟ قال: لا تلتقي بهم الشفتان لؤماً!

قال : فأخبرني عن النساء ، قال : النساء أربع : رَبيع مُربع ، وجميع يَجمع ، وشيطان سَمَعْمَع ، وغُلٌّ لا يُخلع ، قال : فَسِّرْ ، قال : أما الربيع فالتي إذا نظرْتَ إليها سرّتْك ، وإذا أقسمتَ عليها برّتْكَ ؛ وأما التي هي جميع يَجمع، فالمرأة تتزوجُها فتجمع نَشَبَك إلى نَشبها ؛ وأما الشيطان السَّمَعْمَع ؛ فالكالحة في وجهك إذا دخَلْتَ، والمولولة في إثرك إذا خرجت ؛ وأما الغُلُّ الذي لا يخلع ، فبنت عمّكَ السَّوْدَاء ، القصيرة الوَرْهاء[1] الذميمة التي قد نثرت لك بطنها ؛ إن طلقّتها ضاع ولدك ، وإن أمسكتَها فعلى جَدْعِ أنفك . ثم قال له : ما تقولُ في أميرك المغيرة ؟ قال : أعور زنّاء، فقال الهيثم : فَضَّ اللهُ فاك ! ويلك ! هذا الأمير المغيرة. فقال : إنها كلمة والله تُقال ؛ فانطلق به المغيرة إلى منزله ، وعنده يومئذ أربع نسوة ، وستّون أَمَة ، ثم قال له : ويحك ! هل يقدم أحدٌ على هذه الكبيرة وعنده مثل هؤلاء ؟ ثم قال لهن المغيرة : ارْمينَ إليه بحُليّكنّ ، فخرج الأعرابي بملء كسائه ذهباً وفضّةً !

---

(١) الورهاء : الخرقاء في العمل أو الحمقاء .

١٤٩ — دَهاء عَمْرو بن العاص !*

لما نزل علىّ بنُ أبى طالب الكوفةَ بعدَ فراغهِ من أمْرِ البصرة كتب إلى معاويةَ كتاباً يدعوه إلى البيعة ، وأرسلَ جريرَ بن عبد الله البَجلى ، فقدم عليه به الشام ، فقرأه فاغتمّ بما فيه وذهبت أفكارُه كلّ مذهب ؛ وطاول جريراً بالجواب عن الكتاب ، حتى كلَّمَ قوماً من أهلِ الشام فى الطلب بدم عثمان بن عفّان فأجابوه ووثّقُوا له .

وأحبّ الزيادة فى الاستظهار ، فاستَعان بأخيه عُتْبَة بن أبى سُفْيان ؛ فقال : استعن بعمرو بن العاص ؛ فإنه مَن قد علمت فى دهائه ورأيه ، وقد اعتزل عثمانَ ابن عفان فى حياته ، وهو لأمرك أشدُّ اعتزالا ، إلّا أن يُثَمَّنَ له دِينُه ، فسيبيعك ، فإنه صاحب دنيا .

فكتب إليه معاوية : أما بعد ، فإنه كان من أمرِ علىٍّ وطلحةَ والزبير ما قد بلَغَك ، وقد سقط إلينا مرْوَان بن الحكم فى نفر من أهل البَصْرَة ، وقدِمَ علينا جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وقد حبستُ نفسى عليك ، فأقْبِلْ أذاكِرْكَ أموراً لا تَعْدَمُ مَغَبَّتَها إن شاء الله .

فلما قدِم الكتاب على عمرو استشار ابنيه : عبد الله بن عمرو ، ومحمد بن عمرو ؛ فقال لهما : ما تريان ؟ فقال عبد الله : أرى أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ وهو عنك راض ، والخليفتان بعده ، وقُتِل عثمان وأنت غائب عنه ؛ فَقَرَّ فى منزلك

* ابن أبى الحديد : ١ — ١٣٥ ، رغبة الآمل من كتاب الكامل : ٣ — ٢٠٨

فلستَ مجعولا خليفة ، ولا تزيدُ على أن تكون حاشيةً لمعاوية على دنيا أوشكتما أن تهلكا وتفارقاها .

وقال محمدٌ : أرى أنك شيخُ قريش وصاحبُ أمرها، وإن تصرّم هذا الأمرُ — وأنت فيه غافل — تصاغر أمرُك ؛ فالحقْ بجماعة أهل الشام ، وكُنْ يداً من أيديها، طالباً بدم عثمان ، فإنه سيقومُ بذلك بنو أمية .

فقال عمرو : أنت ياعبد الله قد أمرتنى بما هو خير لى فى دِينى، وأمّا أنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا أنظر .

ثم دعا عمرٌو غلامه وَرْدان — وكان داهيةً مارداً — فقال : ارْحَلْ ياوَرْدان . ثم قال : احطط ياوَرْدان ! ثم قال : ارحل ياوَرْدان ، احطط ياوَرْدان . فقال له وردان : خلطتَ أبا عبد الله، أما إنك إن شئت أنبأتُك بما فى قلبك، قال : هاتِ، ويحك ! قال : اعتركتِ الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىٌّ معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوضٌ عن الدنيا. ومعاويةُ معه الدنيا بغير آخرة ، وليس فى الدنيا عوضٌ من الآخرة ، وأنت واقف بينهما .

قال : قاتلك اللهُ ! ما أخطأتَ ما فى قلبى ، فما ترى ياوردان ؟ قال : أرى أن تقيمَ فى بيتك ؛ فإن ظهر أهلُ الدين عشتَ فى عَفْو دينهم ، وإن ظهرَ أهلُ الدنيا لم يَسْتَغْنُوا عنك ، قال: الآن لما شهرت العرب سَيْرى إلى معاوية !

ثم ارتحل حتى قدم على معاوية ، وعرف حاجته إليه، فباعده من نفسه ، وكايد كلٌّ واحد منهما صاحبَه .

فقال له معاوية يوم دخل عليه : أبا عبد الله ؛ طرقَتْنا فى ليلتنا ثلاثةُ أخبار ليس فيها وِرْد ولا صدَر . قال : وماذاك ؟ قال : منها أن محمد بن أبى حذَيفة كسر

سِجْنَ مصر، فخرج هو وأصحابه، وهو من آفات هذا الدين ؛ ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلبَ على الشام ؛ ومنها أن عليا نزل الكوفة ، وتهيَّأ للسير إلينا .

فقال عمرو : ليس كلُّ ماذكرت عظيما ؛ أما ابنُ أبى حُذَيفة فما يتعاظمُك[1] من رجل خرج فى أشباهه أنْ تبعثَ إليه رجلا يقتله ، أو يأتيك به ، وإن قاتلَ لم يضرك ؛ وأما قيصر فأهْدِ له الوصائف وآنيةَ الذهب والفضة ، وسَلْهُ الموادعة فإنه إليها سريع ؛ وأما على ، فلا والله يامعاوية ، مايسوِّى العربىُّ بينك وبينه فى شىء من الأشياء ، وإن له فى العرب لحظًّا ، ماهو لأحدٍ من قريش ، وإنه لصاحب ماهو فيه إلا أن تظلمَه .

قال معاوية : يا أبا عبد الله ؛ إنى أدعوك إلى جهادِ هذا الرجل الذى عصى الله وشقَّ عصا المسلمين ، وقتل الخليفة ، وأظْهرَ الفتنة ، وفرق الجماعة ، وقطع الرحم.

فقال عمرو : والله يامعاوية ، ما أنت وعلىّ عِدْلَا بعير ، ليس لك هِجْرته ولا سابقتُه ، ولا صُحْبَتُه ولا جهاده ، ولا فقهُه ، ولا علمه ؛ والله إن له مع ذلك لحظا فى الحرب ليس لأحد غيره ، ولكنى قد تعودت من الله تعالى إحسانًا وبلاء جميلا ، فما تجعل لى إن شايعتُك على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ قال: حُكْمُك ، فقال : مصر طُعمة ، فتلكأ معاوية وقال : يا أبا عبد الله ؛ إنى أكْرَهُ لك أن تتحدثَ العرب عنك أنك إنما دخلتَ فى هذا الأمر لعَرَض الدنيا ! قال عمرو : دَعْنى عنك، فقال معاوية : إنى لو شئتُ أن أمنِّيَك وأخْدَعك لفعلت . قالَ عمرو : لعمرُ الله مامثلى يُخْدَع ، لأنا أكْيَسُ من ذلك ، فقال معاوية: ادنُ منى أسارّك . . فدنا منه عمرو ليساره، فعضَّ معاوية أذنه، وقالَ : هذه خدعة، هل ترى فى البيت أحداً غيرى وغيرك ! ثم تَلَكَّأ عليه وانصرف عمرو.

---

(١) لايعظم عليك .

فلما حضر عتبة بن أبى سفيان قال لمعاوية : أما ترضى أن تشترى عمراً بمصر ؟ فقال معاوية : يا عتبة ؛ بت عندنا الليلة . فلما جَنَّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية وقال :

أيها المانع سيفاً لم يهزّ ... إنما ملت على خزّ وقزْ

أعط عمراً إن عمراً تاركٌ ... دينَه اليوم لدنيًا لم تُحز

أعطه مصرَ وزِدْه مثلَها ... إنما مصرُ لمن عزّ فبزْ

واترك الحرص عليها ضلةً ... واشبب النار لمقرور يُكَز

إن مصر لعليّ أو لنا ... يُغلب اليوم عليها من عجز

فلما سمع معاوية قول عُتْبَة أرسل إلى عمرو فأعطاه مصر ، وكتب له كتاباً بها .

١٥٠ - بين معاوية وهانئ بن عُرْوَة*

ولّى معاويةُ كَثِيرَ بنَ شهاب المَذْحِجِيّ خُرَاسان : فاختَانَ ما لا كثيراً ، ثم هرب فاستتر عند هانئ[(١)] بن عروة المرادىّ ، فبلغ ذلك معاوية ، فنذر دم هانئ ؛ فخرج هذا فكان فى جوار معاوية .

ثم حضر مجلسه ـ ومعاويةُ لا يعرفُه ـ فلما نهض الناسُ ثبتَ مكانه ، فسأله معاويةُ عن أمره ؛ فقال : أنا هانئ بن عروة . فقال : إن هذا اليوم ليس بيوم يقول فيه أبوك :

أُرجِّلُ جُمَّتِي[(٢)] وأجُرُّ ذَيْلِي ... وتحملُ شِكَّتِي[(٣)] أفُقٌ[(٤)] كُمَيْتُ
أَمْشِي فى سَرَاة بنى غُطَيْفٍ ... إذا ما سَامَنِي ضَيْمٌ أبَيْتُ[(٥)]

فقال له هانئ : أنا اليوم أعزّ منى ذلك اليومَ ! فقال له : بم ذاك ؟ فقال : بالإسلام يا أمير المؤمنين. فقال له : أين كَثِيرُ بن شهاب ؟ قال : عندى فى عسكرك يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : انظر إلى ما اخْتَانَه ؛ فخذ منه بعضا ، وسوّغه بعضاً .

---

* الكامل ١ : ٧٢

(١) هانئ بن عروة بن الفضفاض : من قراء الكوفة ، وكان من خواص علىّ بن أبى طالب ، قتل مع مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة . (٢) الجمة : مجتمع شعر الرأس. (٣) الشكة : السلاح . (٤) فرس أفق : رائع . (٥) الكميت : الذى خالط حمرته قنوء .

١٥١ — إن هذا العبد غلبنى وغلبك*

دخل عمرو[1] بن العاص يوماً على معاوية بعد ما كبر ودَقّ ، ومعه مولاه وَرْدان ، فأخذا فى الحديث، وليس عندهما غير وَرْدان، فقال عمرو: ياأمير المؤمنين، ما بقى مما تستلذّه ؟ فقال : أما الثيابُ فقد لبستُ من لَيِّنها وجَيِّدها حتى وَهَى بها جلدى ، فما أدرى أيها ألين ؟ وأما الطعامُ فقد أكلتُ من لينه وَطيِّبة حتى ما أدرى أيُّه ألذ وأطيب ؟ أمّا الطيب فقد دَخل خياشِيمى منه حتى ما أدرى أيه أطيب ؟ فما شىء ألذّ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر إلى بَنِىّ ، وبَنى بَنِىّ يدورون حولى !

فما بقى منك ياعمرو ؟ قال : مال أغرسه فأصيبُ من ثمرته ومن غلّته . فالتفت معاوية إلى وَرْدَان فقال : ما بقى منك يا وَرْدَان ؟ قال : صنيعة كريمة سنيّة أعلقها فى أعناق قوم ذَوى فضل وأخطار[2]، لايكافئون عليها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى . فقال معاوية : تبًّا لمجلسنا سائرَ اليوم ! إن هـذا العبد غلبنى وغلبك !

---

* المسعودى ١ : ٦٦

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل : أسلم سنة ثمان مع خالد بن الوليد، وولاه معاوية مصر ثلاث سنين ، ثم حضرته الوفاة قبل الفطر بيوم ، سنة ٤٢ هـ . (٢) أخطار : أقدار .

١٥٢ — ما عليه لو عرّض*

دخل عمرو بن العاص على معاويةَ يسأله حاجة ، وقد كان بلغ معاوية عنه ما كَرِهه ؛ فكره قضاءها وتشاغل .

فقال عمرو : يا معاوية ؛ إن السخاء فطنة ، واللؤمَ تغافل ، والجفاء ليس من أخلاق المؤمنين ! فقال معاوية : يا عمرو ؛ بماذا تستحقُّ منا قضاء الحوائج العظامِ ؟ فغضبَ عمرو ، وقال : بأعظمِ حقٍّ وأوجبه ؛ إذ كنت في بحرٍ عَجَّاج[1] ؛ فلولا عمرو لَغَرِقت في أقلِّ مائة وأرقِّه ؛ ولكني دفعتُك فيه دفعةً فصرتَ في وسطه ، ثم دفعتُك فيه أخرى ، فصرتَ في أعْلَى المواضع منه ؛ فمضى حكْمك ، ونفذ أمرُك ، وانطلقَ لسانُك بعد تلَجْلُجِه ، وأضاء وجهُك بعد ظُلْمته .

فتناوم معاوية ، وأطبق جَفْنَيه مليًّا ، فخرج عمرو ، فاستوى معاوية جالساً ، وقال لجلسائه : أرأيتم ما خرج من فمِ ذلك الرجل ! ما عليه لو عرّض ! ففي التعريض[2] ما يكفي ، ولكنه جَبَهني بكلامه ، ورماني بسُموم سهامه .

فقال بعضُ جلسائه : يا أميرَ المؤمنين ، إن الحوائج لَتُقضى على ثلاث خصال : إما أنْ يكون السائلُ لقضاء الحاجة مُستحقا ، فَتُقْضى حاجتُه بحقه . وإما أن يكونَ السائلُ لئيماً فيصون الشريف نفسه عن لسانه ، فيقضى حاجته . وإما أن يكونَ المسئولُ كريماً فيقضيها لِكرمه صغُرت أو كبرت .

---

* ابن أبي الحديد ٢ : ٤٠١

(١) بحر عجاج : لمائه صوت . (٢) التعريض : ضد التصريح .

فقال معاوية : لله أبوك ! ما أحسنَ ما نطقتَ به ! وبعث إلى عَمْرو فأخبره ، وقضى حاجته ، ووصله بصلةٍ جليلة .

فلما أخذها ولّى منصرفاً ، فقال معاوية : « فإنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » . فسمعها عمرو ، فالتفت إليه مُغْضباً ، وقال : والله يا معاوية لا أزال آخذ منك قَهْرًا ، ولا أطيع لك أمرًا ، وأحفِر لك بئراً عميقة إذا وقعت فيها لم تُدْرَكْ إلا رميماً[1] .

فضحك معاوية فقال : ما أردتك يا أبا عبد الله[2] بالكلمة ، وإنما كانت آيةً تلوتُها من كتاب الله عرَضَتْ بقلبي ، فاصنع ما شئت !

---

(١) الرميم : البالى .

(٢) كنية عمرو بن العاص .

١٥٣ — لا يأتينا غيرُ طالب فقه أو طالب فضل*

دخل عبدُ الله بن صفوان على عبدِ الله بن الزُّبير — وهو يومئذ بمكة — فقال : أصبحت كما قال الشاعر :

فإن تُصِبْكَ من الأيام جائحة لا أَبْكِ منك على دنيا ولا دين

فقال : وما ذاك ياأعْرج ؟ قال: هذا عَبْد الله بن عباس يفقِّه الناس، وعُبَيد الله أخوه يُطعم الناس ، فما أبقَيَا لك ؟ فأَحْفَظَه ذلك ، وأرسل صاحب شُرْطته عبد الله ابن مُطِيع وقال له : انطلِقْ إلى ابنَيْ عباس ، فقل لهما : أعَمَدْتما إلى راية تُرَابيَّة قد وضعها الله فنصبتماها ! بدِّدَا عنّى جَمْعَكما ، ومَنْ ضَوَى[1] إليكما من ضُلَّال أهلِ العراق وإلا فعلتُ وفعلتُ . . .

فقال ابن عباس : قل لابن الزبير : يقول لك ابن عباس : ثَكِلَتْكَ أُمُّك ! والله ما يأتينا من الناس غيرُ رجلين : طالبُ فقه أو طالبُ فضل ، فأى هذين تمنع ! فقال أبو الطُّفَيل[2] :

لا درَّ درُّ الليالى كيف تُضحكنا منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكينا
ومثل ما تحدث الأيام من غِيَرٍ يا بنَ الزبير عن الدنيا تسلينا
كُنَّا نجىء ابنَ عباس فيَقْبِسُنَا[3] علماً ويكسبنا أجراً ويهدينا

---

* الأغانى ١٣ : ١٦١ (طبعة الساسى) .

(١) ضوى : انضم . (٢) هو عامر بن واثلة ، كانت له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بعده طويلا ، وكان من شيعة على بن أبى طالب ، وله منه محل خاص . (٣) يقبسنا : يعلمنا .

ولا يزال عُبيد الله مترعـــــةً جفـــانه مُطعما ضَيْفا ومسكينا
فالبِرُّ والدين والدنيـــا بدارِهما ننال منهـــا الذى نبْغى إذا شينا
إن النبيّ هو النور الذى كُشفَتْ به عمايَاتُ باقينـــا وماضينـــا
ورهطه عصمة فى ديننـــا ولهم فضل علينـــا وحقٌّ واجب فينا
ولستَ ـ فاعلمه ـ أولى منهم رحماً يابن الزبير ولا أوْلى به دينـــا
فَفيم تمنعهم عنا وتمنعنـــا منهم وتؤذيهمُ فينا وتؤذينا ؟
لن يؤتىَ الله من أخزى ببغضهم فى الدين عزًّا ولا فى الأرض تمكينا

١٥٤ — ابن أبي مِحْجن عند معاوية*

وفد ابن أبي مِحْجَن على معاوية ، فقام خطيباً ، فأحسن ، فحسده معاوية .
فقال له : أنت الذي أوصاك أبوك بقوله :

إذا متّ فادفنّي إلى جَنْبِ كَرْمةٍ ... تروِّي عظامي بعد موتي عُروقُها
ولا تدفننّي في الفلاة فإنني ... أخافَ إذا ما متُّ ألّا أذوقَها

قال : بل أنا الذي يقول أبي :

لا تسألِ الناس مَا مَالي وكثرته ... وسائلِ الناس ماجُودي وماخُلُقي
أُعْطِي الحُسَامَ غداةَ الرَّوْعِ حصته ... وعاملُ الرمحِ أرْويه من العَلَقِ (١)
وأطعنُ الطَّعْنَةَ النجلاء (٢) عن عَرَضٍ ... وأكتمُ السرَّ فيه ضَرْبةُ العُنُقِ
ويعلم الناس أني من سراتِهِمُ (٣) ... إذا تطيش يَدُ الرعديدة (٤) الفَرِقِ (٥)

فقال له معاوية : أحسنتَ والله يابن أبي مِحْجَن ، وأمر له بصلة وجائزة .

---

* المستطرف ٢ : ٢٣٦ ، ذيل زهر الآداب : ٦٨

(١) العلق : الدم الغليظ . (٢) النجلاء : الواسعة . (٣) سراة : جمع السري : وهو الرئيس.
(٤) الرعديدة : الجبان . (٥) الفرق : شديد الفزع .

١٥٥ — ذكّرتنى يوم النفخ فى الصور*

قدم سَعِيد[1] بن جُبَيْر على الحجّاج فقال له : ما اسْمُك ؟ قال : سعيد ، قال : ابنُ من ؟ قال : ابنُ جبير ، قال الحجاج : بل أنت شقى بنُ كسير . قال سعيد : أمّى أعلمُ باسْمى واسم أبى ، قال الحجاج: شقيتَ وشقِيَتْ أمُّك . قال سعيد : الغيبُ يعلمهُ غيرُك . قال الحجاج : لأورِدَنّك حياضَ الموت ! قال سعيد : أصابت إذنْ أمى اسمى .

قال الحجاج : لأبدِّلنّك بالدُّنْيا ناراً تلظّى ! قال سعيد : لو أعلم أن ذلك بيدك لاتّخَذْتُك إلهاً .

قال الحجاج : فما قولك فى محمد ؟ قال سعيد : نبىُّ الرحمة ، وإمام الهدى . قال الحجاج فما قولُك فى الخلفاء ؟ قال سعيد : لست عليهم بوكيل ، كلُّ امرئْ بما كسب رَهين . قال الحجاج : أشتُمهم أم أمدحهم ؟ قال سعيد : لا أقول ما لا أعلم. قال الحجاج : أيهم أعجب إليك ؟ قال : أرضاهم لخالقى ؟ قال : فأيهم أرضى للخالق؟ فقال: علمُ ذلك عند الذى يعلم سِرَّهم ونَجْواهم . قال الحجاج : صِفْ لى قولَهم فى علىّ ، أفى الجنة هو أم فى النار؟ قال سعيد: لو دخلت الجنةَ فرأيت أهلها علمتُ، ولو رأيتُ

---

* ابن خلكان ٢ : ٢٠٥ ، المعارف لابن قتيبة ١٩٧

(١) أخذ سعيد بن جبير العلم عن ابن عباس وابن عمر ،وكان من أجمع التابعين لعلم الفقه والتفسير وكان ورعا تقيا ، خرج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان ، فلما قتل عبد الرحمن هرب سعيد فلحق بمكة، ولكن واليها يومئذ خالد بن عبد الله القسرى أخذه وأرسله إلى الحجاج ، فقتله سنة ٩٥ هـ .

من فى النار علمت ؛ فما سؤالك عن غيبٍ قد حُفِظَ بالحجاب ! قال الحجاج : فأىّ رجل أنا يوم القيامة ؟ قال سعيد : أنا أهونُ على الله من أن يُطْلِعنى على الغيب . قال الحجاج : أبيتَ أن تصدقنى . قال سعيد : بل لم أُرد أن أكذبك .

قال الحجاج : دَعْ عنك هذا كله وأخبرنى ؛ مالك لم تضحك قط ؟ قال : لم أر شيئاً يُضحكنى ، وكيف يضحك مخلوقٌ من طين ، والطين تأكله النار ، ومُنْقَلبُه إلى الجزاء ! قال الحجاج : فأنا أضحك ؛ قال سعيد : كذلك خَلَقَنا الله أطواراً . قال الحجاج : هل رأيت شيئاً من اللهو؟ قال: لا أعلم . فدعا الحجاج بالعود والناى، فلما ضُرِبَ بالعود ونُفخ فى الناى بكى سعيد . قال الحجاج : ما يبكيك ؟ قال : هو الحزن ؛ ذكرتنى أمراً عظيما . أمّا هذه النفخة فذكرتنى يوم النفخ فى الصور ، وأما العود فشجرة قطعت فى غير حق ، وأما الأوتار فمن الشاء تُبْعَثُ معها يوم القيامة . فقال الحجاج : أنا أحبُّ إلى الله منك ، أنا مع إمام الجماعة ، وأنت مع إمام الفُرْقَة. قال سعيد : ما أنا بخارج على الجماعة ولا أنا براضٍ عن الفتنة ، ولكن قضاء الرب نافذٌ لا مردَّ له .

قال الحجاج : كيف تَرى ما نجمعُ لأمير المؤمنين ؟ قال سعيد : لم أره . فدعا الحجاج بالذهب والفضةِ والكِسْوَة والجوهر، فَوُضِع بين يديه . قال سعيد : هذا حسنٌ إن قمتَ بشرطه . قال الحجاج : وما شرطه ؟ قال : أن تشترى له بما تجْمَع الأمنَ من الفزع الأكبر يوم القيامة . قال الحجاج : أتحبُّ أن تنال منه شيئاً ؟ قال : لا أحبُّ ما لا يحبُّ الله .

قال الحجاج : ويلك ! قال سعيد : الويل لمن زُحْزِحَ عن الجنة فأُدْخل

النار ، قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه . فلما أَدْبَرَ ضحك ؟ قال : ما يضحكك ياسعيد؟ قال : عجبت من جرأتك على الله وحِلْمِ الله عليك . قال الحجاج : اضربوا عُنُقه . قال سعيد: دعني أُصَلِّ ركعتين . فاستقبل القبلة وهو يقول : إني وجهتُ وجْهي للذي فطَرَ السموات والأرض حَنِيفاً وما أنا من المشركين . قال الحجاج : اصرفوه عن القبلة ، قال سعيد : فأينما تُوَلوا فثمَّ وجه الله إن الله واسع عليم . قال الحجاج : لم نُوَكَّلْ بالسرائر ، وإنما وُكِّلْنَا بالظواهر . قال سعيد : اللهم لا تسلِّطْهُ على أحد يقتله بعدى .

ثم ضربت عنقه .

---

١٥٦ — أعرابى عند الحجاج*

قال زيد بن عمرو : سمعت طاوساً يقول : بينا أنا بمكة إذ دُفِعْتُ إلى الحجاج ابن يوسف ، فثنى لى وساداً فجلست ، فبينا نحن نتحدثُ إذ سمعتُ صوتَ أعرابى فى الوادى رافعاً صوته بالتَّلبية[1] ، فقال الحجاج : علىَّ بالمُلَبِّى فأُتِىَ به فقال : مَن الرجل ؟ قال : من أفناء[2] النـاس . قال : ليس عنْ هذا سألتك ! قال : فَعَمَّ سألتنى !

قال : من أى البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج : فـكيف خلفتَ محمد[3] بن يوسف ؟ ـ يعنى أخاه ـ قال : خلفْتُه عظيما جسيما خرَّاجاً ولَّاجا[4] ! قال : ليس عن هـــذا سألتك ! قال : فيمَ سألتنى ؟ قال : كيف خلفتَ سيرته فى الناس ؟ قال : خلفتُه ظلُوما غشُوما عاصياً للخالق ، مطيعا للمخلوق !

فازورّ من ذلك الحجاج ، وقال : ما أقدمك على هذا وأنت تَعْلَم مكانته منى ! فقال له الأعرابىّ : أفتراه بمكانةٍ منك أعزّ منى بمكانتى من الله تبارك وتعالى وأنا وافدُ بيته ، وقاضى دينه ، ومصدقُ نبيّه ـ صلى الله عليه وسلم !

فوَجَمَ لها الحجاجُ ، ولم يُحِرْ[5] له جواباً ، حتى خرج الرجل بلا إذن !

---

* العقد الفريد ٢ : ٢٦٧

(١) التلبية : أن يقول الرجل لبيك ، ومعنى لبيك : لزوما لطاعتك .

(٢) أفناء الناس : أخلاطهم ، وهو جمع فنو. (٣) كان عامله باليمن. (٤) الخراج الولاج: العظيم الاحتيال . (٥) ما أحار جواباً : ما رد .

١٥٧ — دعانى مَنْ هو خير منك*

حجّ الحجاجُ فنزل ببعض المياه ، ودعا بالغَدَاء ، فقال لحاجبه : انظر من يتغدّى معى وأسألُه عن بعضِ الأمر ! فنظر الحاجب فإذا هو بأعرابى نائم بين شَمْلتين(١) من شَعَر فضرَبه برجله ، وقال : ائت الأمير .

فأتاه ، فقال له الحجاج : اغسِلْ يدك وتغدَّ معى ؛ قال : إنه دعانى مَنْ هو خير منك فأجبْتُه . فقال الحجاج : من الّذى دَعاك ! قال : الله تعالى دعانى للصوم فَصُمت ؛ قال : فى اليوم الحارّ ! قال : نعم ، صمتُ ليوم أحرّ منه ؛ قال : فأفطِر وتصوم غداً ؛ قال : إن ضمنتَ لى البقاء إلى الغد ! قال : ليس ذلك إلىّ . قال : فكيف تسألنى عاجلًا بآجِل لا تقدرُ عليه ؟ قال : إنه طعام طيّب . قال : إنك لم تطيّبْه ولا الخبّاز ، ولكن طيّبتْه العافيةُ !

---

* عيون الأخبار ٢ : ٣٦٦

(١) الشملة : كساء يشتمل به .

١٥٨ — أنت إلى القبر أقرب منك إلى العفو *

دخل أيوب(١) ابن القِرِّيَّة على الحجاج ـ وكان فيمن أُسِرَ من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث ، فقال له : ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة صفوف ، كأنها ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف !

فقال له الحجاج : بئسما منّيتَ به نفسك يابن القرّيّة ! أتراني ممن تخدعه بكلامك وخُطَبك ؟ والله لأنت أقرب إلى الآخرة من موضع نعلي هذه ! قال : أقلني عَثْرَتِي ، وأسغني ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كَبْوَة ، وللسيف من نَبْوَة ، وللحليم من صَبْوة ! قال : أنت إلى القبر أقربُ منك إلى العفو ! ألستَ القائل ـ وأنت تحرّض حزب الشيطان ، وعدو الرحمن : « تَغَدَّوْا بالحجاج قبل أن يتعشى بكم » ! ثم قدمه فضرب عنقه !

---

* زهر الآداب ٤ : ٤٩

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس ، والقرية أمه ، وهو من بني هلال بن ربيعة ، وكان لسناً خطيباً ، قتله الحجاج لما بلغه من ميله مع ابن الأشعث .

١٥٩ — ضربَنا بسيفه ثم جاءنا بالأكاذيب*

قال الشعبي : لما انهزم ابن الأشعث[1] ضاقت بي الأرض . وكرهتُ تركَ عيالي وولدي؛ فلقيتُ يزيدَ بنَ أبي مسلم، وكان لي صديقاً ، وكانت الصداقة تنفع عنده . فقلتُ له : قد عرفتَ الحالَ بيني وبينك ، وقد صِرْنا إلى ما ترى ! قال : يا أبا عمرو ؛ إن الحجّاج لا يُكذَب ولا يُعْوَى[2] ولا يُنْبَح، ولكنْ قمْ بين يديه، وأقِرَّ بذنبك ، واستَشْهِدني ماشِئْتَ .

فوالله ما شعرَ الحجاجُ إلّا وأنا ماثِلٌ بين يديه . فقال : أعامر ؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير ! قال : ألم أقدَمِ العراق فأحْسَنْتُ إليك وأدْنَيْتُكَ ، وأوْفَدْتُكَ على أميرِ المؤمنين ، واستَشَرْتُكَ ! قلت : بلى أيها الأمير .

قال : فأينَ كنتَ مِنْ هذه الفتنة ؟ قلت : اسْتَشْعَرْنا الخوف ، واكتَحَلْنا السهرَ ، وأحزَنَ بنا المنزل ، وأوْحَشَ بنا الجنابُ ، وفَقَدْنا صالحَ الإخْوَان، وشملتنا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَة أتقياء ، ولا فَجَرَةً أقوياء؛ وهذا يزيد بن أبي مسلم قد كان يعرف عُذْرِي ، وكنتُ أكتب إليه .

فقال : صدق ؛ أصلح الله الأمير ! قد كان يكتب إليّ بعذْرِه ، ويخبرني بحاله. فقال الحجاج : فهذا الأحمق ضربَنا بسيفه ، ثم جاءنا بالأكاذيب ، كان وكان ؛ انصرف إلى أهلك راشداً .

---

* العقد الفريد : ـ ١٥١ ، ذيل الأمالي: ٢٢٠ (الطبعة الأميرية) ، مروج الذهب : ٢ ـ ٥٧٣

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، خرج على الحجاج ، وخرج معه القراء والعلماء .

(٢) يريد أنه لا يكلم بخير ولا شر . اللسان ـ نبح .

١٦٠ — الحجاج وأنس بن مالك*

حدث سعيد بن جُويرية ، قال:

خرجَتْ خارجةٌ على الحجاج بن يوسف ، فأرسل إلى أنس بن مالك أن يخرج معه فأبى ؛ فكتب إليه يشتِمُه . . . فكتب أنَس بن مالك إلى عبد الملك ابن مروان يشكوه ، وأدْرج كتاب الحجاج فى جَوْف كتابه .

قال إسماعيل بن عبد الله : بعث إلىَّ عبدُ الملك بن مروان فى ساعة لم يكُنْ يبعثُ إلىّ فى مثلها ، فدخلتُ عليـــه وهو أشدُّ ما كان حَنَقاً وغيظاً ، فقال : يا إسماعيل ، ما أشدّ أن تقول الرعية : ضَعُف أمير المؤمنين وضاق ذَرْعه فى رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لا يقبل له حسنة ولا يتجاوز له عن سيئة !

فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أنس بن مالك ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كتب إلىّ يذكر أن الحجاج قد أضرَّ به وأساء جواره، وقد كتبت فى ذلك كتابين : كتاباً إلى أنس بن مالك والآخر إلى الحجاج، فاقبضهما، ثم اخرج على البريد ؛ فإذا وَرَدْت العراق فابدأ بأنس بن مالك، وادْفع إليه كتابى، وقل له: اشتدَّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ، ولنْ يأتىَ إليك أمر تكرهه إن شاء الله . ثم ائت الحجاج ، فادفع إليه كتابَه وقل له : اغتَرَرْتَ بأمير المؤمنين غرّةً لا أظنه يخطئك شرُّها . ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه حتى تُفهِمنى إياه إذا قدمتَ عَلَىّ إن شاء الله .

---

* العقد الفريد : ٣ — ٢٤٢ ، صبح الأعشى : ٦ — ٣٥٩ ، غرر الخصائص : ٧٣ .

قال إسماعيل : فقبضتُ الكتابين وخرجتُ على البريد حتى قدِمْتُ العراق ، فبدأت بأنس بن مالك فى منزله ؛ ودفعت إليه كتابَ أمير المؤمنين وأبلغتُه رسالتَه، فدعا له وجزاه خيراً . فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له : يا أبا حمزة ؛ إن الحجاج عامل ، ويقْدِرُ أن يضرك وينْفَعَكَ ، فأنا أريد أن تُصالحه ، قال : ذلك إليك ؛ لا أخرج عن رَأْيِك .

ثم أتيتُ الحجاج ، فلما رآنى رحَّب وقال : والله لقد كنتُ أحِبُّ أن أراك فى بلدى هذا ؛ قلت ؛ وأنا والله كنت أحبُّ أن أراك، وأقدم عليك بغير الذى أرسلتُ به إليك ؛ قال : وما ذاك ؟ قلتُ : فارقتُ الخليفة وهو أغضبُ الناس عليك ؛ قال : ولم ؟ فدفعتُ إليه الكتاب ؛ فجعل يقرؤه وجبينه يَعْرَق ، فمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا إلى أنس ، قلت له : لا تفعل فإنى سأتلطف به حتى يكون هو الذى يأتيك، وذلك للذى أشرتُ عليه من مصالحتك .

وألْقَى كتاب أمير المؤمنين فإذا فيه : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . من عبدِ الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد ، فإنك عبد طَمَتْ[1] بك الأمور فطغيت ، وعلوت فيها حتى جُزْتَ قدرك ، وعَدَوْت طَوْرَك ، وايم الله، لأغمزنَّك كبعض غَمزات السُّيوف للثعالب ، ولأركُضَنَّكَ ركضةً تدْخُل منها فى وجارك ! اذكُر مَناسِبَ آبائك بالطائف ، وإذ كانوا ينقلُون الحجارة على أكتافهم، ويحفِرُون الآبار فى المناهل[2] بأيديهم . فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضَّراعة ؛ وقد بلَغ أميرَ المؤمنين استطالةٌ منك على أنس ابن مالكٍ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم : جُرْأَةً منك على أمير المؤمنين ، وغرَّة بمعرفة غِيَرِه ونِقْماته وسَطَوَاته على مَنْ خالف سبيله ، وعَمَد إلى غير محجَّته

(١) طمت : علت . (٢) المناهل : جمع منهل ، وهو المشرب .

ونزل عند سخْطته . وأظُنُّكَ أردت أن تَروزَهُ(١) بها ، لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها ، فإن سُوِّغتها مضيتَ قدُماً ، وإن غَصَصْت وليتَ دُبراً ، فعليك لعنة الله ، مِنْ عبدٍ أُخيفش(٢) العينين ، أصكّ(٣) الرجلين . وايم الله ، لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرماً ، وانتهكت له عرضاً لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن ؛ حتى ينتهى بك إلى أنس بن مالك فيحكم فيك بما أحب ، ولم يَخْفَ على أمير المؤمنين تبوّؤك ، ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

قال إسماعيل : فانطلقتُ إلى أنس ، فلم أزل به حتى انطلق معى إلى الحجاج ، فلما دخلنا عليه قال : يغفر الله لك أبا حَمْزة ! عجلت باللائمة ، وأغضَبْتَ علينا أمير المؤمنين ، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير ، فقال أنس : إنك كنت تَزْعُم أنّا الأشرار والله سمّانا الأنصار ، وقلت : إنا من أبخل الناس والله يقول فينا « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » . وزعمت أنا أهلُ نفاق ، والله تعالى يقول فينا : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا » . فكان المخرج والمشتكى فى ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين ، فتولّى من ذلك ما ولاه الله ، وعَرَف من حقّنا ما جهلت ، وحفِظَ منا ما ضيّعت ، وسيحكم فى ذلك ربٌّ هو أرضى للرضى ، وأسخط للمُسْخط ، وأقدر على الغير فى يوم لا يشوب الحقَّ عنده الباطل ، ولا النور الظلمة ، ولا الهدى الضلال ، والله لو أن اليهود أو النصارى رأتْ من خدَم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يوماً واحداً لرأتْ له ما لم تروا لى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين .

---

(١) تروزه : تجربه . (٢) الخفش : ضعف البصر مع ضيق فى العين . (٣) الصكك : أن تضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدو فتؤثر فيها أثراً .

فاعتذر إليه الحجّاج وترضّاه حتى قَبِلَ عـذره ورضى عنـه ، وكتب برضاه وقبوله عذره إلى عبد الملك بن مرْوان .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك : « إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مرْوان . بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد ـ أصلح الله أمير المؤمنين ، وأبقاه وسهّل حظّه وأحاطه ، ولا أعدَمناه ـ فإن إسماعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ قدم علىّ بكتاب أمـير المؤمنين أطال الله بقاءه ؛ وجعلنى من كل مكروه فداءه ـ يذكر شتيمتى وتوبيخى بآبائى وتعييرى بما كان قبل نزول النّعمة بى من عند أمير المؤمنين ـ أتمّ الله نعمته عليـه وإحسانَه إليـه ، ويذكر أمير المؤمنين ـ جلعنى الله فداءه ـ استطالةً منى على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

« وأميرُ المؤمنين ـ أصلحه الله فى قَرابتِهِ من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم الأنبيـاء أحقُّ من أقَالَ عَثْرتى ، وعفا عن ذنبى ، فأمهلَنى ولم يعجلنى عند هَفْوتى ؛ لِلَّذِى جُبِل عليـه من كَريمِ طبائعه ، وما قلّده اللهُ من أمور عباده ، فرأى أمـير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ فى تسكين روعتى وإفْرَاجِ كربتى ، فقد ملئت رعباً وفَرَقاً من سطْوته ، وفُجَاءةِ نِقْمته . وأميرُ المؤمنين ـ أقاله الله العثرات ، وتجاوز له عن السيئات ، وضاعف له الحسنات ، وأعلى له الدرجات ـ أحقُّ مَنْ صفح وعفا وتغمّد[1] ، وتمّـل وأبقى ، ولم يُشْمِتْ فِىَّ عدوّاً مُـكِبّاً[2] ، ولا حسوداً مُضِبّاً[3] ، ولم يجرّعنى غَصصاً ، والذى وصف

---

(١) تغمد : يستر ما كان عنده . (٢) أكب عليه : إذا أقبل ولزم . (٣) أضب : حمل الغيظ والحقد .

أميرُ المؤمنين من صنيعته إلىّ ، وتنويهه لى بما أسْنَد إلىّ من عمله ، وأوطأنى من رقاب رعيته صادقٌ فيه مجزِىٌّ بالشُّكرِ عليه ، والتوَسُّلِ مِنّى إليه بالولاية ، والتقرب له بالكفاية » .

« وقد عاين إسماعيل بن أبى المهاجر رسولُ أمير المؤمنين وحاملُ كتابه نزولى عند مسرّةِ أنس بن مالك ، وخضوعى عند كتاب أمير المؤمنين ، وإقلاقه إياى ، ودخوله بالمصيبة علىّ ما سيعلمه أمير المؤمنين ، فإن رأى أمير المؤمنين ــ طوّقنى الله بشكره ، وأعاننى على تأدية حقه ، وبلغنى إلى ما فيه موافقة مرضاته ، ومَدّ لى فى أجله ــ أنْ يأمر لى بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمننى به من سفك دمى ، ويردّ ما شرد من نومى ، ويطمئن به قلبى ، فقد وَرَد علىّ أمر جليل ، خطبه عظيم ، وأمره شديد » .

« أسأل الله ألّا يُسخط أمير المؤمنين ، وأن يثبته فى حَزْمه وعَزْمه ، وسياسته وفراسته ، ومواليه وحَشَمه ، وعماله وصنائعه ، ما يحمد به حسن رأيه وبعد همّته ، إنه ولىّ أمير المؤمنين ، والذّاب عن سلطانه ، والصانع فى أمره والسلام » .

قال إسماعيل : لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب قال : يا كاتب ؛ أفْرِخْ روع أبى محمد ، وكتب إليه بالرضا عنه !

١٦١ — الحجاج والغضبان بن القَبَعْثَرَى*

سأل الحجاجُ يوماً الغضبانَ[١] بن القَبَعْثَرَى عن مسائل يمتحنه فيها ، قال له : مَنْ أكرمُ الناس ؟ قال : أفقههُم فى الدين ، وأصدقُهم لليمين ، وأبذلُهم للمسلمين ، وأكرمُهم للمُهانين ، وأطعمُهم للمساكين .

قال : فمن ألأمُ الناس ؟ قال : المُعطِى على الهوان ، المقتّرُ على الإخوان ، الكثيرُ الألوان .

قال : فمنْ شرُّ الناس ؟ قال : أطولُهم جفوةً ، وأدْوَمُهم صَبْوَة ، وأكثرُهم خلْوَة ، وأشدُّهم قَسْوَة .

قال : فمن أشجعُ الناس ؟ قال : أضربُهم بالسيف ، وأقراهم للضَّيف ، وأتركُهم للحَيف[٢] .

قال : فمن أجبنُ الناس ؟ قال : المتأخر عن الصفوف ، المنقبض عن الزحوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحبُّ ظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف .

قال : فمن أثقلُ الناس ؟ قال : المتفنن فى الملَام ، الضنين بالسلام ، المِهذَار[٣] فى الكلام ، المُقبقِب[٤] على الطعام .

---

* المستطرف : ١ — ٤٧

(١) الغضبان بن القبعثرى من أشراف العراق ، وكان من دعاة الروانية أيام حرب عبد الملك ابن مروان مع مصعب بن الزبير . (٢) الحيف : الجور والظلم . (٣) المهذار : كثير الهذيان ، وأهذر فى كلامه : أكثر . (٤) قبقب الرجل : حمق .

قال : فمَنْ خيرُ الناس ؟ قال : أكثرُهم إحساناً ، وأقومُهم ميزاناً ، وأدومُهم غُفراناً ، وأوسعُهم ميداناً .

قال : لله أبوك ! فكيف يُعرف الرجلُ الغريب ، أحسيبٌ هو أم غير حسيب؟ قال : أصلحَ اللهُ الأمير ! إن الرجل الحسيبَ يدلُّك أدبُه وعقلُه، وشمائله وعزةُ نفسه، وكثرةُ احتماله ، وبشاشته ، وحسنُ مداراته على أصله ؛ فالعاقل البصيرُ بالأحساب يعرفُ شمائلَه ، والنذلُ الجاهل يجهلُه ؛ فمَثَلُه كمثل الدُّرَّة ، إذا وقعتْ عنــد من لا يعرفها ازْدَراها، و إذا نظر إليها العقلاء عرفُوها وأكرموها ؛ فهى عندهم ـ لمعرفتهم بها ـ حسنةٌ نفيسة.

فقال الحجاج : لله أبوك ! فمَنِ العاقل ؟ ومَن الجاهل؟ قال : أصلح الله الأمير ! العاقلُ الذى لا يتكلم هذَراً ، ولا ينظر شَزراً ، ولا يضمر غدراً ، ولا يطلب عذراً ؛ والجاهل هو المهذار فى كلامه ، المنّان بطعامه ، الضنين بسلامه ، المتطاول على امامه، الفاحش على غلامه .

قال : لله أبوك ! فمَن الحازم الكيِّس ؟ قال : المقبل على شأنه ، التارك لما لا يعنيه .

قال : فمَن العاجز ؟ قال : المعجبُ بآرائه ، الملتفتُ إلى ورائه .

قال : هل عندك من النساء خَبَرٌ ؟ قال : أصلح الله الأمير ! إنى بشأنهنَّ خبير ، إن النِّساء من أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع ؛ إن عدَّلتَها انكسرت، ولهنَّ جوهرٌ لا يصلح إلا على المداراة ؛ فمن داراهنَّ انتفع بهن ، وقرّت عينه . ومن شاورهن كدّرْن عيشه ، وتكدّرت عليه حياتُه ، وتنغصت لذاته ؛ فأكرمُهنَّ أعفُّهن ، وأنفَرُ أحسابهن العفة ؛ فإذا زِلْنَ عنها فهنَّ أنتن من الجيفة .

فقال له الحجاج : يا غضبان ؛ إنى موجهك إلى ابن الأشعث وَافِداً ؛ فماذا أنت قائل له ؟ قال : أصلح الله الأمير ! أقول ما يُرْدِيه[1] ويؤذيه ويضنيه ! فقال : إنى أظنك لا تقول له ما قلت ، وكأنى بصوتك يجلجل فى قصرى هذا ، قال : كلا ، أصلح الله الأمير ! سأحدِّد له لسانى ، وأجريه فى ميدانى .

فعند ذلك أمره بالمسير إلى كِرْمَان ؛ فلما توجّه إلى ابن الأشعث، بعث الحجاج عَيْناً عليه – وكان يفعل ذلك مع جميع رسله .

فلما قدم الغضبان على ابْن الأشعث قال له : إن الحجاج قد همّ بخلْعك وعَزْلك؛ فخُذْ حِذْرَك ، وتغدَّ بهقبل أن يتعشّى بك، فأخذ حِذْرَه عند ذلك. ثم أمر للغضبان بجائزةٍ سنية ، وخِلَعٍ فاخرة ؛ فأخذها وانصرفَ راجعاً .

فأتى إلى رملة كِرْمان فى شدة الحر والقيظ – وهى رملةٌ شديدة الرَّمْضاء[2] – فضرب قُبَّتَه فيها ، وحطَّ عن رواحله ، فبينما هو كذلك إذا بأعرابىّ من بنى بكر بن وائل ، قد أقبل على بعير ، قاصداً نحوَه ، وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة[3] وقت الظهيرة ، وقد ظمِئ ظمأً شديداً ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال الغضبان : هذه سنّةٌ وردّها فريضة ، قد فاز قائلها، وخسر تاركُها؛ ماحاجتك يا أعرابى ؟ فقال : أصابتنى الرَّمضاء ، وشدةُ الحر والظمأ؛ فتيمَّمْتُ قبَّتك، وأرجو بركتها .

قال الغضبان : فهلا تيمّمت قبةً أكبر من هذه وأعظم !

قال : أيّتهنّ تعنى ؟ قال : قبةَ الأميرِ ابن الأشعث ! قال : تلك لا يُوصل إليها ! قال : إن هذه أمنعُ منها ! فقال الأعرابى : ما اسمك يا عبد الله ؟ قال :

---

(١) أرداه : أهلكه . (٢) الرمض : وقع الشمس على الرمل وغيره .
(٣) الغزالة هنا : الشمس .

آخذ ، فقال : وما تعطى ؟ قال : أكره أن يكون لى اسمان !

قال : بالله من أين أتيت ؟ قال : من الأرض ! قال : فأين تريد؟ قال: أمشى في مَنَاكِبها[1] ، فقال الأعرابى ـ وهو يرفع رجلا ، ويضع أخرى ، من شدة الحر ـ أتقرض الشعر ؟ قال : إنما يقرض الفأر ! فقال : أفتَسْجَع ؟ قال : إنما تَسْجَعُ الحَمَامة ! فقال : يا هذا ، ائذنْ لى أن أدخل قُبَّتَك ! قال : خَلْفَك أوسعُ لك ! فقال : قد أحرقنى حرُّ الشمس ! قال : مالى عليها من سلطان ! فقال : إنى لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : لا تتعرضْ لما لا تصل إليه ، ولو تَلِفَتْ روحك !

فقال الأعرابىّ : سبحان الله ! قال : نعم ، من قبل أن تطلع أضراسُك ! فقال : ما عندك غير هذا ؟ قال : بلى ، هراوة أضربُ بها رأسك ! فاستغاث الأعرابى : يا جار بنى كعب !

قال الغضبان : بئس الشيخ أنت ! فوالله ما ظلمك أحدٌ فتستغيث !

فقال الأعرابىّ: مارأيتُ رجلًا أقسى منك ، أتيتك مستغيثاً فحجبتنى وطردتنى، هلا أدخلتنى قبَّتك وطارحتنى القريض ؟ قال : مالى بمحادثتك من حاجة !

فقال الأعرابىّ : بالله ما اسمك؟ ومن أنْت ؟ فقال: أنا الغضبان بن القَبَعْثَرى .

قال : اسمان منكران ، خُلِقا من غضب ! قال : قِفْ متوكئاً على باب قبّتى برجلك هذه العوجاء ! فقال : قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء !

قال الغضبان : لوكنت حاكماً لجرتَ فى حكومتك ، لأن رجلى فى الظل قاعدة ، ورجلك فى الرمضاء قائمة .

---

(١) المنكب : ناحية كل شىء .

قال الأعرابيّ : إنى لأظنُّ عنصرك فاسداً . قال : ما أقدَرنى على إصلاحه !

فقال الأعرابيّ : لا أرْضَاك الله ولا حيَّاك ، ثم ولّى وهو يقول :

لا بارك الله فى قوم تَسُودُهُم إنى أظنك ـ والرحمنِ ـ شيطانَا

أتيتُ قُبَّتَه أرجُو ضيافتَـــــه فأظهر الشيخ ذُوالقَرْنَيْن حِرمانَا

فلما قدم الغضبان على الحجاج ـ وقد بلَّغَه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابىّ ـ قال له الحجاج : ياغضبان ، كيف وجدت أرضَ كِرْمان؟ قال : أصلح الله الأمير ! أرض يابسة ، الناسُ بها ضعاف ؛ إن كثروا جاعوا ، وإن قلّوا ضَاعُوا.

فقال له الحجاج : ألست صاحبَ الكلمة التى بلغنى أنك قلتها لابن الأشعث: « تغدَّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك » ؟ فوالله لأحبسنّك عن الوسادة ، ولأنزلنك عن الجياد ، ولأشهرنّك فى البلاد !

قال : الأمان أيها الأمير ! فوالله ما ضرّتْ من قِيلتْ فيــه ، ولا نفعت من قيلَتْ له !

فقال له : ألم أقل لك : كأنى بصوتك يجلجل فى قصرى هـــذا ! اذهبوا به إلى السجن .

فذهبوا به ، فقيدَ وسجن ، فمكث ما شاء الله .

ثم إن الحجاج ابْتَنَى الْخَضْرَاء بواسط فأُعْجب بها ، فقال لمن حوله : كيف تَرَوْن قبتى هـــذه وبناءها ؟ فقالوا : أيها الأمير؛ إنها حصينة مباركة ، منيعة نَضرة بهجة ، قليلٌ عَيْبُها ، كثيرٌ خيرُها، قال : لِمَ لَمْ تخبرونى بنصح ؟ قالوا : لا يصِفُها لك إلا الغضبان .

فبعث إلى الغضبان فأحضره ، وقال له : كيف ترى قبتى هذه وبناءها ؟ قال : أصلح الله الأمير؛ بنيتها فى غير بلدك، لا لك ولا لولدك، لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك ، ولا تبقى لك ، وما أنت لها بباق !

فقال الحجاج : قد صدق الغضبان ، رُدّوه إلى السجن .

فلما حملوه قال : « سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] » .

فقال : أنزلوه ، فلما أنزلوه قال : « رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ » . فقال : اضربوا به الأرض ، فلما ضربوا به الأرض قال : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » .

فقال : جرّوه ، فأقبلوا يجرونه ، وهو يقول : « بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

فقال الحجاج : ويلكم ! اتركوه، فقد غلبنى دهاء وخبثاً . ثم عفا عنه ، وأنعم عليه ، وخلّى سبيله .

---

(١) مقرنين : مطيقين .

١٦٢ — حسن تخلص*

صَعِدَ خالد بن عبد الله القَسْرِى المِنبرَ فى يوم جمعة ، وهو إذ ذاك على مكة ، فذكر الحجَّاج ، فحمد طاعته وأثنى عليه .

فلما كان فى الجمعة الثانية وردَ عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بشتمِ الحجاج ونشرِ عيوبه ، وإظهارِ البراءة منه ؛ فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن إبليس كان مَلَكاً من الملائكة ، وكان يُظهِرُ من طاعةِ اللهِ ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غِشِّهِ وخُبْثه ما خفِىَ على ملائكته ؛ فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه .

وإن الحجاج كان يُظهِرُ من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلًا ، وكان الله أطْلَعَ أمير المؤمنين من غشه وخُبْثه على ما خفِى عنا ، فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فلعنه ؛ فالعنوه لعنَه الله ! ثم نزل .

---

* العقد الفريد : ٢ — ٢٤٢

١٦٣ — بثينة وعزة عند عبد الملك بن مروان*

دخلتْ بُثينة وعزة عند عبد الملك بن مروان ، فانصرفَ إلى عزَّة ، وقال : أنتِ عزة كثيِّر ؟ قالت : لست لكثيِّر بعزة ! لكننى أمُّ بكر ، قال : أتروين قولَ كثيِّر :

وقد زعمتْ أنى تغيَّرْتُ بعدَها ... وَمَن ذَ الذى يا عزُّ لا يتغيَّرُ !

قالت : لست أروى هذا ، ولكننى أروى قولَه :

كأنى أنادى أو أكلِّمُ صخــرةً ... من الصمِّ لو تمشى بها العُصم[1] زلَّتِ

ثم انحرَف إلى بُثَيْنَة، فقال : أنت بُثَيْنَةُ جميل ؟ قالت : نعم ياأمير المؤمنين ! قال : ما الذى رأى فيك جميل حتى لَهِج بذكرك من بين نساء العالمين ؟ قالت: الذى رأى الناسُ فيك فجعلوك خليفتهم . فضحك حتى بدَا له ضرس أسود لم يُرَ قبلَ ذلك ، وفضَّل بثينة على عزة فى الجائزة .

وأمَرها أن يدخلا على عاتكة[2] فدخلتا عليها ، فقالت لعزة : أخبريني عن قول كثير :

قضى كلُّ ذى دين فوفَّى غريمَه ... وعزة ممطــولٌ مُعَنًّى غريمُها

ما كان دينه ؟ وما كنتِ وَعدته ؟ قالت : كنت وعدته صلة ثم تأثَّمت[3] منها.

* المستطرف : ٢ — ٦٩ ، الأمالى : ١ — ٤٨

(١) الأعصم من الوعول : ما فى ذراعيه أو فى أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٢) عاتكة : امرأة عبد الملك . (٣) تأثم : تحرج .

١٦٤ — مَنْ أشعر الناس ؟

قال عبد الملك لجرير : من أشعرُ الناس ؟ فقال : ابن العشرين[١] ، قال : فما رأيك فى ابنى[٢] أبى سُلمى؟ قال : كان شعرهما نيّراً ياأمير المؤمنين . قال : فما تقول فى امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيثُ الشعرَ نعلين ، وأقسمُ بالله لو أدركتُه لرفعتُ ذَلاذِلَه[٣] . قال : فما تقول فى ذى الرّمة ؟ قال : قَدَرَ من ظريف الشعر وغريبه وحَسَنِه على ما لم يقدِر عليه أحد . قال : فما تقول فى الأخطل ؟ قال : ما أخرج لسانُ ابن النَّصرانية مافى صدره من الشعر حتى مات . قال : فما تقول فى الفرزدق ؟ قال : فى يده والله نَبْعَةٌ[٤] من الشعر قد قبض عليها . قال : فما أرك أبقيتَ لنفسك شيئاً ، قال : بلى والله ياأمير المؤمنين، إنى لمدينةُ الشعر التى منها يخرجُ وإليها يعود، نَسَبْتُ[٥] فَطَرَبْتُ ، وهَجَوْتُ فأرْدَيْتُ[٦] ، ومدحتُ فأسنَيْتُ ، وأرملتُ[٧] فأغزرتُ ، وزجرتُ فأبحرت ، فأنا قلتُ ضروبَ الشعرِ كلها ، وكلٌّ واحدٍ قال نوعاً منها . قال : صدقت !

* الأغاني : ٨ ــ ٥٣ (طبعة دار الكتب) .

(١) يعنى طرفة. (٢) يعنى زهيراً وابنه كعباً . (٣) ذلاذل القميص : مايلى الأرض من أسافله، ويريد أنه كان يزمه ويخدمه . (٤) النبع : شجر تتخذ منه القسى . وتتخذ من أغصانه السهام ، الواحدة نبعة . (٥) نسب بالمرأة: شبب بها فى الشعر . (٦) أرديت : أهلكت .

(٧) الرمل فى الشعر : غير القصيد والرجز .

١٦٥ — سليمان بن عبد الملك وأبو حازم*

دخل سليمانُ[1] بن عبد الملك المدينة ، فأقام بها ثلاثا ، ثمّ قال : أما هنا رجلٌ ممن أدرك أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّثنا ؟ فقيل له: بلى، هاهنا رجل يقال له أبو حازم . فبعث إليه ، فجاءه .

فقال له سليمان بن عبد الملك : ياأبا حازم ، ما هذا الجفاء ؟ فقال له أبو حازم : وأيّ جفاء رأيتَ منى ؟ قال له سليمان : أتانى وجوهُ أهل المدينة كلُّهم ، ولم تأتنى ! فقال له : أعيذُك بالله أن تقول مالم يكن ، ما جرى بينى وبينك معرفة ، آتيك هكذا ؟ فقال سليمان : صَدَق الشيخ !

ثم قال سليمان : ياأبا حازم ، ما لنا نكرهُ الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم خرّبتم آخرتكم ، وعَمَرْتُم دنياكم ، فأنتم تكرهون أن تُنقَلوا من العُمران إلى الخراب . قال : صدقت ياأبا حازم ، كيف القدومُ على الله ؟ فقال : أما المُحْسن فكالغائب يقدم على أهلِه ، وأما المسيء فكالآبِق[2] يقدم على مولاه . فبكى سليمان ، وقال : ليت شعرى ما لنا عند الله يا أبا حازم ! فقال أبو حازم : اعْرِضْ نفسك على كتاب الله عز وجل تعلم ما لك عند الله، فقال: ياأبا حازم ؛ أين نُصِيبُ تلك المعرفة فى كتاب الله عز وجل؟ قال أبو حازم: عند قوله تعالى : « إنَّ الأَبْرَارَ

---

* مسامرات الأبرار : ١ — ١٧٤ ؛ العقد الفريد : ٢ — ١٠٧

(١) انظر صفحة ٣٢٩ . (٢) الآبق : الهارب .

لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّار لَفِي جَحِيمٍ » . فقال سليمان : يا أبا حازم ؛ فأين رحمةُ الله؟ قال أبو حازم : قريبٌ من المحسنين .

قال سليمان : يا أبا حازم ، مَنْ أحمق الناس ؟ قال أبو حازم : من باع آخرتَه بدنيا غيره . فقال سليمان : ما أسمعُ دعاء الناس ؟ قال : دعاء المُخْبِتين[1] إليه. قال سليمان : ما أزكى الصدقة ؟ فقال أبو حازم : جهدُ المُقِلّ . فقال سليمان : يا أباحازم؛ ما تقول فيما نحن فيـــه ؟ فقال أبو حازم : أَعْفِنا من هذا ؛ فقال سليمان : نصيحة بلّغْتَهَا . قال أبو حازم : إن أناساً أخذوا هذا الأمر من غيرِ مشورة من المؤمنين ، ولا إجماعٍ من رأيهم ، فسفكوا الدماء على طلب الدنيا ، ثم ارتحلوا عنها ، فليت شعرى ما قالوا ، وما قيل لهم ! فقال بعض جلسائه : بئس ما قلتَ يا شيخ ! فقال أبو حازم : كذبتَ ، إن الله تبارك وتعالى أخذ على العلماء ليبيّننّه للناس ولا يكتمونه ، فقال سليمان : يا أبا حازم ؛ كيف الأخذ بذلك ؟ قال أبو حازم : تأخذه من حقه ، وتضعه فى أهله . فقال سليمان : اصْحَبْنَا يا أبا حازم ، تصيب منا ونصيب منك ، فقال : أعيذُك من ذلك ! قال سليمان : ولم ؟ قال:أخاف أن أركَن إليكم شيئاً قليلا ، فيذيقنى الله منها ضعفَ[2] الحياة وضعف الممات !

قال سليمان : يا أبا حازم ، فأشِرْ علىّ . فقال أبو حازم : اتق الله أن يراك حيثُ نَهاك ، أو أن يفقدك حيثُ أمرَك . قال سليمان : يا أبا حازم ، ادْعُ لنا بخير . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمانُ وليَّك فبشرْه بخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوَّك فخذ إلى الخير بناصيته ، فقال سليمان : عِظْنى يا أبا حازم ، فقد أوْجزت ، فقال : إن كنت وليّه فحسْبُك ، وإن كنت عدوه فما ينفعُك إذا رمى بقوس بغير وتر .

(١) الإخبات : الخشوع . (٢) أى ضعف العذاب حياً وميتاً .

فقال سليمان : ياغلام ، إيت بمائة دينار ، ثم قال : خذها يا أبا حازم ، فقال أبو حازم : لا حاجةَ لى بها ، إنى أخاف أن تكون قد أعطيتنيها لمــا سمعت من كلامى ، إن موسى عليه السلام لما هرب من فرعون وَوَرد ماء مَدْين ، وجد عليــه جاريتين تَذُودان ، قال : ما خَطْبُكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يُصْدِر الرِّعَاء[1] وأبونا شيخ كبير ؛ فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : ربِّ إنى لما أنزلتَ إلىّ من خير فقير . ولم يسأل على عَوْن الله أجرا على دينه ، فلما أنكر ذلك أبوهما ، وقال: ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا فسقى لنا ، قال: فما سمعتماه يقول؟ قالتا: سمعْناه يقول: « رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » . فقال: ينبغى أن يكون هذا جائعا ؟ تنطلق إحداكما ، فتقول له: إن أبى يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت لنا.

فجزع من ذلك موسى ـ عليه السلام ـ وكان طريدا فى فيافى الصَّحراء ، فأقبل والجارية أمامه ، فهبّت ريح ، فكشفتها له ـ وكان ذا خُلُق ـ فلما بلغ الباب ، دَخَل ، وإذا طعامٌ موضوع ، قال شعيب : أصب يا فتى من هذا الطعام ، قال موسى ـ عليه السلام : أعوذ بالله . قال شعيب : ولم ؟ قال موسى : لأننا من بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهبا . قال شعيب ـ عليه السلام : لا والله ، لكنها عادتى وعادة آبائى ، نطعم الطعام ، ونَقْرِى الضعيف . فجلس موسى فأكل .

فإن كانت هذه الدنانير عوضاً لما سمعتَ من كلامى ، فأنا أرى أكلَ الميتةِ والدم فى حال الضرورة أحبَّ إلىّ من أخذها .

فكأنّ سليمان أعجب بأبى حازم ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ؛ أيسرّك أن يكون الناس كلهم مثله ! قال الزهرى : إنه لجارى منذ ثلاثين سنة

(١) الرعاء : الرعاة .

ما كلمتُه بكلمة قط . قال له أبو حازم : صدقت ، إنك نسيت الله فنسيتَنى ، ولو أحببتَ الله لأحببتنى . قال الزهرى : أتشتمنى ؟ قال سليمان : أنت شتمتَ نفسك ، أما علمت أن للجار على جاره حقًّا ! قال أبو حازم : إن بنى إسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تَضنّ بدينها عن الأمراء ، فاستغنت الأمراء عن العلماء ، واجتمع القوم على المعصية ، فسقطوا وانتكسوا ، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم ، لهابهم الأمراء . قال الزهرى: كأنك لى تريد ، وبى تعرض ، قال : هو ما تسمع !

١٦٦ — ضَمَّه من النار حيث شئت*

لما وَلِيَ سليمانُ بن عبد الملك الخلافة، أُتى بيزيد بن أبى مسلم ـ مولى الحجاج، فى جامعة[1]، وكان رجلاً دميماً قبيحاً تقتحِمُه[2] العين. فلما رآه سُليمان قال: لَعَنَ الله امرأً أجرَّك رَسَنك[3]، وولى مثلك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك رأيتنى والأمرُ عنّى مُدبِر، ولو رأيتنى والأمر علىّ مُقْبِل لاستعظمتَ من أمرى ما استصغرتَ، ولاستجللْتَ ما استحقرت.

فقال لهُ سُليمان: أين تَرَى الحجاج، أيهوِى فى النار أم استقرّ فى قَعْرِها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقُل هذا، إن الحجاج قَمَعَ لكم الأعداء، ووطَّأ لكم المنابر، وزَرَع لكم الهيبةَ فى قلوب الناس... وبعدُ، فإنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك عبد الملك، وشمال أخيك الوليد، فضمه من النار حيث شئت!

فصاح به سليمان: اخرج إلى لعنة الله! ثم التفت إلى جلسائه فقال: قبحه الله، ما كان أحسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه!

---

* الأمالى: ١ ـ ٢١٥، العقد الفريد: ١ ١٥٠، مروج الذهب: ٢ ـ ١٦٤، البيان والتبيين: ١ ـ ٢١٠

(١) الجامعة: القيد. (٢) تقتحمه: تزدريه. (٣) أجره رسنه: يريد تركه يصنع ما يشاء.

١٦٧ — مناظرة مع الخوارج*

بعث عمرُ بن عبد العزيز إلى شَوْذَب الحَرُورِىّ[1] وأصحابه حين خرجوا بالجزيرة ؛ فجاءوه برجلين منهم : أحدهما من بنى شيبان ، والآخر حبشى اسمه عاصم ، وهو أشد الرجلين حجّةً ولسانا .

وصعدا إليه فى غرفة معه فيها ابن عمه عبدالملك وكاتبه مُزَاحِم ، وأعلموه مكانهما ، فقال : ابحثوهما ألا يكون معهما حديدة ، ثم أدخلُوهما ، ففعلوا .

فلما دخلا قالا : السلام عليكم ، ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبرانى ما أَخْرَجَكما مُخْرَجَكما هذا ؟ وأى شىء نقمتم علينا ؟ قال عاصم : والله ما نقمنا عليك فى سيرتك ، فإنك لَتُجرى العدلَ والإحسان ، ولكن بيننا وبينك أمرٌ إن أعطيتناه فأنت منّا ونحنُ منك ، وإن مَنَعْتَنَاه فلستَ منا ولسنا منك ! قال عمر : وما هو ؟ قال : رأيتك خالفتَ أعمالَ أهل بيتك ، وسلكتَ غير طريقهم ، وسمّيتَها مظالم ؛ فإن زعمتَ أنك على هُدًى وهم على ضلال فابْرَأْ منهم والْعَنْهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرّق .

فقال عمر : إنى قد عرفت أنكم لم تخرجوا لطلب الدنيا ولكنكم أردتم الآخرة

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ١٣٠

(١) الحرورية : طائفة من الخوارج ، ينسبون إلى حروراء ، وهو موضع بظاهر الكوفة ، كان فيه أول اجتماعهم حين خالفوا على بن أبى طالب . وشوذب : اسمه بسطام من بنى يشكر .

فأخطأتم سبيلها ، وأنا سائلكم عن أمر ! فبالله لتصدقانى عنه فيما بلغه علمكما .
قالا : نفعل . قال : أرأيتم أبا بكر وعمر ؟ أليسا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون
لهما بالنجاة ؟ قالا : بلى . فقال : هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله فقاتلهم
أبو بكر ؛ فسفك الدماء ، وسبى الذرارى ، وأخذ الأموال ؟ قالا : قد كان ذلك .
قال : فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائرهم ؟ قالا : قد كان
ذلك . قال : فهل برئ أبو بكر من عمر ، أو عمرُ من أبى بكر ؟ قالا : لا ؟ قال :
فهل تبرءون من واحد منهما ؟ قالا : لا !

قال : أخبرانى عن أهل النهروان ؛ أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون
لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى ! قال : فهل تعلمون أن أهلَ الكوفة حين خرجوا إليهم
كفُّوا أيديهم ، فلم يخيفوا آمنا ولم يسفكوا دما ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : قد كان
ذلك . قال : فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب
استعرضوا الناس فقتلوهم ، وعرضوا لعبد الله بن خبّاب صاحب النبى صلى الله عليه
وسلم ؛ فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صبّحُوا حيًّا من العرب فاستعرضوهم فقتلوا الرجال
والنساء والولدان ، حتى جعلوا يُلقون الأطفال فى قدور الأقِط[1] وهى تَفُورُ بهم ؟
قالا : قد كان ذلك ! قال : فهل برئ أهل الكوفة من أهل البصرة ، أو أهلُ
البصرة من أهل الكوفة ؟ قالا : لا ! قال : فهل تبرءون من طائفة منهما ؟
قالا : لا !

قال عمر : أخبرانى أرأيتم الدِّين واحدا أم اثنين ؟ قالا : بل واحدا ! قال :

---

(١) الأقط : شئ يستخرج من المخيض الغنمى .

فهل يسعكم فيه شيء يُعجزنى ؟ قالا : لا ! قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولّى كل واحدٍ منهما صاحبَه ، وقد اختلفت سيرتهما ! أم كيف وسع أهلُ الكوفة أن تَولوا أهلَ البصرة وأهل البصرة أهلُ الكوفة وقد اختلفوا ، وكيف وسعكم أن توليتموهم جميعا وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء ؛ فى الدماء والأموال ، ولا يسعنى ـ بزعمكما ـ إلّا لعنُ أهلِ بيتى والبراءة منهم! فإن كان لعنُ أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بد منها ، فأخبرنى عنك أيها المتكلم متى عهدُك بلعن فرعون ! قال : ما أذكُرُ متى لعنته . قال : ويحك ! فيسعك تركُ لعن فرعون ، ولا يسعنى بزعمك إلا لعنُ أهلُ بيتى والبراءة منهم ! ويحكم ! إنكم قوم جهّال ، أردتم أمرا فأخطأتموه فأنتم تقبَلون من الناس ما ردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتردّون عليهم ماقَبِل منهم ، ويأمَنُ عندكم من خاف عنده ؛ ويخاف عندكم مَنْ أَمِن عنده . قالا : ما نحن كذلك . قال : بل تقرّون بذلك الآن .

هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِث إلى الناس وهم عبدة أوثان ؛ فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان ؛ وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حَقَن دمَه ، وأَمِنَ عنده ، وكان أسوة بين المسلمين ، ومن أبى ذلك جاهَدَه ؟ قالا : نعم ، قال: أفلستم أنتم اليوم تبرءون ممن يخلع الأوثان ، وممن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وتلعنونه وتقتلونه ، وتستحلون دمه ، وتلقون مَن يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى ؛ فتحرمون دمه ويأمن عندكم ؟ فقال عاصم : مارأيت حجةً أبين ولا أقرب مأخذا من حجتك ؛ أما أنا فأشهد أنك على الحق وأننى برىء ممن خالفك .

وقال للشيبانى : فأنت ما تقول ؟ قال : ما أحسنَ ماقلت ؛ وأبين ماوصفت !

ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدرى ما حجّتهم فيه ، حتى أرجع إليهم ، فلعلّ عندهم حجةً لا أعرفها . قال : فأنت أعلم ، ثم أمر لعاصم بعطائه ، وأقام عندهم خمس عشرة ليلة ثم مات ، ولحق الشيبانى بقومه فقُتل معهم .

١٦٨ — ليس الأمر بالسنّ*

قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق ، فنظر إلى شاب منهم يتهيّأ للكلام ، فقال : أكْبِروا أكبروا ! فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنه ليس بالسنّ ، ولو كان الأمرُ كلُّه بالسن لكان فى المسلمين من هو أسنّ منك، فقال عمر: صدقت، رحمك الله ، تكلّم !

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنا لم نأتك رغبةً ولا رهبة ؛ أما الرغبة فقد دخلتْ علينا منازلنا ، وقدمت علينا بلادنا ؛ وأما الرهبةُ فقد أمننا الله بعَدْلك من جَوْرك ، قال : فَمَنْ أنتم ؟ قال : وفد الشكر .

فنظر محمد بن كعب القُرَظىّ إلى وجه عمر يتهلل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغلِبَنّ جهل القوم بك معرفتَك بنفسك ! فإن ناساً خدعهم الثّناء ، وغرّهم شكر الناس فهلكوا . وأنا أعيذك بالله أن تكونَ منهم ؛ فألقى عمر رأْسه على صدره !

---

* العقد الفريد : ١ — ٢٢٧ ، المسعودى : — ١٧٠

١٦٩ — بنو أمية وعمر بن عبد العزيز*

لما أقبلَ عمرُ بن عبد العزيز على ردِّ المظالم ، وقَطَع عن بنى أمية جوائزَهم وأرزاقَ أحْرَاسهم ، وردَّ ضِياعَهم إلى الخراج ، وأبطل قطائعهم فأفقرهم ، ضَجُّوا من ذلك ؛ فاجتمعوا وقالوا : إنك قد أجْلَبْتَ[1] المال للسلمين ، وأفقرت بنى أبيك فيما تردُّ من هذه المظالم ، وهذا أمرٌ قد وليَه غيرُك قبلَك ، فدعْهم وما كانَ منهم، واشتغل أنت وشأنك ، واعملْ بما رأيت .

قال لهم : هذا رأيُكم ؟ قالوا : نعم ! قال : ولكنى لا أرى ذلك، والله لوَدِدْتُ ألَّا تبقَى فى الأرض مَظْلِمةٌ إلا رددْتها !

فخرجوا من عنده ، ودخلوا على عمر بن الوليد بن عبد الملك ـ وكان كبيرَهم وشيخَهم ـ فسألوه أن يكتبَ إلى عمرَ يوبِّخُه لعلَّه أن يردَّه عن مَساءتهم، فكتب إليه :

« أما بعد فإنك أزْرَيتَ[2] على من كان مِنْ قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم وسِرْت بغيرِ سيرتهم وسميتَها المظالمَ ؛ نقصاً لهم ، وعيباً لأعمالهم ، وشنآناً لمن كان بعدَهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك؛ فقطعْتَ ما أمرَ الله به أن يُوصَل، وعملت بغير الحقِّ فى قرابتك ، وعمَدتَ إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم، فأدْخلتَها بيتَ مالكَ ظلماً وجَوراً وعُدْوَانا ، فاتَّقِ اللهَ يابْنَ عبد العزيز وراقِبْه ، فإنك إن

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٥٢ ، ابن أبى الحديد : ٤ ـ ١٤٧

(١) أجلب : طلب . (٢) أزرى عليه : عابه .

شططتَ لم تطمئنَّ على منبَرك ، وإن خَصَصْتَ ذوى قرابتك بالقطيعـــة والظلم ؛ فوالله الذى خَصَّ محمداً صلى الله عليه بما خصَّه به من الكرامةِ ، لقد ازْدَدْت من الله بُعْدًا فى ولايتك هذه التى تزعمُ أنها بلاء عليك وهى كذلك! فاقصد فى بعض مَيْلك وتحامُلك . اللهم فاسأل سليمان[1] بن عبد الملك بما صنع بأمةِ محمد صلى الله عليه وسلم ! » .

فكتب عمر بن عبد العزيز إليه :

« من عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد . سلام على من اتَّبع الهدى ، أمّا بعد فإن أول أمرك يافلان أن أمك بنَانة كانت أمة تدخل دُور حِمْص، و تطوف فى جوانبها ، والله أعلم بها ، فاشتَرَاها ذُبيان بن ذُبيان من فَىْء المسلمين ، فأهداها إلى أبيك فحملتْ بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ، ثم نشأتَ فكنتَ جبّارًا شَقيًّا. كتبتَ إلىّ تُظَلِّمُنِى[2]، وزعمتَ أن حُرْمَتَك وأهلَ بيتِك فى بيتِ مال المسلمين، الذى فيه حق القرابة والضعيفِ والمسكين وابن السبيل ، وإنما أنت كأحدهم ؛ لك ما لهم ، وعليك ما عَليهم .

وإن أظلمَ منى، وأترك لعهد الله، الذى استعملك صبيًّا سفيهاً تَحْكُمُ فى دماء المسلمين وأموالهم برأيك، ولم يكن يحمله على ذلك إلا حبُّ الولد، ولم يكن ذلك له ولا حقَّ له فيه، فويلك ثم ويل أبيك! ما أكْثرَ طلّابكما وخُصماءكما يومَ القيامة! وكيف النجاةُ لمن كثر خصماؤه ؟

« وإنَّ أظلمَ منى وأترك لعهد الله مَنْ جعل لفلانة البربرية سهماً فى فَىْء المسلمين

---

(١) سليمان بن عبد الملك هو الذى عهد إلى عمر بن عبد العزيز بالخلافة . (٢) ظلمه : نسب الظلم إليه .

وصَدقاتهم . أهاَجَرْتَ ؟ ثَـكلَتْك أمك ! أم بايعت بيعة الرضوان فتَسْتوْجب سهام القاتلين !

وإن أظلَمَ منى وأترَكَ لعهد الله من استعمل قُرة بن شَريك أعرابيًّا جلفاً جافياً على مصر ، وأذن له فى المعازف والبرابط[١] والخمر .

وإن أظلَمَ منى وأترَكَ لعهد الله من وَلّى يزيد بن أبى مسلم[٢] على جميع المغرب، يَجْبى المالَ الحرام ، ويَسْفِك الدم الحرام . رويدك ! لو قد التقتْ عليك حَلْقتا البطانِ[٣] ، وطالت بى حياة ، وردَّ الله الحقَّ إلى أهله ، تفرغتُ لك ولأهل بيتك، فأقفتكم على المحجَّة[٤] البيضاء ؛ فطالما تركتم الحق وراءكم ، وأخذتم فى بنيّات الطريق[٥] ؛ ومن وراء هذا ما أرجو أن يكونَ خيرَ رَأى رأيتهُ : بيعُ رقبتك ، وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل . فإن لـكلّ مسلمٍ فيـك سهما فى كـتاب الله ، والسلامُ على من اتّبع الهدى ، ولا ينالُ سلامَ الله الظالمون » .

---

(١) البرابط : جمع بربط، وهو العود. (٢) ولى الوليد يزيد بن أبي مسلم على ثلاثة أخماس المغرب بقتل ويصلب ويقطع . (٣) البطان : حزام الرحل، له حلقتان فى كل طرف حلقة يصعب التقاؤهما، وإذا التقتا بلغ الشد غايته ، وهو مثل يضرب حين بلوغ الشدة منتهاها.(٤) المحجة: جادة الطريق.
(٥) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة .

١٧٠ — فى وفاة عمر بن عبد العزيز *

لما حضرت عمرَ بنَ عبد العزيز الوفاةُ دخل عليه مَسْلَمَة بن عبد الملك ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنك قد فَغَرْت أفواه وَلدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إلىّ وإلى نظرائى من قومك فكفوك مئونتهم !

فلما سمع مقالته قال : أجلسونى . فأجلسوه فقال : قد سمعتُ مقالتك يامَسْلَمَة . أما قولك: إنى قد فَغَرْت أفواه ولدى من هذا المال فوالله ماظلمتهم حقًّا هو لهُم، ولم أكن لأعطيهمَ شيئاً لغيرهم ، وأمَّا ماقلت فى الوصية فإن وصيتى فيهم : (اللهُ الذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين) ، وإنمــا وَلدُ عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيُغنيه الله ، وإما غــير ذلك فلن أكون أولَ مَنْ أعانه بالمال على معصية الله .

ادعُ لى بَنِىّ : فأتوه ؛ فلما رآهم ترقرقت عيناه ، وقال : بنفسى فتية تركتُهم عَالَةً لا شىء لهم ! وبكى .

يابنىّ ؛ إنى تركت لكم خيراً كثيراً لاتمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًّا ؛ يابَنِىّ، إنى قد ميِّلتُ[1] بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا إلى آخر الأبد وأدخل الجنة . فأرى أن تفتقروا؛ فذلك أحبُّ إلىّ. قوموا عَصمكم الله ، قوموا رزقكم الله !

---

* سيرة عمر بن عبد العزيز: ١١٧

(١) ميل بين الأمرين : تردد فى أيهما يفعل .

١٧١ — رأى خالد بن صفوان فى الشعراء*

قال هشام بن عبد الملك لِشَبَّةَ بن عِقَال، وعنده جريرٌ والفَرَزْدَق والأخطلُ، وهو يومئذ أميرٌ: ألا تُخْبِرُنى عن هؤلاء الذين قد مزّقوا أعراضهم، وهتكوا أستارهم، واغْبَرُوا بين عشائرهم فى غير خيْرٍ ولا بِرّ ولا نَفْع، وأيهم أشعرُ؟

فقال شَبّة: أمّا جرير فيَغْرِفُ من بحر، وأما الفرزدقُ فينحَتُ من صَخْر، وأما الأخطل فَيُجيدُ المدحَ والفخْرَ.

فقال هشام: ما فسَّرْت لنا شيئاً نُحَصِّله! فقال: ما عندى غيرُ ما قلتُ!

فقال لخالد[1] بن صفوان: صِفهم لنا يا بْنَ الأهْتَم؛ فقال: أما أعظمهم فخراً، وأبعدُهم ذِكْراً، وأحسنهم عُذْراً، وأسيرُهم مثلا، وأقلهم غَزَلا، وأحلاهم عِلَلا، الطامى[2] إذا زخَرَ؛ والحامى إذا زَأَرَ، والسامِى إذا خطَرَ؛ الذى إن هَدَرَ[3] قال، وإن خَطَرَ صَال، الفصيحُ اللسان، الطويلُ العِنان — فالفرزدق.

وأما أحسنُهم نَعْتاً، وأمدحُهم بَيْتاً، وأقلهم فَوْتاً، الذى إن هجا وَضَعَ[4]، وإن مدح رَفَع — فالأخطَل.

وأما أغزرُهم بحراً، وأرقُّهم شعراً، وأهتكُهم لعدُوِّه سِتراً؛ الأغَرُّ الأبْلَق

---

* الأغانى: ٨ — ٨١ (طبعة دار الكتب)، معجم الأدباء: ١١ — ٢٥

(١) أحد فصحاء العرب وخطبائهم، وهو مشهور برواية الأخبار، وكان يجالس هشام بن عبد الملك؛ ولكنه كان بخيلا، وتوفى سنة ١٣٥هـ. (٢) الطامى: من طمى الماء؛ إذا ارتفع وملأ النهر، وزخر البحر: امتلأ. (٣) هدر البعير: ردد صوته فى حنجرته، وهدر الحمام: كرر صوته. (٤) وضع: خفض.

الذى إن طَلَبَ لم يُسْبَق ، وإن طُلِبَ لم يُلْحَق ـ لجرير ، وكلهم ذَكِىُّ الفؤاد ، رَفيعُ العِماد ، وَارى الزِّناد .

فقال له مَسْلَمَةُ بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك ياخالدُ فى الأوَّلينَ ، ولا رأينا فى الآخرين ؛ وأشهدُ أنك أحسنهم وصفاً ، وأليَنُهم عِطفاً ، وأعفهم مَقالا ، وأكرمُهم فعالا .

فقال خالد : أتمّ الله عليكم نِعَمَه ، وأجزل لديكم قِسَمَه[1] وآنَسَ بكم الغُرْبة ، وفرَّج بكم الكُرْبة . وأنت ، والله ـ ما علمتُ أيها الأمير ـ كريمُ الغِرَاس ، عالمٌ بالناس ، جوادٌ فى المَحْل ، بَسَّام عند البَذْل ، حَلِيمٌ عند الطيش ، فى ذِرْوَةِ[2] قريش ، ولُبَابِ[3] عبد شَمْس ، ويومُك خيرٌ من أمس .

فضحك هشام وقال : مارأيتُ كتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتَهم جميعاً ، وسلمت منهم .

---

(١) القسم : جمع قسمة ، وهى الرزق وما قسم . (٢) ذروة : أعلى . (٣) لباب : خلاصة .

١٧٢ — المنصور وابن طاوس*

قال مالك بن أنس : بعث إلىَّ أبو جعفر المنصور وإلى ابن طَاوُس ، فدخلنا عليــه وهو جالس على فرُش قد نضدت له ، وبين يديه نطَاع[1] قد بُسطت ، وجُلادٌ بأيديهم السيوفُ ؛ لضربِ رقاب الناس ، فأومأ إلينا بالجلوس ، وأطرق عنا طويلا ، ثم التفت إلى ابن طاوس ، فقال له : حدثنى عن أبيك .

قال : نعم ؛ سمعتُ أبى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركهُ الله فى حُـكْمه ، فأدخل عليه الجورَ فى عدْله » ، ثم أمسك ساعة ، قال مالك : فضممتُ ثيابى مخافةَ أن يملأنى دمُه .

ثم التفت إليه أبو جعفر ، فقال : عِظْنى يابنَ طاوس ، قال : نعم ، أما سمعتَ الله يقول : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ، ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ . وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ[2] بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ؛ ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِى ٱلْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

قال مالك : فضممتُ ثيابى أيضا مخافةَ أن يملأنى دَمهُ ، فأمسك المنصور ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس ؛ ناولنى الدواة ، فأمسك ابن طاوس ، ولم يناوله إياها وهى فى يده ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال :

* العقد الفريد للملك السعيد : ٥٦

(١) الأنطاع : جمع نطع ، وهو جلد يفرش . (٢) جابوا : خرقوا الصخر فاتخذوه بيوتاً .

أخشى أن تكتبَ بها معصيةً لله فأكونَ شريكك فيها . فلما سمع ذلك المنصور قال : قُوماَ عنّى !

قال ابن طاوس : ذلك ما كنّا نبغى ! قال مالك : فما زلتُ أعرفُ لابنِ طاوس بعدها فَضله .

١٧٣ — بديهة مَعْن*

قدم معنُ بن زائدة من اليمن ودخل على أبى جعفر المنصور ، فقال له : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك شئ ؛ ولولا مكانُك عنده ورأيُه فيك لغضب عليك . قال : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مَرْوان بن أبى حفصة ألفَ دينار لقوله فيك :

معنُ بن زائدة الذى زِيدَتْ به ... شرفاً على شرفٍ بنو شيبان
أن عُدّ أيام الفَعَال فإنّما ... يوماه يومُ ندًى ويومُ طِعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه مابلغك لهذا الشعر ، وإنما أعطيته لقوله :

ما زلتَ يومَ الهاشميَّة[1] مُعلِناً ... بالسيف دون خليفة الرحمنِ
فمنعت حَوْزَتَه وكنت وِقاءه ... من وَقْع كل مُهَنَّد وسِنان

فاستحيا المنصور ، وقال : إنما أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول ؟ قال : نعم ،

* الأغاني : ١٠ — ٨٦ (طبعة الساسى) .
(١) الهاشمية : مدينة بناها السفاح قريبا من الكوفة .

يا أمير المؤمنين! والله لولا مخافةُ الشنعة لأمْكنْتُه من مفاتيح الأموال، وأبحْتُه إياها ، فقال له المنصور : لله درُّك من أعرابيّ ! ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم !

١٧٤ — رسول مَعْن*

أراد معنُ بن زائدة أن يوفِدَ إلى أبي جعفر المنصور قوماً يسلُّون سخيمته ، ويستعطفون قلبَه عليه ، وقال : قد أفنيتُ عمري في طاعته، وأتعبتُ نفسي، وأفنيتُ رجالي في حربِ اليمن ، ثم يسخَطُ عليّ أنْ أنفقْتُ المال في طاعته !

فانتخب جماعة من عشيرته من أفناء ربيعة، وكان فيمن اختارَ مجّاعة بن الأزهر، فجعلَ يدعو الرجال واحداً واحداً ، ويقول : ماذا أنت قائل لأمير المؤمنين إذا وجَّهْتُك إليه ؟ فيقول: أقول وأقول . . . حتى جاءه مجّاعة بن الأزهر، فقال: أعزّ الله الأمير ! تسألني عن مخاطبة رجل بالعراق وأنا باليمن ! أقصِد لحاجتك حتى أتأتّى لها كما يُمكن وينبغي ؛ فقال : أنتَ صاحبي .

ثم التفت إلى عبد الرحمن بن عتيق المُزنيّ وقال : شُدّ على عَضُد ابن عمِّك ، وقَدِّمه أمامك ، فإن سها عن شيء فتلافَه. واختار من أصحابه ثمانية نفرٍ معهما، حتى تمّوا عشرة ، وودَّعهم ومضوا ، حتى صاروا إلى أبي جعفر .

فلما صاروا بين يديه تقدّموا ، فابتدأ مجّاعة بحمد الله والثناء عليه والشكر له

---

* تاريخ الطبري : ٩ — ٢٩٥

حتى ظنّ القومُ أنه إنما قصَد لهذا؛ ثم كرّ على ذكر النبى صلّى الله عليه وسلم؛ وكيف اختاره الله من بطون العرب ، ونشَر من فَضْله حتى تعجّب القومُ ؛ ثم كرّ على ذِكْر أمير المؤمنين المنصور ، وما شرّفه الله به وما قلّده ؛ ثم كرّ على حاجته فى ذكر صاحبه . فلمّا انتهى كلامُه ، قال المنصور : أمّا ماَ وصفتَ من حمْدِ الله ، فاللهُ أجلُّ وأكبر من أن تبلغَه الصفات ؛ وأما ماَ ذكرت من النبىّ صلى الله عليه وسلم فقد فضّله الله بأكْثرَ مما قلتَ ، وأما ماوصفتَ به أميرَ المؤمنين فقد فضّله الله بذلك ، وهو معينُه على طاعته إن شاء الله ، وأما ماذكرتَ من صاحبك فكذبْتَ ولؤمتَ ؛ ثم أمر المنصور بإخراجهم. قال : صدق أمير المؤمنين، ووالله ما كذبتُ فى صاحبى .

فأُخرِجُوا ، فلما صاروا إلى آخر الإيوان أمر بردّه مع أصحابه ، فقال : أعِدْ ماذكرتَ . فكرّ عليه الكلام حتى كأنه فى صحيفة يقرؤه ؛ فقال له مثلَ القول الأول ؛ فأخرِجوا حتى برزوا جميعاً ، وأمر بهم فوقفوا ، ثم التفتَ إلى مَنْ حضره من مُضر ، فقال : هل تعرفون فيكم مثل هذا ؟ والله لقد تكلم حتى حسدته ، وما منعنى أن أتم على رده إلا أن يقال: تعصّب عليه لأنه رَبَعىّ، وما رأيتُ كاليوم رجلًا أربط جأشاً ولا أظهر بيانا ؛ ردّه ياغلام !

فلما صار بين يديه أعاد السلام وأعاد أصحابُه ، فقال له المنصور : اقصِد لحاجتِك وحاجةِ صاحبك ، قال : يا أمير المؤمنين ، معنُ بن زائدة عبدُك وسيفُك وسهمُك ، رميتَ به عدوك ، فضربَ وطعنَ ورمى ، حتى سَهُل ما حزُن ، وذل ما صَعُب ، واستوى ما كان معوجًّا من اليمن ؛ فأصبحوا من خَول أمير المؤمنين ـ أطال الله

بقاءه ـ فإن كان فى نفس أمير المؤمنين هَنة من ساعٍ أو واش أو حاسد فأمير المؤمنين أولى بالتفضل على عبده ، ومَنْ أفنى عمره فى طاعته .

فقبل وفادتهم ، وقبِلَ العذر من مَعْن ، وأمر بصرفهم إليه .

فلما صاروا إلى مَعْن وقرأ الكتاب بالرضا قبّل ما بين عينيه ، وشكر أصحابه ، وخلع عليهم وأجازهم ، فقال مجّاعة :

آليتُ فى مجلسٍ من وائلٍ قَسَمًا ألا أبيعك يا مَعْنُ بأطماعِ
يا مَعْن إنّك قد أوليتنى نِعماً عمّتْ لُجَيْماً وخَصّتْ آلَ مجّاعِ
فلا أزالُ إليك الدّهرَ منقطعاً حتى يُشيد بهلكى هتفةُ النّاعِى

١٧٥ — كَبِير*

دخل عمارة[1] بن حمزة على المهدى ، فلما استقرّ به الجلوس ، قام رجل كان المهدى قد أعدّه ليتهكّم به ، فقال : مظلوم يا أميرَ المؤمنين ! قال : مَنْ ظلَمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَنِى ضَيْعتِى ـ وذكر ضَيْعة من أحسنِ ضياع عُمارة ، وأكثرها خراجاً ـ فقال المهدى لعُمارةَ : قم فاجلسْ مَع خَصْمِك ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما هُوَ لى بخَصْم ؛ إن كانت الضيعةُ له فلست أُنازِعُه فيها ، وإن كانتْ لى فقد وهبتها له ، ولا أقومُ من مجلس شرّفنى به أمير المؤمنين .

فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صفةِ الرجل ، وما كان لباسه ، وأين كان موضعُ جلوسِهِ !

---

* نهاية الأرب : ٣ ـ ٣٧٣ ، معجم الأدباء : ٥ ـ ٢٤٧

(١) مولى عبد الله بن العباس ، ثم مولى السفاح ، ثم مولى أبى جعفر المنصور، وكان تياهاً معجباً بنفسه ، جواداً كريما معدودا فى سراة الناس، وكان فصيحاً بليغاً وكان أعور دميما . وكان المنصور والمهدى يقدمانه ويحتملان أخلاقه لفضله وبلاغته ووجوب حقه ، وولى لهما أعمالا كباراً .

١٧٦ — قَنَاعة*

قال أبو دُلف العِجْلى :

حججتُ فرأيت أبا العتَاهية واقفاً على أعرابى فى ظلّ مِيلٍ(١) ، وعليه شَملة إذا غطى بها رأسه بدتْ رِجلاه ، وإذا غطى رجليه بدا رأسُه ؛ فقال أبو العتاهية : ياهذا ؛ لولا أن الله أقنع بعض العبادِ بشر البِـلاد ، ما وسِـعَ خيرُ البلاد جميعَ العباد ؛ ثم قال له : من أين معاشُكم ؟ فقال : منـكم معشرَ الحاجّ ! تمرون بنا فننال من فُضُولـكم(٢) ، وتنصرفون فيـكون ذلك ؛ فقال له : إنما نمرّ وننصرف فى وقتٍ من السنة ، فمن أين معاشكم ؟ فأطرق الأعرابى ثم قال : لا والله لاأدرى ما أقول إلا أنا نرْزق من حيث لا نَحْتسب(٣) أكثر مما نرزق من حيث نحتسب؛ فولى أبو العتاهية وهو يقول :

ألا ياطالبَ الدنيـــا دَعِ الدنيا لشَانِيـكاَ !
وما تصنعُ بالدنيـــا وظِلُّ الميـل يكْفيكاَ ؟

---

* الأغانى : ٤ ــ ٨٣ (طبعة دار الـكتب) .

(١) الميل : منار يبنى للمسافر . (٢) فضول الغنائم : ما فضل منها . (٣) أى من حيث لا نقدر .

١٧٧ — الرشيد وعبد الملك بن صالح*

رُفع إلى الرشيد أن عبد الملك[1] بن صالح يطْلُبُ الخلافة لنفسه ، ويطمعُ فيها ، وأن البَرامكة كانوا له فى ذلك عوناً ، وأيّد هذه السعاية ابنُه عبد الرحمن بن عبد الملك وخادمُه قُمامة . فأحضر إلى الرشيد ، فلما دخل عليه قال : أ كُفراً بالنعمة وجُحوداً لجليل المنة والتَّكرمة ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لقد بُؤْتُ إذن بالندم ، وتعرّضت لاسْتِحلال النقَم ، وماذاك إلا بَغْىُ حاسدٍ نافَسَنى فيك المودةَ والقرابة ، وتقْديمَ الولاية ؛ إنك يا أميرَ المؤمنين خليفة رسول الله فى أمته ، وأمينُه على عِتْرته[2] ، لك عليهــا فرضُ الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليــك العَدْلُ فى حُكمها والغفران لذنوبها .

فقال الرشيد : أتضَعُ لى من لسانك ، وتَرْفعُ لى من جَنَانك ! هذا كاتبك قُمامة يخبر بغلك وفساد نيتك ، فاسمع كلامه !

فقال عبد الملك : أعطاك ماليس فى عَقْدهِ ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَهنى[3] أو يبهَتنى بما لم يعرفه منى . وأُحْضر قمامة . فقال له الرشيد : تقدَّم غير هائب ولا خائف . قال قمامة : أقول: إنه عازم على الغَدْر بك والخلافِ عليك ! فقال عبد الملك:

---

* المحاسن والمساوى : ٥٤٦ (طبع ليبزج) ، تاريخ الطبرى : ــ ١٠ ــ ٨٩ ، العقد الفريد: ١ ــ ١٤٣ ، الكامل لابن الأثير : ٦ ــ ٧٢ ، زهر الآداب : ٢ ــ ٢٨٣

(١) هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو فى العباسيين فى درجة السفاح والمنصور نسباً . ولاه الرشيد الحروب فى الثغور ؛ فقام بذلك خير قيام ، إلى أن عزله الرشيد ، وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ . (٢) العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأولون ممن مضى وغبر . (٣) يقال : عضه فلاناً ؛ أى بهته وقال فيه مالم يكن .

أهُوَ كذلك ياقُمامة ؟ قال : نعم،لقد أردتَ خَتْل(١) أمير المؤمنين . فقال عبدالملك: كيف لا يكذب عليَّ من خَلْفي ، وهو يَبهتُني في وجهي !

فقال له الرشيد : وهذا ابنُك عبد الرحمن يخبرني بعتوِّك ، وفساد نيتك ؛ ولو أردتُ أن أحتجّ عليك بحجّة لم أجد أعدَل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك ؟ فقال عبد الملك : هو مأمور ، أو عاقّ مجبور ، فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقًّا ففاجرٌ كفور ، أَخبَرَ الله بعداوته وحَذَّر منه بقوله : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فنهض الرشيد وهو يقول : أمّا أمرُك فقد وَضَح ، ولكنني لا أعجل حتى أعلمَ الذي يرضى اللهُ فيك ، فإنه الحكم بيني وبينك . فقال عبدُ الملك : رضيتُ بالله حَكَماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً ، فإني أعلمُ أنه يؤثر كتابَ الله على هواه ، وأمرَ الله على رضاه .

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، ودخل عبدُ الملك عليه فسلم ، فلم يَردّ عليه الرّشيد ! فقال عبدُ الملك : ليس هذا يوماً أحتجُّ فيه ، فقال الرشيد : لِمَهْ ؟ فقال : لأن أوّله جرى على غير السُّنة فأنا أخاف آخرَه ، قال : وما ذاك ؟ قال : لم تردّ عليّ السلام. أنصِفْ نَصَفَة العوامّ. فقال الرّشيد : السلامُ عليكم اقتداءً بالسُّنّة ، وإيثاراً للعهد ، واستعمالاً للتحية ، ثم التفتَ نحو سليمان بن أبي جعفر وقال :

* أريدُ حياته ويُريدُ قتلي *

أمَا والله لكأني أنظر إلى شُؤبوبها(٢) قد هَمَع ، وعارضها(٣) قد لَمَع، وكأني

---

(١) ختله : خدعه . (٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر ، وهمع : سال . (٣) العارض : السحاب المعترض في الأفق .

بالوعيـــد قد أورى ناراً تسطع فأقلع عن براجم[1] بلا معاصم ، ورءوس بلا غلاصم[2] . فمهلا مهلا ، بى والله سَهُل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أزمتها ، فنذار لكم نذار ! قبل حلول داهية ، خبوط باليد، لبوط[3] بالرجل !

فقال عبد الملك : اتق الله يا أمـــير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب ؛ فقد نخلت لك النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخى[4] ملكك بأثقل من ركنى يلملم[5] ، وتركت عدوك مشتغلا ؛ فالله الله فى رحمك أن تقطعه بعد أن بلته[6] ، بظن أفصح الكتاب بعضهه[7] ، أو ببغى باغ ينهش اللحم ، ويلغ فى الدم ! فقد والله سهلت لك الوعور ، وذللت لك الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور : فكم من ليل تمام فيك كابدته ، ومقام ضيق لك قمته ! كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب :

ومقام ضيق فرجته ببنان ولسان وجـــدل
لو يقوم الفيـل أو فيّاله[8] زل عن مثل مقامى وزحل[9]

فقال له الرشيد : أما والله لولا الإبقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ؛ ثم أمر بحبسه ، فحبس عند الفضل بن الربيع .

ثم بعث الرشيد إلى يحيى بن خالد وهو فى السجن : إن عبد الملك بن صالح

---

(١) البراجم : مفاصل الأصابع . (٢) الغلاصم : جمع غلصمة ، وهى اللحم بين الرأس والعنق . (٣) يقال: لبط به الأرض: أى ضرب . (٤) أواخى : جمع آخية : عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيه الدابة . (٥) يلملم : جبل من الطائف على ليلتين . (٦) بلته : لزمته . (٧) العضه : الكذب والنميمة . (٨) الفيال : صاحب الفيل . (٩) زحل : زال عن مكانه .

أراد الخروج عليّ ومنازعتى فى الملك ، وقد علمتَ ذلك ، فأعلمْنى ماعندك فيه ، فإنك إن صَدَقْتنى أعدتُك إلى حالك .

فقال يحيى : والله ياأمير المؤمنين ، ما اطلعتُ من عبد الملك على شىء من هذا ، ولو اطلعْتُ عليه لكنتُ صاحبه دونك ؛ لأن مِلكك كان مِلكى ، وسلطانَكَ سُلطانى ، والخيرُ والشرّ كانا فيه علىّ ولى ؛ فكيف يجوزُ لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى ! وهل كنتُ إذا فعلتُ ذلك به يفعل بى أكثرَ من فعلك ! أعيذُكَ بالله أن تَظُنّ بى هذا الظَّنّ ؛ ولكن كان رجلًا محتملًا ، يسرّنى أن يكون فى أهلك مثلُه ، فوليتهُ لِماَ أَحْمَدْتُ[1] من مذهبه ، ومِلْتُ إليه لأدبه واحتماله .

فلما أتى الرسولُ الرشيد بهذا أعاده عليه : إن أنْتَ لم تقرّ على عبد الملك قتلتُ ابنك الفضل ؛ فقال له يحيى : أنت مسلط علينا فافعل ما شئت ، على أنه إذا كان من هذا الأمر شىء فالذنبُ فيه لى ، فبِمَ يدخُل الفضل فى ذلك ! فقال الرسول للفضل : قم ، فإنه لابدّ لى من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك ؛ فلم يشك فى أنه قاتله ؛ فودَّعَ أباه وقال له : ألستَ راضياً عنى ؟ قال : بَلَى ، فرضى الله عَنْك ، وفرق بينهما ثلاثة أيام ؛ فلمّا لم يجد عندهما من ذلك شيئا جمعهما كما كانا .

---

(١) يقال : أحمدت فلاناً ، رضيت مذهبه .

١٧٨ — هارون الرشيد ومسلم بن الوليد*

كان هارونُ الرشيد يقتلُ أولادفاطمة وشيعتهم، وكان مسلمُ بن الوليد -صريعُ الغواني - قد رُمِى عنده بالتشيُّع ؛ فأمر بطلَبِه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ كاتبِ البرامكة ، فهرب منه .

ثم وُجِدَ هو ومسلمُ بن الوليد عند قَيْنَةٍ ببغداد ؛ فلما أُتِىَ بهما قيل له : ياأميرَ المؤمنين ؛ قد أُتِىَ بالرَّجلين. قال : أى الرجلين؟ قيل : أنس بن أبى شيخ ، ومسلم ابن الوليد . فقال : الحمد لله الذى أظْفَرَنى بهما . يا غلامُ ؛ أحْضِرْهما .

فلما دَخَلَا عليه نظر إلى مُسلم وقد تغيَّر لونه ، فرقّ له ، وقال : إيه يامسلم ! أنت القائل :

أنِسَ الهوى ببنى علىٍّ فى الحشا وَأراه يَطْمَحُ عَنْ بنى العباس

قال : بل أنا الذى أقولُ ـ يا أمير المؤمنين :

أنِس الهوى ببنى العمومة فى الحشا مستوحشاً من سائر الأنَاس[1]

وإذا تكاملتِ الفضائلُ كنتمُ أوْلَى بذلك يابنى العبـــــاس

فعجِب هارون الرشيد من سُرْعة بديهته ، وقال له بعض جلسائه : اسْتَبْقِه يا أمير المؤمنين ، فإنه من أشعرِ النَّاس ، وامتحنْه ، فسترى منه عجباً ! فقال له : قلْ شيئاً فى أنس . فقال : ياأمير المؤمنين ؛ أفرِخْ[2] رَوْعِى أفْرَخَ اللهُ رَوْعَكَ

---

* العقد الفريد : ١ — ٤٢٩ ، ديوان مسلم ٣٠١ (طبعة أوربا) .

(١) الأناس : الناس . (٢) أذهب روعى وفزعى .

يومَ الحاجة إلى ذلك ؛ فإنى لم أدْخل على الخليفة قط ، ثم أنشأ يقول :

تلمّظ[1] السيف من شوقٍ إلى أنس ... فالموتُ يلحظُ والأقدار تنتظرُ

فليس يبلغُ منـــــه ما يؤمِّلهُ ... حتى يُؤامِرَ فيه رأيك القدرُ

أمْضى من الموت؛ يَعْفُو عند قدْرَته ... وليس للموت عفوٌ حين يقتدر

فأجلسه هارون وراء ظهره ، لئلا يرى ما هم به ، حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له : أنشدنى أشعر شعرِ لك ، فلما فرغ من قصيدة قال: التى تقول فيها «الوحل» فإنى رويتُها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذى أوله :

أدِيرَا علىَّ الراحَ لا تَشْرَبَا قَبْلى ... ولا تَطْلُبا من عند قاتلتى ذحْلى[2]

حتى انتهى إلى قوله :

إذا ما عَلَتْ منـــا ذُؤابة شاربٍ ... تمشت بنا مَشْىَ المقيَّدِ فى الوحل

فضحك هارون ، وقال : عليك! أما رضيتَ أن قيدْته حتى يمشىَ فى الوحل! ثم أمر له بجائزة وخلى سبيله .

---

(١) أصل التلمظ تحريك اللسان فى الفم بعد الأكل ، كأنه يتتبع بقية الطعام بين أسنانه ، ويقال: تلمظت الحية : إذا أخرجت لسانها لتلمظ الأكل . (٢) الذحل : الثأر .

١٧٩ — شاعر باهلىّ فى حضرة الرشيد*

أوفد سعيد بن سالم على الرشيد شاعراً باهليا ، فأنشده قصيــدة حسنةً ، فاسْتَرَاب به[١] الرشيدُ، وقال : أسْمَعك مستحسناً، وأُكرمك مُتهماً! فإن كنتَ صاحبَ هذا الشعر فقل فى هذين ـ وأشار إلى الأمين والمأمون ، وكانا جالسين .

فقال : يا أمير المؤمنين ، حَمَلَنى على غير الجدَد[٢] هيبة الخلافة ، ووحشة الغُرْبة ، ورَوْعةُ المفاجأة ، وجلالةُ المقام ، وصعوبةُ البديهة ، وشرودُ القوافى على غير الروية ، فليُمهلنى أمير المؤمنين حتى يتألف نافر القول !

فقال الرشيد : لا عليك ألَّا تقولَ ، قد جعلتُ اعتذاركَ عوضَ امتحانك !

فقال : يا أمير المؤمنين ، نفّست[٣] الخناق ، وسهّلت مَيْدَان السباق ، ثم قال :

بنَيْتَ لعبد الله بن محمدٍ ذُرَا قُبّةِ الإسلامِ فاخضرّ عودها
هما طُنُباها[٤] بارك اللهُ فيهما وأنت أميرَ المؤمنين عَمُودُها

فقال الرشيد : بارك الله فيك ـ سلْ ، ولا تكن مسألتك دون إحسانك .

فقال : الْهُنيدَة[٥] يا أمير المؤمنين ! فأمر له بها وبخلعٍ نفيسة ، وصلةٍ جزيلة !

---

* زهر الآداب : ٤ ـ ١٠٣٠

(١) استراب به : رأى منه ما يريبه . (٢) الجدد : ما استوى من الأرض وأصحر ، والمراد هنا الأمر السهل . (٣) نفست : فرجت . (٤) الطنب : حبل الخباء . (٥) الهنيدة : اسم المائة من الإبل .

١٨٠ — أبَان بن عبد الحميد يمدحُ نَفْسَه*

قال العتّابى : كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكى أربعة آلاف ؛ ما بين شاعر وزائر ، وفينا فتى[1] يحدّثنا ونجتمع إليه ؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له ! فقال له : يا مولاى ؛ أخرجتنى من بين أبوى ، وزعمت أن لك صِلةً بالملوك ! فقد صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال . فإن رأيت أن تأذن لى فأنصرف إلى أبوىّ فعلت !

فاغرورقَتْ عينا الفتى ، ثم قال : ائتنى بدواةٍ وقرطاس ، فأتاه بهما فقعد ؛ فكتب رقعةً ، ثم عاد إلى مجلسه ، ثم قال للغلام : انصرف إلى وقت رجوعى إليك .

فبينا نحنُ كذلك إذ جاء رجلٌ يستأذِنُ على الفضل ، فقام إليه الفتى ، فقال : تُوَصِّلُ رقعتى هذه إلى الأمير ؟ قال : وما فى رقعتك ؟ قال : أمدح نفسى ، وأحث الأمير على قبولى ، قال : هذه حاجة لك دون الأمير ، فإن رأيت أن تعفينى فعلت ! قال : قد فعلت .

فعاد إلى مجلسه ، فخرج الحاجب فقام إليــه ، فقال له مثل مقالته الأولى

---

* الأوراق للصولى : ٤

(١) هو أبان بن عبد الحميد اللاحقى الذى نظم كليلة ودمنة شعراً . وقد أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار .

فاستظرفه الحاجب وقال : إن رجلا يمدح نفسه ، ولا يمدح الفضل عجيب !

فأخذ منه الرقعة ، ثم دخل فلوَّحها للفضل ، فقرأ منهـا سطرين وهو مستلق على فراشه ، ثم استوى قاعدا ، وتناول الرقعة فقرأها ، فلما فرغ قال للحاجب : أين صاحبُ الرقعة ؟ قال : أعزَّ الله الأمير؛ والله لا أعرفه لـكثرةِ مَنْ بالباب؛ فقال الفضل : أنا أعرفه لك الساعة ؛ ياغلام ! اصْعد القصر فناد أين مادح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ؛ فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا حذاء !

فلما مثل بيْن يدى الفضل ، قال له : أنت القائل ما فيها ؟ قال : نعم ! قال : أنشدنى ، فأنشأ الفتى يقول :

أنا مِنْ بُغْيَةِ[1] الأمير وكنزٌ ... من كنوزِ الأمير ذو أرباح

كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ ... ناصحٌ زائد على النُّصَّاح

شاعرٌ مُفْلِقٌ أخَفُّ من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح[2]

لى فى النحو فطنـــة وانتقاد ... أنا فيـــه قلادةٌ بوشاحِ

ثم أروى من ابن سيرين لِلعِلْـــم ... بقولٍ منور الإفصاح

ثم أروى من ابن سيرين للشعـــر ... وقول النَّسيب والأمداح

وطريفُ الحديث فى كل فن ... وبصيرٌ بترَّهاتِ المِلَاح

كم وكم قد خَبَأْتُ عندى حديثا ... هو عنـــد الملوك كالتفاح

---

(١) من بغيته : من مطالبه، يريد أن الأمير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيراً كثيراً، وقد عدد مزايا نفسه فى البيتين بعده . (٢) الشاعر المفلق : المبدع ، وأخف الريش وأدقه : مايكون تحت الجناح ، وأراد بالخفة خفة الروح .

فَبِمِثْلى تخلو الملوك وتَلْهو   وتناجى فى المشكل القدّاح

أيمنُ الناس طائرا يوم صيدٍ   لغــدوّ دُعيتُ أو لرَواحِ

أبصر الناس بالجواهر والخيــل وبالخُرّدِ الحسان الصِّباح

كل ذا قد جمعتُ والحمــد للـــه على أننى ظريف المزاح

لست بالناسك المشمِّر ثوبيـــه ولا الماجن الخليع الوَقّاح

إن رمى بى الأمير أصلحه اللـــه رِماحًا ثلمتُ حَدّ الرِّماحِ

ما أنا واهِنٍ ولامستكينٌ   لسوى أمرِ سَيِّدى ذى السّماح

حتى أتى على آخرها .

فقال له الفضل :

كاتب، حاسب، خطيب، أديب،   ناصح زائد على النصاح ؟ !

قال : نعم ! أصلح الله الأمير ؟ فقال الفضل : ياغلام ؛ الكتبَ التى وردت من فارس ! فأتى بها ، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها ، فجلس بين يدى الفضل يكتبُ ، فقال له الحاجب : اعتزل يَكُنْ خيرا لك ؟ فقال : ههنا الرأى أجمع ؛ بحيث الرغبة والرهبة .

فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل ، فكأنما شقّ عن قلبه ! فقال الفضل : ياغلام : بدرة ، بَدْرة ، بَدْرة[1] ، فقال الفتى للغلام : أعزّ الله الأمير ! دنانير أو دراهم ؟ قال : دراهم . قال : دنانير ياغلام !

فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها . قال الفتى : والله — أيها الأمير ، ما أنا بحمّال ، وما للحمل خلقت . فإن رأى الأمير أن

(١) البدرة : كيس فيه عشر آلاف .

يأمر بعضَ غلمانه بحَمْلها على أن الغلام لى ! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان ، فأشار الفتى إليه: مكانك! ثم قال : إن رأى الأمير ـ أيده الله أن يجعل الخيار إلىَّ فى الغلمان كما فعل بين البَدْرتين فعل . فقال : اختر ، فاختار من أحسنهم غلاما ، فقال : احمل ، فلما صارت البَدْرة على منكب الغلام بكى الفتى ؟ فاستفظع الفضل ذلك ، وقال : ويلك ! أستقلالا ؟ قال : لا ـ والله ـ أيدك الله ، ولقد أكثرت ، ولـكن أسفا أن الأرض توارى مثلك. قال الفضل : هذا أجود من الأول ، ياغلام زِدْه كسوة .

---

١٨١ — العتابى عند المأمون*

كان كلثوم العتّابى[1] واقفاً بباب المأمون، فجاءه يحيى بن أكثم، فقال له العتابى: إن رأيتَ أن تُعلِمَ أميرَ المؤمنين بمكانى ! قال : لستُ بحاجب ! قال : قد علمتُ ولكنك ذُو فَضل ، وذو الفضل معوَان ! قال : سلكتَ بى غيرَ طريقى ! قال : إن الله قد أتحفك بجاهٍ ونعمة منه، فهما مُقيمان عليك بالزيادة إن شكرتَ، وبالتغيير إن كَفرتَ! وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك، أدْعُوك لما فيه زيادةُ نعمتك وأنتَ تأبى ذلك ، ولكلٍّ شىءٍ زكاة ، وزكاة الجاه بذلُه للمستعين .

فدخل يحيى فأخبر المأمون بالخبر ، فأدخل عليه العتابى ، وفى المجلس إسحاق ابن إبراهيم الموصلى ، فأمره بالجلوس ، وأقبلَ يسأله عن أحواله وشأنه ، فيجيبه بلسان ناطق ، فاستظرفه المأمون ، وأخذ فى مُدَاعبته .

فظن الشيخ أنه قد استخفّ به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الإيناس[2] قبل الإبساس ، فاشتبه عليه قوله ، فنظر إلى إسحاق ، ثم قال : ألف دينار ، فأتى بها فوضعت بين يدى العتابى .

---

* المسعودى : ٢ — ٣٢٣

(١) كان العتابى من أرض جند قنسرين ، وسكن الرقة ، وكان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل ، وحسن النظم للكلام، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على مالم يكن لكثير من الناس فى عصر مثله.

(٢) الإيناس : ضد الإيحاش . والإبساس : الرفق بالناقة عند الحلب ، وهو أن يقال: بس بس ، وهو مثل يضرب فى المدارة عند الطلب .

ثم دعا إلى المعارضة ، وأغرى المأمونُ إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يعارضه فى كل باب يذكُره ويزيد عليه ؛ فعجب منه ، وهو لا يعلم أنه إسحاق ، ثم قال العتابى : أيأذنُ أميرُ المؤمنين فى مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه؟ فأذن له.

فقال العتابى : من أنتَ؟ وما اسمُك ! قال: أنا من الناس، واسمى: «كل بصل»!

فقال له العتابى : أمّا النسبةُ فقد عرِفتَ، وأما الاسم فمنكر ! وما «كل بصل» من الأسماء ! فقال له إسحاق : ما أقلَّ إنصافك ! وما «كلثوم» ؟ والبصل أطيب من الثوم !

قال العتابى : قاتلكَ الله ! ما رأيتُ كالرجل حلاوةً ، أفيأذن أمير المؤمنين فى صِلته بما وصلَنى به ؛ فقد ـ والله ـ غلَبنى !

فقال له المأمون : بل ذلك مُوفَّر عليك ، ونأمرُ له بمثله ، فانصرف إسحاق إلى منزله ، ونادَمَه بقيةَ يومِه .

١٨٢ — أبو تمام والأعرابي*

قال أبو تمام الطائي : خرجتُ يوماً إلى سُرَّ من رأى ، حين ولي الواثقُ ، فلقيني أعْرَابي وقد قربتُ منها ، فأردت أن أسألَه عن شيء من أخبارِ الناس بها ، فخاطبتُه ، فإذا أفصحُ الناسِ وأفطنُهم .

فقلتُ : مِمّن الرجلُ ؟ قال : من بني عامر. قلت : كيف علمُك بأمير المؤمنين؟ قال : قتلَ[1] أرضاً عالمُها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشْجَى[2] العاصية ، وقَمَع العادية ، وعدل في الرعيّة .

قلت : فما تقول في أحمد بن أبي دواد[3] ؟ قال : هضْبةٌ لا تُرام ، وجَنْدَلة[4] لا تُضَام ، تُشْحَذُ له المُدى ، وتُحبَلُ[5] له الأشراك ، وتُبَغَى له النوائلُ ، حتى إذا قيل : كأن قد ، وثب وثبةَ الذِّئبِ ، وخَتَل خَتْل[6] الضب .

قلت : فما تقول في محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الدانيَ شرُّه ، وقتل البعيدَ

---

* أخبار أبي تمام للصولي : ٨٩

(١) أصل القتل التذليل ، وهذا مثل معناه : أن الرجل نعالم بالأرض عند سلوكها يقتلها ويغلبها بعلمه ؛ يضرب في مدح العلم . (٢) أشجيته : أوقعته في حزن ، وقهرته . (٣) أحمد بن أبي دواد : كان فصيحاً مفوهاً ، شاعراً جواداً ممدحا ، رأساً في التجهم ، وهو الذي شغب على الإمام أحمد بن حنبل وأفتى بقتله ، وكان معتزلياً ، له القبول التام عند المأمون والمعتصم ، وهو أول من بدأ الخلفاء بالكلام؛ وكان بينه وبين ابن الزيات شحناء ومهاجاة. توفي بالبصرة سنة ٢٤٠ هـ .

(٤) الجندل : مايقل الرجل من الحجارة. وقيل : الحجر كله ؛ الواحدة جندلة .

(٥) حبل الصيد حبلا : أخذه وصاده بالحبالة أو نصبها له ، (٦) ختل . خدع.

ضَرُّه ، له كلَّ يوم صريعٌ لا يُرَى فيه أثَرُ ناب ، ولا نَدَبُ مخلب[١] .

قلت : فما تقول فى عمرو[٢] بن فرج ؟ قال : ضخمٌ لَهِمٌ[٣] ، مستعذبٌ للذّم .

قلت : فما تقول فى الفضل بن مرْوان ـ واستعذبتُ خطابَه ـ قال : ذاكَ رجلٌ نُشِر بعد ما قُبِرَ ، فعليه حياةُ الأحياء وخَفْتَةُ الموتى .

قلتُ : فما تقول فى أبى الوزير ؟ قال : كبشُ الزنادقةِ ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنح ورتع ، فإذا هزّه أمطر فأمرع .

قلت : فابنُ الخصيب ؟ قال : أكل أكْلَةَ نَهِم ، فذَرق ذَرْقَةَ بَشِم[٤] .

قلت : فما تقول فى إبراهيم أخيه ؟ قال : أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيّانَ يُبْعَثُون .

قلت : فما تقول فى ابن إسرائيل ؟ قال : لله دره ! أى قلقل[٥] هو ! غرس فى منابت الكرم ، حتى إذا اهتزّ لهم حصدوه .

قلت : فما تقول فى إبراهيم بن رَباح ؟ قال : أوْبَقَه[٦] كرمُه ، وأسلَمَه حَسَبُه ، وله معروفٌ لا يُسلِمه ، وربٌّ لا يَخْذُله ، وخليفة لا يظلمه .

قلت : فما تقول فى نجاح بن سلَمَة ؟ قال : لله درّه ! أى طالب وترٍ ومُدْرِك ثأر ! يتلهّب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلْسةٌ تزيل نِعمًا ، وتحِل نِقمًا .

---

(١) الندب : جمع ندبه ، وهى أثر الجرح الباقى على الجلد . (٢) عمرو بن فرج : كان من علية الكتاب ، وسخط عليه المتوكل سنة ٢٣٣ هـ . (٣) اللهم : الرغيب الرأى ، الجواد ، العظيم الكفاية . (٤) البشم : التخمة. (٥) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك.
(٦) أوبقه : ذلله وأهلكه .

قلت : يا أعرابى ؛ أين منزلك ؟ قال : اللهم غفراً ، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركنى الرقادُ رقدتُ !

قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلِق وجهى بمسألتهم ، أو ماسمعتَ قول هذا الفتى الطائى ، الذى قد ملأ الدنيا شعرُه :

وما أُبَالى ـ وخيرُ القولِ أَصْدَقُه ـ   حقنتَ لى ماءوجهى أوحقنت دَمِى

قلت : فإنى الطائى قائل هذا الشعر ! فدنا مبادراً فعانقنى ، وقال : لله أبوك ! ألستَ الذى يقول :

ماجود كفِّك إن جادتْ وإن بخلتْ   من ماء وجهى إذا أخْلَقْتَه عِوَض

قلت : نعم ، قال : أنت والله أشعر أهل الزمان .

فرجعتُ بالأعرابى معى إلى ابن أبى دواد ، وحدَّثتُه بحديثه ، فأدخله إلى الواثق ، فسأله عن خبره معى ، فأخبره به ؛ فأمر له بمال ، وأحسن إليه ، ووهب له أحمد بن أبى دواد ، فكان يقول: قد عظَّم الله بركتك علىَّ !

١٨٣ — امتحان شاعر*

كان صاعد[١] بين يدى المنصور بن أبى عامر ، فأُحْضِرَت إليه وردةٌ فى غير وقتها لم يستتم فتحُ ورقها ، فقال صاعدٌ مرتجلا :

أتتك أبا عامر وردةٌ ... يذكِّرُكَ المسكَ أنفاسها

كَعَذْراء أبصرها مُبْصِرٌ ... فغطَّتْ بأكمامها راسَها

فسرَّ بذلك المنصور ، وكان ابنُ العريف حاضراً فحسده، وقال لابن أبى عامر: هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين لنفسه بمصر ، وهما عندى على ظَهْرِ كتاب بخطه !

فقال له المنصور: أرِنيه . فخرج ابنُ العريف ، وركب ، وحرَّك دابته، حتى أتى مجلس ابن بدر وكان أحسنَ أهلِ زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودسّ فيها بيتى صاعد :

غدوت إلى قصر عباسة ... وقد جدَّل[٢] النوم حُرّاسها

فألفيتها وهى فى خدرها ... وقد صرّع[٣] السكر أُناسها

فقالت : أسارٍ على هَجْعَةٍ[٤] ... فقلت : بلى فرَمَتْ كاسَها

ومدّت يديها إلى وردةٍ ... يحاكى لك الطيبُ أنفاسَها

---

* نفح الطيب : ٢ — ٨٩

(١) هو أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى اللغوى ، وأصله من الموصل ، وهو من الوافدين إلى الأندلس، وكان شديد البديهة فى ادعاء الباطل، وكان مع ذلك عالماً. توفى سنة ٤١٧ هـ.

(٢) جدله : صرعه . (٣) صرع فلاناً : ضربه شديداً . (٤) الهجعة : طائفة من الليل.

كعذراء أبصرَها مبصر فغطّتْ بأكمامهـا رأسَها

فسار ابنُ العريف بها ، وعلّقها على ظهر كتاب بخطٍّ مصرى ، ومِدَاد أشقر ، ودخل بها على المنصور .

فلما رآها اشتدّ غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحانُ أخرجتهُ من البلاد ، ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان .

فلما أصبح وجّه إليه ، فأُحضر وأحضر جميع الندماء ، فدخل بهم إلى مجلس ، قد أعدّ فيه طبقاً عظيماً ، فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير. وَوُضع على السقائف لعب من ياسمين فى شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء ، قد ألقى فيها اللآلئ مثل الحصباء ، وفى البركة حية تسبح .

فلما دخل صاعد ورأى الطبق ، قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعدَ فيه معنا ، وإما أن تشقى به عندنا ، لأنه قد زعم أن كلّ ما تأتى به دعوى ، وقد وقفتُ من ذلك على حقيقة ؛ وهذا طَبَق ما توهمتُ أنه حضر بين يدى ملكٍ قبلى شكله ؛ فصِفه بجميع ما فيه ، فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هل غيرُ جدواك واكفُ[1] وهل غيرُ مَنْ عاداك فى الأرض خائف
يسوق إليك الدهرُ كلّ غريبةٍ وأعجبُ ما يلقاه عندك واصف
وشائع[2] نَوْر صاغها هامرُ الحيا[3] على حافتيها عَبْهر[4] ورفارف[5]
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهى الوصائف

---

(١) وكف : قطر . (٢) الوشيعة : كل لفيفة وجمعها وشائع . (٣) الحيا : المطر .
(٤) العبهر : الياسمين . (٥) الرفرف : الرف يوضع عليه طرائف البيت وجمعه رفارف .

كمِثْلِ الظباء المستكنة كُنسا ... تُظَلِّلُها بالياسمين السقائف
وأعجَبُ منها أنهنّ نوَاظِر ... إلى بركة ضُمّت إليها الطرائف
حصاها اللآلى ، سابحٌ فى عُبابها ... من الرقش مسمومُ الثعابين زاحف
ترى ما تراه العـــين فى جنباتها ... من الوحش حتى بينهنّ السلاحف

فاستُغرِبَتْ له يومئذ تلك البديهة فى مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه . وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة ، فيها جارية من النوار ، بمجاذيفَ من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية ، فقال للوقت :

وأعجبُ منها غادةٌ فى سفينة ... مكللة تصبو إليها المهاتف[1]
إذا راعها موجٌ من الماء تتّقى ... بسكّانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء رُبّانَ مركب ... تُصَرِّف فى يمنى يديه المجـــاذف
ولم ترَ عينى فى البلاد حديقة ... تُنَقِّلُها فى الراحتين الوصائف
ولا غرو أن ساقت معاليك روضةً ... وشتْها أزاهير الربا والزخارف
إذا قلتَ قولًا أو بدهت بديهـــة ... فكِلْنى له ، إنى لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار، ومائة ثوب، ورتّب له فى كل شهر ثلاثين ديناراً وألحقه بالندماء .

---

(١) فلانة يهتف بها : يذكر جمالها .

١٨٤ — والله ما ابتُليت بمثلكِ قطّ*

نزل بامرأةٍ رجلٌ من العرب، والمرأةُ من بنى عامر، فأكرمته وأحسنت قِراه[1]، فلما أراد الرحيلَ تمثّل ببيت يهجوها فيه :

لعمرك ما تَبْلَى سرابيلُ[2] عامرٍ ... من اللؤمِ مادامتْ عليها جلودها

فلما أنشده قالت لجاريتها : قولى له : ألم تُحسن إليك ، وتفعل ، وتفعل ؟ هل رأيت تقصيرا ؟ قال : لا . قالت : فما حملكَ على البيت؟ قال: جرى على لسانى .

فخرجت إليه جاريةٌ من بعض الأخْبِية ، فحدّثته حتى أَنِس واطمأن ، ثم قالت له : مِمّن أنتَ يابْنَ عمّ ؟ قال : رجل من تميم قالت : أتعرف الذى يقول:

تميم بطُرق اللؤم أهْدَى من القطا[3] ... ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضَلّت

أرى الليلَ يَجْلُوه النهارُ ولا أرى ... خلال[4] المخازى عن تميم تَجَلّت

قال : لا ، والله ، ما أنا من تميم . قالت : ما أقبح الكذب بأهله! فممّن أنت؟ قال : رجل من ضَبّة . قالت : أتعرف الذى يقول :

لقد زرقت عيناك يابْنَ مُعَكْبِرٍ ... كما كُلُّ ضَبّىّ من اللؤم أزرق

قال : لا ، والله ما أنا من بنى ضبة . قالت : فمن ؟ قال : من بنى عجل. قالت: أتعرف القائل :

أرى الناس يعطون الجزيل[5] وإنما ... عطاء بنى عجل ثلاثٌ وأربع

إذا مات عِجْلىٌّ بأرض فإنما ... يخطُّ له فيها ذراعٌ وإصبع

---

* طبقات الشافعية : ١ — ٢٦٨

(١) القرى : مايقدم للضيف. (٢) سرابيل : جمع سربال؛ وهو القميص، أو الدرع، أو كل مالبس . (٣) القطا : طائر . (٤) خلال : خصال . (٥) الجزيل : الكثير.

قال : لا ، والله ما أنا من بنى عِجْل . قالت : فمّن ؟ قال : من بنى عَبْس ، قالت : أتعرف القائل :

إذا عبسيّة ولدتْ غُلَامًا فبشِّرْها بلُؤمٍ[1] مستفاد

قال : لا ، والله ما أنا من بنى عبس . قالت : فمّن ؟ قال : من بنى نمير . قالت : أفتعرف القائل :

فغُضَّ الطّرْف إنك من نمير فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

قال : لا ، والله ما أنا من بنى نُمير . قالت : فمن ؟ قال : من بنى باهلة . قالت : أفتعرف القائل :

إذا نصّ[2] الكرامُ إلى المعالى تنحّى الباهلىّ عن الزحام

إذا ولدت حليلةُ[3] باهلىّ غلاما زيد فى عدد اللئام

قال : لا ، والله ما أنا من باهلة . قالت : فمن ؟ قال : من خزاعة . قالت : أفتعرف القائل :

إذا فخرتْ خُزاعةُ فى نَدِىّ[4] وجدنا فخرها شُرْبَ الخمور

وباعت كعبةَ الرحمن جهلا بزِقٍّ بئس مفتخَر الفُجور

قال : لا ، والله ما أنا من خزاعة . قالت : فمّن ؟ قال : من عَنَزَة . قالت : أفتعرف القائل :

ما كنت أخْشَى وإن كان الزمان لنا زمانَ سوء بأن تفتابنى عَنَزَهْ

فلستُ من وائل إن كنتُ ذا حذر ممّن يضلّ كما قد ضلّت الحرزَهْ[5]

---

(١) اللؤم : البخل . (٢) نص : رفع . (٣) حليلة : زوجة . (٤) ندى : الندى : مجلس القوم ومتحدثهم . (٥) الحرزة : خيار المال .

قال : لا ، والله ما أنا من عَنَزَة . قالت : فمن ؟ قال : من هَمْدان . قالت : أتعرف القائل :

إذا همدان دارت يوم حَرْب ... رَحاها فوق هامات[1] الرجال

رأيتهم يحثُّون المطــــايا ... سراعا هاربين من القتال

قال : لا ، والله ما أنا من هَمْدان . قالت : فمَن ؟ قال : من نَهْد . قالت : أتعرف القائل :

نَهْدٌ لئام إذا ما حلّ ضَيْفُهم ... سود وجوههم كالزِّفْت والقار

والمستغيث ـبنَهْدٍ عندَ كربته[2] ... كالمستجير من الرَّمْضَاءِ[3] بالنار

قال : لا ، والله ما أنا من نَهْد . قالت : فمن ؟ قال : من قُضَاعة . قالت : أفتعرف القائل :

لا يفخرنّ قُضاعيٌّ بأسرته ... فليس من يَمَنٍ محْضاً[4] ولا مُضَر

مُذَبْذَبين فلا قحطانُ والدهم ... ولا نزار فسيِّبهم إلى سقَرِ[5]

قال : لا ، والله ما أنا من قضاعة . قالت : فمن ؟ قال : من ذُهْل . قالت : أفتعرف القائل :

إن ذهلا لا يسعد الله ذُهْلا ... شرُّ جيلٍ يُظَلُّ تحت السماء

قال : لا ، والله ما أنا من ذهل . قالت : فمَن ؟ قال : من مزينة . قالت : أفتعرف القائل :

وهل مُزَينة إلا من قبيِّلة ... لا يُرْتجى كرمٌ فيها ولا دين

---

(١) هامات : جمع هامة : الرأس . (٢) كربته : الـكربة : الغم الذى يأخذ بالنفس .
(٣) الرمضاء : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره . والأرض رمضاء . (٤) محضا : خالصا .
(٥) سقر : النار .

قال : لا ، والله ما أنا من مزينة . قالت : فمّن ؟ قال : من النخع . قالت : أفتعرف القائل :

إذا النّخع اللئامُ عَدَوْا جميعا ... تدكدكت الجبالُ من الزحام
وما يُغنِى إذاصدقت فَتِيلا[١] ... ولا هي في الصميم من الكرام

قال : لا ، والله ما أنا من النّخع . قالت : فمّنْ ؟ قال : من لخم . قالت : أفتعرفُ القائل :

إذا ما احتبى قوم لفضلِ قديمهم ... تباعد فخرُ الجُودِ عن لخم أجمعا

قال : لا ، واللهّ ما أنا من لخم . قالت : فمّن ؟ قال : من كَلْب . قالت : أفَتعرفُ القائل :

فلاتقربَنْ كلبا ولا بابَ دارِها ... ولايطمعن سارٍ[٢] يرى ضوء نارها

قال : لا ، والله ما أنا من كلب . قالت : فمّن ؟ قال : من بنى سليم . قالت : أفتعرف القائل :

إذا ما سُليم جئتها فى مُلِمّة ... رجعتَ كما قد جئتَ خزْيانَ نادِما

قال : لا ، والله ما أنا من سُليم . قالت : فمّن ؟ قال : من الموالى . قالت : أفتعرف القائل :

ألا مَنْ أراد اللؤم والفحش والخنا[٣] ... فعند الموالى الجيـــدُ والكتفان

قال : لا ، والله ما أنا من الموالى . قلت : فمّن ؟ قال : رجل من ولدحام . قالت : أفتعرف القائل :

ولا تنكحوا أولاد حامٍ فإنهم ... مشاوِيهُ خلق اللهحاشا ابنَ أ كوَعِ

---

(١) فتيلا : الفتيل : مايكون فى شق النواة .
(٢) السارى : السائر بالليل . (٣) الخنا : الفحش .

قال : لا ، والله ما أنا من حام . قالت : فمَن ؟ قال: رجل من الشيطان الرجيم .
قالت : فعليكَ لعنةُ الله ، وعلى الشيطان الرجيم . أفتعرف الذى يقول :

ألا ياعبادَ الله هـــذا عدوُّكم وذا ابنُ عدوّ الله إبليس خاسئا[1]

قال: الله ! الله ! أقيلينى العَثْرة[2] ، فوالله ما ابتليت بمثلكِ قَطُّ .

---

(١) خاسئا : مطرودا . (٢) العثرة : الزلة والسقطة .

فهرس القصص

البـــــاب الأول

في القصص التي تشرح ما أثر عنهم من عادات وشمائل في الأسباب السائرة بينهم، وتبين ما انتهجوه في مواسمهم وأعيادهم، وأفراحهم وأعراسهم؛ مما يمثل حياتهم الاجتماعية أصدق تمثيل :

البــــاب الثانى

القصص التى تصف أحوال المرأة العربية ، وماتجرى عليه فى تربية أطفالها ، ومعاشرتها زوجها ، ومعاونتها له فى الحياتين : الاجتماعية والمدنية ، بالسعى فى سبيل الرزق ، والاشتراك فى خوض معامع الحروب ، والأخذ بقسط من الثقافة الأدبية السائدة فى ذلك العهد :

البـــاب الثالث

القصص التي تمثل ذلاقة ألسنتهم ، وحكمة منطقهم ، وما ينضاف إلى ذلك من فصاحة اللفظ، وبلاغة المعنى، وجمال الأسلوب ، وحسن التصرف في الإبانة والتعبير:

الباب الرابع

فى القصص التى تسرد بارع ملحهم ، وروائع طرفهم ، فى جواباتهم المسكتة ، وتصرفاتهم الحكيمة ، وتخلصاتهم اللبقة، مما يدل على حضور الذهن، وسرعة البديهة، وشدة العارضة :

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(ن)

فهرس الأماكن

مراجع هذا الجزء

أخبار أبي تمام : للصولى

الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى

الأمالى : لأبى على القالى

الأمالى : للزجاجى

الأمالى : للشريف المرتضى

الأوراق : للصولى

البداية والنهاية : لابن كثير

بلاغات النساء : لأبى الفضل أحمد بن أبى طاهر

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : للألوسى

البيان والتبيين : للجاحظ

تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى

التنبيهات : للبكرى

ثمرات الأوراق : للحموى

جمهرة أشعار العرب : لأبى زيد الخطابى

جمهرة أمثال العرب : لأبى هلال العسكرى

خزانة الأدب : للبغدادى

ذيل الأمالى والنوادر : لأبى على القالى

ذيل زهرة الآداب : للحصرى

ذيل ثمرات الأوراق : للحموى
الروض الأنف : للسهيلى
زهر الآداب : للحصرى
سرح العيون : لابن نباتة المصرى
السيرة النبوية : لابن هشام
سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن عبد الحكم
شرح ديوان الحماسة : للمرصفى
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد
الشعر والشعراء : لابن قتيبة
صبح الأعشى : للقلقشندى
طبقات الشافعية : للسبكى
عصر المأمون : للدكتور فريد رفاعى
العقد الفريد : لابن عبد ربه
العقد الفريد للملك السعيد : لأبى سالم محمد بن أبى طلحة
عين الأدب والسياسة : لأبى حسن على بن هذيل
عيون الاخبار : لابن قتيبة
غرر الخصائص الواضحة : لأبى إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة : للتنوخى
فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبى
الكامل فى التاريخ : لابن الأثير
الكامل فى الأدب : للمبرد
مجمع الأمثال : للميدانى
المحاسن والأضداد : للجاحظ

المحاسن والمساوى : للبيهقى
محاضرات الأبرار : لابن عربى
لباب الآداب : لابن منقذ
مروج الذهب : للمسعودى
المستطرف فى كل فن مستظرف : للأبشيهى
مصارع العشاق : لأبى جعفر بن أحمد السراج
معجم الأدباء : لياقوت الحموى
معجم البلدان : لياقوت الحموى
معاهد التنصيص : لبدر الدين العباسى
مهذب الأغانى : للشيخ الخضرى
الموشح : للمرزبانى
نفح الطيب : للمقّرى
نهاية الأرب : للنويرى
وفيات الأعيان : لابن خلكان

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة : للزمخشرى
أشعار النساء : للمرزبانى
الأعلام : لخير الدين الزركلى
تاج العروس : للزبيدى
تاريخ آداب اللغة العربية : لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية : للخضرى
تبصير المنتبه : لابن حجر
دواوين الشعراء
رغبة الآمل من كتاب الكامل : للمرصفى
شرح ديوان الحماسة : للمرصفى
شرح الأمالى : للبكرى
طبقات الشعراء : لابن سلام
طبقات الشعراء : لابن قتيبة
الفاخر فى الأمثال : للضبى
فهرس خريطة الممالك الإسلامية : لأمين واصف
القاموس المحيط : للفيروز أبادى
لسان العرب : لابن منظور
مراصد الاطلاع : لابن عبد الحق البغدادى

المشتبه : للذهبي

المعارف : لابن قتيبة

معجم البلدان : لياقوت

وفيات الأعيان : لابن خلكان



